سلسلة نصوص تراثية للباحثين (٥٩٨)

الزيغ

معانيه والتحذير منه
من مصنفات التفسير والعقيدة والرقائق
وابن تيمية

د/ يوسف بن محمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة
ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

https://t.me/dralhoshan تليجرام

"والابتداء.
وقال غيرهم من أهل التأويل: الخطاب لأصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؛ وذلك أنهم لما قالوا: (لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها)؛ ظنوا أنهم لما أقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم يؤمنون إذا جاءتهم آية، يفعلون ذلك ويؤمنون على ما يقولون؛ فقال لهم: (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون)، على طرح لا، أي ما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون ويحتمل فيه وجها آخر غلى الإضمار، وكأنه قال: وما يشعركم فاعلموا أنها إذا جاءت لا يؤمنون على الوقف في قوله (وما يشعركم) ثم ابتدأ فقال: اعلموا أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وهذا كأنه أقرب.
ويحتمل وجها آخر: وهو أن أهل الإسلام قالوا: إنهم – وإن جاءتهم آية – لا يؤمنون؛ فقال عند ذلك: (وما يشعركم) خاطب به هؤلاء (أنها إذا جاءت لا يؤمنون).
والثاني: أنهم، وإن آمنوا بها، إذا جاءت؛ فنقلب أفئدتهم من بعد.
وعلى هذا التأويل أن خلق تقلب أفئدتهم وأبصارهم كقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، أي: خلق زيغ قلوبهم؛ فكذلك الأول.

وقوله – عز وجل –: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١١٠)
أي: نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالحجج والآيات، ويردونها؛ فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة. وقال أهل التأويل: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم)، أي: نحول بينهم وبين." (١)

"وقال ابن عباس – رضي الله عنه – قال: (سأريكم دار الفاسقين): جهنم، وأمكن أن يكون الخطاب للفسقة، سأريكم يا أهل الفسق دار الفاسقين.

وقوله – عز وجل –: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ... (١٤٦)
يخرج هذا على وجهين:
أحدهما: (سأصرف عن آياتي) أي: سأصرفهم عن قبولها وتصديقها؛ إذ لم يستقبلوها بالتعظيم لها، بل استهزءوا بها واستخفوا بها على علم منهم أنها آيات من الله وحجة.
والثاني: سأصرف عن وجود الطعن والقدح فيها والكيد لها، ثم إن كل واحد من هذين الوجهين يتوجه على وجهين:
قال الحسن: إن للكفر حدا إذا بلغ الكافر ذلك الحد يطبع عليه، فلا يقبل ولا يصدق آياته بعد ذلك.
والثاني: أنهم كانوا يتعنتون في آياته ويكابرون في ردها مع علمهم أنها آيات وحجج من الله، فإذا تعانتوا صرفهم عن قبولها وتصديقها، وهو كقوله تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)، وقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، أي: خلق منهم فعل

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٢١٦/٤

الزيغ وفعل الانصراف، وهكذا كل من يختار عداوة الله، فالله لا يختار له ولايته، ولكن يختار له ما اختار هو.
وأما قوله: (سأصرف) عن وجود الطعن فيها والقدح؛ وذلك أن الله – عز وجل – جعل للرسل والأنبياء أضدادا من كبراء الكفرة وعظمائهم، وكانوا يطعنون في الآيات، ويقدحون فيها، فأخبر أنه يصرفهم عن وجود الطعن فيها والقدح والكيد لها، أي: لا يجدون فيها مطعنا ولا قدحا.
والثاني: قوله: (سأصرف عن آياتي) الهلاك والإبطال، بل هم المهلكون والآيات هي الباقية، ثم اختلف في الآيات:." (١)

"يشبه أن يكون هذه النعمة؛ نعمة الدين من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، أو القرآن، أو ما كان في أمر الدين؛ لا يغير ذلك عليهم إلا بتغيير يكون منهم؛ كقوله: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)؛ وكقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم).
ويحتمل أن يكون ذلك في النعمة الدنياوية؛ من الصحة والسلامة والمال، لا يغير ذلك عليهم إلا بتغيير ذلك من أنفسهم.
فإن قيل: إن الأنبياء قد كانوا بلوا بشدائد وبلايا؛ ولا يحتمل أن يكون ذلك منهم البداية في التغيير.
قيل: أبدلت لهم مكان تلك النعمة خيرا منها فليس ذلك بتغيير؛ ولكن لما ذكرنا أنه أبدلت لهم مكان النعمة نعمة هي خير منها.
ثم ما كان من النعم؛ والأفضال من الطاعات لها حق التجدد والحدوث؛ يكون التغيير عليهم حالة اختيارهم؛ وتغييرهم على أنفسهم، وأما الأفعال التي لها حق البقاء؛ يكون التغيير من الله من بعد؛ وهو من نحو السلامة والصحة والسعة، والذي له حق التجدد والحدوث الطاعات [والمعاصي].
وقوله – عز وجل –: (وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له).
الآية ترد على المعتزلة قولهم؛ لأنهم يقولون: إنه لا يريد إلا ما هو أصلح لهم في الدين، وقد أخبر أنه إذا أراد بهم سوءا؛ (فلا مرد له. . .) الآية.
دل هذا أنه قد يريد بهم السوء إذا غيروا هم ما أنعم الله عليهم، أراد أن يغير عليهم والمعتزلة يقولون يملك الخلق دفع سوء إرادة الله بهم، وإذا أراد الخير يملكون رد ذلك، والله يقول: (فلا راد لفضله)، ولا مرد لسوئه.
وقوله – عز وجل –: (وما لهم من دونه من وال).
أي: ليس لهم في دفع العذاب الذي أراد بهم ولي يدفع عنهم أو نصير ينصرهم؛ كقوله (وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير).
* * *

قوله تعالى: (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال (١٢) ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال (١٣) له دعوة الحق والذين يدعون من دونه

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٣٨/٥

لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال (١٤) ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال (١٥)

وقوله – عز وجل –: (هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا).." (١)

"وقوله – عز وجل –: (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (١٢)

اختلف فيه: قال بعضهم: كذلك نسلك التكذيب والاستهزاء في قلوب المجرمين؛ لا يؤمنون به، يقول: من حكم الله أن يسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذبه، ومن حكمه أن يسلك التصديق في قلب من صدقه واختاره؛ كقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، وكقوله: (وما يضل به إلا الفاسقين).

وقال بعضهم: قوله: (كذلك) نجعل الكفر والتكذيب (في قلوب المجرمين) بكفرهم؛ كقوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه. . .) الآية، وقوله: (وجعلنا قلوبهم قاسية)، ونحوه.

ويحتمل قوله: (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) الحجج والآيات؛ ليكون تكذيبهم وردهم الآيات والحجج، وتكذيبهم تكذيب عناد ومكابرة، لا يؤمنون به.

وقوله: (كذلك نسلكه في قلوب المجرمين) أي: مثل الذي سلكنا في قلوب المؤمنين؛ من قبول الآيات والحجج، والتصديق لها؛ لما علم أنهم يختارون ذلك – نسلك في قلوب المجرمين؛ من تكذيب الآيات والحجج وردها؛ لما علم منهم الرد والتكذيب لها. هذا يحتمل، ويحتمل غير هذا مما ذكرنا. والله أعلم.

وقوله – عز وجل –: (وقد خلت سنة الأولين (١٣)

يحتمل قوله: (وقد خلت سنة الأولين) بالتكذيب، والرد، والمعاندة، والمكابرة، بعد قيام الحجج والآيات.

ويحتمل: (وقد خلت سنة الأولين): الهلاك والاستئصال عند مكابرة حجج الله، ومعاندتهم إياها.

وقال بعض أهل التأويل: (كذلك نسلكه) أي: نجعله؛ على ما ذكرنا، الكفر بالعذاب (في قلوب المجرمين)، (لا يؤمنون به) أي: لا يصدقون بالعذاب (وقد خلت سنة الأولين) بالتكذيب لرسلهم بالعذاب، فهؤلاء يستنون بسنتهم.

وقال أبو عوسجة: (كذلك نسلكه): أي: ندخله؛ يقال: السالك: الداخل، والسلوك: الدخول، وسلكت أدخلت، وتصديقه: قوله: (كذلك سلكناه).." (٢)

"الاعتزال، وما يلزمهم في قوله: (أغويتني) يلزم في قوله: لعنتني؛ لأن اللعن: هو الطرد؛ فإذا طرده عن رحمته – فقد خذله، فالطرد والإغواء والإضلال سواء؛ فيلزم في اللعن ما يلزمهم في الإغواء.

وقال أبو بكر الأصم: الإغواء واللعن من الله: شتم، لكن هذا بعيد، لا يجوز أن يضاف إلى الله الشتم أنه يشتم؛ لأن الشاتم والساب لآخر – في الشاهد بما يشتمه – مذموم عند الخلق؛ فلا يجوز أن يضاف إلى الله ما به يذم. وأصله: أن قوله: (رب

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٣١٧/٦

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٤٢٥/٦

بما أغويتني) يحتمل أنه خلق فعل الغواية منه أو أغواه؛ لما علم أنه يختار الغواية والضلال.

وقوله: (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين): كأنه يقول: رب بما أغويتني لأزيدن لهم في الغواية بما أغويهم، وقد ذكرنا هذا وأمثاله فيما تقدم.

فإن قيل: قوله: (أغويتني) قول إبليس؛ وهو كاذب بالإضافة إليه. قيل: لو كان فيما أضاف إليه الإغواء كاذبا لكذبه فيه، ورد عليه قوله، كما كذبه في قوله ورد عليه: أنا خير منه خلقتني من كذا وخلقته من كذا؛ حيث قال: (فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها)، فلما لم يرد عليه؛ ولم يكذبه فيما أضاف إليه حرف الإغواء دل أن إضافة الإغواء إليه، والإضلال حقيقة أو أن يكون قوله: (خلقتني من نار وخلقته من طين) إنما ذلك منه ذكر فضله وإحسانه؛ حيث أخبر أنه خلفه مما هو أفضل وأعظم مما خلق آدم؛ فيخرج ذلك منه مخرج الشكر. وأما قوله: (أغويتني) ليس على ذلك، فلا يحتمل ألا يكذبه، ولا يرد عليه قوله إذا كان كاذبا فيه؛ لأنه فعل شر أضافه إليه، إذا لم يكن منه الإغواء؛ لذلك اختلفا، أو لو كان قول إبليس - لعنه الله - كذبا فما تصنعون بقول نوح - عليه السلام - حيث قال: (إن كان الله يريد أن يغويكم)، وقول موسى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم).

ثم قوله: (رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين (٣٩) إلا عبادك منهم المخلصين (٤٠) يحتمل أن يكون منه عزم على ما ذكر، دون أن تفوه بذلك، فأخبر - عز وجل - عنه ما كان عزم؛ من الإغواء وغيره بالقول، وذلك جائز؛ يخبر عن العزم والقصد بالقول؛ كقوله: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) لا يحتمل أن يكون هذا القول الذي أخبر عنهم قولا منهم؛ لأنه لا أحد من المتصدقين يقول بمثل ذلك عند." (١)

"وهو ما قالوا: (قلوبنا في أكنة)، و (قلوبنا غلف)، ونحوه من الخيال؛ فلو جاز صرف هذه الآيات إلى ما ذكروا من الخيال لجاز لغيرهم صرف الكل إلى مثله؛ فهذا بعيد، ولكن عندنا أن إضافة ذلك إلى نفسه تدل على أن له فيه صنعا وفعلا، وهو أن يخذلهم باختيار ما اختاروا هم، أو أضاف ذلك إليه؛ لما خلق ظلمة الكفر في قلوبهم، وهذا معروف في الناس: أن من اعتقد الكفر يضيق صدره ويحرج قلبه؛ حتى لا يبصر غيره، وهو ليس يعتقد الكفر لئلا يبصر غيره ولا يهتدي إلى غيره، لكن لا يبصر غيره، فيدل هذا أنه يصير كذلك؛ لصنع له فيه. وكذلك من اعتقد الإيمان يبصر بنوره أشياء، وهو ليس يعتقد الإيمان ليبصر بنوره أشياء غابت عنه؛ دل أنه بغيره أدرك ذلك، وكذلك المعروف في الخلق أن من اعتقد عداوة آخر، يضيق صدره بذلك، وكذلك من اعتقد ولاية آخر ينشرح صدره له بأشياء.

فهذا كله يدل أن لغيره في ذلك فعلا، وهو ما ذكرنا من الخذلان والتوفيق، أو خلق ذلك منهم - والله أعلم - فيدخل فيما ذكرنا في قوله: (وجعلنا على قلوبهم أكنة. . .) الآية. وأصله أن ما ذكر من الحجاب والغلاف والأكنة إنما هو على العقوبة لهم لعنادهم ومكابرتهم الحق؛ لأنهم كلما ازدادوا عنادا وتمردا ازدادت قلوبهم ظلمة وعمى، وهو ما ذكر في غير آية؛ حيث قال: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. . .) الآية. وقال: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)، وقال: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون): أخبر أن ما ران على قلوبهم بكسبهم الذي كسبوا، وأزاغ قلوبهم باختيارهم الزيغ، وصرف قلوبهم باختيارهم

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٦/٤٤١

الانصراف؛ فعلى ذلك ما ذكر من جعل الحجاب والأكنة عليها بما كان منهم، والله أعلم.

وقوله – عز وجل –: (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا (٤٦)
قال بعضهم: الشيطان إذا ذكر الله ولى عنه أوأعرض، وفر منه، وهو ما ذكر: (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله. . .) الآية، وقال: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا. . .) الآية.
وقال بعضهم: (ولوا على أدبارهم نفورا): الإنس، أي: ولوا عما دعوهم إليه، وأقبلوا نحو أصنامهم التي عبدوها.
وقوله: (وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده) يحتمل: وإذا ذكرت دلالة وحدانية ربك." (١)

"والثاني: قوله: (بل لم نكن ندعو من قبل شيئا. . .) ليس على الإنكار والجحود، ولكن لما رأوا أن عبادتهم الأصنام لم تنفعهم يومئذ ولم تغنهم عما نزل بهم فقالوا عند ذلك: بل لم نكن ندعو شيئا من قبل، أي: الذي كنا نعبده في الدنيا كان باطلا، لم يك شيئا؛ حيث لم ينفعنا ذلك في هذا اليوم.
فإن كان تأويل الآية هذا، فهذا يدل على أن قوله: (أين ما كنتم تعبدون) بعدما دخلوا النار.
وإن كان تأويله الأول على الإنكار والجحود، فذلك يدل على أن ذلك القول قبل أن يدخلوا النار حين يشهد عليهم الجوارح، وذلك يقرر قوله: (ادخلوا أبواب جهنم)، والله تعالى أعلم.
وقوله – عز وجل –: (كذلك يضل الله الكافرين).
أي: هكذا يضل الله من علم منه اختيار الكفر والضلال يضله؛ وهو كقوله: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم)، أي: إذ علم منهم اختيار الانصراف صرفهم، وكذلك قوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)، أي: إذ علم منهم أنهم يختارون الزيغ أزاغهم، والله أعلم.

وقوله: (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥)
أي: ذلك جزيتكم من النار بما كنتم تسرون في الدنيا بالباطل؛ إذ هم كانوا كذلك في الدنيا يفرحون ويسرون على كونهم على الباطل.
وقيل: (تفرحون) أي: تبطرون، لكن هو على الفرح والرضاء بما اختاروا لأنفسهم.
وقوله: (وبما كنتم تمرحون).
أي: وبما كنتم تتكبرون، كذلك كانوا يسرون ويرضون بكونهم على الباطل، وينكرون بذلك على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين، والمرح: التكبر؛ وهو كقوله: (ولا تمش في الأرض مرحا)، أي: تكبرا.

وقوله: (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦).
قد ذكرناه فيما تقدم.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٥٥/٧

* * *

قوله تعالى: (فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون (٧٧) ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان." (١)

"بينهما في هذه الدنيا، دل أن هنالك دارا أخرى فيها يفرق بينهما ويميز.

وهذا التأويل لا يختص به الكافر؛ بل يعم الكل، والله أعلم.

والثالث: (إنكم لفي قول مختلف)، أي: قول متفرق، ومذهب متناقض؛ فإنهم كانوا يعبدون أشياء على هواهم، فإذا هووا شيئا آخر تركوا ذلك وعبدوا غيره، وكذلك يقولون قولا بلا حجة، ثم يرجعون إلى قول آخر، لا ثبات لهم على شيء، وهو كقوله تعالى؛ (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات).

والرابع: (إنكم لفي قول مختلف)، أي: في أمر الآخرة؛ لأن منهم من يدعي أن الآخرة لهم لو كانت، ومنهم من يدعي الشركة مع المسلمين، فرد الله تعالى عليهم بقوله: (يؤفك عنه من أفك)، وهو كقوله تعالى: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين. ما لكم كيف تحكمون)، وقال: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون).

والخامس: يحتمل أن مواعيدهم ومنازلهم مختلفة في الآخرة، والله أعلم.

وذكر بعض أهل التأويل: أن الناس يأتون مكة من البلدان المختلفة؛ ليتفحصوا عن أخبار رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ويسمعوا كلامه، فكان كفار مكة يصدونهم عنه، ويقول بعضهم: إنه مجنون، وبعضهم: إنه كذاب، وبعضهم: شاعر، وذلك قوله تعالى: (إنكم لفي قول مختلف).

وقوله – عز وجل –: (يؤفك عنه من أفك (٩) يحتمل وجوها:

أحدها: أي: يصرف عن الحق من صرف عن النظر والتفكر في العاقبة.

والثاني: صرفوا عما رجوا في الآخرة، صرفوا عن الحق في الدنيا؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام رجاء أن تقربهم عبادتها إلى الله تعالى وأنها شفعاؤهم عند الله تعالى، يقول تعالى: صرف عما رجا في الآخرة؛ لما صرف عن الحق في الدنيا، والله أعلم.

والثالث: يصرف من طمع في الآخرة الشركة مع المسلمين، أو ادعى الخلوص بما صرف في الدنيا عن الإيمان الذي به ينال الآخرة.

والرابع: (يؤفك عنه) أي: عن الحق (من أفك)، أي: صرف عن الحق من صرف؛ كقوله تعالى: (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم. . .) الآية، وقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم).

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٩/٥٢

وقوله تعالى: (قتل الخراصون (١٠) قال أبو بكر الأصم: الخراص: الذي يكذب على العمد.

ولكن عندنا: الخراص: الذي يكذب، ويقطع على الظن، ومنه يقال للذي يقدم." [1]

"القتال وزيادة نصرة، والله أعلم.

ثم قوله: (كأنهم بنيان مرصوص)، قال بعضهم: ضرب هذا المثل للثبات، يعني: إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الذي يكون ثابتا مستقرا لا ينتقض بأدنى شيء.

ومنهم من قال: ضرب هذا المثل؛ لأن يكون كلمتهم واحدة، ويعين بعضهم بعضا.

ويشبه أن يكون للأمرين جميعا؛ لأنهم إذا ثبتوا أعان بعضهم بعضا، وكانت كلمتهم واحدة، وإذا كانت كلمتهم واحدة، كان ذلك أدعى إلى الثبات وأقرب إليه؛ فلذلك قلنا: إنه يجوز أن يكون للأمرين جميعا، والله أعلم.

ثم المحبة تحتمل وجهين:

أحدهما: عن الخلق.

والثاني: الثناء عليهم بما يفعلون.

* * *

قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩).

وقوله - تعالى -: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم).

يحتمل وجهين:

أحدهما: تنبيه لهم، وإعلام عن معاملة اعتادوها فيما بينهم من غير أن يعلموا فيها أذى لموسى - عليه السلام - نحو أن قال في حق رسولنا - صلى الله عليه وسلم -: (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)؛ فيجوز أن يكونوا لا يعدون تلك المعاملة أذى لموسى - عليه السلام - ولا يعلمونها؛ فأخبرهم أنها تؤذيه؛ لينتهوا عن ذلك.

والثاني: أنه يجوز أن يكونوا علموا أن ذلك يؤذيه، ولكنهم عاندوه وكابروه، فيخبرهم عن كيف (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم)، وقد علموا أن حق رسل الملوك التعظيم والتبجيل؛ فكيف رسول رب العالمين؟! فأخبرهم أنه يؤذونه شكاية منهم

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٣٧٦/٩

إليهم.
ثم اختلفوا في الأذى:." (١)

"فقال بعضهم: إن موسى – عليه السلام – كان لا يكشف عن نفسه؛ فأذوه بأن قالوا: إن في بدنه آفة ومكروها.
وقال بعضهم: إن موسى – عليه السلام – ذهب مع هارون – عليه السلام – إلى جبل، فقبض هارون في ذلك الجبل، فآذوه بأن قالوا: قتل موسى أخاه.
ومنهم من قال: كانوا يؤذونه بألسنتهم حيث قالوا: (أرنا الله جهرة)، وبقولهم: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)، وبقولهم: (لن نصبر على طعام واحد)؛ ولكن الوجه أن لا يشار إلى شيء بعينه.
فإن كان التأويل هو الوجه الأول: أنهم آذوه من غير أن يعلموا أن ذلك يؤذيه أن لا يصرف إليه شيء من هذه الأوجه الثلاثة، وإن كان على الوجه الثاني فكذلك، وإن كان على الوجه الثالث جاز أن يصرف إليه أي الوجوه منها، والله أعلم.
ثم حق هذه في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخرج على وجهين:
أحدهما: أنه يجوز أن يكون بنو إسرائيل آذوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكره الله تعالى أمر موسى – عليه السلام – وإيذاءهم إياه؛ ليكون فيه تصبير لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وتسكين لقلبه.
أو يجوز أن يكون هذا تحذيرا لأصحابه عن أن يرتكبوا ما يخاف أن يكون فيه أذاه – عليه السلام – والله أعلم.
وقوله – عز وجل –: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) له معنيان:
أحدهما: أن يقول: (أزاغ الله قلوبهم)، يعني: خلق فعل الزيغ في قلوبهم يعني: خذلهم الله، ووكلهم إلى أنفسهم.
قالت المعتزلة محتجين علينا: إن الله تعالى قال: (وما يضل به إلا الفاسقين)، ذكر أنه إنما يضله بعدما فسق، وأنتم تقولون: إنه يضله وهو يهدي؟
قلنا: إن هذا تمويه علينا، وذلك أنا نقول: إن الله تعالى يضله لوقت اختياره الضلال، ويزيغه لوقت اختياره الزيغ، وإذا كان كذلك، لم يلزم ما قالت المعتزلة، مع أنهم يقولون: إن الله تعالى يضله بعد ضلالته بنفسه؛ عقوبة له، ويريد له هدى بعد اهتدائه ثوابا له.
ولا يستقيم كذلك؛ لأنا قد نراه في الشاهد يكفر بعد إيمان ويؤمن بعد كفره، وإذا كفر بعدما كان مؤمنا، وذلك وقت يريده الله تعالى هدي؛ ثوابا لإيمانه المتقدم؛ فإذا كفر فكأن هداية الله تعالى كانت سببا لكفره، أو إذا آمن بعدما كان كافرا وقت عقوبته بالكفر؛ فكأن عقوبة الله تعالى بالكفر على الكفر المتقدم كان سببا للإيمان، وهذا كلام مستقبح.
وقوله – عز وجل –: (والله لا يهدي القوم الفاسقين).." (٢)

"الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما: أنه لا بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلبا للشهادة وتحريضا على القتال.
وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالبا لذلك، لأن فيه رياء وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو. وإنما تكون المبارزة إذا

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٩/٦٢٩

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور المَاتُرِيدي ٩/٦٣٠

طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف. وقد مضى القول مستوفى في هذا في" البقرة" عند قوله تعالى: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة «١» [البقرة: ١٩٥].

[سورة الصف (٦١): آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه) لما ذكر أمر الجهاد بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، أي واذكر لقومك يا محمد هذه القصة. قوله تعالى: (يا قوم لم تؤذونني) وذلك حين رموه بالأدرة، حسب ما تقدم في آخر سورة" الأحزاب" «٢». ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون: إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور»

. ومن الأذى قولهم: اجعل لنا إلها كما لهم «٤» آلهة [الأعراف: ١٣٨]. وقولهم: فاذهب أنت وربك فقاتلا «٥» [المائدة: ٢٤]. وقولهم: إنك قتلت هارون. وقد تقدم «٦» هذا. (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) والرسول يحترم ويعظم. ودخلت قد على تعلمون للتأكيد، كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه. (فلما زاغوا) أي مالوا عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) أي أمالها عن الهدى. **وقيل: فلما زاغوا عن** الطاعة أزاغ الله قلوبهم عن الهداية.

---

(١). راجع ج ٢ ص (٣٦١)

(٢). راجع ج ١٤ ص (٢٥٠)

(٣). راجع ج ١٣ ص (٢١٠)

(٤). راجع ج ٧ ص (٢٧٣)

(٥). راجع ج ٦ ص (١٢٨)

(٦). راجع ج ٧ ص ٢٩٤." [1]

"**وقيل: فلما زاغوا عن** الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب. وقيل: أي لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

[سورة الصف (٦١): آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٨/٨٢

قوله تعالى: (وإذ قال عيسى ابن مريم) أي واذكر لهم هذه القصة أيضا. وقال: يا بني إسرائيل ولم يقل" يا قوم"كما قال موسى، لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه. (إني رسول الله إليكم) أي بالإنجيل. (مصدقا لما بين يدي من التوراة) لأن في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشيء يخالف التوراة فتنفروا عني. (ومبشرا برسول) مصدقا. ومبشرا نصب على الحال، والعامل فيها معنى الإرسال. وإليكم صلة الرسول. (يأتي من بعدي اسمه أحمد) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (من بعدي) بفتح الياء. وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش وأبي بكر عن عاصم. واختاره أبو حاتم لأنه اسم، مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت. الباقون بالإسكان. وقرى (من بعدي اسمه أحمد) بحذف الياء من اللفظ. وأحمد اسم نبينا صلى الله عليه وسلم. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى أحمد أي أحمد الحامدين لربه. والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا. وأما محمد فمنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدح ونحو ذلك. فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه. فهذا علم." [١]

"ذلك، أي لم يزل ولا يزال كذلك، فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذي أراد. ويحك! فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلا من عند الله) الرابعة- قوله تعالى:" (وأخر متشابهات) " لم تصرف" أخر" لأنها عدلت عن الألف واللام، لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر، فلما عدلت عن مجرى الألف واللام منعت الصرف. أبو عبيد: لم يصرفوها لأن واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة. وأنكر ذلك المبرد وقال: يجب على هذا ألا ينصرف غضاب وعطاش. الكسائي: لم تنصرف لأنها صفة. وأنكره المبرد أيضا وقال: إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان. سيبويه: لا يجوز أن تكون أخر معدولة عن الألف واللام، لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة، ألا ترى أن سحر «١» معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة [عن السحر]، وأمس في قول من قال: ذهب أمس معدولا عن الأمس، فلو كان أخر معدولا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة. الخامسة- قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ) الذين رفع بالابتداء، والخبر" فيتبعون ما تشابه منه". والزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار. ويقال: زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى:" **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم" «٢». وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران. وقال قتادة في تفسير قوله تعالى:" فأما الذين في قلوبهم زيغ": إن لم يكونوا الحرورية «٣» وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. قلت: قد مر هذا التفسير عن أبي أمامة مرفوعا، وحسبك. السادسة- قوله تعالى: (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك

---

(١). أي إذا أردت به سحر ليلتك. فإن نكرته صرفته.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨٣/١٨

(٢). راجع ج ١٨ ص ٨٢. [.....]

(٣). راجع الهامشة ٢ ج ٢ ص ٢٥١." [(١)]

"وميل عن الدين، أفكانوا يخافون وقد هدوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه، نحو" ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم «١» ". قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا فيزيغ الله قلوبهم، نحو" **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم" «٢» أي ثبتنا على هدايتك إذ هديتنا وألا نزيغ فنستحق أن تزيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبل، وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكرت وهى واهل الزيغ. وفي الموطأ عن أبي عبد الله الصنابحي أنه قال: قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة من قصار المفصل، ثم قام في الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية" ربنا لا تزغ قلوبنا" الآية. قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضرب من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردة. والقنوت جائز في المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفي كل صلاة أيضا إذا دهم المسلمين أمر عظيم يفزعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال: قلت لأم سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه" يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك". فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك! قال:" يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ". فتلا معاذ «٣» " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا". قال: حديث حسن. وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل العباد «٤». ولو لم تكن الإزاغة من قبله لما جاز أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله. وقرأ أبو واقد الجراح" لا تزغ قلوبنا" بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

---

(١). راجع ج ٥ ص ٢٧٠.

(٢). راجع ج ١٦ ص ٨٢.

(٣). هو أحد رجال سند هذا الحديث.

(٤). يعني قولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.." [(٢)]

"قوله تعالى: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال قتادة: سأمنعهم فهم كتابي. وقاله سفيان بن عيينة. وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها. وقيل: سأصرفهم عن نفعها، وذلك مجازاة على تكبرهم. نظيره:" **فلما زاغوا أزاغ** الله «١» قلوبهم". والآيات على هذا المعجزات أو الكتب المنزلة. وقيل: خلق السماوات والأرض. أي أصرفهم عن

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/٤

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٠/٤

الاعتبار بها. (يتكبرون) يرون أنهم أفضل الخلق. وهذا ظن باطل، فلهذا قال: (بغير الحق) فلا يتبعون نبيا ولا يصغون إليه لتكبرهم. قوله تعالى: (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) يعني هؤلاء المتكبرون. أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغي والضلال، أي الكفر يتخذونه دينا. ثم علل فقال: (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم. (وكانوا عنها غافلين) أي كانوا في تركهم تدبر الحق كالغافلين. ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يجازون به، كما يقال: ما أغفل فلان عما يراد به، وقرأ مالك بن دينار "وإن يروا" بضم الياء في الحرفين، أي يفعل ذلك بهم. وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة" سبيل الرشد" بضم الراء وإسكان الشين. وأهل الكوفة إلا عاصما" الرشد" بفتح الراء والشين. قال أبو عبيد: فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال: الرشد في الصلاح. والرشد في الدين. قال النحاس:" سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد مثل السخط والسخط، وكذا قال الكسائي. والصحيح عن أبي عمرو غير ما قال أبو عبيد. قال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا نصر بن علي عن أبيه عن أبي عمرو بن العلاء قال: إذا كان الرشد وسط الآية فهو مسكن، وإذا كان رأس الآية فهو محرك. قال النحاس: يعني برأس الآية نحو" وهيئ لنا من أمرنا رشدا «٢» ١٠" فهما عنده لغتان بمعنى واحد، إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات. ويقال: رشد يرشد، ورشد يرشد. وحكى سيبويه رشد يرشد. وحقيقة الرشد والرشد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة".

---

(١). راجع ج ١٨ ص ٨٢.

(٢). راجع ج ١٠ ص ٣٥٨.." [1]

"﴿وَ﴾ اذكر يَا مُحَمَّد ﴿إِذْ قَالَ﴾ قد قَالَ ﴿مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الْمُنَافِقين ﴿يَا قوم لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بِمَا تَقولُونَ عَليّ وَكَانُوا يَقُولُونَ إِنَّه آدر وَقد بَين قصَّته فِي سُورَة الْأَحْزَاب ﴿وَقد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زاغوا﴾ مالوا عَن الْحق وَالْهدى ﴿أزاغ الله﴾ أمال الله ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ عَن الْحق وَالْهدى **وَيُقَال فَلَمَّا زاغوا كذبُوا** مُوسَى أزاغ الله صرف الله قُلُوبهم عَن التَّوْحِيد **وَيُقَال فَلَمَّا زاغوا مالوا** عَن الْحق وَالْهدى أزاغ الله قُلُوبهم زَاد الله زيغ قُلُوبهم ﴿وَالله لاَ يهدي﴾ لَا يرشد إِلَّا دينه ﴿الْقَوْم الْفَاسِقين﴾ الْكَافرين من كَانَ فِي علم الله أَنه لَا يُؤمن." [2]

"(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ... (٤) صافين، فإنه أهْيَبُ في عين العدو، وأشد تقوية لقلب المقاتل. (كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ) محكم، من الرصاص وهو الآنك. حال من المستكن في الحال.

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ... (٥) أي: اذكر للمؤمنين ذلك الوقت.

(وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) والذنب مع العلم أشد. (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) صرفها عنه (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) لا يوفقهم؛ لأنهم أهل الرَّين الذين خلقوا للنار.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٧/٢٨٣

(٢) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، الفيروزآبادي ص/٤٦٩

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ... (٦) لم يقل يا قوم؛ تذكيراً لهم بأنهم أولاد إسرائيل الذي وصى بنيه أن لا يعبدوا إلا الله، لا أنهم ليسوا من قومه لأنه لا نسب له فيهم؛ لدخوله في ذرية إسرائيل كما تقدم في الأنعام. (إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي) أي: أنا على ما عليه سائر الرسل من تقدم ومن تأخر. هذا كقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ). وانتصاب (مُصَدِّقًا) و (وَمُبَشِّرًا) على الحال، والعامل فيه معنى الرسالة في [(رَسُولاً)] لا في (إِلَيْكُمْ)؛ لأن حروف الجرّ إذا وقعت صلة ليس فيها معنى الفعل. (اسْمُهُ أَحْمَدُ) قيل: كذا مكتوباً في الإنجيل. ولعل ذلك؛ لما فيه من الإشارة إلى أنه أكمل الرسل. روى البخاري عن جبير بن مطعم عن أبيه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: " إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد ".." (١)

"على قوله المنقول عنه قريبا من أن المحكمات ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وفرائضه وما يؤمن به، والمتشابه ما يقابله، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام.

وقيل المحكمات ما أطلع الله عباده على معناه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، فلا سبيل لأحد إلى معرفته نحو الخبر عن أشراط الساعة.

وقيل المحكم سائر القرآن، والمتشابه هي الحروف المقطعة في أوائل السور، وقيل إن المحكم ما لم يتكرر ألفاظه، والمتشابه ما تكررت ألفاظه، وقيل غير ذلك وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمنا في أول هذا البحث.

(فأما الذين في قلوبهم زيغ) أي ميل عن الحق كوفد نجران وغيرهم، والزيغ الميل ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار. ويقال زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وزاغ وزال ومال متقاربة لكن زاغ لا يقال إلا فيما كان من حق إلى باطل، وقال الراغب: الزيغ الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين.

(فيتبعون ما تشابه منه) أي يحيلون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم، وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق، وسبب النزول نصارى نجران فيتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلا على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبا شديدا ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء.

(ابتغاء الفتنة) أي طلبا منهم لفتنة الناس في دينهم والتلبس عليهم وإفساد ذوات بينهم لا تحريا للحق (وابتغاء تأويله) أي تفسيره على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة.." (٢)

"(ربنا لا تزغ قلوبنا) قال ابن كيسان سألوا أن لا يزيغوا فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) كأنهم لما سمعوا قوله تعالى (وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) قالوا ربنا لا تزغ قلوبنا باتباع المتشابه (بعد إذ هديتنا) إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات.

(وهب لنا من لدنك رحمة) أي كائنة من عندك، ومن لابتداء الغاية ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات

---

(١) غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني، الكوراني، أحمد بن إسماعيل ص/١٥٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٧٨/٢

أخر هذه أفصحها، وهو ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير رحمة للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقا للثبات على الحق أو مغفرة للذنوب (إنك أنت الوهاب) لكل مسؤول تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول.

وهذا العموم مفهوم من عدم ذكر الموهوب، فالتخصيص بموهوب مسؤول دون آخر تخصيص بلا مخصص، وفيه دليل على أن الهدى والضلال من الله وأنه متفضل بما ينعم به على عباده لا يجب عليه شيء لأنه وهاب.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم أن النبي – صلى الله عليه وسلم –كان يقول: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثم قرأ (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) (١) الآية " وقد ورد نحوه من طرق أخر.

---

(١) أحمد ٤/ ١٨٢، ابن ماجه مقدمة ١٣.." [١]

"(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض) قيل معناه سأمنعهم فهم كتابي أي أنزع عنهم فهم القرآن، قاله سفيان بن عيينة، وقال السدي: عن أن يتفكروا في آياتي، وقال ابن جريج عن التفكر في خلق السموات والأرض والآيات التي فيهما، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها والتصديق بما فيها وقيل عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقيل سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات التسع التي أعطاها الله لموسى. وقيل: الكتب المنزلة وقيل خلق العالم ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على جميع المعاني المذكورة، والتكبر: إظهار كبر النفس على غيرها فهو صفة ذم في حق العباد أي يفتعلون الكبر ويرون أنهم أفضل من غيرهم فلذلك قال (بغير الحق) أي يتكبرون بما ليس بحق أو متلبسين بغير الحق.

(وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) أي سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت.

(وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا) معطوفة على ما قبلها داخلة." [٢]

"بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٩١/٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٨/٥

قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)." (١)

"(وإذ قال موسى لقومه) أي أذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما (يا قوم لم تؤذونني) هذا مقول القول، أي لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو بالشتم والانتقاص ومن ذلك رميه بالأدرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب.

وجملة: (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) في محل نصب على الحال، وقد لتحقق العلم أو لتأكيده لا للتقريب ولا للتقليل، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى كيف تؤذونني مع علمكم بذلك؟ والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علما يقينيا.

(فلما زاغوا) عن الإيمان وأصروا على الزيغ واستمروا عليه (أزاغ الله قلوبهم) عن الهدى وصرفها عن قبول الحق، وقيل: صرفها عن الثواب قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أي بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عنه، جزاء بما ارتكبوا، أو المعنى لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم، أو فلما اختاروا الزيغ أزاغ الله قلوبهم، أي خذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق.

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها، قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى أنه لا يهدي كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم وإن من أسلم منهم لم يكن كافرا في علمه، أي محتوما عليه بالكفر بحيث يموت عليه.." (٢)

"﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: آية ٥] بأن ختم عليها وطبع ومنعها من الخير، وقال: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء: آية ١٥٥] أي: بسبب كفرهم، فالباء سببية، بينت أن سبب ذلك الطبع هو كفر سابق. وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ [الأنعام: آية ١١٠] أي: نقلبها كي لا تسمع الحق أو تبصره ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ لما سارعوا وبادروا إلى الكفر طمسنا على قلوبهم، كما بينه في قوله: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين: آية ١٤] فبين أن ذلك (الران) الذي غطى القلوب ومنعها من الفهم سببه ما كانوا يكسبونه من الشر والكفر والمعاصي - والعياذ بالله - ولذا قال تعالى هنا: ﴿صم وبكم في الظلمات﴾ قوله: ﴿في الظلمات﴾ كأنه يقول: (عمي)، (صم بكم عمي)، إلا أنه عبر عن عماهم بكونهم ﴿في الظلمات﴾؛ لأن الذي هو في الظلمات لا يبصر شيئا، و ﴿في الظلمات﴾: جمع ظلمة.

وقد بينا في هذه الدروس مرارا: أن من أصعب المسائل شبهة الجبر والقدر (١)، هي من أصعب المسائل، وأن القرآن أشار إليها في آيات؛ لأن كثيرا من الجهلة والملحدين يقولون: «إن كان الله هو الذي يشاء أفعال العبد، وهو الخالق لكل شيء - ومنه أفعال العبد - وأفعال العبد بمشيئته، فكيف يعاقب العبد المسكين على شيء شاءه الله، وخلقه الله؟ فالعبد إذن لا

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٩٧/١٤

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٠/١٤

يؤاخذ بشيء»!! فلأجل هذه الشبهة ضلت القدرية – والعياذ بالله – فقالوا: إن العبد يستقل بأعمال نفسه. زاعمين أن قدرة العبد مستقلة بأعماله بلا تأثير لقدرة الله فيها، ففروا

---

(١) انظر: ما استدل به كل فريق والجواب عنها في (القضاء والقدر) للمحمود (٢١٧ – ٢٤٣).." [١]

"هذا فالمعنى المانع الذي يمنعهم من الإيمان لو جاءتهم الآيات المقترحات: أنهم بادروا بتكذيب الرسل أول مرة عندما جاءهم عنادا وتعنتا، وبسبب ذلك الكفر والعناد قلبنا أبصارهم فأزغناها عن الحق، وقلبنا أفئدتهم فأزغناها عن الحق. والدليل على هذا: أن المبادرة بالعمل السيء سبب لطمس البصيرة والطبع والران على القلوب، كما بينه الله في آيات كثيرة، كقوله: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة: آية ١٠] وكقوله: ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ [المطففين: آية ١٤] وكقوله جل وعلا: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: آية ٥] فقوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ في مكان ﴿زاغوا﴾ في هذه الآية، وقوله: ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ في مكان قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ لأن المعاصي والكفر – والعياذ بالله – من سبب طمس القلوب، وذلك يقع في المؤمن، الإنسان المؤمن إذا أذنب – والعياذ بالله – ذنبا. نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا كان عاقلا ذكيا من الذين قال الله فيهم: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢٠١)﴾ [الأعراف: آية ٢٠١] وأناب إلى الله وتاب إليه زال ذلك السواد، وصار قلبه صقيلا؛ لأن القلب كالزجاجة، ونور الإيمان الذي يبصر." [٢]

"سمعهم وعلى أبصارهم﴾ [البقرة: آية ٧] وكما قال: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ [الكهف: آية ٥٧] وقال هنا: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ [الأنعام: آية ١١٠] وذلك جزاء وفاق وعدل؛ لأن المعاصي ترين على القلوب وتطمسها حتى لا تبصر حقا.

وهذا هو الأظهر في معنى قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم﴾ حتى تزيغ عن إدراك الحق، ونقلب ﴿أبصارهم﴾ حتى تزيغ عن إدارك الحق ﴿كما لم يؤمنوا﴾ لأجل أنهم لم يؤمنوا بهذا القرآن ﴿أول مرة﴾ جاءهم به الرسول، فكان كفرهم وزيغهم الأول سببا للطبع على قلوبهم، وتقليب قلوبهم وأبصارهم عن الحق. كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: آية ٥] ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء: آية ١٥٥] فالباء سببية. وكقوله: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥)﴾ [التوبة: آية ١٢٥] ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤)﴾ [المطففين: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ [الأنعام: آية ١١٠] ف ﴿كما﴾ من حروف التعليل، ومعنى نقلبها: لأجل أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، فذلك الكفر يجر إلى الخذلان وطمس البصيرة، وتقليب القلوب والأبصار ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.

وقوله: ﴿ونذرهم﴾ معناه: نتركهم.

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٢٢٣/١

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ١٢٨/٢

وقوله: ﴿في طغيانهم﴾: الطغيان في لغة العرب: مجاوزة الحد (١)، ومنه قوله: ﴿إنا لما طغى الماء﴾ [الحاقة: آية ١١] أي:

---

(١) انظر: المفردات (مادة: طغى) ص٥٢٠.." (١)

"غاية الإنصاف والعدالة؛ وفي هذه الآيات بين أنه طبع على قلب هذا الإنسان، قال في بعض الآيات: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: آية ٧] ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ [الأعراف: آية ١٠٠] ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا﴾ [الكهف: آية ٥٧] ومن جعل على قلبه الطبع والختم، وجعل في عينه الغشاوة، وفي أذنه الوقر، فهذا في حكم العاجز، فعلى هذا يكون في هذه الآيات شبهة للجبرية، فنحن نقول: إن القرآن العظيم بين أن هذا الطبع وهذا الختم والإزاغة النهائية عن الحق لا يأتي الإنسان إلا بسبب ذنب من ذنوبه، فهو جزاء وفاق على بعض الذنوب، وذلك ما دلت عليه آيات كثيرة أن الله (جل وعلا) يسبب للإنسان الضلالة بسبب ارتكاب الذنوب كما يسبب له الهدى بسبب الطاعات، فالعبد إذا سارع إلى الكفر، وتكذيب الرسل، وإلى ما يسخط الله عاقبه الله بأن زاده ضلالا فوق ضلاله، وظلاما على ظلامه، وجاءه هذا الطبع بسبب كفره وبغيه وتمرده على الله.

وقد بين (جل وعلا) هذا في آيات كثيرة كقوله: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء: آية ١٥٥] (الباء) في قوله: ﴿بكفرهم﴾ سببية، فبين أن هذا الطبع بسبب كفرهم الذي سارعوا إليه، وكقوله جل وعلا: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾ [المنافقون: آية ٣] وكقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: آية ٥] ما أزاغها بالطبع والختم حتى بادروا إلى الذنوب والكفر فعاقبهم الله وجزاهم جزاء وفاقا، وكقوله: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة: آية ١٠] وكقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥)﴾." (٢)

"آية ١١٠] على أظهر التفسيرات، أي: نقلب أفئدتهم وأبصارهم بالطبع والختم والغشاوة عليها وإزاغتها عن الحق ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ كما أنهم سارعوا إلى الكفر أول مرة عاقبناهم بعدم الهدى -والعياذ بالله - كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: آية ٥]، ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة: آية ١٠] ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥)﴾ [التوبة: آية ١٢٥] ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾ [الإسراء: آية ٨٢] ﴿وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ [المائدة: آية ٦٤] وهذا معنى قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك﴾ [الأعراف: آية ١٠١] أي: كذلك الطبع الذي طبع الله على قلوب هؤلاء الأمم الذين كذبوا رسلهم يطبع الله على قلوب الكافرين طبعا مانعا لهم من الإيمان لتكذيبهم السابق ومبادرتهم إلى الكفر والعياذ بالله.

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين (١٠٢)﴾ [الأعراف: آية ١٠٢].

(ما): نافية. وصيغة الجمع في (وجدنا) للتعظيم، و (وجد) هنا علمية. والمعنى: ﴿وما وجدنا﴾ ما علمنا. ومعلوم أن (وجد)

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٢/١٣٠

(٢) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٣٩/٤

في اللغة من أخوات (علم) وهذا أظهر الأقوال فيها هنا (١). ﴿وما وجدنا لأكثرهم﴾ أي: لأكثر الأمم السابقة. وقال بعض العلماء: لأكثر الخلق ما وجدنا لهم ﴿من عهد﴾ (من) دخلت على المفعول به، فالأصل: ما وجدنا لهم عهدا. ولكن (من) إذا دخلت على النكرة في

---

(١) انظر: الدر المصون (٥/ ٤٠٠).." [١]

"(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨) ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد (٩) إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار (١٠) كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب (١١) قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد (١٢)

* * *

(ربنا لا تزغ قلوبا بعد إذ هديتنا) هذه ضراعة يجب على كل مؤمن أن يتضرع بها إلى ربه. وقد قال بعض العلماء إنها من مقول الراسخين في العلم، فهم يقولون: (آمنا به كل من عند ربنا) ويقولون أيضا: (ربنا لا تزغ قلوبنا) وكأنهم إذ يعلنون الإيمان والإذعان يضرعون إلى الله تعالى أن يحفظه ويبقيه بإبعادهم عن الزيغ والاضطراب في العقيدة.

وقال بعض المفسرين: إن هذا كلام جديد، وهو تعليم من الله تعالى للمؤمنين ليدعوا بهذا الدعاء، والمعنى على الحالين: ربنا أي يا خالقنا والعليم بنفوسنا والقيوم على أمورنا (لا تزغ قلوبنا): لا تبتلينا بابتلاء واختبار تزيغ معه قلوبنا، وتضطرب معه نفوسنا، فتكون الإزاغة عن الطريق المستقيم والمنهاج الحق. والزيغ يبتدئ دائما بسيطرة الأهواء على النفوس، فتضطرب فتحيد، فيكتب الزيغ فتزيغ؛ وهذا كقوله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم. . .).

وروت أم سلمة رضي الله عنها أن أكثر دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " يا مقلب القلوب ثبت." [٢]

"يقول الفقير : لا شك أن قتل الأعداء من باب التسبيح لأنهم الذين قالوا اتخذوا الله ولدا وعبدوا معه الأصنام فكان في مقاتلتهم توسيع ساحة التنزيه ولذا بدأ الله تعالى في عنوان السورة بالتسبيح وأشار بلفظ الحكيم إلى أن القتال من باب الحكمة وأنه من باب دفع القضاء بالقضاء على ما يعرفه أهل الله وبلفظ العزيز إلى غلبة المؤمنين المقاتلين ثم إنهم كرهوا ذلك كأنهم لم يثقوا بوعد الله بالغلبة ووقعوا من حيث لم يحتسبوا في ورطة نسبة العجز إلى الله سبحانه ولذا تقاعدوا عن القتال وبهذا التقاعد حصلت الأذية له عليه السلام لأن مخالفة أولي الأمر أذية لهم فأشار الحق تعالى بقصة موسى إلى أن الرسول حق وأن الخروج عن طاعته فسق وأن الفاسق مغضوب الله تعالى لأن الهداية من باب الرحمة وعدمها من باب السخط والعياذ بالله تعالى من سخطه وغضبه وأليم عذابه وعقابه يا قوم﴾ أي كروه من.

فأصله يا قومي ولذا تكسر الميم ولولا تقدير الياء لقيل يا قوم بالضم لأنه حينئذ يكون مفردا معرفة فيبنى على الضم وهو

---

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٥٤/٤

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ١١١٧/٢

نداء بالرفق والشفقة كما هو شأن الأنبياء ومن يليهم ﴿لم تؤذوننى﴾ رامى رنجانيد مرا.

أي بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به والأذى ما يصل إلى الإنسان من ضرر إما في نفسه أو في جسمه أو قنياته دنيويا كان أو أخرويا قال في القاموس آذى فعل الأذى وصاحبه أذى وأذاة وأذية ولا تقل إيذاء انتهى فلفظ الإيذاء في أفواه العوام من الأغلاط وربما تراه في عبارات بعض المصنفين ﴿وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم﴾ جملة حالية مؤكدة لإنكار الأذية ونفي سببها وقد لتحقيق العلم لا للتوقع ولا للتقريب ولا للتقليل فإنهم قالوا إن قد إذا دخلت على الحال تكون للتحقيق وإذا دخلت على الاستقبال تكون للتقليل وصيغة المضارع للدلالة حلى استمرار العلم أي والحال إنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات إني مرسل من الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى طاعتي فإن تعظيمي تعظيموإطاعتي إطاعة له وفيه تسلية للنبي عليه السلام بأن الأذية قد كانت من الأمم السالفة أيضا لأنبيائهم والبلاء إذا عم خف وفي الحديث "رحمة الله على أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" وذلك إنه عليه السلام لما قسم غنائم الطائف قال بعض المنافقين هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فتغير وجهه الشريف وقال ذلك

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٤٩٣

﴿فلما زاغوا﴾ الزيغ الميل عن الاستقامة والتزايغ التمايل أي أصروا على الزيغ عن الحق الذي جاء به

٤٩٦

موسى واستمروا عليه ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال وقال الراغب في المفردات أي لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك وقال جعفر لما تركوا أوامر الخدمة نزع الله من قلوبهم نور الإيمان وجعل للشيطان إليهم طريقا فأزاغهم عن طريق الحق وأدخلهم في مسالك الباطل وقال الواسطي لما زاغزا عن القربة في العلم أزاغ الله قلوبهم في الخلقة وقال بعضهم لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة يقول الفقير لما زاغوا عن رسالة موسى ونبوته أزاغ الله قلوبهم عن ولايته وجمعيته فهم رأوا موسى على أنه موسى لا على أنه رسول نبي فحرموا من رؤية الحق تعالى ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة وموذن بعليته أي لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية لا هداية موصلة إلى ما يوصل إليها فإنها شاملة للكل والمراد جنس الفاسقين وهم داخلون في حكمهم دخولا أولياء ووصفهم بالفسق نظرا إلى قوله تعالى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين وقوله تعالى فلا تأس على القوم الفاسقين قال الإمام هذه الآية تدل على عظم أذى الرسول حتى أنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدي انتهى.

ويتبعه أذى العالمين الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر لأن العلماء ورثة الأنبياء فأذاهم في حكم أذاهم فكما أن الأنبياء والأولياء داعون إلى الله تعالى على بصيرة فكذلك رسل القلوب فإنهم يدعون القوى البشرية والطبيعية من الصفات البشرية السفلية إلى الأخلاق الروحانية العلوية ومن ظلمة الخلقية إلى نور الحقية فمن مال عن الحق وقبول الدعوة لعدم الاستعداد الذاتي ضل بالتوجه إلى الدنيا والإقبال عليها فأنى يجد الهداية إلى حضرة الحق سبحانه ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها وابن هنا وفي عزيز ابن الله بإثبات الألف

خطا لندرة وقوعه بين رب وعبد وذكر وأنثى يا بنى إسرائيل﴾ أي فرزندان يعقوب.

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٤٩٣." (١)

"فالكافي للمهمات لا يكون إلا من له كمالات غير متناهيات فلا يزيل قلق الحوائج واضطراب الأماني إلا الله سبحانه ، وبإزاء هذه الكرامات ورد في حق الكفار أضدادها ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ [التوبة : ١٢٧] ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ [البقرة : ١٠] ﴿ قلوبهم قاسية ﴾ [المائدة : ١٣] ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ [الكهف : ٥٧] ﴿ وختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : ٧] ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : ٢٤] ﴿ بل ران على قلوبهم ﴾ [المطففين : ١٤] ﴿ طبع الله على قلوبهم ﴾ [النحل : ١٠٨] فلأجل تلك الكرامات والهرب من أضدادها قال موسى ﴿ رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴾ .

الثامنة : في حقيقة شرح الصدر وذلك أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا إلا رغبة بأن يكون متعلق القلب الأهل والولد وتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم ، ولا رهبة بأن يكون خائفا من الأعداء والمنازعين فإن القوة البشرية لضعفها كينبوع صغير ، فإذا وزعت على جداول كثيرة ضعف الكل وضاعت وإذا انصب الكل في موضع واحد ظهر أثرها وقويت فائدتها ، فسأل موسى ربه أن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها ليكون متوجها بالكلية إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات وهذا معنى قوله ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ . أو نقول : إنه لما كلف بضبط الوحي في قوله ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ وبالمواظبة على خدمة الخالق في قوله ﴿ فاعبدني ﴾ فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين ، والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر فسأل موسى ربه قوة وافية بالطرفين فقال ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ أو نقول : معدن النور هو القلب ، والاشتغال بما سوى الله – من الزوجة والولد والصديق والعدو بل الجنة والنار – هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب إلى فضاء الصدر ، فإذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم في الدارين صغروا في عينه كالذباب والبق والبعوض فلا يدعوه رغبة إلى شيء مما يتعلق بالدنيا ولا رهبة من شيء من ذلك فيصير الكل عنده كالعدم فعند ذلك يزول الحجاب وينفسخ القلب بل الصدر للنور ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ .

التاسعة : لنضرب مثلا لذلك فنقول : البدن بالكلية كالمملكة ، والصدر كالقلعة ، والفؤاد كالصفة ، والقلب كالسرير ، والروح كالملك ، والعقل كالوزير ، والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة ، والغضب كالاسفهيد الذي يشتغل بالضرب ، والتأديب والحواس كالجواسيس ، وسائر القوى كالمحترفين والعملة والصناع . ثم إن الشيطان كملك مطاع وإنه يخاصم هذه البلدة والقلعة والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده ، فإذا أخرج الروح وزيره وهو العقل أخرج الشيطان في مقابله الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله تعالى والهوى إلى الشيطان . ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الخصم في مقابلته الشهوة ، فالفطنة توقفك على معايب الدنيا ، والشهوة تحسن لذات الدنيا . ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتوقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال « تفكر ساعة خيرمن عبادة سنة » فأخرج الشيطان

---

(١) تفسير روح البيان . موافق للمطبوع، ٤٠١/٩

في مقابلة الفكرة الغفلة ، ثم أخرج الروح الحلم والثبات فإن العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا ، فأخرج الشيطان بإزائه العجلة والسرعة فلهذا قال A." (١)

"المفردات في غريب القرآن ، ص : ٣٨٧

بزوري ، أو قصدت زوره ، نحو : وجهته ، ورجل زَائِرٌ ، وقوم زَوْرٌ ، نحو سافر وسفر ، وقد يقال :

رجل زَوْرٌ ، فيكون مصدرا موصوفا به نحو :

ضيف ، والزَّوَرُ : ميل في الزّور ، والْأَزْوَرُ : المائلُ الزّور ، وقوله : تَتَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ

[الكهف / ١٧] ، أي : تميل ، قرئ بتخفيف الزاي وتشديده «١» وقرئ : تَزْوَرُّ «٢». قال أبو الحسن : لا معنى لتزورّ هاهنا ، لأنّ الِازْوِرَارَ الانقباض ، يقال : تَزَاوَرَ عنه ، وازْوَرَّ عنه ، ورجلٌ أَزْوَرُ ، وقومٌ زَوَّرٌ ، وبئرٌ زَوْرَاءُ : مائلة الحفر وقيل لِلْكَذِبِ : زُورٌ ، لكونه مائلا عن جهته ، قال : ظُلْماً وَزُوراً [الفرقان / ٤] ، وقَوْلَ الزُّورِ [الحج / ٣٠] ، مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً [المجادلة / ٢] ، لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ [الفرقان / ٧٢] ، ويسمّى الصّنم زُوراً في قول الشاعر :

- ٢١٦

جاءوا بزوريهم وجئنا بالأصم

«٣» لكون ذلك كذبا وميلا عن الحقّ.

زيغ

الزَّيْغُ : الميل عن الاستقامة ، والتَّزَايُغُ : التمايل ، ورجل زَائِغٌ ، وقوم زَاغَةٌ ، وزائغون ، وزاغت الشمس ، وزَاغَ البصر ، وقال تعالى :

وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ [الأحزاب / ١٠] ، يصحّ أن يكون إشارة إلى ما يداخلهم من الخوف حتى اظلمّت أبصارهم ، ويصحّ أن يكون إشارة إلى ما قال : يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ [آل عمران / ١٣] ، وقال : ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى [النجم / ١٧] ، مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ

[التوبة / ١١٧] ، **فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ** اللَّهُ قُلُوبَهُمْ

[الصف / ٥] ، لمّا فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك.

زال

زَالَ الشيء يَزُولُ زَوَالًا : فارق طريقته جانحا عنه ، وقيل : أَزَلْتُهُ ، وزَوَّلْتُهُ ، قال : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا [فاطر / ٤١] ، وَلَئِنْ زالَتا [فاطر / ٤١] ، لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ [إبراهيم / ٤٦] ، والزَّوَالُ يقال في شيء قد كان ثابتا قبل ، فإن قيل : قد قالوا : زوال الشمس ، ومعلوم أن لا ثبات للشمس بوجه ، قيل : إنّ ذلك قالوه لاعتقادهم في الظّهيرة أنّ لها

---

(١) تفسير النيسابوري، ٥/٢٨١

(١) قرأ بالتشديد تزورّ ابن عامر ويعقوب ، وقرأ : تزّاور نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. وقرأ بالتخفيف تَتَزاوَرُ عاصم وحمزة والكسائي وخلف. انظر : الإتحاف ٢٨٨.

(٢) قرأ بالتشديد تزورّ ابن عامر ويعقوب ، وقرأ : تزّاور نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. وقرأ بالتخفيف تَتَزاوَرُ عاصم وحمزة والكسائي وخلف. انظر : الإتحاف ٢٨٨.

(٣) الرجز ينسب للأغلب العجلي ، وقيل : ليحيي بن منصور ، والأول أصح لوجود الأبيات في ديوان العجلي كما ذكره الجوهري.

وأول الرجز :

إن سرّك العزّ فجخجخ بجثم أهل البناة والعديد والكرم

جاؤوا بزوريهم وجئنا بالأصم شيخ لنا كالليث من باقي إرم

وهو في ديوانه ص ١٧٥ ، واللسان (زور) ، والمؤتلف والمختلف ص ٢٣.." [1]

"" صفحة رقم ٥٢٤ "

نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص . وعن بعضهم : فيه دليل على فضل القتال راجلا ؛ لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة . وقوله :) صفا كأنهم بنيان (حالان متداخلتان .

) وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين (

الصف : (٥) وإذ قال موسى . . . . .

) وإذ (منصوب بإضمار اذكر . أو : وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا) تؤذوننى (كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه ، وجحود آياته ، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه ، وعبادتهم البقر ، وطلبهم رؤية الله جهرة ، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه) وقد تعلمون (في موضع الحال ، أي : تؤذونني عالمين علما يقينا) إنى رسول الله إليكم (وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري ، لا أن تؤذوني وتستهينوا بي ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله ، علما بأن تعظيمه في تعظيم رسوله ، ولأن من آذاه كان وعيد الله لاحقا به) فلما زاغوا (عن الحق) أزاغ الله قلوبهم (بأن منع ألطافه عنهم) والله لا يهدى القوم الفاسقين (لا يلطف بهم." [2]

"قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

لما زاغوا بترك الحد أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد .

ويقال : لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصد والرد والبعد عن الود .

---

(١) مفردات القرآن . للراغب . نسخة محققة، ص/٣٨٧

(٢) تفسير الكشاف . موافق للمطبوع، ٤/٥٢٤

ويقال : لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم .

ويقال : لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط .

ويقال : لما زاغواعن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جآءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ .

بشر كل نبي قومه بنبينا A ، وأفرد الله – سبحانه– عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا A : فبين بذلك أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدا بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام .." (١)

"ذلك، أي لم يزل ولا يزال كذلك، فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد.

ويحك ! فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلا من عند الله) الرابعة – قوله تعالى: (وأخر متشابهات) لم تصرف " أخر " لانها عدلت عن الالف واللام، لان أصلها أن تكون صفة بالالف واللام كالكبر والصغر، فلما عدلت عن مجرى الالف واللام منعت الصرف.

أبو عبيد: لم يصرفوها لان واحدها لا بنصرف في معرفة ولا نكرة.

وأنكر ذلك المبرد وقال: يجب على هذا ألا ينصرف غضاب وعطاش.

الكسائي:

لم تنصرف لانها صفة.

وأنكره المبرد أيضا وقال: إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان.

سيبويه: لا يجوز أن تكون أخر معدولة عن الالف واللام، لانها لو كانت معدولة عن الالف واللام لكان معرفة، ألا ترى أن سحر (١) معرفة في جميع الاقاويل لما كانت معدولة [عن السحر]، وأمس في قول من قال: ذهب أمس معدولا عن الامس، فلو كان أخر معدولا أيضا عن الالف واللام لكان معرفة، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة.

الخامسة – قوله تعالى: (فأما الذين في قلوبهم زيغ) الذين رفع بالابتداء، والخبر " فيتبعون ما تشابه منه ".

والزيغ الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الابصار.

ويقال: زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى: " **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم " (٢).

وهذه الاية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الاشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: " فأما الذين في قلوبهم زيغ ": إن لم يكونوا الحرورية (٣) وأنواع الخوارج فلا أدري من هم.

قلت: قد مر هذا التفسير عن أبي أمامة مرفوعا، وحسبك.

السادسة – قوله تعالى: (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه: متبعو

---

(١) تفسير القشيري، ٧/٤٢١

المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلبا للتشكيك

---

(١) أي إذا أردت به سحر ليلتك.

فإن نكرته صرفته.

(٢) راجع ج ١٨ ص ٨٢.

(٣) راجع الهامشة ٢ ج ٢ ص ٢٥١ (*)."[١]

"وميل عن الدين، أفكانوا يخافون وقد هدوا أن ينقلهم الله إلى الفساد ؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الاعمال فيعجزوا عنه، نحو " ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم (١) ".

قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا فيزيغ الله قلوبهم، نحو " **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم " (٢) أي ثبتنا على هدايتك إذ هديتنا وألا نزيغ فنستحق أن تزيغ قلوبنا.

وقيل: هو منقطع مما قبل، وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التى ذكرت وهى وأهل الزيغ.

وفى الموطأ عن أبي عبد الله الصنابحى أنه قال: قدمت المدينة في خلافة أبى بكر الصديق فصليت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الاوليين بأم القرآن وسورة من قصار المفصل، ثم قام في الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الاية

" ربنا لا تزغ قلوبنا " الاية.

قال العلماء: قراءته بهذه الاية ضرب من القنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردة.

والقنوت جائز في المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا إذا دهم المسلمين أمر عظيم يفزعهم ويخافون منه على أنفسهم.

وروى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال: قلت لام سلمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثر دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك ؟ قالت: كان أكثر دعائه " يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ".

فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك ! قال: " يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ ".

فتلا معاذ (٣) " ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ".

قال: حديث حسن.

وهذه الاية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يضل العباد (٤).

---

(١) تفسير القرطبي، ١٣/٤

ولو لم تكن الازاغة من قبله لما جاز أن يدعي في دفع ما لا يجوز عليه فعله.

وقرأ أبو واقد الجراح " لا تزغ قلوبنا " بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى.

ومعنى الاية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

---

(١) راجع ج ٥ ص ٢٧٠.

(٢) راجع ج ١٦ ص ٨٢.

(٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث.

(٤) يعنى قولهم إن العباد هم الخالقون لافعالهم.

(*)."[١]

"قوله تعالى: (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال قتادة: سأمنعهم فهم كتابي.

وقاله سفيان بن عيينة.

وقيل: سأصرفهم عن الإيمان بها.

وقيل: سأصرفهم عن نفعها، وذلك مجازاة على تكبرهم.

نظيره: " **فلما زاغوا أزاغ** الله (١) قلوبهم ".

والآيات على هذا المعجزات أو الكتب المنزلة.

وقيل: خلق السماوات والأرض.

أي أصرفهم عن الاعتبار بها.

(يتكبرون) يرون أنهم أفضل الخلق.

وهذا ظن باطل، فلهذا قال: (بغير الحق) فلا يتبعون نبيا ولا يصغون إليه لتكبرهم.

قوله تعالى: (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا) يعني هؤلاء المتكبرون.

أخبر عنهم أنهم يتركون طريق الرشاد ويتبعون سبيل الغي والضلال، أي الكفر يتخذونه دينا.

ثم علل فقال: (ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا) أي ذلك الفعل الذي فعلته بهم بتكذيبهم.

(وكانوا عنها غافلين) أي كانوا في تركهم تدبر الحق كالغافلين.

ويحتمل أن يكونوا غافلين عما يجازون به، كما يقال: ما أغفل فلان عما يراد به، وقرأ مالك بن دينار " وإن يروا " بضم الياء في الحرفين، أي يفعل ذلك بهم.

وقرأ أهل المدينة وأهل البصرة " سبيل الرشد " بضم الراء وإسكان الشين.

---

(١) تفسير القرطبي، ٤/٢٠

وأهل الكوفة إلا عاصما " الرشد " بفتح الراء والشين.

قال أبو عبيد: فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد

فقال: الرشد في الصلاح.

والرشد في الدين.

قال النحاس: " سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد مثل السخط والسخط، وكذا قال الكسائي.

والصحيح عن أبي عمرو غير ما قال أبو عبيد.

قال إسماعيل بن إسحاق: حدثنا نصر بن علي عن أبيه عن أبي عمرو بن العلاء قال: إذا كان الرشد وسط الآية فهو مسكن، وإذا كان رأس الآية فهو محرك.

قال النحاس: يعني برأس الآية نحو " وهئ لنا من أمرنا رشدا (٢) " فهما عنده لغتان بمعنى واحد، إلا أنه فتح هذا لتتفق الآيات.

ويقال: رشد يرشد، ورشد يرشد.

وحكى سيبويه رشد يرشد.

وحقيقة الرشد والرشد في اللغة أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الخيبة ".

---

(١) راجع ج ١٨ ص ٨٢.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٥٨.

(*)".[١]

"الصف للمبارزة خلاف على قولين أحدهما: أنه لا بأس بذلك إرهابا للعدو، وطلبا للشهادة وتحريضا على القتال.

وقال أصحابنا: لا يبرز أحد طالبا لذلك، لان فيه رياء وخروجا إلى ما نهى الله عنه من لقاء العدو.

وإنما تكون المبارزة إذا طلبها الكافر، كما كانت في حروب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر وفي غزوة خيبر، وعليه درج السلف.

وقد مضى القول مستوفى في هذا في " البقرة " عند قوله تعالى: " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة (١) " [البقرة: ١٩٥].

قوله تعالى: وإذ قال موسى لقومه يقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أنى رسول الله **إليكم فلما زاغوآ أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفسقين ٥ قوله تعالى: (وإذ قال موسى لقومه) لما ذكر أمر الجهاد بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، أي واذكر لقومك يا محمد هذه القصة.

قوله تعالى: (يا قوم لم تؤذونني) وذلك حين رموه بالادرة، حسب ما تقدم في آخر سورة " الاحزاب " (٢).

ومن الاذى ما ذكر في قصة قارون: إنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور (٣).

---

(١) تفسير القرطبي، ٢٨٣/٧

ومن الاذى قولهم: " اجعل لنا إلها كما لهم (٤) آلهة " [الاعراف: ١٣٨].

وقولهم: " فاذهب أنت وربك فقاتلا " (٥) [المائدة: ٢٤].

وقولهم: إنك قتلت هارون.

وقد تقدم (٦) هذا.

(وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) والرسول يحترم ويعظم.

ودخلت " قد " على " تعلمون " للتأكيد، كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه.

(فلما زاغوا) أي مالوا عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) أي أمالها عن الهدى.

وقيل: " **فلما زاغوا** " عن الطاعة " أزاغ الله قلوبهم " عن الهداية.

---

(١) راجع ج ٢ ص ٣٦١ (٢) راجع ج ١٤ ص ٢٥٠ (٣) راجع ج ١٣ ص ٢١٠ (٤) راجع ج ٧ ص ٢٧٣ (٥) راجع ج ٦ ص ١٢ ٨ (٦) راجع ج ٧ ص ٢٩٤ (*)."[١]

"وقيل: " **فلما زاغوا** " عن الايمان " أزاغ الله قلوبهم " عن الثواب.

وقيل: أي لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول عليه السلام وطاعة الرب، خلق الله الضلالة في قلوبهم عقوبة لهم على فعلهم.

قوله تعالى: وإذ قال عيسى ابن مريم يبنى إسراءيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ٦ قوله تعالى: (وإذ قال عيسى بن مريم) أي واذكر لهم هذه القصة أيضا.

وقال: " يا بني إسرائيل " ولم يقل " يا قوم " كما قال موسى، لانه لا نسب له فيهم فيكونون قومه.

(إنى رسول الله إليكم) أي بالانجيل.

(مصدقا لما بين يدى من التوراة) لان في التوراة صفتي، وأني لم آتكم بشئ يخالف التوراة فتنفروا عني.

(ومبشرا برسول) مصدقا.

" ومبشرا " نصب على الحال، والعامل فيها معنى الارسال.

و " إليكم " صلة الرسول.

(يأتي من بعدى اسمه أحمد) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو " من بعدي " بفتح الياء.

وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش وأبي بكر عن عاصم.

واختاره أبو حاتم لانه اسم، مثل الكاف من بعدك، والتاء من قمت.

الباقون بالاسكان.

---

(١) تفسير القرطبي، ١٨/٨٢

وقرئ " من بعدي اسمه أحمد " بحذف الياء من اللفظ.

و " أحمد " اسم نبينا صلى الله عليه وسلم.

وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التي يراد بها التفضيل.

فمعنى " أحمد " أي أحمد الحامدين لربه.

والانبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدا.

وأما محمد فمنقول من صفة أيضا، وهي في معنى محمود، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار.

فالمحمد هو الذي حمد مرة بعد مرة.

كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة.

وكذلك الممدح ونحو ذلك.

فاسم محمد مطابق لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه.

فهذا علم." (١)

"@ ٣١٤ @ ^ (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحرٌ مبين (٦)) ^ ٥ - ! ٢ " زاغوا " ٢ ! عدلوا أو مالوا ولا يستعمل إلا في الميل عن الحق يريد بذلك الخوارج أو المنافقين أو عام . ٦ - ! ٢ " مبشرا برسول " ٢ ! بشرهم به ليؤمنوا به عند مجيؤه أو ليكون مجيؤه معجزة مصدقة لعيسى ! ٢ " أحمد " ٢ ! اسم للرسول [صلى الله عليه وسلم] كمحمد أو اشتق من اسم الله تعالى المحمود قال حسان : ٪ (وشق له من اسمه ليجله ٪ فذو العرش محمود وهذا محمد) ٪ ^ (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩) يأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليمٍ (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً في جناتٍ عدنٍ ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتح قريبٌ وبشر المؤمنين (١٣) يأيها الذين ءامنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من

". (٢)

---

(١) تفسير القرطبي، ١٨/٨٣

(٢) تفسير العز بن عبد السلام موافق للمطبوع، ص/١٢١٣

"والأبصار ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دينك " ومعناه ما ذكرنا ، وقال صلى الله عليه وسلم : " مَثَلُ الْقلبِ كَرِيشَةٍ بأرْضٍ فَلاَةٍ تُقلبُهَا الرِّياحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ ".

وقالت المعتزلةُ : الزيغُ لا يجوز أن يكون بفعل الله ؛ لقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] ، وهذا صريح في أن ابتداء الزيغ منهم.

والجوابُ : أن مذهبهم أن كل ما صح في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لُطْفاً ، وجب عليه ذلك وجوباً لو تركه لبطلت إلاهيته ، ولصار محتاجاً ، والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجةٍ إلى طلبه بالدعاء ؟ فإن قيل : فما الجواب عن قوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ؟ قلنا : لا يبعد أن الله تعالى يُزيغهم ابتداء ، فعند ذلك يزيغون ، ثم يترتب على الزيغ إزاغة أخرى سوى الأولى من الله تعالى ، ولا منافاةَ فيه.

وقوله : ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ ، أي : جعلتنا مهتدين ، وهذا صريحٌ أيضاً في أن حصولَ الاهتداءِ في القلب بتخليق اللهِ تعالى.

قوله : ﴿وَهَبْ لَنَا﴾ الهِبَة : العَطِيَّة ، حذفت فاؤها ، وكان حق عين المضارع منها كسر العين منه ، إلا أن ذلك منعه كونُ العين حرفَ حَلْقٍ ، فالكسرة مقدَّرة ، فلذلك اعتبِرَت تلك الكسرةُ المقدرةُ فحذفت لها الواو وهذا نحو : " يضع " و " يسع " ، لكون اللام حرف حلقٍ ، ويكون " هَبْ " فعل أمر بمعنى اعتقد ، فيتعدى لمفعولين.

كقوله : [المتقارب] ١٣٣٤ - ....

وَإلاَّ فَهَبْنِي أمْرَأ هالِكا

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤١

وحينئذ لا يتصرف.

ويقال أيضاً : وَهَبني الله فِداك ، أي : جعلني ، ولا يتصرف أيضاً عن الماضي بهذا المعنى.

٤٤

قوله : " مِنْ لَدُنْكَ " متعلق بـ " هَبْ " ، و " لَدُنْ " ظرف ، وهي لأول غاية زمان أو مكان ، أو غيرها من الذوات نحو : من لدن زيد ، فليست مرادفة لِ " عِنْد " ، بل قد تكون بمعناها ، وبعضهم يقيدها بظرف المكانِ ، وتضاف لصريح الزمانِ.

قال : [الراجز] ١٣٣٥ - تنتَهِضُ الرِّعْدَةُ فِي ظُهَيْرِي

مِن لَدُنِ الظُّهْرِ إلَى الْعُصَيْرِ

ولا يُقْطع عن الإضافة بحال ، وأكثر ما تضاف إلى المفردات ، وقد تُضاف إلى " أنْ " وَصِلَتها ؛ لأنهما بتأويل مفردٍ.

قال : [الطويل] ١٣٣٦ - وُلِيتَ فَلَمْ تَقْطَعْ لَدُنْ أنْ وَلِيتَنَا

قَرَابَةَ ذِي قُرْبَى وَلاَ حَقَّ مُسْلِمِ

أي : لدن ولايتك إيانا ، وقد تضاف إلى الجملة الاسمية.

كقوله : [الطويل] ١٣٣٧ - وَتَذْكُرُ نُعْمَاهُ لَدُنْ أنْتَ يَافِعٌ

إِلَى أَنْتَ ذُو فَوْدَيْنِ أبيضَ كَالنَّسْرِ

وقد تُضَافُ للفعلية.

كقوله : [الطويل] ١٣٣٨ - لزِمْنَا لَدُنْ سَالَمْتُمُونَا وِفَاقَكُمْ

فَلاَ يَكُ مِنْكُمْ لِلْخِلاَفِ جُنُوحُ

وقال آخرُ : [الطويل] ١٣٣٩ - صَرِيعُ غَوانٍ رَاقَهُنَّ وَرُقْنَهُ

لَدُنْ شَبَّ حَتَّى شَابَ سُودُ الذَّوَائِبِ

وفيها لغتان : الإعراب ، وهي لغة قَيْس ، وبها قَرَأ أبو بكر عن عاصم ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ [النساء : ٤٠] - بجر النون - ، وقوله : [الرجز]

٤٥

١٣٤٠ - ....

مَنْ لَدُنِ الظُّهْرِ إِلَى العُصَيْرِ

ولا تخلو من " من " غالباً ، قاله ابنُ جني ، ومن غير الغالب ما تقدم من قوله : ١٣٤١ - ....

لَدُنْ أنت يافع

....

وإن وقع بعدها لفظ " غدوة " خاصة - جاز نصبها ، ورفعها ، فالنصب على خبر "كان " أو التمييز والرفع على إضمار "كَانَ " التامة ، ولولا هذا التقدير لزم إفراد " لَدُن " عن الإضافة ، وقد تقدم أنه لا يجوز ، فمن نَصْب " غدوة " قوله : [الطويل] ١٣٤٢ - فَمَا زَالَ مُهْرِي مَزْجَرَ الْكَلْبِ مِنْهُمُ

لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى دَنَتْ لِغُرُوبِ

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٤١

" (١).

"سأصرفهم عن قبول آياتي والتَّصْدِيق بها ، عُوقبوا بحرمان الهدايةِ لعنادهم الحَقّ كقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥].

واحْتَجّ أهلُ السُّنَّةِ بهذه الآية على أنَّهُ تعالى قد يمنع الإيمان.

وقالت المعتزلة : لا يمكنُ حمل الآية على ذلك لوجوه : الأوّلُ : قال الجُبَّائِيُّ : لا يجوزُ أن يكون المراد منه أنَّه تعالى يصرفهم عن الإيمان ؛ لأن قوله : " سَأَصْرِفُ " يتناول المستقبلَ ، وقد بيَّن تعالى أنَّهُمْ كفروا وكذَّبُوا من قبل هذا الصرف ، لأنَّهُ وصفهم بكونهم : ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ﴾ وبأنَّهُم : ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ فدلَّت الآية على أنَّ الكُفْر قد حصل لهم في الزّمانِ الماضي ؛ فدلَّ على أن المراد من هذا الصرف ليس

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٩٧٩

الكفر بالله.

الثاني : أن قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ مذكورٌ على وجه العقوبة على التَّكَبُّر والكُفْر ، فلو كان المراد من هذا الصَّرْفِ هو كفرهم ، لكان معناه أنَّهُ تعالىخلق فيهم الكفر عقوبة لهم على إقدامهم على الكفر ، والعقوبة على فعل الكفر بمثل ذلك الفِعْل المعاقب عليه لا يجوز ؛ فثبت أنَّ المرادَ من هذا الصَّرفِ ليس هو الكفر.

الثالث : أنَّه تعالى لو صَرَفَهُمْ عن اليمان وصدهم عنه ، فكيف يمكن أن يقُول مع ذلك : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر : ٤٩] ﴿فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق : ٢٠] ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا اْ﴾ [الإسراء : ٩٤] فثبت أنَّ حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن ؛ فوجب حملها على وجوه أخرى : الأول : قال الكلبي وأبو مسلم الأصفهاني : إنَّ هذا الكلام تمام لما وعد اللَّهُ موسى به من إهلاك أعدائه ومعنى صرَفَهُمْ ، أهلكَهُمْ فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ، ولا يمنع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو تشبيه بقوله : ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوةِ والرِّسالة.

التَّأويلُ الثَّاني : قال الجُبَّائِيُّ : سأصرفُ المتكبرين عن نَيْل ما في آياتي من العزَّة والكرَامَة المُعَدَّيْن للأنبياء ، والمُؤمنين.

وإنَّمَا صرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم ، وذلك يَجْرِي مجرى العقوبة على كُفْرِهِم ، وتكبرهم على اللَّهِ.

التَّأويل الثالثُ : أنَّ من الآيات ما لا يُمْكِنُ الانتفاع بها إلاَّ بعد سبق الإيمان ، فإذا كَفَرُوا فقد صَيَّرُوا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات ، فحينئذٍ يصرفهم اللَّهُ عنها.

التأويل الرابع : أنَّ اللَّه عز وجل إذا علم من حال بعضهم أنَّهُ إذا شاهد تلك الآيات

٣١١

فإنَّه لا يستدلّ بها بل يستخف بها ، ولا يقومُ بحقِّها ، فإذا علم اللَّهُ ذلك منه ، صَحَّ أن يَصْرِفَهُ عنها.

التأويل الخامس : نقل عن الحسن أنَّه قال : إنَّ من الكفار من بالغ في كُفره ، وانتهى إلى الحد الذي إذا وصل إليه مات قلبه ، فالمراد من قوله : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ هؤلاء.

فصل المُرضادُ من الصَّرْفِ المَنْع ، والمُرَادُ بالآيات : الآياتُ التسع الَّتي أعطاها اللَّهُ موسى - عليه الصَّلاة والسَّلامُ - والأكثرون على أنَّ الآية عامَّة.

ومعنى " يَتَكَبَّرُونَ " : أي : يَرَوْنَ أنَّهُم أفضل الخَلْقِ ، وأن لهم من الحقِّ ما ليس لغيرهم ، وصفةُ التَّكبر لا تكون إلا للَّهِ تعالى.

وقال بعضهم : التَكَبر : إظهار كبر النَّفْسِ على غيرها ، والتَّكبر صِفَةُ ذمٍّ في جميع العبادِ وصفةُ مدحٍ في حقِّ الله تعالى ؛ لأنَّهُ يستحقُّ إظهار الكبر على ما سواه ؛ لأنَّ ذلك في حقه حَقٌّ ، وفي حق غيره باطل.

قال عليه الصَّلاةُ والسَّلام يقولُ اللَّهُ تعالى : الطِبْريَاءُ رِدائِي والعظمةُ إزَارِي ، فمنْ نَازَعنِي فيهما حَرَّمْتُ عليه الجَنَّة ".

قوله : " بِغَيْرِ الحَقِّ " فيه وجهان : أحدهما : أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ على أنَّهُ حالٌ ، أي : يَتَكَبَّرُونَ ملتبسين بغير الحقِّ.

والثاني : أنه متعلِّق بالفعلِ قبله ، أي : يتكبرون بما ليس بحق ، والتَّكبُّرُ بالحقِّ لا يكونُ إلاَّ لِلَّهِ تعالى خاصَّة.

قال بعضهم : وقد يكون إظْهَارُ الكبرِ على الغَيْرِ بالحقِّ ، فإنَّ للمحقّ أن يتكبَّرَ على المُبْطِلِ وفي الكلامِ المشهور : التَّكبر

على المتكبر صدقةٌ.

قوله : " وإن يَرَوْا الظَّاهرُ أنَّها بصريَّةٌ ، ويجوزُ أن تكون قلبية ، والثَّاني محذوفٌ لِفَهْمِ المعنى : كقول عنترة : [الكامل]

٢٥٧٤ - وَلَقَدْ نَزلْتِ فلا تَظُنِّي غَيْرَهُ

مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣١٠

أي : فلا تظني غيره واقعاً مني ، وكذا الآية الكريمة ، أي : وإن يَرَوْا هؤلاء

(١) ".

"قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الآية.

لما ذكر الجهاد ، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجاهدا في سبيل الله ، وحل العقاب بمن خالفهما ، أي : واذكر لقومك يا محمد هذه القصة.

قوله : ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾.

وذلك حين رموه بالأدرة ، كما تقدم في سورة الأحزاب.

ومن الأذى : ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدَّعي على موسى الفجور ، ومن الأذى قولهم : ﴿اجْعَلْ لَّنَآ إِلَـاهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، وقولهم : ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا اا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة : ١٢٤] ، وقولهم : أنت قتلت هارون.

قوله : ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

جملة حالية.

قال ابن الخطيب : و " قَدْ " معناه : التوكيد ، كأنه قال : وتعلمون علماً يقيناً ، لا شبه [لكم] فيه.

قوله : ﴿أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾.

والمعنى : أنَّ رسول الله يحترم يقيناً.

قوله : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اا﴾ ، أي : مالوا عن الحق ، ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي : أمالهم عن الهدى.

وقيل : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اا﴾ عن الطاعة ، ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهداية.

وقيل : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا اا﴾ عن الإيمان ، ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الثواب.

وقيل : لَمَّا تركُوا ما أمرُوا به من احترام الرسول - عليه الصلاة والسلام - وطاعة الرب ، " خلق " الله في قلوبهم الضلالة عقوبة لهم على فعلهم.

٥١

﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٤٣٦

قال الزجاجُ : " يعني من سبق في علمه أنه فاسق ".
قال ابنُ الخطيب : " وهذه الآية تدلّ على عظم إيذاء الرسول ، حتى إنه يؤدّي إلى الكفر ، وزيغ القلوب عن الهدى ".
قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.
أي اذكر لهم هذه القصة أيضاً ، وقال : ﴿يا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ولم يقل : " يا قوم "كما قال موسى ؛ لأنه لأنه لا نسب له فيهم ، فيكونون قومه ، وقوله : ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي : بالإنجيل.
قوله : " مُصدِّقاً " حال ، وكذلك : " مُبَشِّراً " والعامل فيه : " رسول " ؛ لأنه بمعنى المرسل.
قال الزمخشري : فإن قلت : بم انتصب : " مصدقاً ، ومبشراً " أبما في الرسول من معنى الإرسال أم بإليكم ؟ قلت : بمعنى : الإرسال ؛ لأن " إليكم " صلة للرسول ، فلا يجوز أن تعمل شيئاً لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها ، ولكن بما فيها من معنى الفعل ، فإذا وقعت صلات لم تتضمن معنى فعل بمن أين تعمل ؟ انتهى.
ثعني بقوله : صلات ، أنها متعلقة بـ " رسول " صلة له ، أي : متصب معناها به لا الصلة الصناعية.
قوله : " يأتي من بعدي " ، وقوله : " اسمه أحمد " ، جملتان في موضع جر نعتاً لرسول.
أو " اسْمُهُ أحمدُ " في موضع نصب على الحال من فاعل " يأتي ".
أو تكون الأولى نعتاً ، والثانية حالاً ، وكونهما حالين ضعيف ، لإتيانهما من النكرة وإن كان سيبويه يجوزه.
وقرأ نافع وابنكثير وأبو عمروك " مِنْ بَعدِيَ " - بفتح الياء - وهي قراءة السلمي ، وزرْ بن حبيش ، وأبو بكر عن عاصم ، واختاره أبو حاتم ؛ لأنه اسم ، مثل الكاف من " بعدك " ، والتاء من " قمت ".
٥٢
والباقون : قرءوا بالإسكان.
وقرىء : ﴿من بعد اسمه أحمد] ، فحذف الياء من اللفظ.
و " أحمدُ " اسم نبينا صلى الله عليه وسلم هو اسم علم.
يحتمل أن يكون من صفة ، وهي : " أفعل " التفضيل ، وهو الظَّاهر ، فمعنى " أحمد " أي : أحمدُ الحامدين لربِّه.
والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - كلهم حمادون لله ، ونبينا " أحْمَد " أكثرهم حمداً.
قال البغويُّ : والألف في " أحْمَد " ، للمبالغة في الحمد ، وله وجهان : أحدهما : أنه مبالغة من الفاعل ، أي : الأنبيء كلهم حمادون لله - عز وجل - ، وهو أكثر حمداً لله من غيره.
والثاني : أنه مبالغة في المفعول ، أي : الأنبياء كلهم محمودون ، لما فيهم من الخصال الحميدة ، وهو أكثر مبالغة ، أجمع للفضائل والمحاسن التي يحمد بها ، انتهى.
وعلى كلا الوجهين ، فمنعه من الصرف للعلمية والوزن الغالب ، إلاَّ أنَّهُ على الاحتمال الأول يمتنع معرفة وينصرف نكرة.
وعلى الثاني يمتنع تعريفاً وتنكيراً ؛ لأنه يخلف العلمية للصفة.
وإذا أنكر بعدكونه علماً جرى فيه خلاف سيبويه والأخفش ، وهي مسألة مشهورة بين النحاة.
وأنشد حسان - رضي الله عنه - يمدحه - عليه الصلاة والسلام - ويصرفه : [الكامل] ٤٧٦٤ - صَلَّى الإلَهُ ومَنْ يَحُفُّ

بِعرْشِهِ
والطَّيِّبُونَ على المُبَارَكِ أحْمَدِ
"

جزء : ١٩ رقم الصفحة : ٥١
أحمد " : بدل أو بيان " للمُبَارك ".
وأما " مُحَمَّد " فمنقول من صفة أيضاً ، وهو في معنى " محمود " ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار ، فـ " محمّد " هو الذي حمد مرة بعد أخرى.
قال القرطبي : "كما أن المكرَّم من الكرم مرة بعد أخرى ، وكذلك المدح ونحو ذلك ، فاسم " محمد " مطابق لمكعناه ، فالله – سبحانه وتعالى – سماه قبل أن يسمي به نفسه ،
٥٣
". (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :
﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ [١٤٦] .
﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض ﴾ أي : سأمنع فهم الحج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي ، قلوب المتكبرين عن طاعتي ، والمتكبرين على الناس ، أي : فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل ، كقوله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ، وقوله تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بغير الحق ﴾ إما صلة للفعل ، أي :
يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل ، أو حال من فاعله ، أي : يتكبرون غير محقين .
﴿ وإن يروا كل آية ﴾ أي : حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم .
﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ تكبرا عليها ﴿ وإن يروا سبيل الرشد ﴾ يعني طريق الحق والهدى والإستقامة واضحا ظاهرا ﴿ لا يتخذوه سبيلا ﴾ لمنافاته أهويتهم ﴿ وإن يروا سبيل الغي ﴾
أي : الضلال عن الحق والهلاك ﴿ يتخذوه سبيلا ﴾ أي : طريقا يميلون إليه ﴿ ذلك ﴾ أي : الصرف عن الآيات ، أو اتخاذهم الغي سبيلا .
﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي : لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يتعظون بها ، أو غافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل ، ثم بين وعيد المكذبين بقوله :." (٢)

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٩١٠
(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ [٥٧] .

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ﴾ كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها ، بأبلغ أسلوب : ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي : ما عمله من الكفر والمعاصي ، وصرف ما أنعم به ، إلى غير ما خلقت له ، فلم يتفكر في عاقبة ذلك : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴾ أي : جعلنا عليها حجبا وأغطية كثيرة ، كراهة أن يفقهوه ، أي : يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله : ﴿ وفي آذانهم وقرا ﴾ أي : وجعلنا فيها ثقلا يمنعهم من استماعه . والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم ، بأنهم مطبوع على قلوبهم . وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .

﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا ﴾ أي : فلا يكون منهم اهتداء البتة .." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينآ أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ [٢١] .

﴿ وبرزوا لله جميعا ﴾ أي : اجتمعوا لحسابه وقضائه يوم القيامة في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا ، أو برزوا من قبورهم ، أي : ظهروا لذلك : ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع : ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي : على الرسل وهم قادتهم – توبيخا لهم : ﴿ إنا كنا لكم تبعا ﴾ أي : تابعين ، مهما أمرتمونا ائتمرنا : ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي : بعض الإغناء : ﴿ قالوا ﴾ أي : المستكبرون : ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ إحالة لضلالهم وإضلالهم ، على مقامه سبحانه ، أو لو هدانا باهتدائنا ، ولكن زغنا فأزاغنا ، كما قال تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : من الآية ٥] ، ﴿ سواء علينآ أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي : منجى ومهرب من العذاب . ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ [سبأ : من الآية ٣١] .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها لآية : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ﴾ [غافر : ٤٧] .

ولا يخفى أن الآية في هذه السورة تصدق بالتخاصم في الموقف وفي النار ؛ لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم ، وهو صادق بما ذكرنا ، فلا قرينة فيها ؛ لكون ذلك في النار فقط ، كما ادعاه . وربما كان قوله : ﴿ وبرزوا ﴾ يدل للموقف بمعناه المتقدم . ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله : ﴿ عند ربهم ﴾ وقوله : ﴿ في النار ﴾ ويجوز أن يكون

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

مرة واحدة . والمراد بـ (النار) العذاب . ووقوفهم عند ربهم ، واليأس محيط بهم ، وجهنم ترقبهم ، عذاب وأي عذاب ! .." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ [٧]

استئناف معلل لما سبق من الحكم ، أو بيان وتأكيد له ، والختم على الشيء : الاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه . والمراد : إحداث حالة تجعلها - بسبب تماديهم في الغي ، وانهماكهم في التقليد ، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح - بحيث لا يؤثر فيها الإنذار ، ولا ينفذ فيها الحق أصلا .

قال أبو السعود : وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى ، لاستناد جميع الحوادث عندنا - من حيث الخلق - إليه سبحانه . وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم ، ووخامة عاقبتهم ، لكون أفعالهم - من حيث الكسب - مستندة إليهم ، فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر ، بل بطريق الترتيب - على ما اقترفوه من القبائح - كما يعرب عنه قوله تعالى : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥] ونحو ذلك ، يعني كقوله تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقوله : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل ، وذكروا في ذلك عدة من الأقاويل .

منها : أن القوم لما أعرضوا عن الحق ، وتمكن ذلك في قلوبهم ، حتى صار كالطبيعة لهم ، شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه .

ومنها : أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن ، أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها . كما في : سال به الوادي - إذا هلك - وطارت به العنقاء - إذا طالت غيبته - .

ومنها : أن أعراقهم لما رسخت في الكفر ، واستحكمت ، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر ، ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف ، عبر عن ذلك بالختم ، لأنه سد لطريق إيمانهم بالكلية . وفيه إشعار بترامي أمرهم في الغي والعناد .

ومنها : أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه . مثل قولهم : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ [فصلت : ٥] . تهكما بهم .

ومنها : أن ذلك في الآخرة ، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه . ويعضده قوله تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما ﴾ [الإسراء : ٩٧] . انتهى ملخصا

فائدة : قال الراغب : المراد بالقلب في كثير من الآيات العقل والمعرفة .." (٢)

---

(١) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

"القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ [١١٥]

﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ أي : يخالفه ويعاديه .

﴿ من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي : اتضح له الحق .

﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ أي : غير ما هم مستمرون عليه من عقد وعمل ، وهو الدين القيم .

﴿ نوله ما تولى ﴾ أي : نجعله واليا مرجحا ما تولاه من المشاقة ومتابعة غير سبيلهم فنزينه له تزين الكفر على الكفرة ، استدراجا له ليكون دليلا على شدة العقوبة في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ [القلم : ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] وقال سبحانه : ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

﴿ ونصله جهنم ﴾ أي : ندخله إياها .

﴿ وساءت مصيرا ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة ، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ [سورة الصافات : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ [الكهف : ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة ، في اجتماعهم ، من الخطأ ، تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم ، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها ، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته ، هذه الآية الكرمية ، بعد التروي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . انتهى .

وقال بعض مفسري الزيدية : الآية دلت على أن مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم كبيرة ، وقد تبلغ إلى الكفر ، ودلت على أن الجهل عذر ، لقوله : ﴿ من بعد ما تبين له الهدى ﴾ ودلت على أن مخالفة الإجماع كبيرة ، وأنه دليل كالكتاب والسنة لكن إنما يكون كبيرة إذا كان نقله قطعيا ، لا آحاديا . انتهى .

وقال المهايمي : في الآية دليل على حرمة مخالفة الإجماع ، لأنه عز وجل رتب الوعيد الشديد على مشاقة الرسول ومخالفة الإجماع ، فهو إما لحرمة أحدهما وهو باطل ، إذ يقبح أن يقال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد ، إذ لا دخل لأكل الخبز فيه ، أولحرمة الجمع بينهما وهو أيضا باطل ، لأن مشاقة الرسول حرام وإن لم يضم إليها غيرها ، أو لحرمة كل واحد منهما وهو المطلوب . انتهى .

ونقل الخفاجي قصة استدلال الشافعي من هذه الآية عن الإمام المزني قال : كنت عند الشافعي يوما ، فجاءه شيخ عليه

لباس صوف وبيده عصا ، فلما رآه ذا مهابة استوى جالسا ، وكان مستندا لأسطوانة ، فاستوى وسوى ثيابه ، فقال له : ما الحجة في دين الله ؟ قال : كتابه قال : وماذا ؟ قال : سنة نبيه ، قال وماذا ؟ قال : اتفاق الأمة ، قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو في كتاب الله ؟ فتدبر ساعة ساكتا ، فقال له الشيخ : أجلتك ثلاثة أيام بلياليهن ، فإن جئت بآية ، وإلا فاعتزل الناس .

فمكث ثلاثة أيام لا يخرج وخرج في اليوم الثالث بين الظهر والعصر ، وقد تغير لونه ، فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس ، وقال : حاجتي ، فقال : نعم ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، قال الله عز وجل : ﴿ ومن يشاقق الرسول ﴾ – إلى آخر الآية ، لم يصله جهنم ، على خلاف المؤمنين ، إلا واتباعهم فرض ، قال : صدقت ، وقام وذهب .

وروي عنه أنه قال : قرأت القرآن في يوم وفي كل ليلة ثلاث مرات ، حتى ظفرت بها .

وأورد الراغب عليه ، أنه لا حجة فيها على ما ذكره ، بأن كل موصوف علق به ، حكم فالأمر باتباعه يكون في مأخذ ذلك الوصف ، فإذا قيل اقتد بالمصلي فالمراد في صلاته ، فكذا سبيل المؤمنين ، يعني به سبيلهم في الإيمان ، لا غير ، فلا دلالة في الآية على اتباعهم في غيره .

ورد بأنه تخصيص بما يأباه الشرط الأول ، ثم إنه إذا كان مألوف الصائمين الاعتكاف ، تناول الأمر باتباعهم ذلك أيضا ، فكذلك يتناول ما هو مقتضى الإيمان فيما نحن فيه ، فسبيل المؤمنين ، وإن فسر بما هم عليه من الدين ، يعم الأصول والفروع ، الكل والبعض ، على أن الجزاء مرتب على كل من الأمرين المذكورين في الشرط ، لا على المجموع ، للقطع بأن مجرد مشاقة الرسول كافية في استحقاق الوعيد ، معنى على أن ترك اتباع سبيل المؤمنين اتباع لغير سبيل المؤمنين ، لأن المكلف لا يخلو من اتباع سبيل ، البتة . انتهى .

ورأيت للإمام تقي الدين ابن تيمية في كتابه " الفرقان بين الحق والباطل " مقالة بديعة في هذه الآية والإجماع ، أجال فيها جواد قلمه وأجاد ، وأطال وأطاب ، قال رحمه الله : ما يسميه ناس الفروع والشرع والفقه ، فهذا قد بينه الرسول أحسن بيان ، فما بقي مما أمر الله به أو نهى عنه أو حلله أو حرمه إلا بين ذلك ، وقد قاله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [المائدة : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل : ٨٩] ، وقال تعالى : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [الشورى : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ [التوبة : ١١٥] ، فقد بين للمسلمين جميع ما يتقونه ، كما قال : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، وقال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ [النساء : ٥٩] ، وهو الرد إلى كتاب الله ، أو إلى سنة الرسول ، بعد موته .

وقوله : ﴿ فإن تنازعتم ﴾ شرط ، والفعل نكرة في سياق الشرط ، فأي شيء تنازعوا فيه ردوه إلى الله والرسول ، ولو لم

يكن بيان الله والرسول فاصلا للنزاع لم يؤمروا بالرد إيه ، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : [(١)].
وعن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كلام نحو هذا ، والحاصل أن الكتاب والسنة وافيان بجميع أمور الدين ، وأما إجماع الأمة فهو في نفسه حق ، لا تجتمع الأمة على ضلالة ، وكذلك القياس الصحيح حق ، فإن الله بعث رسله بالعدل وأنزل الميزان مع الكتاب ، والميزان يتضمن العدل وما يعرف به العدل ، وقد فسروا إنزال ذلك بأن ألهم العباد معرفة ذلك ، والله ورسوله يسوي بين المتماثلين ويفرق بين المختلفين وهذا هو القياس الصحيح ، وقد ضرب الله في القرآن من كل مثل ، وبين بالقياس الصحيح وهي الأمثال المضروبة ، ما بينه من الحق ، لكن القياس الصحيح يطابق النص ، فإن الميزان يطابق الكتاب ، والله أمر نبيه أن يحكم بالعدل ، فهو أنزل الكتاب ، وإنما أنزل الكتاب بالعدل ، قال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بمآ أنزل الله ﴾ [المائدة : ٤٩] .
﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ [المائدة : ٤٢] .
وأما إجماع الأمة فهو حق ، لا تجتمع الأمة ، ولله الحمد ، على ضلالة ، كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة ، فقال تعالى : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر ، فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ، ولم تنه عن المنكر فيه ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، والوسط العدل الخيار وقد جعلهم الله شهداء على الناس وأقام شهادتهم مقام شهادة الرسول .
وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها خيرا ، فقال : [(٢)].
ثم مر عليه بجنازة فأثنوا عليها شرا ، فقال : [(٣)].
قالوا : يا رسول الله ! ما قولك وجبت ؟ قال : [(٤)].
فإذا كان الرب قد جعلهم شهداء لم يشهدوا بباطل ، فإذا شهدا أن الله أمر بشيء فقد أمر به ، وإذا شهدوا أن الله نهى عن شيء فقد نهى عنه ، ولو كان يشهدون بباطل أو خطأ لم يكونوا شهداء الله في الأرض .
وقال تعالى : ﴿ واتبع سبيل من أناب إلي ﴾ [لقمان : ١٥] ، والأمة منيبة إلى ربها فيجب اتباع سبيله . وقال تعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ [التوبة : ١٠٠] ، فرضي عمن اتبع السابقين إلى يوم القيامة ، فدل على أن متابعتهم عامل بما يرضي الله ، والله لا يرضى إلا بالحق لا بالباطل ، وقال تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ والشافعي ، – رضي الله عنه – ، لما جرد الكلام في أصول الفقه احتج بهذه الآية على الإجماع ، كما كان يسمع

---

(١) تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك
(٢) وجبت
(٣) وجبت
(٤) هذه الجنازة أثنيتم عليها خيرا ، فقلت : وجبت لها الجنة ، وهذه الجنازة أثنيتم عليها شرا ، فقلت : وجبت لها النار أنتم شهداء الله في الأرض

هو وغيره من مالك ، ذكر ذلك عن عمر بن عبد العزيز ، والآية دلت على أن متبع غير سبيل المؤمنين ، مستحق للوعيد كما أن مشاق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، مستحق للوعيد ، ومعلوم أن هذا الوصف يوجب الوعيد بمجرده ، فلو لم يكن الوصف الآخر يدخل في ذلك لكان لا فائدة في ذكره ، وهنا للناس ثلاثة أقوال :

قيل : اتباع غير سبيل المؤمنين هو بمجرده مخالفة الرسول المذكورة في الآية .

وقيل : بل مخالفة الرسول مستقلة بالذم ، فكذلك اتباع غير سبيلهم مستقل بالذم .

وقيل : بل اتباع غير سبيل المؤمنين يوجب الذم كما دلت عليه الآية .

لكن هذا لا يقتضي مفارقته للأول بل قد يكون مستلزما له ، فكل متابع غي سبيل المؤمنين هو نفس الأمر مشاق للرسول مبتغ غير سبيل المؤمنين ، وهذا كما في طاعة الله والرسول ، فإن طاعة الله واجبة وطاعة الرسول واجبة ، وكل واحد من معصية الله ومعصية الرسول موجب للذم ، وهما متلازمان ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وفي الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [1].

ثم قال تقي الدين رحمه الله (بعد ثلاثة أوراق) : ومن الناس من يقول : إنها لا تدل على مورد النزاع ، فإن الذم فيها لمن جمع الأمرين ، وهذا لا نزاع فيه ، أو لمن اتبع غير سبيل المؤمنين التي بها كانوا مؤمنين ، وهي متابعة الرسول ، وهذا لا نزاع فيه ، أو إن سبيل المؤمنين هو الاستدلال بالكتاب والسنة ، وهذا لا نزاع فيه ، فهذا ونحوه قول من يقول : لا تدل على محل النزاع ، وآخرون يقولون : بل تدل على وجوب اتباع المؤمنين مطلقا ، وتكلفوا لذلك ما تكلفوه ، كما قد عرف كلامهم ولم يجيبوا عن أسئلة أولئك بأجوبة شافية ، والقول الثالث الوسط : إنها تدل على وجوب اتباع سبيل المؤمنين وتحريم اتباع غير سبيلهم ، ولكن مع تحريم مشاقة الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، وهو يدل على ذم كل من هذا وهذا ، كما تقدم ، لكن لا ينفي تلازمهما ، كما ذكر في طاعة الله والرسول ، وحينئذ يقول : الذم إما أن يكون حقا لمشاقة الرسول فقط ، أو باتباع غير سبيلهم فقط ، أو أن يكون الذم لا يلحق بواحد منهما ، بل بهما إذا اجتمعا ، أو لحق الذم بكل منهما وإن انفرد عن الآخر ، أو بكل منهما لكونه مستلزما للآخر ، والأولان باطلان ، لأنه لو كان المؤثر بأحدهما فقط ، كان ذكر الآخر ضائعا لا فائدة فيه ، وكون الذم لا يلحق بواحد منهما باطل قطعا ، فإن مشاقة الرسول موجبة للوعيد مع قطع النظر عمن اتبعه ، ولحوق الذم بكل منها وإن انفرد عن الآخر لا تدل عليه الآية ، فإن الوعيد فها إنما هو على المجموع ، بقي القسم الآخر ، وهو أن كلا من الوصفين يقتضي الوعيد ، لأنه مستلزم للآخر ، كما يقال مثل ذلك في معصية الله والرسول ومخالفة القرآن والإسلام ، فيقال : من خالف القرآن والإسلام أو من خرج عن القرآن والإسلام فهو من أهل النار ، ومثله قوله : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ فإن الكفر بكل واد من هذه الأصول يستلزم الكفر بغيره ، فمن كفر بالله كفر بالجميع ، ومن كفر بالملائكة كفر بالكتب والرسل ، فكان كافرا بالله ، إذ كذب رسله وكتبه ، وكذلك إذا كفر باليوم الآخر كذب الكتب والرسل ، فكان كافرا ، وكذلك قوله : ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ [آل عمران : ٧١] ذمهم على الوصفين ،

---

(١) من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني

وكل منهما مقتض للذم ، وهما متلازمان ، ولهذا نهى عنهما جميعا في قوله : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ فإن من لبس الحق بالباطل فغطاه به ، فغلط به ، لزم أن يكتم الحق الذي تبين أن هذا باطل ، إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق ، فهكذا مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين ، من شاقه ، فقد اتبع غير سبيلهم ، وهذا ظاهر ، ومن اتبع غير سبيلهم فقد شاقه أيضا فإنه قد جعل له مدخلا في الوعيد ، فدل على أنه وصف مؤثر في الذم ، فمن خرج عن إجماعهم فقد اتبع غير سبيلهم قطعا ، والآية توجب ذم ذلك ، وإذا قيل : هي إنما ذمته مع مشاقة الرسول ، قلنا : لأنهما متلازمان ، وذلك لأن كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصا عن الرسول ، فالمخالف لهم مخالف للرسول .

كما أن المخالف للرسول مخالف لله ، ولكن هذا يقتضي أن كل ما أجمع عليه الرسول قد بينه الرسول ، وهذا هو الصواب ، فلا يوجد مسألة قط مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ، ويعلم الإجماع فيستدل به ، كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص ، وهو دليل ثان مع النص ، كالأمثال المضروبة في القرآن ، وكذلك الإجماع دليل آخر ، كما يقال : قد دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع فقد دل عليه الكتاب والسنة ، وما دل عليه القرآن فعن الرسول أخذ ، فالكتاب والسنة كلاهما مأخوذ عنه ، ولا توجد مسالة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص ، وقد كان بعض الناس يذكر فيها الإجماع بلا نص كالمضاربة ، وليس كذلك بل المضاربة كانت مشهورة بينهم في الجاهلية ، لا سيما قريش ، فإن الأغلب كان عليهم التجارة ، وكان أصحاب الأموال يدفعونها إلى العمال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد سافر بمال غير مضاربة مع أبي سفيان وغيره ، فلما جاء الإسلام أقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يسافرون بمال غيرهم مضاربة ، ولم ينه عن ذلك ، والسنة قوله وفعله وإقراره ، فلما أقرها كانت ثابتة بالسنة ، والأثر المشهور فيها عن عمر الذي رواه مالك في الموطأ ، ويعتمد عليه الفقهاء ، لما أرسل أبو موسى بمال أقرضه لا بنيه واتجرا فيه وربحا ، وطلب عمر أن يأخذ الربح كله للمسلمين لكونه خصهما بذلك دون سائر الجيش ، فقال له أحدهما : لو خسر المال لكان علينا ، فكيف يكون الربح وعلينا الضمان ؟ فقال له بعض الصحابة : اجعله مضاربة ، فجعله مضاربة

وإنما قال ذلك لأن المضاربة كانت معروفة بينهم ، والعهد بالرسول قريب ، لم يحدث بعده ، فعلم أنها كانت معروفة بينهم على عهد الرسول ، كما كانت الفلاحة وغيرها من الصناعات كالخياطة والخرازة ، وعلى هذا فالمسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص ، لكن كان النص عند غيرهم ، وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا من نص نقلوه عن الرسول ، مع قولهم بصحة القياس ، ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى ، كما نقل الأخبار ، ولكن استقرينا موارد الإجماع فوجدنا كلها منصوصة ، وكثر من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة ، كما أنه قد يحتج بقياس ، وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع ، كما يكون في المسألة نص خاص وقد استدل فيها بعموم ، كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ [الطلاق : ٤] وقال ابن مسعود : سورة النساء القصرى نزلت بعد الطولى

، أي : بعد البقرة .
وقوله : ﴿ أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ يقتضي انحصار الأجل في ذلك ، فلو أوجب عليها أن تعتد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها ، وعلي وابن عباس وغيرهما أدخلوها في عموم الآيتين ، وجاء النص الخاص في قصة سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود ، وكذلك ، لما تنازعوا في المفوضة إذا ما تزوجها هل لها مهر المثل ، أفتى ابن مسعود فيها برأيه أن لها مهر المثل ، ثم رووا حديث بروع بنت واشق بما يوافق ذلك ، وقد خالفه علي وزيد وغيرهما ، فقالوا : لا مهر لها ، فثبت أن بعض المجتهدين قد يفتي بعموم أو قياس ، ويكون في الحادثة نص خاص لم يعلمه فيوافقه ، ولا يعلم مسألة واحدة اتفقوا على أنه لا نص فيها ، بل عامة ما تنازعوا فيه كان بعضهم يحتج فيه بالنصوص وأولئك يحتجون بنص ، كالمتوفى عنها الحامل ، هؤلاء احتجوا بشمول الآيتين لها ، والآخرون قالوا : إنما تدخل في آية الحمل فقط ، وإن آية الشهور في غير الحامل ، كما أن آية القروء في غير الحامل ، وكذلك لما تنازعوا في الحرام احتج من جعله يمينا بقوله : ﴿ لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ [التحريم : ١ - ٢] .
وكذلك تنازعوا في المبتوتة هل لها نفقة أو سكنى ، احتج هؤلاء بحديث فاطمة وبأن السكنى التي في القرآن للرجعية ، وأولئك قالوا : بل هي لهما ، ودلالات النصوص قد تكون خفية ، فخص الله بفهمها بعض الناس ، كما قال علي : إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه ، وقد يكون النص بينا ويذهل المجتهد عنه ، كتيمم الجنب ، فإنه بين في القرآن في آيتين ، ولما احتج أبو موسى على ابن مسعود بذلك قال الحاضر : ما درى عبد الله ما يقول ، إلا أنه قال : لو أرخصنا لهم في هذا لأوشك أحدهم إذا وجد البرد أن يتيمم ، وقد قال ابن عباس وفاطمة بنت قيس وجابر : إن المطلقة في القرآن هي الرجعية بدليل قوله : ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾ [الطلاق : ١] وأي أمر يحدثه بعد الثلاثة ؟ وقد احتج طائفة على وجوب العمرة بقولهن : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، واحتج بهذه الآية من منع الفسخ ، وآخرون يقولون : إنما أمر بالإتمام فقط ، وكذلك أمر الشارع أن يتم ، وكذلك في الفسخ قالوا : من فسخ العمرة إلى غير حج فلم يتمها ، أما إذا فسخها ليحج من عامه فهذا قد أتى بما تم مما شرع فيه فإنه شرع صلى الله عليه وسلم أصحابه عام حجة الوداع ، وتنازعوا في الذي بيده عقدة النكاح وفي قوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ [النساء : ٤٣] ، ونحو ذلك مما ليس هذا موضع استقصائه ، وأما مسألة مجردة اتفقوا على أنه لا يستدل فيها بنص جلي ولا خفي ، فهذا ما أعرفه ، والجد ، لما قال أكثرهم : إنه أب ، واستدلوا على ذلك بالقرآن بقوله : ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ [الأعراف : ٢٧] ، وقال ابن عباس : لو كانت الجن تظن أن الإنس تسمى أبا الأب جدا لما قالت : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ [الجن : ٣] ، نقول : إنما هو أب ، لكن أب أبعد من أب .
وقد روي عن علي وزيد أنهما احتجا بقياس ، فنم ادعى إجماعهم على ترك العمل بالرأي والقياس مطلقا فقط غلط ، ومن ادعى أن المسائل ما لم يتكلم أحد منهم إلا بالرأي والقياس فقد غلط ، بل كان كل منهم يتلكم بحسب ما عنده من العلم ، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها ، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها ، والدلائل الصحيحة لا تتناقض ، لكن قد يخفى وجه اتفاقهما أو ضعف أحدهما على بعض العلماء ، وللصحابة فهم في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين ، كما أن لهم معرفة بأمور من السنة وأحوال الرسول لا يعرفها أكثر المتأخرين ، فإنهم شهدوا التنزيل وعاينوا الرسول ، وعرفوا من أقواله وأفعاله

وأحواله ما يستدلون به على مرادهم ، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماع أو قياس ، ومن قال من المتأخرين : إن الإجماع مستند معظم الشريعة ، فقد أخبر عن حاله ، فإنه لنقص معرفته بالكتاب والسنة احتاج إلى ذلك ، وهذا كقوله : إن أكثر الحوادث يحتاج فيها إلى القياس لعدم دلالة النصوص عليها ، فإنما هذا من قول من لا معرفة له بالكتاب والسنة ودلالتهما على الأحكام .

وقد قال الإمام أحمد – رضي الله عنه – : إنه ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو في نظيرها ، فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام ، حدثت جميع أجناس الأعمال ، فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأس في مسائل قليلة ، والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه ، إذ هم أهل الإجماع ، فلا إجماع قبلهم ، لكن لما جاء التابعون كتب عمر إلى شريح : اقض بما في كتاب الله ، فإن لم تجد ، فبما في سنة رسول الله ، فإن لم تجد ، فبما قضى به الصالحون قبلك ، وفي رواية : فبما أجمع عليه الناس .

فقدم عمر الكتاب ثم السنة : وكذلك ابن مسعود قال مثل ما قال عمر ، قدم الكتاب ثم السنة ، ثم الإجماع ، وكذلك ابن عباس كان يفتي بما في الكتاب ثم بما في السنة ثم بسنة أبي بكر وعمر ، لقوله : (١).

وهذه الآثار ثابتة عن عمر وابن مسعود وابن عباس ، وهم من أشهر الصحابة بالفتيا والقضاء ، وهذا هو الصواب ، ولكن طائفة من المتأخرين قالوا : يبدأ المجتهد ينظر أولا في الإجماع ، فإن وجده لم يلتفت إلى غيره ، وإن وجد نصا خالفه اعتقد أنه منسوخ لم يبلغه ، وقال بعضهم : الإجماع نسخه .

والصواب طريقة السلف ، وذلك لأن الإجماع إذا خالفه نص فلا بد أن يكون مع الإجماع نص معروف به أن ذاك منسوخ ، فأما أن يكون النص المحكم قد ضيعته الأمة ، وحفظت النص المنسوخ ، فهذا لا يوجد قط ، وهو نسبة الأمة إلى حفظ ما نهيت عن اتباعه ، وإضاعة ما أمرت باتباعه ، وهي معصومة عن ذلك ، ومعرفة الإجماع قد تتعذر كثيرا أو غالبا ، فمن الذي يحيط بأقوال المجتهدين ؟ بخلاف النصوص ، فإن معرفتها ممكنة متيسرة ، وهم إنما كانوا يقضون بالكتاب أولا ، لأن السنة لا تنسخ الكتاب ، فلا يكون في القرآن شيء منسوخ بالسنة ، بل إن كان فيه منسوخ ، كان في القرآن ناسخه ، فلا يقدم غير القرآن عليه ، ثم إذا لم يجد ذلك طلبه في السنة ، ولا يكون في السنة شيء منسوخ إلا والسنة نسخته ، لا ينسخ السنة إجماع ولا غيره ، ولا تعارض السنة بإجماع ، وأكثر ألفاظ الآثار ، فإن لم يجد فالطالب قد لا يجد مطلوبه في السنة ، مع أنها فيها ، وكذلك في القرآن ، فيجوز له إذا لم يجده في القرآن أن يطلبه في السنة ، وإذا كان في السنة لم يكن ما فيه السنة معارضا لما في القرآن ، وكذلك الإجماع الصحيح لا يعارض كتابا ولا سنة . انتهى كلامه قدس الله روحه .." (٢)

"وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى، كقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا

(١) اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر

(٢) محاسن التأويل (تفسير القاسمي)، /

يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] أي : وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، ونقلب أفئدتهم أي : يتركون الإيمان، ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة، أي : ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذ .

ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال : [أن] بمعنى لعل، واستشكل قراءة الفتح، بل يعلم حينئذ أنها أحسن من قراءة الكسر، وهذا باب واسع . والناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام، طرفان ووسط .

فقوم يزعمون : أن مجرد الزهد وتصفية القلب ورياضة النفس، توجب حصول العلم بلا سبب آخر .

وقوم يقولون : لا أثر لذلك، بل الموجب للعلم العلم بالأدلة الشرعية أو العقلية .

وأما الوسط : فهو أن ذلك من أعظم الأسباب معاونة على نيل العلم، بل هو شرط في حصول كثير من العلم، وليس هو وحده كافيا، بل لابد من أمر آخر إما العلم بالدليل فيما لا يعلم إلا به، وإما التصور الصحيح لطرفي القضية في العلوم الضرورية .

". (١)

"والله . سبحانه . جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥] ،وقال : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] وقال : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .

وهذا كما أنه حرم على بني إسرائيل طيبات أحلت لهم لأجل ظلمهم وبغيهم، فشريعة محمد لا تنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا، بأن يحرموا الطيبات، أو بتحريم الطيبات؛ إما تحريما كونيا بألا يوجد غيثهم، وتهلك ثمارهم، وتقطع الميرة عنهم، أو أنهم لا يجدون لذة مأكل ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ونحوه كما كانوا يجدونها قبل ذلك، وتسلط عليهم الغصص [جمع غصة،وهي ما اعترض فى الحلق . من طعام وشراب وغيرهما . فأشرق . انظر : القاموس، مادة : غصص] وما ينغص ذلك ويعوقه . ويجرعون غصص المال والولد والأهل، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : ٥٥] وقال : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ [المؤمنون : ٥٥،٥٦] ، وقال : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] ، فيكون هذا كابتلاء أهل السبت بالحيتان .

". (٢)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢١٢/٢

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤٧٥/٢

"وقال تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : ١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ : [الصف : ٥ . ٧] ، وقال تعالى : ﴿ قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال تعالى . أيضا . : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا ﴾ [التوبة : ٢٥،٢٦] ، وقال . تعالى . فى النوعين : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملآئكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا." [1]

"وظلمهم لأنفسهم نوعان : عدم عملهم بالحسنات، فهذا ليس مضافا إليه، وعملهم للسيئات خلقه عقوبة لهم على ترك فعل الحسنات التى خلقهم لها، وأمرهم بها، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل .

ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨ . ١٠] .

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالا، عاقبهم بها على فعل محظور، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم؛ لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولابد لهم من حركة وإرادة، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات، عدلا من الله، حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له . وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملا . فإذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه . إذا حقق . يقطع مادة كلام القدرية المكذبة، والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلما، والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .

فإذا قيل لأولئك : إنه إنما أوقعهم فى تلك الذنوب، وطبع على قلوبهم عقوبة لهم على عدم فعلهم ما أمرهم به، فما ظلمهم، ولكن هم ظلموا أنفسهم .

". [2]

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/٤٣

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/١٠٩

" الكتاب هو القرآن فاللام للعهد وقدم الظرف وهو عليك لما يفيده من الاختصاص وقوله : ٧ - ﴿ منه آيات محكمات ﴾ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبرا مقدما والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأ تقديره من الكتاب آيات بينات على نحو ما تقدم في قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ وإنما كان أولى لأن المقصود انقسام الكتاب إلى قسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما بأنهما من الكتاب والجملة حالية في محل نصب أو مستأنفة لا محل لها وقد اختلف العلماء في تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال : فقيل إن المحكم ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبي وسفيان الثوري قالوا : وذلك نحو الحروف المقطعة في أوائل السور وقيل : المحكم ما لا يحتمل وجها واحدا والمتشابه ما يحتمل وجوها فإذا ردت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكما وقيل : إن المحكم ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه والمتشابه منسوخه وأمثاله وأقسامه وما نؤمن به ولا نعمل به روي هذا عن ابن عباس وقيل المحكم : الناسخ والمتشابه : المنسوخ روي عن ابن مسعود وقتادة والربيع والمتشابه : ما فيه تصريف وتحريم وتأويل قاله مجاهد وابن إسحاق قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال وقيل المحكم : ما كان قائما بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع إلى غيره والمتشابه : ما يرجع فيه إلى غيره قال النحاس : وهذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات قال القرطبي : ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية وهو الجاري على وضع اللسان وذلك أن المحكم إسم مفعول من أحكم والإحكام : الإتقان ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال وقال ابن خويز منداد للمتشابه وجوه ما اختلف فيه العلماء أي الآيتين نسخت الأخرى كما في الحامل المتوفى عنها زوجها فإن من الصحابة من قال : إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر ومنهم من قال العكس وكاختلافهم في الوصية للوارث وكتعارض الأقيسة هذا معنى كلامه

والأولى أن يقال : إن المحكم هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره والمتشابه ما لا يتضح معناه أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذي قدمناه ليس كما ينبغي وذلك لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته وعرفوا المتشابه بما يقابلها وبيان ذلك أن أهل القول الأول جعلوا المحكم ما وجد إلى عمله سبيل والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه فإن مجرد الخفاء أو عدم الظهور أو الاحتمال أو التردد يوجب التشابه وأهل القول الثاني خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال والمتشابه بما فيه احتمال ولا شك أن ذها بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها وهكذا أهل القول الثالث فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها وأهل القول الرابع خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التي ذكرها أهل القول الثالث والأمر أوسع مما قالوا جميعا وأهل القول الخامس خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف وجعلوا المتشابه مقابله وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى عمله من دون تصريف وتحريف كفواتح السور المقطعة وأهل القول السادس خصوا المحكم بما يقوم بنفسه والمتشابه بما لا يقوم بها وأن هذا هو بعض أوصافهما وصاحب القول السابع وهو ابن خويز منداد عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكما وإلى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابها فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم قوله : ﴿

هن أم الكتاب ﴾ أي : أصله الذي يعتمد عليه ويرد ما خالفه إليه وهذه الجملة صفة لما قبلها قوله : ﴿ وأخر متشابهات ﴾ وصف لمحذوف مقدر : أي وآيات أخر متشابهات وهي جمع أخرى وإنما لم ينصرف لأنه عدل بها عن الآخر لأن أصلها أن يكون كذلك وقال أبو عبيد : لم ينصرف لأن واحدها لا ينصرف في معرفة ولا نكرة وأنكر ذلك المبرد وقال الكسائي : لم تنصرف لأنها صفة وأنكره أيضا المبرد وقال سيبويه : لا يجوز أن يكون أخر معدولة عن الألف واللام لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة ألا ترى أن سحر معرفة في جميع الأقاويل لما كانت معدولة قوله : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ الزيغ : الميل : ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار ويقال : زاغ يزيغ زيغا : إذا ترك القصد ومنه قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق وسبب النزول نصارى نجران كما تقدم وسيأتي قوله : ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي : يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ويجعلونه دليلا على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحق كما تجده في كل طائفة من طوائف البدعة فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبا شديدا ويوردون منه لتفيق جهلهم ما ليس من الدلالة في شيء قوله : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي : طلبا لتأويله على الوجه الذي يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة قال الزجاج : معنى ابتغائهم تأويله : أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم فأعلم الله عز و جل أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله قال : والدليل على ذلك قوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ أي : يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب ﴿ يقول الذين نسوه ﴾ أي تركوه ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أي : قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل قوله : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير كقولهم تأويل هذه الكلمة على كذا : أي تفسيرها ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه : أي صار وأولته تأويلا : أي صيرته وهذه الجملة حالية : أي يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله وقد اختلف أهل العلم في قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ هل هو كلام مقطوع عما قبله أو معطوف على ما قبله ؟ فتكون الواو للجميع فالذي عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله وأن الكلام تم عند قوله : ﴿ إلا الله ﴾ هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وأبي الشعثاء وأبي نهيك وغيرهم وهو مذهب الكسائي والفراء والأخفش وأبي عبيد وحكاه ابن جرير الطبري عن مالك واختاره وحكاه الخطابي عن ابن مسعود وأبي بن كعب قال : وإنما روي عن مجاهد أنه نسق الراسخين على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه قال : واحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون في العلم يعلمونه قائلين : ﴿ آمنا به ﴾ وزعم أن موضع ﴿ يقولون ﴾ نصب على الحال وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالا ولو جاز ذلك لجاز أن يقال : عبد الله راكبا يعني : أقبل عبد الله راكبا وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يصلح بين الناس فكان يصلح حالا كقول الشاعر : أنشدنيه أبو عمرو قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب :

(أرسلت فيها رجلا لكالكا ... يقصر يمشي ويطول باركا)

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئا عن الخلق وينسبه لنفسه فيكون له في ذلك شريك ألا ترى قوله عز و جل : ﴿ قل لا يعلم من في

السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ وقوله : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وقوله : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره وكذلك قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ولو كانت الواو في قوله : ﴿ والراسخون ﴾ للنسق لم يكن لقوله : ﴿كل من عند ربنا ﴾ فائدة انتهى قال القرطبي : ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روي عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز و جل وأنهم داخلون في علم المتشابه وأنهم مع علمهم به يقولون : آمنا به وقال الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم و ﴿ يقولون ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخون كما قال :

(الريح يبكي شجوه ... والبرق يلمع في الغمامه)

وهذا البيت يحتمل المعنيين فيجوز أن يكون والبرق مبتدأ والخبر يلمع على التأويل الأول فيكون مقطوعا مما قبله ويجوز أن يكون معطوفا على الريح ويلمع في موضع الحال على التأويل الثاني أي لامعا انتهى ولا يخفاك أن ما قاله الخطابي في وجه امتناع كون قوله : ﴿ يقولون آمنا به ﴾ حالا من أن العرب لا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل إلى آخر كلامه لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا وليس الأمر كذلك فالفعل مذكور وهو قوله : ﴿ وما يعلم تأويله ﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف وهو قوله : ﴿ والراسخون ﴾ دون المعطوف عليه وهو قوله : ﴿ إلا الله ﴾ وذلك جائز في اللغة العربية وقد جاء مثله في الكتاب العزيز ومنه قوله تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ إلى قوله : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ﴾ الآية وكقوله : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ أي : وجاءت الملائكة صفا صفا ولكن ها هنا مانع آخر من جعل ذلك حالا وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين : آمنا به ليس بصحيح فإن الراسخين في العلم على القول بصحة العطف على الإسم الشريف يعلمونه في كل حال من الأحوال لا في هذه الحالة الخاصة فاقتضى هذا أن جعل قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ مبتدأ خبره : ﴿ يقولون ﴾ ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه مدحهم بالرسوخ في العلم فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ ويجاب عن هذا بأن تركهم لطلب علم ما لم يأذن الله به ولا جعل لخلقه إلى عمله سبيلا هو من رسوخهم لأنهم عملوا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه وأن الذين يتبعونه هم الذين في قلوبهم زيغ وناهيك بهذا من رسوخ وأصل الرسوخ في لغة العرب : الثبوت في الشيء وكل ثابت راسخ وأصله في الأجرام أن ترسخ الخيل أو الشجر في الأرض ومنه قول الشاعر :

(لقد رسخت في الصدر مني مودة ... لليلى أبت آياتها أن تغيرا)

فهؤلاء ثبتوا في امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه وإرجاع علمه إلى الله سبحانه ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال : التأويل يطلق ويراد به في القرآن شيئان : أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه ومنه قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياي ﴾ وقوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله ﴾ أي : حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه إلا الله عز و جل ويكون قوله : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ مبتدأ و ﴿ يقولون آمنا به ﴾ خبره وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشيء كقوله : ﴿ نبئنا بتأويله ﴾ أي : بتفسيره فالوقف على ﴿ والراسخون في العلم ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار وإن لم يحيطوا علما بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه وعلى هذا فيكون ﴿ يقولون آمنا به ﴾

حالا منهم ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله وأطنب في ذلك وهكذا جماعة من محققي المفسرين رجحوا ذلك قال القرطبي : قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح فإن تسميتهم راسخين تقضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع لكن المتشابه يتنوع فمنه ما لا يعلم ألبتة كأمر الروح والساعة مما استأثر الله بعلمه وهذا لا يتعاطى علمه أحد فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع وأما ما يمكن حمله على وجوه في اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم انتهى

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع في مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم في تحقيق معنى المحكم والمتشابه وقد قدمنا لك ما هو الصواب في تحقيقهما ونزيدك ها هنا إيضاحا وبيانا فنقول : إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذي قدمناه فواتح السور فإنها غير متضحة المعنى ولا ظاهرة الدلالة لا بالنسبة إلى أنفسها لأنه لا يدرى من يعلم بلغة العرب ويعرف عرف الشرع ما معنى آلم آلمر حم طس طسم ونحوها لأنهلاأيأتي لا يجد بيانها في شيء من كلام العرب ولا من كلام الشرع فهي غير متضحة المعنى لا باعتبارها نفسها ولا باعتبارها أمر آخر يفسرها ويوضحها ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم والألفاظ الغريبة التي لا يوجد في لغة العرب ولا في عرف الشرع ما يوضحها وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما في قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ إلى آخر الآية ونحو ذلك وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره كورود الشيء محتملا لأمرين احتمالا لا يترجح أحدهما على الآخر باعتبار ذلك الشيء في نفسه وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر لا باعتبار نفسه ولا باعتبار أمر آخر يرجحه وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفا في لغة العرب أو في عرف الشرع أو باعتبار غيره وذلك كالأمور المجملة التي ورد بيانها في موضع آخر من الكتاب العزيز أو في السنة المطهرة أو الأمور التي تعارضت دلالتها ثم ورد ما يبين راجحها من مرجوحها في موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب فاشدد يديك على هذا فإنك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس في هذا المقام حتى صارت كل طائفة تسمي ما دل لما ذهب إليه محكما وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابها : سيما أهل علم الكلام ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم

واعلم أنه قد ورد في الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم ولكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية بل بمعنى آخر ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ قويم المعاني فائق في البلاغة والفصاحة على كل كلام وورد أيضا ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها بل بمعنى آخر ومنه قوله تعالى : ﴿ كتابا متشابها ﴾ والمراد بالمتشابه بهذا المعنى أنه يشبه بعضه بعضا في الصحة والفصاحة والحسن والبلاغة وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه في القرآن فوائد : منها أنه يكون في الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق وهم الأئمة المجتهدون وقد ذكر الزمخشري والرازي وغيرهما وجوها هذا أحسنها وبقيتها لا تستحق الذكر ها هنا قوله : ﴿

كل من عند ربنا ﴾ فيه ضمير مقدر عائد على قسمي المحكم والمتشابه : أي كله أو المحذوف غير ضمير : أي كل واحد منهما وهذا من تمام المقول المذكور قبله وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أي العقول الخالصة : وهم الراسخون في العلم الواقفون عند متشابهه العاملون بمحكمه العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية ." (١)

" وقوله : ٨ – ﴿ ربنا لا تزغ ﴾ إلخ من تمام ما يقوله الراسخون : أي يقولون آمنا به كل من عند ربنا ويقولون : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ قال ابن كيسان : سألوا ألا يزيغوا قلوبهم نحو قولهم تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قالوا : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ باتباع المتشابه ﴿ بعد إذ هديتنا ﴾ إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات والظرف وهو قوله : بعد منتصب بقوله : ﴿ لا تزغ ﴾ قوله : ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ أي كائنة من عندك ومن لابتداء الغاية ولدن بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أخر من هذه أفصحها وهو ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان وتنكير رحمة للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة وقوله : ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول ." (٢)

" قوله : ١٤٦ – ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ قيل : معنى ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون ﴾ سأمنعهم فهم كتابي وقيل : سأصرفهم عن الإيمان بها وقيل : سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقيل : سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها

واختلف في تفسير الآيات فقيل هي المعجزات وقيل الكتب المنزلة وقيل هي خلق السموات والأرض وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك حمل الصرف على جميع المعاني المذكورة و ﴿ بغير الحق ﴾ إما متعلق بقوله : ﴿ يتكبرون ﴾ أي يتكبرون بما ليس بحق أو بمحذوف وقع حالا : أي يتكبرون متلبسين بغير الحق قوله : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ معطوف على ﴿ يتكبرون ﴾ منتظم معه في حكم الصلة والمعنى سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات ويدخل تحت كل آية الآيات المنزلة والآيات التكوينية والمعجزات : أي لا يؤمنون بآية من الآيات كائنة ما كانت وقرأ مالك بن دينار يروا بضم الياء في الموضعين وجملة ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ معطوفة على ما قبلها داخلة في حكمها وكذلك جملة ﴿ وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ﴾ والمعنى : أنهم إذا وجدوا سبيلا من سبل الرشد تركوه وتجنبوه وإن رأوا سبيلا من سبل الغي سلكوه واختاروه لأنفسهم قرأ أهل المدينة وأهل البصرة ﴿ الرشد ﴾ بضم الراء وإسكان الشين وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما بفتح الراء والشين قال أبو عبيدة : فرق أبو عمرو بين الرشد والرشد فقال : الرشد الصلاح والرشد في الدين قال النحاس : سيبويه يذهب إلى أن الرشد والرشد كالسخط والسخط قال الكسائي : والصحيح عن أبي عمرو وغيره ما قال أبو عبيدة وأصل الرشد في اللغة : أن يظفر الإنسان بما يريد وهو ضد الخيبة والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الصرف : أي ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو الإشارة

---

(١) فتح القدير، ٤٧٣/١

(٢) فتح القدير، ٤٧٨/١

إلى التكبر وعدم الإيمان بالآيات وتجنب سبيل الرشد وسلوك سبيل الغي واسم الإشارة مبتدأ وخبره جملة ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ أي بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها ." (١)

" ٥ – ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد وجاهدا في سبيل الله وحل العقاب بمن خالفهما والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر : أي اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه و سلم أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ هذا مقول القول : أي لم تؤذونني بمخالفة ما [آمركم] به من الشرائع التي افترضها الله عليكم أو لم تؤذونني بالشتم والانتقاص ومن ذلك رميه بالأدرة وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب وجملة ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ في محل نصب على الحال وقد لتحقق العلم أو لتأكيده وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار والمعنى : كيف تؤذونني مع علمكم بأني رسول الله والرسول يحترم ويعظم ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي وتفيدكم العلم بها علما يقينا ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ أي لما أصروا على الزيغ واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وصرفها عن قبول الحق وقيل فلما زغوا عن الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب قال مقاتل : لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه يعني أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها قال الزجاج : لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق والمعنى : أنه لا يهدي كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم ." (٢)

"ربنا لاوترخ قلوبنا بغدإذ هديتناوهمت

لنامن لدونلث رخمة إنك أ@ا ائوهاب ربنا إنك جامعو ألناس ليؤمص لارتب فيه! بر ألله لايخلف المحيحماد

إنلذلرركفروأ لن تشى سكنهض أقولهو ولا أولأ هو صلص مص ص "

من الله شخا وأولبك هتم وقور أن ر@دأبءال فعؤن وآلذين من قتلهوكذبوا ئايننا فأضذهم الله بذلؤجمهغ وا لمحه شديد آتعقاب @ قل للى جمتكفروا ستغلبوت وتحشروت! لى جهص ولتس اتمها د

@ربنا لا تزغ قلوبا بعد إذ هديتنا@ هذه ضراعة يجب على كل مؤمن أن يتضرع بها إلى ربه. وقد قال بعض العلماء إنها من مقول الراسخين فى العلم ، فهم يقولون : @آمنا به كل من عند ربنا@ ويقولون أيضا : (ربنا لا تزغ قلوبنا@ وكأنهم إذ يعلنون الإيمان والإذعان يضرعون إلى الله تعالى أن يحفظه ويبقيه بإبعادهم عن الزيغ والاضطراب فى العقيدة.

وقال بعض المفسرين : إن هذا كلام جديد ، وهو تعليم من الله تعالى للمؤمنين ليدعوا بهذا الدعاء ، والمعنى على الحالين : ربنا أى ياخالقنا والعليم بنفوسنا والقيوم على أمورنا الا تزغ قلوبنا@ : لا تبتلينا بابتلاء واختبار تزيغ معه قلوبنا ، وتضطرب معه نفوسنا ، فتكون الإزاغة عن الطريق المستقيم والمنهاج الحق. والزيغ يبتدئ دائما بسيطره الأهواء على النفوس

---

(١) فتح القدير، ٣٥٦/٢

(٢) فتح القدير، ٣٠٨/٥

، فتضطرب فتحيد ، فيكتب الزيغ فتزيغ ؟ وهذا كقوله تعالى : @ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم... @٦ - @ه@ أ الصف – ! وروت أم سلمة رضى الله عنها أن أكثر دعاء الرسول @ص! : " يا مقلب القلوب ثبت." (١)

"قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى ﴾ المعنى : اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ما صنعت بالذين آذوا موسى . وقد ذكرنا ما آذوا به موسى في [الأحزاب : ٦٩] .

قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا ﴾ أي : مالوا عن الحق ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي : أمالها عن الحق جزاء لما ارتكبوه ، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله تعالى ﴿ يأتي من بعدي ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم «من بعدي اسمه» بفتح الياء . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم «من بعدي اسمه» بإسكان الياء ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ وفيهم قولان .

أحدهما : أنهم اليهود ، قاله مقاتل .

والثاني : النصارى حين قالوا : عيسى ابن الله ، قاله أبو سليمان الدمشقي . وقرأ ابن مسعود . وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرف «يدعي إلى الإسلام» بفتح الياء ، والدال ، وتشديدها ، وبكسر العين ، وما بعد هذا في [براءة : ٣٢] إلى قوله تعالى : ﴿ متم نوره ﴾ قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم وخلف «متم نوره» مضاف . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم «متم» رفع منون .." (٢)

" يقول كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لهذه الآية اسم أبي بحرية عبد الله بن قيس الترغمي يروي عن معاذ وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفون في الغالب إنما يصطف الرجالة

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ." (٣)

" قوله تعالى وإذ قال موسى المعنى اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ما صنعت بالذين آذوا موسى وقد ذكرنا ما آذوا به موسى في الأحزاب ٦٩

قوله تعالى فلما زاغوا أي مالوا عن الحق أزاغ الله قلبوهم أي أمالها عن الحق جزاء لما ارتكبوه وما بعد هذا ظاهر إلى قول تعالى يأتي من بعدي قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم من بعدي اسمه بفتح الياء وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم من بعدي اسمه بإسكان الياء ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وفيهم قولان

---

(١) زهرة التفاسير، ص/١١١٧

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ٢٦/٦

(٣) زاد المسير، ٢٥٢/٨

أحدهما أنهم اليهود قاله مقاتل

والثاني النصارى حين قالوا عيسى ابن الله قاله أبو سليمان الدمشقي وقرأ ابن مسعود وعاصم الجحدري وطلحة بن مصرف يدعي إلى الإسلام بفتح الياء والدال وتشديدها وبكسر العين وما بعد هذا في براءة ٣٢ إلى قوله تعالى متم نوره قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف متم نوره مضاف وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم متم رفع منون ." (١)

" بالمعنى المعنى من أفعال الشروع ليس هذا إستعمالها المعهود في كلامهم على أن فيه بعد ما فيه ومثل هذا كون ضمير أحسنها عائدا إلى قوة على معنى مرهم يأخذوها بأحسن قوة وعزيمة فيكون أمرا منه سبحانه أن يأمرهم بأخذها كما أمره به ربه سبحانه إلا أنه تعالى اكتفى في أمره عن ذكر الأحسن بما أشار إليه التنوين فإن ذلك خلاف المأثور المنساق إلى الفهم مع أنا لم نجد في كلامهم أحسن قوة ومفعول يأخذوا عليه محذوف كما في بعض الإحتمالات السابقة غير أنه فرق ظاهر بين ما هنا وما هناك

سأريكم دار الفاسقين

٥٤١

– توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والترهيب بناء على ماروي عن قتادة وعطية العوفي من أن المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه بمصر ورأى بصرية وجوز أن تكون علمية والمفعول الثالث محذوف أي سأريكم إياها خاوية على عروشها لتعتبروا وتجدوا ولا تهاونوا في إمتثال الأمر ولا تعملوا أعمال أهلها ليحل بكم ما حل بهم وفيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب وحسن موقعه قصد الميالغة في الحث وفي وضع الإراءة موضع الإعتبار إقامة السبب مقام المسبب مبالغة أيضا كقوله تعالى : قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين وفي وضع دار الفاسقين موضع أرض مصر الإشعار بالعلية والتنبيه على أن يحترزوا ولا يستنوا بسنتهم من الفسق والسين للإستقبال لأن ذلك قبل الرجوع إلى مصر كما في الكشف

وقال الكلبي : المراد بدار الفاسقين منازل عاد وثمود والقرون الذين هلكوا وعن الحسن وعطاء أن المراد بها جهنم وأيا ما كان فالكلام على النهج الأول أيضا ويجوز أن يكون على نهج الوعد والترغيب بناء على ماروي عن قتادة أيضا من أن المراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فإنها مما أبيح لبني إسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عزوجل : ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإيراث ويؤيده قراءةبعضهم سأورثكم وجوز على هذا أن يراد بالدار مصر وفي الكلام على هذه القراءة وإرادة أرض مصر من الدار تغليب لأن المعنى سأورثك وقومك أرض مصر ولا يصح ذلك عليها إذا أريد من الدار أرض الجبابرة بناء على أن موسى عليه السلام لم يدخلها وإنما دخلها يوشع مع القوم بعد وفاته عليه السلام ويصح بناء على القول بأن موسى عليه السلام دخلها ويوشع على مقدمته وجوز إعتبار التغليب على القراءة المشهورة أيضا وقرأ الحسن سأوريكم بضم الهمزة وواو ساكنة وراء خفيفة مكسورة وهي لغة

---

(١) زاد المسير، ٢٥٣/٨

فاشية في الحجاز والمعنى سأبين لكم ذلك وأنوره على أنه من أوريت الزند واختار ابن جني في تخريج هذه القراءة ولعله الأظهر أنها على الإشباع كقوله :

من حيثما سلكوا أدنو فأنظور

سأصرف عن ءاياتي الذين يتكبرون في الأرض إستئناف مسوق على ماقال شيخ الإسلام لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي كتبت في ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام أو مايعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ماوعدوا إرائته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله سبحانه **: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون أن لهم إرتفاعا في العالم السفلي ومزية على الخلق فلا ينتفعون بآياتي ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم فتكونوا ." (١)

" الذين لا يهديهم الله تعالى لا يؤمنون بآياته ولكنه قدم وأخر تتميما لتقبيح حالهم وللتشنيع بخطئهم كما في قوله تعالى : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ويؤدي مؤدي التقديم والتأخير ما ذكره الجلبي أولا والأكثر لا يخلوا عن دغدغة

وقال القاضي : أقوى ما قيل في الآية ما ذكر أولا وكونه تفسيرا للمعتزلة مناسبا لأصولهم فيه نظر وأياما كان فالمراد من الآية التهديد والوعيد لأولئك الكفرة على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى الإفتراء والتعلم من البشر بعد إماطة شبهتهم ورد طعنهم وقوله سبحانه : إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله تمهيد لكونهم هم المفترين وقلب عليهم بعد أن حقق بالبيان البرهاني براءة ساحته صلى الله عليه و سلم عن لوث الإفتراء وقوله تعالى : وأولئك هم المكذبون

١٠٥

– إشارة إلى قريش القائلين : إنما أنت مفتر وهو تصريح بعد التعريض ليكون كالوسم عليهم وهذا الأسلوب أبلغ من أن يقال : أنتم معشر قريش مفترون لما أشير إليه وإقامة الدليل على أنهم كذلك وأن من زنوه به لا يجوز أن يتعلق بذليله نشب منه أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن لأنه لا يرتقب عقابا عليه وقريش كذلك فهم الكاذبون أو إشارة إلى الذين لا يؤمنون فيستمر الكلام على وتيرة واحدة والمعنى أن الكاذب بالحقيقة هذا الكاذب على ما قرروه في قوله تعالى : وأولئك هم المفلحون واللام للجنس وهو شهادة عليهم بالكمال في الإفتراء فالكذب في الحقيقة مقيد بالكذب بآيات الله تعالى و وأطلق أشعارا لا يكذب فوقه ليكون كالحجة على كمال الإفتراء أو الكذب غير مقيد على هذا الوجه على معنى أنهم الذين عادتهم الكذب فلذلك اجترؤا على تكذيب آيات الله تعالى دلالة على أن ذلك لا يصدر غلا ممن لهج بالكذب قيله ويدل على اعتبار هذا المعنى التعبير بالجملة الإسمية ولذا عطفت على الفعلية وفيه قلب حسن وإشارة إلى ان قريشا لما كان من عادتهم الكذب أخذوا يكذبون بآيات الله تعالى ومن أتى بها ثم لم يرضوا بذلك حتى نسبوا من شهدوا بالأمانة والصدق إلى الإفتراء

---

(١) روح المعاني، ٩/ ٦٠

وموضع الحسن الإيماء إلى سبق حالتي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقريش أو الكذب مقيد على هذا الوجه أيضا بما نسبوا إليه عليه الصلاة و السلام من الإفتراء و الذين لا يؤمنون على هذا المراد به قريش من إقامة الظاهر مقام المضمر وإيثار المضارع على الماضي دلالة على استمرار عدم إيمانهم وتجدده عقب نزول كل آية واستحضار لذلك وهذا الوجه جوح بالنسبة إلى السوابق وقد ذكر هذه الأوجه صاحب الكشاف وقد حررها بما ذكر المولى المدقق في كشفه والحصر في سائرها غير حقيقي ولا استدراك في الآية لا سيما على الأول منها وهي من الكلام المنصف في بعضها وتعلقها بقوله سبحانه حكاية عنهم : إنما أنت مفتر لأنها كما سمعت لرده وتوسيط ما وسط لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الأول من كفر بالله أي بكلمة الكفر من بعد إيمانه به تعالى وهذا بحسب الظاهر ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله تعالى بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها رأسا و من موصولة محلها الرفع على الإبتداء والخبر محذوف لدلالة فعليهم غضب الآتي عليه وحذف مثل ذلك كثير في الكلام وجوز أيضا الرفع وكذا النصب على القطع لقصد الذم أي هم أو أذم من كفر والقطع للذم والمدح وإن تعورف في النعت و من لا يوصف بها لكن لا مانع من اعتباره في غيره كالبدل وقد نص عليه سيبويه نعم قال أبو حيان : إن النصب على الذم بعيد وأجاز الحوفي والزمخشري كونها بدلا من الذين لا يؤمنون بآيات الله وقوله تعالى : وأولئك هم الكاذبون اعتراض بينهما واعترضه أبو حيان ." (١)

" يقاتلون بفتح التاء وقريء يقتلون وقوله تعالى : وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال وإذا منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به سيد المخاطبين صلى الله عليه و سلم بطريق التلوين أي اذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى عليه السلام لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله : يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا لأمره عليه السلام وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون إلى قوله تعالى : فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون وأصروا على ذلك كل الأصرار وآذوه عليه السلام كل الأذية فوبخهم على ذلك بقوله : يا قوم لم تؤذونني بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به وقد تعلمون أني رسول الله إليكم جملة حالية مؤكدة لأنكار الإيذاء ونفي سببه وقد لتحقيق العلم لا للتقليل ولا للتقريب لعدم مناسبة ذلك للمقام وصيغة المضارع للدلالة على الأستمرار أي والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر على يدي من المعجزات الباهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجائكم من ملكته أني رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خيري الدنيا والآخرة ومنقضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتسارعوا إلى **طاعتي فلما زاغوا أي** أصروا على الزيغ والأنحراف عن الحق الذي جاء به عليه السلام واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم أي صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو العمى والضلال وقيل : **أي فلما زاغوا في** نفس الأمر وبمقتضى ما هم عليه فيها أزاغ الله تعالى في الخارج قلوبهم إذ الإيجاد على حسب الإرادة والإرادة على حسب العلم والعلم على حسب ما عليه الشيء في نفس الأمر وعلى الوجهين لا إشكال في الترتيب وقوله تعالى : والله لا يهدي القوم الفاسقين

---

(١) روح المعاني، ١٤/٢٣٥

٥

– اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة ومؤذن بعلته أي لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى البغية وإلا فالهداية إلى ما يوصل إليها شاملة للكل والمراد بهم إما المذكورون خاصة والإظهار في مقام الإضمار لذمهم وتعليل عدم الهداية به أو جنس الفاسقسن وهم داخلون في حكمهم دخولا أوليا قيل : وأيا ما كان فهو ناظر إلى ما في قوله تعالى : فافرق بيننا وبين القوم الفاسقسن وقوله سبحانه : فلا تأس على القوم الفاسقين هذا وقيل : إذ ظرف متعلق بفعل مقدر يدل عليه ما بعده كزاغوا ونحوه والجملة معطوفة على ما قبلها عطف القصة على القصة

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم عليه السلام بما كان من انتقاصه وعيبه في نفسه وجحود آياته وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه وعبادتهم البقر وطلبهم رؤية الله سبحانه جهرة والتكذيب الذي هو حق الله تعالى وحقه عليه السلام وما ذكر أولا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم وإذ قال عيسى ابن مريم إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها يا بني إسرائيل ولعله عليه السلام لم يقل يا قومي كما قال موسى عليه السلام بل قال : يا بني إسرائيل لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأب فيهم أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام هضما لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم وفيه من الأستعطاف ما فيه وقيل : إن الأستعطاف ." (١)

"أصحابه عما يوجه فيصدر عنهم من الأقوال ما تجيش به خواطرهم قبل التدبر فيما يحف بذلك من الاحتمالات التي تقلعه وتنفيه ودون التأمل فيما يترتب عليه من الواجبات.وكذلك يصدر عنهم من الأعمال ما فيه ورطة لهم قبل التأمل في مغبة عملهم،نبه الله المؤمنين كي لا يقعوا في مثل تلك العنجهية لأن مدارك العقلاء في التنبيه إلى معاني الأشياء وملازماتها متفاوتة المقادير، فكانت حرية بالإيقاظ والتحذير. وفائدة التشبيه تشويه الحالة المشبهة لأن المؤمنين قد تقرر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن كقوله: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] الآية.

والذين آذوا موسى هم طوائف من قومه ولم يكن قصدهم أذاه ولكنهم أهملوا واجب كمال الأدب والرعاية مع أعظم الناس بينهم. وقد حكى الله عنهم ذلك إجمالا وتفصيلا بقوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ الآية "فلم يكن هذا الأذى من قبيل التكذيب لأجل قوله: ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ والاستفهام في قوله: ﴿لم تؤذونني﴾ إنكاري". فكان توجيه الخطاب للمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يراعى فيه المشابهة بين الحالين في حصول الإذابة.

فالذين آذوا موسى قالوا مرة ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ٢٤] فآذوه بالعصيان وبضرب من التهكم. وقالوا مرة ﴿أتتخذنا هزوا﴾ [البقرة: ٦٧] فنسبوه إلى الطيش والسخرية ولذلك قال لهم ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾ [البقرة: ٦٧]. وفي التوراة في الإصحاح الرابع عشر من الخروج "وقالوا لموسى فإذا بنا حتى أخرجتنا من مصر

---

(١) روح المعاني، ٨٥/٢٨

فإنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية". وفي الإصحاح السادس عشر "وقالوا لموسى وهارون إنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع". وفي الحديث "إن موسى كان رجلا حيا ستيرا فقال فريق من قومه: ما نراه يستتر إلا من عاهة فيه. فقال قوم: به برص وقال قوم: هو آدر" ونحو هذا، وكان قريبا من هذا قول المنافقين: إن محمدا تزوج مطلقة ابنة زيد بن حارثة.

وقد دلت هذه الآية على وجوب توقير النبيء صلى الله عليه وسلم وتجنب ما يؤذيه وتلك سنة الصحابة والمسلمين وقد عرضت فلتات من بعض أصحابه الذين لم يبلغوا قبلها كمال التخلق بالقرآن مثل الذي قال له لما حكم بينه وبين الزبير في ماء شراح الحرة: أن كان ابن عمتك يا رسول الله. ومثل التميمي خرفوص الذي قال في قسمة مغانم حنين: "هذه." (١)

"وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق وكر وفر. وانتصب ﴿صفا﴾ على الحال بتأويل: صافين، أو مصفوفين.

والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض. والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف:٢].

[٥] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

موقع هذه الآية هنا خفي المناسبة. فيجوز أن تكون الجملة معترضة استئنافا ابتدائيا انتقل به من النهي عن عدم الوفاء بما وعدوا الله عليه إلى التعريض بقوم آذوا النبي صلى الله عليه وسلم بالقول أو بالعصيان أو نحو ذلك، فيكون الكلام موجها إلى المنافقين، فقد وسموا بأذى الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ [الأحزاب:٥٧] الآية. وقوله تعالى: ﴿والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ [التوبة:٦١] وقوله: ﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن﴾ [التوبة:٦١].

وعلى هذا الوجه فهو اقتضاب نقل به الكلام من الغرض الذي قبله لتمامه إلى هذا الغرض، أو تكون مناسبة وقعه في هذا الموقع حدوث سبب اقتضى نزوله من أذى قد حدث لم يطلع عليه المفسرون ورواة الأخبار وأسباب النزول.

والواو على هذا الوجه عطف غرض على غرض. وهو المسمى بعطف قصة على قصة.

ويجوز أن يكون من تتمة الكلام الذي قبلها ضرب الله مثلا للمسلمين لتحذيرهم من إتيان ما يؤذي رسوله صلى الله عليه وسلم ويسوؤه من الخروج عن جادة الكمال الديني مثل عدم الوفاء بوعدهم في الإتيان بأحب الأعمال إلى الله تعالى. وأسفقهم من أن يكون ذلك سببا للزيغ والضلال كما حدث لقوم موسى لما آذوه.

وعلى هذا الوجه فالمراد بأذى قوم موسى إياه: عدم توخي طاعته ورضاه، فيكون ذلك مشيرا إلى ما حكاه الله عنه من قوله:

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٤٠/٢١

﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾ [المائدة:٢١]، إلى قوله: ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة:٢٤].." (١)

"فإن قولهم ذلك استخفاف يدل لذلك قوله عقبه ﴿قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [المائدة:٢٥].

وقد يكون وصفهم في هذه الآية بقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ ناظرا إلى وصفهم بذلك مرتين في آية سورة العقود في قوله: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [المائدة:٢٥] وقوله: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾ [المائدة:٢٦]. فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرع على ذكرها من قوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيرا من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحد لما خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم.

وقد تشابهت القصتان في أن القوم فروا يوم أحد كافر قوم موسى يوم أريحا، وفي أن الرماة الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أن لا يبرحوا مكانهم ولو تخطفنا الطير" وأن ينضحوا عن الجيش بالنبال خشية أن يأتيه العدو من خلفه لم يفعلوا ما أمرهم به وعصوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير وفارقوا موقفهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين يوم أحد.

والواو على هذا الوجه عطف تحذير مأخوذ من قوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ على النهي الذي في قوله: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف:٢] الآية.

ويتبع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حصل من مخالفة الرماة حتى تسببوا في هزيمة الناس.

و ﴿إذ﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة في القرآن، أي اذكر لهم أيضا وقت قول موسى لقومه أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت قول موسى لقومه.

وابتداء كلام موسى عليه السلام ب ﴿يا قوم﴾ تعريض بأن شأن قوم الرسول أن يطيعوه بله أن لا يؤذوه. ففي النداء بوصف ﴿قوم﴾ تمهيد للإنكار في قوله: ﴿لم تؤذونني﴾ .

والاستفهام للإنكار، أي إنكار أن يكون للإذاية سبب كما تقدم في قوله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ .

وقد جاءت جملة الحال من قوله: ﴿قد تعلمون أني رسول الله﴾ مصادفة المحل من الترقي في الإنكار.." (٢)

"" صفحة رقم ٣٠١ "

(سورة الصف)

مكية ، وهي تسعمائة حرف ، ومائتان وأحدى وعشرون كلمة ، وأربع عشرة آية

أخبرنا أبو الحسن الحيازي قال : حدثنا ابن حبش قال : حدثني أبو عباس محمد بن موسى الرازي قال : حدثنا عبد الله بن روح المدائني قال : حدثني شبابة بن سواد الغزاري قال : حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد وعن عطاء بن

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥٨/٢٨

(٢) التحرير والتنوير، ١٥٩/٢٨

أبي ميمونة عن بن حبش عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (من قرأ سورة عيسى (عليه السلام) كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه)

بسم الله الرحمن الرحيم

٢ ( ) سبح لله ما فى السماوات وما فى الارض وهو العزيز الحكيم يأأيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسراءيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هاذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون هو الذىأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون يأأيها الذين ءامنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يأأيها الذين ءامنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارىإلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فئامنت طآئفة من بنىإسراءيل وكفرت طآئفة فأيدنا الذين ءامنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (٢

الصف : (١ - ٢) سبح لله ما . . . . .

) سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم." (١)

"" صفحة رقم ٣٠٣ "

حبيسا في سبيل الله حتى أموت أو أقتل فقتل بمؤته شهيدا رحمة الله عليه ورضوانه ، وقال : ميمون بن مهران : نزلت في الرجل يقرض نفسه بما لم يفعله نظيره ويحبون أن يحمدوا عما لم يفعلوا .

حدثنا أبو القاسم الحسيني لفظا قال : حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرائفي قال : حدثنا عمي سعيد الدارمي قال : حدثنا محبوب بن موسى الأنطاكي قال : حدثنا أبو إسحاق الفراري عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سلام قال : خرجنا نتذاكر فقلنا : أيكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسأله أي الأعمال أحب إلى الله ، ثم تفرقنا وهبنا أن يأتيه أحدنا ، فأرسل إلينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وجمعنا فجعل يومي بعضنا إلى بعض فقرأ علينا) سبح لله (إلى آخرها .

قال أبو سلمة : فقرأها علينا عبد الله بن سلام إلى آخرها قال يحيى بن أبي كثير : فقرأ علينا أبو سلمة إلى آخرها ، قال الأوزاعي : فقرأ علينا يحيى بن إسحاق إلى آخرها ، قال أبو إسحاق الفزاري : فقرأها علينا الأوزاعي إلى آخرها ، قال محبوب بن موسى : قرأها علينا الفزاري إلى آخرها ، قال عثمان بن سعيد : فقرأها علينا محبوب إلى آخرها ، قال الطرائفي

(١) الكشف والبيان ـ موافق للمطبوع، ٩/٣٠١

: فقرأها علينا عثمان بن سعيد إلى آخرها ، قال القاسم : وقرأها علينا أبو الحسن الطرائفي إلى آخره ، وقرأها علينا الإستاذ أبو القاسم إلى آخرها وسألنا أحمد الثعلبي أن يقرأ فقرأ علينا إلى آخرها .

الصف : (٣) كبر مقتا عند . . . . .

) كبر مقتا (نصب على الحال وأن شئت على التمييز .

وقال الكسائي :) أن تقولوا (في موضع رفع لان) كبر (بمنزلة قولك بئس رجلا أخوك ، وأضمر القراء فيه أسما مرفوعا ، والمقت والمقاتة مصدر واحد يقال : رجل ممقوت ومقيت إذا لم تحبه الناس

الصف : (٤) إن الله يحب . . . . .

) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله (ولا يزولون عن أماكنهم) كأنهم بنيان مرصوص (قد رص بعضه إلى بعض أي أحكم وأيقن وأدق فليس فيه فرجه ولا خلل ، وأصله من الرصاص ، ومنه قول النبي (صلى الله عليه وسلم) (تراصوا بينكم في الصفوف لا يتخللنكم الشياطين كأنها بنات حذف) .

الصف : (٥) وإذ قال موسى . . . . .

) وإذ قال : موسى لقومه (من بني إسرائيل) ياقوم لم تؤذونني (وذلك حين رموه بالادرة) وقد تعلمون أني رسول الله إليكم (والرسول يحترم ويعظم) **فلما زاغوا أزاغ** الله (عن الحق) قلوبهم (عن الدين) والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

الصف : (٦) وإذ قال عيسى . . . . .

) وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي أسمه أحمد (وهو الذي لا يذم ، وفي وجهه قولان :." (١)

"ونظير ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أن النسب نافع يوم القيامة، كما في إلحاق ذرية المؤمنين بآبائهم في الدرجات، وإن لم يبلغوا منزلتهم، وأن الله يجمع لأهل الجنات والدرجات العالية من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، فهذا لما اشتركوا في الإيمان وأصل الصلاح زادهم من فضله وكرمه، من غير أن ينقص من أجور السابقين لهم شيئاً .

ومن ذلك: الشفاعة فإنه أثبتها فى عدة مواضع، ونفاها في مواضع من القرآن، وقيدها في بعض المواضع بإذنه ولمن ارتضى من خلقه، فتعين حمل المطلق على المقيد، وأنها حيث نفيت فهي الشفاعة بغير إذنه، ولغير من رضي الله قوله وعمله، وحيث أثبتت فهي الشفاعة التي بإذنه لمن رضيه الله وأذن فيه .

ومن ذلك: أن الله أخبر فى آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين ونحوها، وفي بعضها: أنه يهديهم ويوفقهم، فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة(١) .

وإنما حقت كلمة الله بالعذاب والطرد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ** اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً ﴾ [محمد: ١٧] .

---

(١) الكشف والبيان ـ موافق للمطبوع، ٣٠٣/٩

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه .

ومن ذلك: الإخبار في بعض الآيات: أنه العلي الأعلى، وأنه فوق عباده وعلى عرشه، وفي بعضها: أنه مع العباد أينما كانوا، وأنه مع الصابرين والصادقين والمحسنين ونحوهم، فعُلوُّه تعالى أمر ثابت له، وهو من لوازم ذاته .

---

(١) قال الشيخ ابن عثيمين: "كلمته الأزلية، يعني الذي قدر عز و جل أنهم في النار فهم لا يؤمنون "." (١)

"﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦] وقوله: ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٠] فأخبر أن الله يهدي بالقرآن من كان قصده حسناً، ومن رغب في الخير، واتبع رضوان الله، وأنه يضل من فسق عن سنن الله الحكيمة، وتمرد على الله، وتولى أعداءه من شياطين الإنس والجن، ورضي بولايتهم عن ولاية رب العالمين .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الصف: ٥] وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] .

وكذلك يذكر في بعض الآيات الأسبابَ التي تنال بها المغفرة والرحمة، والتي تحق بها كلمة العذاب، كقوله: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه:٨٢]

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ [الأعراف: من الآيات ١٥٦، ١٥٧] وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقوله: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:١٣٣] ثم ذكر الأسباب التي تنال بها المغفرة والرحمة، وهي خصال التقوى المذكورة في هذه الآية وغيرها: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢١٨]." (٢)

"ووصفه بأنه متشابه في قوله من سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً ﴾ [الزمر: ٢٣] أي: متشابها في الحسن والصدق والحق، ووروده بالمعاني النافعة المزكية للعقول، المطهرة للقلوب، المُصلحة للأحوال، فألفاظه أحسن الألفاظ ومعانيه أحسن المعاني .

ووصفه بأن﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران: ٧] فهنا وصفه بأن بعضه هكذا وبعضه هكذا، وأن أهل العلم بالكتاب يردون المتشابه منه إلى المحكم، فيصير كله محكماً ويقولون: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧] أي: وما كان من عنده فلا تناقض فيه، فما اشتبه منه في موضع، فسره الموضع الآخر المحكم، فحصل العلم وزال الإشكال .

ولهذا النوع أمثلة؛ منها: ما تقدم من الإخبار بأنه على كل شيء قدير، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه يهدي

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن، ص/٢٧

(٢) القواعد الحسان في تفسير القرآن، ص/٤٠

من يشاء ويضل من يشاء .

فإذا اشتبهت على من ظن به خلاف الحكمة، وأن هدايته وإضلاله يكون جزافاً لغير سبب وضحت هذا الإطلاق الآيات الأخر الدالة على أن هدايته لها أسباب، يفعلها العبد ويتصف بها مثل قوله في سورة المائدة: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ﴾ [المائدة: ١٦] وأن إضلاله لعبده له أسباب من العبد، وهو توليه للشيطان، قال في سورة الأعراف: ﴿ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إنهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٣٠] وفي سورة الصف: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] .

وإذا اشتبهت آيات على الجبري الذي يرى أن أفعال العباد مجبورون عليها، بينتها الآيات الأخر الكثيرة الدالة على أن الله لم يجبر العباد، وأن أعمالهم واقعة باختيارهم وقدرتهم، وأضافها إليهم في آيات غير منحصرة .." (١)

"وأخرج أحمد والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس قال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه ، كل ذلك يشير بأصابعه فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا ما لم يعلموه وما لم يروا ، فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : اليهود نظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما زاغوا أخذوا يقدرونه ، فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : لما نزلت (وسع كرسيه السموات والأرض) (البقرة الآية ٢٥٥) قالوا : يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾. " (٢)

" أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع

فيقول : أنا الملك

فضحك رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة

---

(١) القواعد الحسان في تفسير القرآن، ص/٤٩

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٦٩٢/١٢

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر يهودي برسول الله صلى الله عليه و سلم وهو جالس قال : كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه

كل ذلك يشير بأصابعه ؟ فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا ما لم يعلموه وما لم يروا

فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال : اليهود نظروا في خلق السموات والأرض والملائكة فلما زاغوا أخذوا يقدرونه

فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال : لما نزلت وسع كرسيه السموات والأرض البقرة الآية ٢٥٥ قالوا : يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش ؟ فأنزل الله وما قدروا الله حق قدره

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ "

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير ." (١)

"ج ١ ، ص : ٧٦٤

عظمتي ، وما في شرعي من الهدى والنور ، فالتكبر والكبر مرض نفسي خطير ينشأ من مركب النقص عند ضعفاء العقول والأفهام ، ويجعل صاحبه في صندوق محكم لا يصل إليه نور أبدا ولا خير أبدا لأنه يفهم في نفسه أنه كبير ، وأنه لا يحتاج إلى شيء ، وهذا معنى صرفهم عن الآيات ، أى : يطبع الله على قلوب المتكبرين بحيث لا يفكرون في الآيات ولا يعتبرون بها لإصرارهم على التكبر فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم « ١ » وقد منع الله قوم فرعون عن فهم الآيات لأنهم متعالون ظالمون متكبرون وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا « ٢ » وهكذا يا محمد كفار قريش صرفهم الكبر والغرور عن النظر في الآيات ، ألم يقولوا :

لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم « ٣ » فلا تأس عليهم ولا تحزن لهم ، هؤلاء المتكبرون من صفاتهم أنهم لا يؤمنون بأى آية تدل على الحق وتثبته إذ الآيات تفيد من نفس مستعدة للفهم وتقبل الحق ، وهم ينفرون من سبيل الهدى والرشاد ، ولا يختارون إلا الغي والفساد ، بل إن يروا سبيل الغي سارعوا إليه وانغمسوا فيه. وما ذلك كله إلا لأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين.

---

(١) الدر المنثور، ٢٤٦/٧

والذين كذبوا بآياتنا المنزلة بالحق والهدى فلم يؤمنوا ولم يهتدوا ، وكذبوا بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ، أولئك تحبط أعمالهم وتذهب سدى ، لأنهم اتبعوا أنفسهم وشياطينهم ، وتركوا أمر الله وراءهم ظهريا فكانت أعمالهم هباء منثورا ، وهل يجزون إلا بما كانوا يعملون!!!

قصة عبادتهم العجل وموقف موسى [سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٨ الى ١٥٤]

واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨) ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩) ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين (١٥٠) قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين (١٥١) إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين (١٥٢)

والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم (١٥٣) ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون (١٥٤)

---

(١) سورة الصف آية ٥.

(٢) سورة النمل آية ١٤.

(٣) سورة الزخرف آية ٣١.." (١)

"ج ٣ ، ص : ٦٦٤

سورة الصف

هذه السورة مدنية كلها على الصحيح ، وآياتها أربع عشرة آية ، ونزلت بعد التغابن.

وتشتمل على تنبيه المؤمنين لبعض الواجب عليهم ، وتحذيرهم من أن يكونوا كقوم موسى وعيسى ، مع بيان أن الإسلام هو دين الله ، وأنه غالب على الأديان ، ثم رسمت طريق الهدى الموصل إلى النجاة من العذاب.

توجيهات دينية [سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، ١/٧٦٤

يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)." [١]

"﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ﴾

واذكر لقومك -أيها الرسول- حين قال نبي الله موسى عليه السلام لقومه: لم تؤذونني بالقول والفعل، وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم؟ فلما عدلوا عن الحق مع علمهم به، وأصروا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن قبول الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم. والله لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق.." [٢]

"ابن ربعي وقد خرج حديثهم بكماله البخاري ومسلم وهو في السير فلذلك اختصرنا سوقة وهم الذين تقدم فيهم " وآخرون مرجون " ومعنى " خلفوا " أخروا وترك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردت عليهم فكأنهم خلفوا عن المعتذرين وقيل معنى " خلفوا " أي عن غزوة تبوك قاله قتادة وهذا ضعيف وقد رده كعب بن مالك بنفسه وقال معنى " خلفوا " تركوا عن قبول العذر وليس بتخلفنا عن الغزو ويقوي ذلك من اللفظة جعله إذا ضاقت غاية للتخليف ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو وإنما ضاقت عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول العذر وقرأ الجمهور خلفوا بضم الخاء وشد اللام المكسورة وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي وزر بن حبيش وعمرو بن عبيد وأبو عمرو أيضا خلفوا بفتح الخاء واللام غير مشددة وقرأ أبو مالك خلفوا بضم الخاء وتخفيف اللام المكسورة وقرأ أبو جعفر محمد بن علي وعلي بن الحسين وجعفر بن محمد وأبو عبد الرحمن خالفوا والمعنى قريب من التي قبلها وقال أبو جعفر ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب وقرأ الأعمش وعلى الثلاثة المخلفين وقوله " بما رحبت " معناه برحبها كأنه قال على ما هي في نفسها رحبة فما مصدرية " وضاقت عليهم أنفسهم " استعارة لأن الغم والهم ملأها " وظنوا " في هذه الآية بمعنى أيقنوا وحصل علم لهم وقوله " ثم تاب عليهم ليتوبوا " لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدا في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ليكون ذلك منبها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال الله تعالى " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم " ليكون هذا أشد تقريرا للذنب عليهم وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلفوا في الكتب التي ذكرنا وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة

وحجة للمنافقين والطاعنين إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر .

وفي هذا يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقل عذرا في السقوط من سواه وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة واعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تزيد حق الله عليك إلا عظما ولا طاعته إلا وجوبا

---

(١) التفسير الواضح . موافقا للمطبوع، ٦٦٤/٣

(٢) التفسير الميسر، ١١٨/١٠

ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا والسلام ولقد أحسن القاضي التنوخي في قوله

(والعيب يعلق بالكبير كبير

) " الكامل "

" .(١)

"المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر تهمما بتقبيح فعلهم والتشنيع لخابطهم وذلك كقوله تعالى " **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم " والمراد ما ذكرناه فكأنه قال إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله وقوله " إنما يفترى الكذب " بمعنى يكذب وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم إنما أنت مفتر و " إنما " أبدا حاصرة لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها قد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقيا كقوله تعالى " إنما الله إله واحد " وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجوزا ومبالغة كقولك إنما الشجاع عنترة وهكذا هي في هذه الآية قال الزجاج يفتري هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها فهذا أفحش الكذب وكرر المعنى في قوله " وأولئك هم الكاذبون " لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر فبدأ في هذه الآية بالخبر ثم أكد بالصفة وقد اعترض هذا النظر مكي وليس اعتراضه بالقوي و " من " في قوله " من كفر " بدل من قوله " هم الكاذبون " ولم يجز الزجاج غير هذا الوجه لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله والذي أبى الزجاج سائغ على ما أورده الآن إن شاء الله .

قال القاضي أبو محمد وهذا يتأكد بما روي من أن قوله " وأولئك هم الكاذبون " يراد به عبد الله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ثم ارتد فلما بين في هذه الآية أمر

الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنون المعذبون بمكة وهم بلال وعمار وسمية وأمه وخباب وصهيب وأشباههم وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء الضعفة يعذبونهم ليرتدوا فربما سامعهم بعضهم بما أرادوا من القول يروى أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده ثم ابتدأ الإخبار أن من شرح

٤٢٣

صدرا بالكفر فعليهم وهذا الضمير على معنى من لا على لفظها .

" .(٢)

"الظاهر وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما واختلف الناس في الكنز فقال عكرمة وقتادة كان مالا جسيما وقال ابن عباس كان علما في صحف مدفونة وقال عمر مولى غفرة كان لوحا من ذهب قد كتب فيه عجبا للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبا للموقن بالحساب كيف يغفل وعجبا للموقن بالموت

---

(١) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، ١٠٧/٣

(٢) المحرر الوجيز ـ موافق للمطبوع، ٤٢٧/٣

كيف يفرح وروي نحو هذا مما هو في معناه قوله " وكان أبوهما صالحا " ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنية وقيل هو الأب السابع وقيل العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح وفي الحديث إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة " فأردت أن أعيبها " وفي الثانية " فأردنا أن يبدلهما " وفي الثالثة " فأراد ربك أن يبلغا " وإنما انفراد أولا في الإرادة لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله " وإذا مرضت فهو يشفيني " فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى وأسند المرض إلى لنفسه إذ هو معنى نقص ومصيبة وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيرا ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى " فلما زاغوا أزاغ الله " وتقديم فعل الله تعالى في قوله " ثم تاب عليهم ليتوبوا " وإنما قال الخضر في الثانية " فأردنا " لأنه أمل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى البديل لهما وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى وإن كان الخضر قد أراد أيضا ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر والله أعلم والأشد كما الخلق والعقل واختلف الناس في قدر ذلك من السن فقيل خمس وثلاثون وقيل ست وثلاثون وقيل أربعون وقيل غير هذا مما فيه ضعف وقول الخضر " وما فعلته عن أمري "

". (١)

" صفحة رقم ٥٢٨

) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا (مصطفين صفوفا كالصلاة ، لأنهم إذا اصطفوا مثلا صفين كان أثبت لهم وأمنع من عدوهم . قال سعيد بن جبير :

هذا تعليم من الله للمؤمنين .

) كأنهم بنيان مرصوص (فيه وجهان

: أحدهما : أن المرصوص الملتصق بعضه إلى بعض لا ترى فيه كوة ولا ثقبا لأن ذلك أحكم في البناء من تفرقه وكذلك الصفوف ، قاله ابن جبير ، قال الشاعر :

وأشجر مرصوص بطين وجندل

له شرفات فوقهن نصائب

والثاني : أن المرصوص المبني بالرصاص ، قاله الفراء ، ومنه قول الراجز :

ما لقي البيض من الحرقوص

يفتح باب المغلق المرصوص

(الصف : (٥ - ٦) وإذ قال موسى . . . . .

" وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

(١) المحرر الوجيز . موافق للمطبوع، ٥٦٧/٣

الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين " (**) فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم (وفي الزيغ وجهان :

أحدهما : أنه العدول ، قاله السدي .

الثاني : أنه الميل ، إلا أنه لا يستعمل إلا في الزيغ عن الحق دون الباطل .

ويحتمل تأويله وجهين :

أحدهما **: فلما زاغوا عن** الطاعة أزاغ الله قلوبهم عن الهداية .

الثاني **: فلما زاغوا عن** الإيمان أزاغ قلوبهم عن الكلام .." (١)

"يقول الحق جل جلاله : واذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن الجهاد قول موسى لبني إسرائيل ، حين ندبهم إلى قتل الجبابرة ، بقوله : ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ [المائدة : ٢١] الآية ، فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عصيان ، حيث قالوا : ﴿ياموسى إن فيها قوما جبارين...﴾ [المائدة : ٢٢] الآية ، إلى أن قالوا : ﴿فاذهب أنت وربك...﴾ [المائدة : ٢٤] الآية. وآذوه عليه السلام كل الإذاية فقال : ﴿يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ ، فالجملة : حال ، والحال أنكم تعلمون علما قطعيا ، مستمرا ، بمشاهدة ما ترون من المعجزات الباهرة ، أني رسول الله إليكم ، لأرشدكم إلى خير الدنيا والأخرة ، ومن قضية علمكم أن تبالغوا في تعظيمي ، وتسارعوا إلى طاعتي ، ﴿فلما زاغوا﴾ أي : أصروا على الزيغ عن الحق الذي جاءهم به ، واستمروا عليه ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ ؛ صرفها عن قبول الحق ، والميل إلى الصواب ، لصرف اختيارهم نحو الغي والإضلال ، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي : لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرين على الغواية ، هداية موصلة إلى الطاعة وحسن الأدب ، والمراد بهم المذكورون خاصة ، والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين ، وهم داخلون في حكمهم دخولا أوليا ، وأيا ما كان فوصفهم بالفسق نظر إلى ما في قوله تعالى : ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [المائدة : ٢٥] ، هذا الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ،

٣٥

ويرتضيه الذوق السليم. انظر أبا السعود.

﴾

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥

". (٢)

"وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا﴾ أي مالوا عن الحق بعد علمه غاية العلم فآثروهم الباطل على الحق والشر على الخير والكفر على الإيمان عاقبهم الله فصرف قلوبهم عن الهدى نقمة منه تعالى عليهم، وذلك لأنه سنته تعالى فيمن عرض عليه

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٥/٥٢٨

(٢) البحر المديد . موافق للمطبوع، ٨/٥١

الخبر فأباه بعد علمه به، ثم دعى إليه فلم يستجب ثم رغب فيه فلم يرغب وواصل الشر مختارا له عندئذ يصبح ما اختار من الفسق أو الكفر أو الظلم أو الإجرام طبعا له وخلقا ثابتا لا يتبدل ولا يتغير. وعلى هذا يؤول مثل قوله تعالى والله لا يهدي القوم الفاسقين، والله لا يهدي القوم الظالمين، والله لا يهدي القوم المجرمين، والله لا يهدي القوم الكافرين لأنه تعالى أضلهم حسب سنته في الإضلال فلا يستطيع أحد غيره تعالى أن يهدي عبدا أضله الله على علم وهذا معنى قوله تعالى من سورة النحل ﴿إن الله لا يهدي من يضل﴾.

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم١ يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي اذكر يا رسولنا للاتعاظ والعبرة قول عيسى بن مريم لليهود: يا بني إسرائيل نسبهم إلى جدهم يعقوب الملقب بإسرائيل بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام. إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة وهذا برهان على صدقي في دعوتي إذ لم أخالف فيما أدعو إليه من عبادة الله وحده ما في التوراة كتاب الله عز وجل وهو بين أيديكم فوفاقنا دال على أن مصدر تشريعنا واحد هو الله عز وجل فكما آمنتم بموسى وهرون وداود وسليمان آمنوا بي فإني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه٢ احمد، فلهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا دعوة٣ أبي إبراهيم وبشارة عيسى"، إذ إبراهيم لما كان يبني البيت مع إسماعيل كانا يتقاولان ما أخبر تعالى به في قوله: ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك..﴾ الآية.

وقوله تعالى ﴿فلما جاءهم﴾ أي محمد٤ صلى الله عليه وسلم بالبينات أي بالحجج الدالة على صدق رسالته ووجوب إتباعه في العقيدة والشريعة كفروا به وقالوا في القرآن هذا سحر مبين كما قالها فرعون مع موسى. وكما قالتها اليهود مع عيسى عليه السلام.

---

١ وجه مناسبة قصة عيسى لما قبلها أن بني إسرائيل كما فسقوا عن أمر الله وعصوا رسوله موسى فسقوا كذلك عن أمر الله وعصوا عيسى وكفروا فكان هذا تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما لقيه ويلقاه من اليهود.

٢ هل الاسم هو عين المسمى؟ خلاف كبير والصحيح: أن الاسم هو اللفظ الدال على ذات به تتميز عن سائر الذوات.

٣ رواه ابن اسحق بسند جيد ورواه أحمد بألفاظ مختلفة.

٤ جائز أن يكون الضمير في جاءهم عائد إلى عيسى عليه السلام وعلى محمد صلى الله عليه وسلم إذ كلاهما قيل فيه سحر أو ساحر قرأ الجمهور (سحرا) في الآيات وقرأ بعضهم: ساحر أي: محمد أو عيسى عليهما السلام.." (١)

"و بعد أن بين الله تعالى أن المنافقين يموتون كفارا ، أوضح أنهم يتعرضون أيضا لعذاب الدنيا كل عام مرة أو مرتين ، فقال : أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يختبرون كل عام مرة أو مرتين بأنواع الاختبار العديدة من جهاد وقحط ومرض وهي التي تذكر الإنسان بالله ، وتجعله ميالا إلى الإيمان وترك الكفر والتمييز بين الحق والباطل.

ثم إنهم مع توالي الاختبارات لا يتوبون من ذنوبهم السابقة ، ولا يتعظون فيما يستقبل من أحوالهم ، مما يجعلهم غير مستعدين

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، ٣٣٧/٥

لقبول الإيمان.

وإذا أنزلت سورة قرآنية على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم جلوس عنده ، تلفتوا وتغامزوا بالعيون وتهكموا لفساد قلوبهم ، وعزموا على الهروب ، قائلين : هل يراكم الرسول صلى الله عليه وسلم أو المؤمنون إذا خرجتم ؟

ثم انصرفوا جميعا عن مجلس النبي صلى الله عليه وسلم أي تولوا عن الحق ، فهذا حالهم في الدنيا لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه ، كقوله تعالى : فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة [المدثر ٧٤/ ٤٩- ٥١] وقوله : فما ل الذين كفروا قبلك مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عزين [المعارج ٧٠/ ٣٦- ٣٧] أي ما لهؤلاء القوم يخرجون مسرعين ، هروبا من الحق ، وذهابا إلى الباطل.

صرف الله قلوبهم عن الحق والإيمان وعن الخير والنور. وهذا إما دعاء عليهم به أو إخبار عن أحوالهم.

ذلك الصرف بسبب أنهم قوم لا يفهمون الآيات التي يسمعونها ، ولا يريدون فهمها ، ولا يتدبرون فيها حتى يفقهوا ، بل هم في شغل عن الفهم ونفور منه ، كقوله تعالى : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف ٦١/ ٥].

ج ١١ ، ص : ٨٧

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي : ." (١)

"و إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

الإعراب :

وقد تعلمون في موضع الحال.." (٢)

"و بعد هذا الوعد بالخير والجزاء الحسن على أحوال النجوى الخيرة أوعد الله الذين يتناجون بالشر ويدبرون المكائد للناس ويعلنون اعتزالهم عن الجماعة ومعاداتهم الرسول ، فقال : ومن يخالف الرسول ويعاديه ، ويسلك غير طريق

---

(١) أخرجه أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد ، ومطلعه : « البر : ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ... » .

ج ٥ ، ص : ٢٧٠

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٨٣/١١

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ١٧٢/٢٨

الشريعة التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم بارتداده عن الإسلام ، وإظهار عداوته لرسول الهداية وسنته ، ويتبع سبيلا غير سبيل جماعة المؤمنين ، يوله الله ما تولى ، أي يجعله واليا لها وسائرا على طريقها ، ومستحسنا لها استدراجا له ، وتاركا له يتخبط في مهاوي الضلالة ، كما قال تعالى : فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون [القلم ٦٨/ ٤٤] وقال : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف ٦١/ ٥] وقال : ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام ٦/ ١١٠].

ويجعل الله النار مصيره في الآخرة ، وساء المصير مصيره لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة ، كما قال تعالى : احشروا الذين ظلموا وأزواجهم [الصافات ٣٧/ ٢٢] وقال : ورأى المجرمون النار ، فظنوا أنهم مواقعوها ، ولم يجدوا عنها مصرفا [الكهف ١٨/ ٥٣].

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن من يتجه بنفسه في طريقة أو وجهة يتوجه إليها ويرضاها لنفسه ، يتركه الله وشأنه ، ويكون عقابه أمرا منتظرا وعادلا لاختياره طريق الشر ، وبعده عن منهج الاستقامة.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيتان على ما يأتي : ." (١)

"سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتي والمتكبرين على الناس بغير حق من فهم الدلائل الدالة على عظمتي وشريعتي ، كما قال تعالى : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف ٦١/ ٥]. والمراد بآياتي هنا : الأدلة والبينات.

وهذا خطاب شامل كل أمة وفرد ، مثل فرعون وقومه الذين منعهم الله من فهم آيات موسى ، وقد يفهمون بعض الآيات ويجحدونها غرورا وتعاليا وتكبرا مثل قوم فرعون الذين قال الله فيهم : وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [النمل ٢٧/ ١٤] ومثل كفار قريش الذين حجبهم الكبر عن النظر في الآيات مع يقينهم بصدق محمد.

هؤلاء المتكبرون من صفاتهم أولا- أنهم لا يؤمنون بأي آية تدل على الحق وتثبته إذ لا تفيد الآيات إلا من كان مستعدا للفهم وقبول الحق ، كما قال تعالى : إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم [يونس ١٠/ ٩٦- ٩٧].

وثانيا- أنهم يبتعدون عن طريق الهدى والرشاد ، وهي الطريق الممهدة المؤدية إلى النجاة ، فإذا رأى أحدهم هذه السبيل لا يسلكها ويسلك غيرها ، وهذا عن تعمد وعناد ، وقد يكون بعضهم عن جهل ، وحكم الفريقين واحد.

وثالثا- أنهم إذا ظهر لهم سبيل الغي والضلال والفساد ، بادروا إليه مسرعين ، بما تزينه لهم أهواؤهم ونفوسهم الأمارة بالسوء ، وهذا سلوك شر مما سبقه.

ج ٩ ، ص : ٩٢

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٦٤/٥

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بعلة ثابتة وهي تكذيبهم بآيات الله المنزلة على رسله ، وغفلتهم عن النظر بما فيها ، وإعراضهم عن العمل بها.." (١)

"وفي قوله عن المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ .

[ص ٤٣]

﴿ ١١ - ١٢ ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ .

أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية (١) فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ فإنه لا أعظم فسادا (٢) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟" ولكن لا يعلمون علما ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا، لأنه يتضمن فساد (٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما (٤) يحصل فيها من الآفات بسبب (٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم (٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيا فيها بالفساد فيها، وإخرابا لها عما خلقت له.

---

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فسادا.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٨٨/٩

(٥) في ب: التي سببها.

(٦) في ب: عليهم.." (١)

"﴿ ٩٠ – ٩١ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿ وأولئك هم الضالون ﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياذا بالله من حالهم.." (٢)

"﴿ ١١٥ ، ١١٦ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيدًا ﴾ .

أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ويعانده فيما جاء به ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى ﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية.

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا ويزداد ضلالا إلى ضلاله.

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهمّ بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿ كَذَلِكَ

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٢

(٢) تفسير السعدي، ص/١٣٧

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل [ص ٢٠٣] مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.

وقوله: ﴿ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ﴾ أي: نعذبه فيها عذابا عظيما. ﴿ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ أي: مرجعا له ومآلا.

وهذا الوعيد المرتب (١) على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا وكبرا، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و ﴿ سبيل المؤمنين ﴾ مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال. فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، أو تحريمه أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفا ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه فلا يكون إلا منكرا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطا أي: عدلا خيارا ليكونوا شهداء على الناس أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسنة فلا يكون مخالفا.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بيَّن الله قبح ضلال المشركين بقوله:

(١) في ب: المترتب.." (١)

"﴿ ١٣٧ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلا ﴾.

أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره يكون عقوبة وطبعًا لا يزول كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة.

وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.." (٢)

"﴿ ٧٥ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ .

لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبا، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا ﴾ أي: القائلون: ﴿ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ ﴿ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ بقتل أو غيره ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿ وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.." (٣)

"﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ﴾ [ص ٧٣٨] في حياته ﴿ حَتَّى إِذَا هَلَكَ ﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا ﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوا،

(١) تفسير السعدي، ص/٢٠٢

(٢) تفسير السعدي، ص/٢٠٩

(٣) تفسير السعدي، ص/٤٩٩

فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت –من ظهورها– بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿ كَبُرَ ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالله أشد بغضًا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ معارضًا لموسى ومكذبًا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿ إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبًا ﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنًا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿ إِلا فِي تَبَابٍ ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً ﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿ فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا ﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.." (١)

"﴿ ٥ ﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ [ص ٨٥٩] لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[أي:] ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ موبخا لهم على صنيعهم، ومقرعا لهم على أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿ لِمَ تُؤْذُونَنِي ﴾ بالأقوال والأفعال ﴿ وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ .

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد (١) بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا ﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، لا (٢) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال (٣) والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلا منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

---

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.." (٢)

"تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١- ٦﴾ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم * اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿ الم ﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢- ٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿ الْحَيُّ ﴾ كامل الحياة، ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه،

---

(١) تفسير السعدي، ص/٧٣٧

(٢) تفسير السعدي، ص/٨٥٨

وهو مشتمل على الحق ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾

﴿٤﴾ ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ هذا الكتاب ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والثواب العاجل والآجل.

و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ ممن عصاه.

﴿٥﴾ ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦﴾ فهو ﴿ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك- فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٧- ٨﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ * رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد- ولن يوجد- له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلبا للفتنة، وتحريفا لكتابه، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف- فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأن كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.

فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكما، ويقولون: ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ ﴾ للأمور النافعة، والعلوم

الصائبة ﴿ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ ﴾

أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على "إلا الله" حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى ، فيكون هذا مدحا للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها، ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه، عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ هذا." (١)

"وقال ابن عباس : يوضع الحجر على الحجر ، ثم يرص بأحجار صغار ، ثم يوضع اللبن عليه فيسميه أهل مكة المرصوص. وقال الرازي : يجوز أن يكون المعنى على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص قال القرطبي : استدل بعضهم بهذه الآية على أن قتال الراجل أفضل من قتال الفارس ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة. قال المهدوي : وذلك غير مستقيم لما جاء في فضل الفارس من الأجر والغنيمة ، ولا يخرج الفرسان من معنى الآية لأن معناها الثبات ، ولهذا يحرم الخروج من الصف إن قاوموهم إلا متحرفا لقتال ، كمن ينصرف ليكمن في موضع ويهجم ، أو ينصرف من مضيق ليتبعه العدو إلى متسع سهل للقتال ، أو متحيز إلى فئة يستنجد بها ولو بعيدة قليلة أو كثيرة ، فيجوز انصرافه لقوله تعالى : ﴿إلا متحرفا لقتال﴾ (الأنفال : ١٦)

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٠

وتجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره ، وندب

٢٩٢

لقوي أذن له الإمام أو نائبه لإقراره صلى الله عليه وسلم عليها ، وهي ظهور اثنين من الصفين للقتال ، من البروز وهو

---

(١) تفسير السعدي، ص/٩٦٢

الظهور ، فإن طلبها كافر سنت للقوي المأذون له للأمر بها في خبر أبي داود ، ولإن تركها حينئذ إضعافا لنا وتقوية لهم ، وإلا كرهت

ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه ، مبتدئا بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى :

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٠

﴿وإذ﴾ أي : واذكر يأشرف الخلق إذ ﴿قال موسى لقومه﴾ أي : بني إسرائيل ، وقوله : ﴿ياقوم﴾ استعطاف لهم واستنهاض إلى رضا ربهم ﴿لم تؤذونني﴾ أي : تجددون أذاي مع الاستمرار ، وذلك حين رموه بالأدرة كما مر في سورة الأحزاب ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور ، ومن الأذى قولهم ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ (الأعراف : ١٣٨)

وقولهم : ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ (المائدة : ٢٤)

وقولهم : أنت قتلت هارون ، وغير ذلك. وقوله تعالى : ﴿وقد تعلمون﴾ جملة حالية ، أي : علمتم علما قطعيا تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات ، والكتاب الحافظ لكم من الزيغ ﴿إني رسول الله﴾ الملك الأعظم الذي لا كفؤ له ﴿إليكم﴾ ورسوله يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم ، وأنا لا أقول لكم شيئا إلا عنه ، ولا أنطق عن الهوى ﴿فلما زاغوا﴾ أي : عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى وبإيذائه. وقرأ حمزة بالإمالة والباقون بالفتح ﴿أزاغ الله﴾ أي : الملك الذي له الأمر كله ﴿قلوبهم﴾ أي : أمالهم عن الهدى على وفق ما قدره في الأزل ﴿والله﴾ أي : الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال ﴿لا يهدي﴾ أي : بالتوفيق بعد هداية البيان ﴿القوم الفاسقين﴾ أي : العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة ، فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم ، وهذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى ، ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى :

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾

﴿

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٩٣

وإذ﴾ أي : واذكر يا أشرف المرسلين إذ ﴿قال عيسى﴾ ووصفه بقوله ﴿ابن مريم﴾ ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات ﴿يا بني إسرائيل﴾ فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالإسلام ، ولم يقل : يا قوم ، كما قال موسى عليه السلام ؛ لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم ، فإن النسب إنما هو من جهة الأب ، وأكد لإنكار بعضهم فقال ﴿إني رسول الله﴾ أي : الملك الأعظم ﴿إليكم﴾ أي : لا إلى غيركم ﴿مصدقا لما بين يدي﴾ أي : قبلي ﴿من التوراة﴾ التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام ، وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون ، فتصديقي لها مع تأييدي بها مؤيد ، لأن ما أقمت من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم

أنسخه منها ، كما يستدل بما قدامه من الإعلام ويراعيه ببصره. وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ حمزة ونافع بين بين بخلاف عنه عن قالون ، والباقون بالفتح ﴿ومبشرا﴾ في حال تصديقي للتوراة ﴿برسول﴾ أي : إلى كل من شملته الربوبية ﴿يأتي من بعدي﴾ أي : يصدق بالتوراة. فكأنه قيل : ما اسمه ؟

قال : ﴿اسمه أحمد﴾ والمعنى : أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة ، وفي حال تبشيري برسول يأتي من بعدي يعني أن ديني التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر.

٢٩٣." [1]

"والرشاد والهداية والتسديد والتثبيت والعصمة وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) والمراد من هذين الأصبعين الداعيتان فكما أن الشيء الذي يكون بين أصبعي الإنسان يتقلب كما يقلبه الإنسان بواسطة ذينك الأصبعين فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسطة تينك الداعيتين ومن أنصف ولم يتعسف وجرب نفسه وجد هذا المعنى كالشيء المحسوس ولو جوز حدوث إحدى الداعيتين من غير محدث ومؤثر لزمه نفي الصانع وكان (صلى الله عليه وسلم) يقول (يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك) ومعناه ما ذكرنا فلما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات تضرعوا إليه سبحانه وتعالى في أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل بعد أن جعلها مائلة إلى الحق فهذا كلام برهاني متأكد بتحقيق قرآني

ومما يؤكد ما ذكرناه أن الله تعالى مدح هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يتبعون المتشابهات بل يؤمنون بها على سبيل الإجمال وترك الخوض فيها فيبعد منهم في مثل هذا الوقت أن يتكلموا بالمتشابه فلا بد وأن يكونوا قد تكلموا بهذا الدعاء لاعتقادهم أن من المحكمات ثم إن الله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم بسبب أنهم قالوا ذلك وهذا يدل على أن هذه الآية من أقوى المحكمات وهذا كلام متين

وأما المعتزلة فقد قالوا لما دلت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعالى وجب صرف هذه الآية إلى التأويل فأما دلائلهم فقد ذكرناها في تفسير قوله تعالى سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون (البقرة ٦)

ومما احتجوا به في هذا الموضع خاصة قوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وهو صريح في أن ابتداء الزيغ منهم وأما تأويلاتهم في هذه الآية فمن وجوه الأول وهو الذي قاله الجبائي واختاره القاضي أن المراد بقوله لا تزغ قلوبنا (الصف ٥) يعني لا تمنعها الألطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال أزاغهم ويدل على هذا قوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والثاني قال الأصم لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا فهو كقوله ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم (النساء ٦٦) وقال لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفا من فضة (الزخرف ٣٣) والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ وقد يقول القائل لا تحملني على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذيا لك الثالث قال الكعبي لا تزغ قلوبنا أي لا تسمنا باسم

---

(١) تفسير السراج المنير ـ موافق للمطبوع، ١٩٦/٤

الزائغ كما يقال فلان يكفر فلانا إذا سماه كافرا والرابع قال الجبائي أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا وهذا قريب من الوجه الأول إلا أن يحمل على شيء آخر وهو أنه تعالى إذا علم أنه مؤمن في الحال وعلم أنه لو بقي إلى السنة الثانية لكفر فقوله لا تزغ قلوبنا محمول على أن يميته قبل أن يصير كافرا وذلك لأن إبقاءه حيا إلى السنة الثانية يجري مجرى ما إذا أزاغه عن طريق الجنة الخامس قال الأصم لا تزغ قلوبنا عن كمال العقل بالجنون بعد إذ هديتنا بنور العقل السادس قال أبو مسلم احرسنا من الشيطان ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ فهذا جمل ما ذكروه في تأويل هذه الآية وهي بأسرها ضعيفة." (١)

"أما الأول فلأن من مذهبم أن كل ما صح في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لطفا وجب عليه ذلك وجوبا لو تركه لبطلت إلاهيته ولصار جاهلا ومحتاجا والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجة إلى الدعاء في طلبه بل هذا القول يستمر على قول بشر بن المعتمر وأصحابه الذين لا يوجبون على الله فعل جميع الألطاف

وأما الثاني فضعيف لأن التشديد في التكليف إن علم الله تعالى له أثرا في حمل المكلف على القبيح قبح من الله تعالى وإن علم الله تعالى أنه لا أثر له ألبتة في حمل المكلف على فعل القبيح كان وجوده كعدمه فيما يرجع إلى كون العبد مطيعا وعاصيا فلا فائدة في صرف الدعاء إليه

وأما الثالث فهو أن التسمية بالزيغ والكفر دائر مع الكفر وجودا وعدما والكفر والزيغ باختيار العبد فلا فائدة في قوله لا تسمنا باسم الزيغ والكفر

وأما الرابع فهو أنه لو كان علمه تعالى بأنه يكفر في السنة الثانية يوجب عليه أن يميته لكان علمه بأن لا يؤمن قط ويكفر طول عمره يوجب عليه لا يخلقه

وأما الخامس وهو حمله على إبقاء العقل فضعيف لأن هذا متعلق بما قال قبل هذه الآية فأما الذين فى قلوبهم زيغ (آل عمران ٧)

وأما السادس وهو أن الحراسة من الشيطان ومن شرور النفس إن كان مقدورا وجب فعله فلا فائدة في الدعاء وإن لم يكن مقدورا تعذر فعله فلا فائدة في الدعاء فظهر بما ذكرنا سقوط هذه الوجوه وأن الحق ما ذهبنا إليه

فإن قيل فعلى ذلك القول كيف الكلام في تفسير قوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم (الصف ٥)

قلنا لا يبعد أن يقال إن الله تعالى يزيغهم ابتداء فعند ذلك يزيغون ثم يترتب على هذا الزيغ إزاغة أخرى سوى الأولى من الله تعالى وكل ذلك لا منافاة فيه

أما قوله تعالى بعد إذ هديتنا (آل عمران ٨) أي بعد أن جعلتنا مهتدين وهذا أيضا صريح في أن حصول الهداية في القلب بتخليق الله تعالى

ثم قال وهب لنا من لدنك رحمة واعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغي مقدم على تنويره مما ينبغي فهؤلاء المؤمنون سألوا ربهم أولا أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل والعقائد الفاسدة ثم أنهم ابتغوا ذلك بأن طلبوا من ربهم أن ينور قلوبهم بأنوار

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٥٦/٧

المعرفة وجوارحهم وأعضائهم بزينة الطاعة وإنما قال رحمة ليكون ذلك شاملا لجميع أنواع الرحمة فأولها أن يحصل في القلب نور الإيمان والتوحيد والمعرفة وثانيها أن يحصل في الجوارح والأعضاء نور الطاعة والعبودية والخدمة وثالثها أن يحصل في الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية ورابعها أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت وخامسها أن يحصل في القبر سهولة السؤال وسهولة ظلمة القبر

وسادسها أن يحصل في القيامة سهولة العقاب والخطاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات فقوله من لدنك رحمة يتناول جميع هذه الأقسام." (١)

"الأولى أن الكاغدة ليس لها خطر عظيم وإذا كتب فيها القرآن لم يجز إحراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم إحراقه الثانية بشر الحافي أكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فإكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك والثالثة كاغد ليس فيه خط إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى أنه لا يجوز للجنب والحائض أن يمسه بل قال الشافعي رحمه الله تعالى ليس له أن يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لا يمسه إلا المطهرون (الواقعة ٧٩) فالقلب الذي فيه أكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى ءادم (الإسراء ٧٠) كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم وسادسها السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين (الفتح ٤) فلما رغب موسى عليه السلام في طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن أبا بكر رضي الله عنه كان مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة الإيمان فرجوا أن يسمعوا خطاب ألا تخافوا ولا تحزنوا (فصلت ٣٠) وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض (النور ٥٥) أي أن يصيروا خلفاء الله في أرضه وسابعها المحبة والزينة ولاكن الله حبب إليكم الايمان وزينة في قلوبكم (الحجرات ٧) والنكتة أن من ألقى حبة في أرض فإنه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة في أرض القلب فكيف يحرقها وثامنها وألف بين قلوبكم (الأنفال ٦٣) والنكتة أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) ألف بين قلوب أصحابه ثم إنه ما تركهم (في) غيبة ولا حضور (سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) فالرحيم كيف يتركهم وتاسعها الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب (الرعد ٢٨) وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما في العالم من الأجسام فإنه لا يكفيه لأن حاجته غير متناهية والأجسام متناهية والمتناهي لا يصير مقابلا لغير المتناهي بل الذي يكفي في الحاجة الغير المتناهية الكمال الذي لا نهاية له وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه **أحدها فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وثانيها ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم وثالثها في قلوبهم مرض ورابعها جعلنا قلوبهم قاسية وخامسها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وسادسها ختم الله على قلوبهم وسابعها أم على قلوب أقفالها وثامنها كلا بل ران على قلوبهم وتاسعها أولئك الذين طبع الله على قلوبهم إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٥٧/٧

إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ما تشاء قدير الفصل الخامس في حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين الأول أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهي أن يكون خائفا من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى فإن القلب في المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فإذا فرقت ماء العين." (١)

"فتسميه أهل مكة المرصوص وقال أبو إسحق أعلم الله تعالى أنه يحب من يثبت في الجهاد ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص وقال ويجوز أن يكون على أن يستوي شأنهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص وقيل ضرب هذا المثل للثبات يعني إذا اصطفوا ثبتوا كالبنيان المرصوص الثابت المستقر وقيل فيه دلالة على فضل القتال راجلا لأن العرب يصطفون على هذه الصفة ثم المحبة في الظاهر على وجهين أحدهما الرضا عن الخلق وثانيها الثناء عليهم بما يفعلون ثم ما وجه تعلق الآية بما قبلها وهو قوله تعالى كبر مقتا عند الله أن نقول تلك الآية مذمة المخالفين في القتال وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه

ثم قال تعالى

وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين

معناه اذكر لقومك هذه القصة و إذ منصوب بإضمار اذكر أي حين قال لهم تؤذونني وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولا وفعلا فقالوا أرنا الله جهرة (النساء ١٥٣) لن نصبر على طعام واحد (البقرة ٦١) وقيل قد رموه بالأدرة وقوله تعالى وقد تعلمون أنى رسول الله في موضع الحال أي تؤذونني عالمين علما قطعيا أني رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير **وقوله فلما زاغوا أي** مالوا إلى غير الحق أزاغ الله قلوبهم أي أمالها عن الحق وهو قول ابن عباس وقال مقاتل زاغوا أي عدلوا عن الحق بأبدانهم أزاغ الله أي أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم جزاء ما عملوا ويدل عليه قوله تعالى والله لا يهدى القوم الفاسقين قال أبو إسحق معناه والله لا يهدي من سبق في عمله أنه فاسق وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى وقد معناه التوكيد كأنه قال وتعلمون علما يقينيا لا شبهة لكم فيه

ثم قال تعالى

وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسراءيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هاذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٣٨/٢٢

لا يهدى القوم الظالمين

قوله إني رسول الله أي اذكروا أني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقا بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر ومبشرا برسول يصدق بالتوراة على مثل." [١]

" صفحة رقم ٨٤

يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية وقيل نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

(

الصف : (٣ - ٦) كبر مقتا عند...

"كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين " ( ) كبر مقتا عند الله (أي عظم بغضا عند الله) أن تقولوا ما لا تفعلون (معناه أن يعدوا من أنفسهم شيئا ولم يفوا به) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا (أي يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم) كأنهم بنيان مرصوص (أي قد رص بعضه ببعض وألزق بعضه إلى بعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل ومنه الحديث (تراصوا في الصف) ومعنى الآية إن الله يحب أن يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص.

قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه (أي واذكر يا محمد لقومك إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل) يا قوم لم تؤذونني (قيل : إنهم كانوا يؤذونه بأنواع من الأذى التعنت منها قولهم أرنا الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد ومنها أنهم رموه بالأدرة) وقد تعلمون أني رسول الله إليكم (يعني تؤذونني وأنتم عالمون علما قطعيا أني رسول الله إليكم والرسول يعظم ويوقر ويحترم ولا يؤذي **) فلما زاغوا (** أي عدلوا ومالوا عن الحق) أزاغ الله قلوبهم (أي أمالها عن الحق إلى غيره) والله لا يهدي القوم الفاسقين (أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته وهذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم (أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة) مصدقا لما بين يدي من التوراة (أي مقر معترف بأحكام التوراة وكتب الله وأنبيائه جميعا ممن قد تقدم) ومبشرا برسول يأتي من بعدي (أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال) اسمه أحمد (عن أبي موسى قال (أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أصحابه أن يأتوا النجاشي) وذكر الحديث ، وفيه قال (سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه) أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن سلام

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٢٧١/٢٩

قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى (صلى الله عليه وسلم) يا روح الله هل بعدنا من أمة ؟ قال نعم يأتي." (١)

" أيقنوا قال الشيخ بن أبي جمرة رحمه الله قال بعض أهل التوفيق إذا نزلت بي نازلة ما من أي نوع كانت فألهمت فيها اللجأ فلا أبالي بها واللجأ على وجوه منها الاشتغال بالذكر والتعبد وتفويض الأمر له عز و جل لقوله تعالى على لسان نبيه من شغله ذكرى عن مسئلتي أعطيه أفضل ما أعطي السائلين ومنها الصدقة ومنها الدعاء فكيف بالمجموع انتهى

وقوله سبحانه ثم تاب عليهم ليتوبوا لما كان هذا القول في تعديد النعم بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز و جل ليكون ذلك منها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره ولو كان هذا القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي على المذنب كما قال عز و **جل فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ليكون ذلك أشد تقريرا للذنب عليهم وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلفوا في الكتب المذكورة فأنظره وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدي به أقل عذرا في السقوط من سواه وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى أبي جعفر المنصور في آخر رسالة وأعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه و سلم لن تزيد حق الله عليك إلا عظما ولا طاعته إلا وجوبا ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا والسلام

وقوله سبحانه يا أيها الذين أمنوا اتقوا وكونوا مع الصادقين هذا الأمر بالكون مع الصادقين حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين وكان ابن مسعود يتأول الآية في صدق الحديث وإليه نحا كعب بن مالك

وقوله سبحانه ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله الآية ." (٢)

"" صفحة رقم ٣٣٣ "

الصف : (٤) إن الله يحب . . . . .

) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا (مصطفين مصدر وصف به) كأنهم بنيان مرصوص (في تراصهم من غير فرجة حال من المستكن في الحال الأول والرص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه

الصف : (٥) وإذ قال موسى . . . . .

) وإذ قال موسى لقومه (مقدرا باذكر أو كان كذا) يا قوم لم تؤذونني (بالعصيان والرمي بالادرة) وقد تعلمون أني رسول الله إليكم (بما جئتكم من المعجزات والجملة حال مقررة للإنكار فإن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه) وقد (

---

(١) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ٨٤/٧

(٢) تفسير الثعالبي، ١٦٣/٢

لتحقيق العلم) فلما زاغوا (عن الحق) أزاغ الله قلوبهم (صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب) والله لا يهدي القوم الفاسقين (هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة

الصف : (٦) وإذ قال عيسى . . . . .

) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل (ولعله لم يقل) يا قوم (كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسب له فيهم) إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا (في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري) برسول يأتي من بعدي (والعامل في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجار لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل) برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (يعني محمدا (صلى الله عليه وسلم) والمعنى أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه فذكر أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين) فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (الإشارة إلى ما جاء به أو إليه وتسميته سحر للمبالغة ويؤيده قراءة حمزة والكسائي هذا ساحرا على أن الإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام

الصف : (٧) ومن أظلم ممن . . . . .

) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام (أي لا أحد أظلم ممن يدعي إلى الإسلام الظاهر حقيته المقتضي له خبر الدارين فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا فإنه يعم إثبات المنفي ونفي الثابت وقرئ يدعي يقال دعاه وادعاه كلمسه والتمسه) والله لا يهدي القوم الظالمين (لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم." (١)

"ومن فسر المتشابه بأنه ما استأثر الله بعلمه فقط ، فتفسيره غير صحيح ، لأنه تخصيص لبعض المتشابه. انتهى. وفيه بعض تلخيص ، وفيه اختياره أنه معطوف على : الله ، وإياه اختار الزمخشري. قال : لا يهتدي إلى تأويله الحق الذي يجب أن يحمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم ، أي ثبتوا فيه وتمكنوا ، وعضوا فيه بضرس قاطع. ويقولون ، كلام مستأنف موضح لحال الراسخين ، بمعنى : هؤلاء العالمون بالتأويل يقولون آمنا به ، أي : بالمتشابه. انتهى كلامه.

وتلخص في إعراب ﴿والراسخون﴾ وجهان : .

أحدهما : أنه معطوف على قوله : الله ، ويكون في إعراب : يقولون ، وجهان : أحدهما : أنه خبر مبتدأ محذوف. والثاني : أنه في موضع نصب على الحال من الراسخين ، كما تقول : ما قام إلا زيد وهند ضاحكة.

والثاني : من إعراب : والراسخون ، أن يكون مبتدأ ، ويتعين أن يكون : يقولون ، خبرا عنه ، ويكون من عطف الجمل.

وقيل : ﴿الراسخون فى العلم﴾ مؤمنو أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام وأصحابه ، بدليل ﴿لاكن الراسخون فى العلم منهم﴾ يعنى الراسخين في علم التوراة ، وهذا فيه بعد ، وقد فسر الرسوخ في العلم بما لا تدل عليه اللغة ، وإنما هي أشياء نشأت عن الرسوخ في العلم ، كقول نافع : الراسخ المتواضع لله ، وكقول مالك : الراسخ في العلم العامل بما يعلم ، المتبع. جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٧٠

---

(١) تفسير البيضاوي. موافق للمطبوع، ٥/٣٣٣

﴿كل من عند ربنا ﴾ هذا من المقول ، ومفعول : يقولون قوله : ﴿بها كل من عند ربنا وما﴾ وجعلت كل جملة كأنها مستقلة بالقول ، ولذلك لم يشترك بينهما بحرف العطف ، أو جعلا ممتزجين في القول امتزاج الجملة الواحدة ، نحو قوله : كيف أصحبت ؟ كيف أمسيت ؟ ممايزرع الود في فؤاد الكريم ؟ كأنه قال : هذا الكلام مما يزرع الود. والضمير في : به ، يحتمل أن يعود على المتشابه ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يعود على الكتاب. والتنوين في : كل ، للعوض من المحذوف ، فيحتمل أن يكون ضمير الكتاب ، أي : كله من عند ربنا ، ويحتمل أن يكون التقدير : كل واحد من المحكم والمتشابه من عند الله ، وإذا كان من عند الله فلا تناقض ولا أختلاف ، وهو حق يجب أن يؤمن به. وأضاف العندية إلى قوله : ربنا ، لا إلى غيره من أسمائه تعالى لما في الإشعار بلفظة الرب من النظر في مصلحة عبيده ، فلولا أن في المتشابه مصلحة ما

٣٨٥

أنزله تعالى ، ولجعل كتابه كله محكما.

﴿وما يذكر إلا أولوا الالباب﴾ أي : وما يتعظ بنزول المحكم والمتشابه إلا أصحاب العقول ، إذ هم المدركون لحقائق الأشياء ، ووضع الكلام مواضعه ، ونبه بذلك على أن ما أشتبه من القرآن ، فلا بد من النظر فيه بالعقل الذي جعل مميزا لإدراك : الواجب ، والجائز ، والمستحيل ، فلا يوقف مع دلالة ظاهر اللفظ ، بل يستعمل في ذلك الفكر حتى لا ينسب إلى البارىء تعالى ، ولا إلى ما شرع من أحكامه ، ما لا يجوز في العقل.

وقال ابن عطية : أي ، ما يقول هذا ويؤمن به ، ويقف حيث وقف ، ويدع اتباع المتشابه إلا ذولب.

وقال الزمخشري : مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ ويحتمل أن يكون هذا من جملة المقول أي : يقولون ربنا ، وكأنهم لما رأوا انقسام الناس إلى زائغ ، ومتذكر مؤمن ، دعوا الله تعالى بلفظ الرب أن لا يزيغ قلوبهم بعد هدايتهم ، فيلحقوا بمن في قلبه زيغ ، ويحتمل أن يكون تعالى علمهم هذا الدعاء ، والتقدير : قولوا ربنا.

ومعنى الإزاغة هنا الضلالة. وفي نسبة ذلك إليه تعالى رد على المعتزلة في قولهم : إن الله لا يضل ، إذ لو لم تكن الإزاغة من قبله تعالى لما جاز أن يدعى في رفع ما لا يجوز عليه فعله.

وقال الزجاج : لا تكلفنا عبادة ثقيلة تزيغ بها قلوبنا ، وهذا القول فيه التحفظ من خلق الله الزيغ والضلالة في قلب أحد من العباد.

جزء : ٢ رقم الصفحة : ٣٧٠

وقال ابن كيسان : سألوا أن لا يزيغوا ، فيزيغ الله قلوبهم ، نحو : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي : ثبتنا على هدايتك ، وأن لا نزيغ ، فنستحق أن تزيغ قلوبنا. وهذه نزغة إعتزالية ، كما قال الجبائي : لا تمنعها الألطاف التي بها يستمر القلب على صفة الإيمان. ولما منعهم الألطاف لاستحقاقهم منع ذلك ، جاز أن يقال : أزاغهم ، ويدل عليه : فلما زاغوا. وقال الجبائي أيضا : لا تزغنا عن جنتك وثوابك.

وقال أبو مسلم : أحرسنا من الشيطان وشر أنفسنا حتى لا نزيغ.

وقال الزمخشري : لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا ، أو : لا تمنعنا ألطافك بعد أن لطفت بنا. انتهى.

وهذه مسألة كلامية : هل الله تعالى خالق الشر كما هو خالق الخير ؟ أو لا يخلق الشر ؟ فالأول : قول أهل السنة. والثاني : قول المعتزلة. وكل يفسر على مذهبه.
" (١).

"وقرأ الأعمش والجحدري : تزيغ برفع التاء. وقرأ أبي : من بعد ما كادت تزيغ ثم تاب عليهم ، الضمير في عليهم عائد على الأولين ، أو على الفريق فالجملة كررت تأكيدا. أو يراد بالأول إنشاء التوبة ، وبالثاني استدامتها. أو لأنه لما ذكر أن فريقا منهم كادت قلوبهم تزيغ نص على التوبة ثانيا رفعا لتوهم أنهم مسكوت عنهم في التوبة ، ثم ذكر سبب التوبة وهو رأفته بهم ورحمته لهم. والثلاثة الذين خلفوا تقدمت أسماؤهم ، ومعنى خلفوا عن الغزو غزو تبوك قاله : قتادة. أو خلفوا عن أبي لبابة وأصحابه ، حيث تيب عليهم بعد التوبة على أبي لبابة وأصحابه إرجاء أمرهم خمسين يوما ثم قبل توبتهم. وقد رد تأويل قتادة كعب بن مالك بنفسه فقال : معنى خلفوا تركوا عن قبول العذر ، وليس بتخلفنا عن الغزو. وقرأ الجمهور : خلفوا بتشديد

١٠٩

اللام مبنيا للمفعول. وقرأ أبو مالك كذلك وخفف اللام. وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي ، وذر ابن حبيش ، وعمرو بن عبيد ، ومعاذ القاري ، وحميد : بتخفيف اللام مبنيا للفاعل ، ورويت عن أبي عمرو أي : خلفوا الغازين بالمدينة ، أو فسدوا من الخالفة. وقرأ أبو العالية أبو الجوزاء كذلك مشدد اللام. وقرأ أبو زيد ، وأبو مجلز ، والشعبي ، وابن يعمر ، وعلي بن الحسين ، وابناه زيد ، ومحمد الباقر ، وابنه جعفر الصادق : خالفوا بألف أي : لم يوافقوا على الغزو. وقال الباقر : ولو خلفوا لم يكن لهم. وقرأ الأعمش وعلى الثلاثة المخلفين ، ولعله قرأ كذلك على سبيل التفسير ، لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف. حتى إذا ضاقت عليهم الأرض

١٠٧

بما رحبت تقدم تفسير نظيرها في هذه السورة في قصة حنين. وضاقت عليهم أنفسهم استعارة ، لأن الهم والغم ملأها بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وخرجت عن فرط الوحشة والغم ، وظنوا أي : علموا. قاله الزمخشري. وقال ابن عطية : أيقنوا ، كما قالوا في قول الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدحجسراتهم في الفارسي المسرد

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨٦

وقال قوم : الظن هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزين ، لأنه وقف أمرهم على الوحي ولم يكونوا قاطعين بأنه ينزل في شأنهم قرآن ، أو كانوا قاطعين لكنهم يجوزون تطويل المدة في بقائهم في الشدة ، فالظن عاد إلى تجويز تلك المدة قصيرة. وجاءت هذه الجمل في كنف إذا في غاية الحسن والترتيب ، فذكر أولا ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم ، ونبوة الناس عن كلامهم. وثانيا وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم ، والغم على قلوبهم ، حتى لم يكن فيها

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٩٣/٢

شيء من الانشراح والاتساع ، فذكر أولا ضيق المحل ، ثم ثانيا ضيق الحال فيه ، لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة. سم الخياط مع المحبوب ميدان. ثم ثالثا لما يئسوا من الخلق عذقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه ، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى ﴿ثم إذا مسكم الضر فإليه تجارون﴾ وإذا إن كانت شرطية فجوابها محذوف تقديره : تاب عليهم ، ويكون قوله : ثم تاب عليهم ، نظير قوله : ثم تاب عليهم ، بعد قوله ﴿لقد تاب الله على النبي﴾ الآية. ودعوى أن ثم زائدة وجواب إذا ما بعد ثم بعيد جدا ، وغير ثابت من لسان العرب زيادة ثم. ومن زعم أن إذا بعد حتى قد تجرد من الشرط وتبقى لمجرد الوقت فلا تحتاج إلى جواب بل تكون غاية للفعل الذي قبلها وهو قوله : خلفوا أي : خلفوا إلى هذا الوقت ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا ، أو ليتوبوا أيضا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علما منهم أن الله ثواب على من تاب ، ولو عاد في اليوم مائة مرة. وقيل : معنى ليتوبوا ليدوموا على التوبة ولا يراجعوا ما يبطلها. وقيل : ليتوبوا ، ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم من الاختلاط بالمؤمنين ، وتستكن نفوسهم عند ذلك. قال ابن عطية : وقوله : ثم تاب عليهم ليتوبوا ، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله تعالى ليكون ذلك منبها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره ، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ليكون هذا أشد تقريرا للذنب عليهم ، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه. وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها أنها تكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلفوا ، وقد خرج حديثهم بكماله البخاري ومسلم وهو في السير ، فلذلك اختصرت سوقه. وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطالبهم من الحد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه ، إذ هو أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إذ كان

١١٠

". (١)

"﴿وإذا مآ أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم﴾ . ذكر أولا ما يحدث عنهم من القول على سبيل الاستهزاء ، ثم ذكر ثانيا ما يصدر منهم من الفعل على سبيل الاستهزاء وهو الإيماء والتغامز بالعيون إنكارا للوحي ، وسخرية قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نقدر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم ، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون : هل يراكم من أحد ؟ والظاهر إطلاق السورة أية سورة كانت. وقيل : ثم صفة محذوفة أي : سورة تفضحهم ويذكر فيها مخازيهم ، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير ، يفهم من تلك النظرة التقرير : هل يراكم من ينقل عنكم ؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم ؟ ثم انصرفوا أي : عن طريق الاهتداء ، وذلك أنهم حين ما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. قال الضحاك : هل اطلع أحد منهم على سرائركم مخافة القتل ثم انصرفوا إن كان حقيقة فالمعنى : قاموا من المكان الذي تتلى فيه السورة

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٥/٩٠

أو مجازا ، فالمعنى : انصرفوا عن الإيمان ، وذلك وقت رجوعهم إليه وإقبالهم عليه ، قاله الكلبي ، أو رجعوا إلى الاستهزاء أو إلى الطعن في القرآن والتكذيب له ولمن جاء به ، أو عن العمل بما كانوا يسمعونه ، أو عن طريق الاهتداء بعد أن بين لهم ومهد وأقيم دليله ، وهذا القول راجع لقول الكلبي.

صرف الله قلوبهم صيغته خبر ، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان ، قاله الفراء. والظاهر أنه خير لما كان الكلام في معرض ذكر التكذيب ، بدأ بالفعل المنسوب إليهم وهو قوله : ثم انصرفوا ، ثم ذكر فعله تعالى بهم على سبيل المجازاة لهم على فعلهم كقوله : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . قال الزجاج : أضلهم. وقيل : عن فهم القرآن والإيمان به. وقال ابن عباس : عن كل رشد وخير وهدى. وقال الحسن : طبع عليها بكفرهم. قال الزمخشري : صرف الله قلوبهم دعاء عليهم بالخذلان ، ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بأنهم قوم لا يفقهون يحتمل أن يكون متعلقا بانصرفوا ، أو بصرف ، فيكون من باب الإعمال أي : بسبب انصرافهم ، أو صرف الله قلوبهم هو بسبب أنهم لا يتدبرون القرآن فيفقهون ما احتوى عليه مما يوجب إيمانهم والوقوف عنده.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ١١٣

﴿لقد جآءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ : لما بدرأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وقص فيها أحوال المنافقين شيئا فشيئا ، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم ، أو من نسبهم عربيا قرشيا يبلغهم عن الله متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب ، ويحرص على هداهم ، ويرأف بهم ، ويرحمهم. قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ، فكأنه قال : يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل ، ويحتمل أن يكون الخطاب لمن بحضرته من أهل الملل والنحل ، ويحتمل أن يكون حطابا لبني آدم ، والمعنى : أنه لم يكن من غير جنس بني آدم ، لما في ذلك من التنافر بين الأجناس كقوله :

١١٧." (١)

"﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأوالئاك هم الكاذبون * من كفر بالله منا بعد إيمانها إلا من أكره وقلبه مطمانا بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب﴾ : لما ذكر تعالى نسبتهم إلى

٥٣٧

الافتراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن ما أتى به من عند الله إنما يعلمه إياه بشر ، كان ذلك تسجيلا عليهم بانتفاء الإيمان ، فأخبر تعالى عنهم أنهم لا يهديهم الله أبدا إذ كانوا جاحدين آيات الله ، وهو ما أتى به الرسول من المعجزات وخصوصا القرآن ، فمن بالغ في جحد آيات الله سد الله عليه باب الهداية. وذكر تعالى وعيده بالعذاب الأليم لهم ، ومعنى لا يهديهم : لا يخلق الإيمان في قلوبهم. وهذا عام مخصوص ، فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى. وقال الزمخشري : لا

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٩٧/٥

يهديهم الله لا يلطف بهم ، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لا من أهل اللطف والثواب انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. وقال ابن عطية : المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته ، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخبرتهمما بتقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم ، وذلك كقوله : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ والمراد ما ذكرناه ، فكأنه قال : إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله انتهى. وقال القاضي : أقوى ما قيل في ذلك لا يهديهم إلى طريق الجنة ، ولذلك قال بعده : ولهم عذاب أليم ، والمراد أنهم لما تركوا الإيمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار. وقال العسكري : يجوز أن يكون المعنى أنهم إن لم يؤمنوا بهذه الآيات لم يهتدوا ، والمراد بقوله : لا يهديهم الله أي لا يهتدون ، وإنما يقال : هدى الله فلانا على الإطلاق إذا اهتدى هو ، وأما من لم يقبل الهدى فإنه يقال : إن الله هداه فلم يهتد ، كما قال : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ثم رد تعالى قولهم : ﴿إنمآ أنت مفترا﴾ بقوله : إنما يفتري الكذب ، أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه يترقب عقابا عليه. ولما كان في كلامهم إنما وهو يقتضي الحصر عند بعضهم ، جاء الرد عليهم بإنما أيضا ، وجاء بلفظ يفتري الذي يقتضي التجدد ، ثم علق الحكم على الوصف المقتضي للافتراء وهو : انتفاء الإيمان ، وختم بقوله : وأولئك هم الكاذبون. فاقتضى التوكيد البالغ والحصر بلفظ الإشارة ، والتأكيد بلفظ هم ، وإدخال أل على الكاذبون ، وبكونه اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام ، فجاء يفتري يقتضي التجدد ، وجاء الكاذبون يقتضي الثبوت والدوام. وقال الزمخشري : وأولئك إشارة إلى قريش هم الكاذبون ، هم الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون. أو إلى الذين لا يؤمنون أي : وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب ، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب. أو أولئك هم الكاذبون عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء ، لا يحجبهم عنه مروءة ولا دين. أو أولئك هم الكاذبون في قولهم : إنما أنت مفتر انتهى. والوجه الذي بدأ به بعيد ، وهو أن وأولئك إشارة إلى قريش. والظاهر أن من شرطية في موضع رفع على الابتداء ، وهو استئناف إخبار لا تعلق له بما قبله من جهة الإعراب. ولما كان الكفر يكون باللفظ وبالاعتقاد ، استثنى من الكافرين من كفر باللفظ وقلبه مطمئن بالإيمان ، ورخص له في النطق بكلمة الكفر إذ كان قلبه مؤمنا ، وذلك مع الإكراه. والمعنى : إلا من أكره على الكفر ، تلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما بعده عليه تقديره : الكافرون بعد الإيمان غير المكرهين ، فعليهم غضب. ويصح أن يكون الاستثناء من ما تضمنه جواب الشرط المحذوف أي : فعليهم غضب ، إلا من أكره فلا غضب عليه ولا عذاب ، ولكن من شرح وكذا قدره الزمخشري أعني الجواب

٥٣٨

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٥٢٨

." (١)

"سورة الصف

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٨

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٣٩/٥

المرصوص ، قال الفراء والقاضي منذر بن سعيد : هو المعقود بالرصاص. وقال المبرد : رصصت البناء : لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، قال الراعي :
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٩
ما لقي البيض من الحرقوصبفتح باب المغلف المرصوص
الحرقوص : دويبة تولع بالنساء الأبكار ، وقيل : هو من الترصيص ، وهو انصمام الأسنان.
﴿سبح لله ما فى السماوات وما فى الارضا وهو العزيز الحكيم * يا أيها الذين ءامنوا لم تقولون ما لا تفعلون *كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيلها صفا كأنهم بنيان مرصوص * وإذ قال موسى لقومها ياقوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين * وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى منا بعدى اسمها أحمدا فلما﴾ .
هذه السورة مدنية في قول الجمهور ، ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة. وقال ابن يسار : مكية ، وروى ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد. وسبب نزولها قول المنافقين للمؤمنين : نحن منكم ومعكم ، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك ؛ أو قول شباب من المسلمين : فعلنا في الغزو كذا ولم يفعلوا ؛ أو قول ناس : وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نعنى فيه ، ففرض الجهاد ؛ وأعلم تعالى بحب المجاهدين ، فكرهه قوم وفر بعضهم يوم أحد ، فنزلت ، أقوال. الأول : لابن زيد ، والثاني : لقتادة ، والثالث : لابن عباس وأبي صالح.
ومناسبتها لآخر السورة قبلها ، أن في آخر تلك : ﴿رحيم * يا أيها الذين ءامنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم﴾ ، فاقتضى ذلك إثبات العداوة بينهم ، فحض تعالى على الثبات إذا لقي المؤمنون في الحرب أعداءهم. والنداء بـ ﴿ذلك بأن الذين كفروا ﴾ ، إن كان للمؤمنين حقيقة ، فالاستفهام يراد به التلطف في العتب ، وإن كان للمنافقين ، فالمعنى ﴿ذلك بأن الذين كفروا ﴾ : أي بألسنتهم ، والاستفهام يراد به الإنكار والتوبيخ وتهكم بهم في إسناد الإيمان إليهم ، ولم يتعلق بالفعل وحده. ووقف عليه بالهاء أو بسكون الميم ، ومن سكن في الوقف فلإجرائه مجرى الوقف ، والظاهر انتصاب ﴿مقتا﴾ على التمييز ، وفاعل ﴿كبر﴾ : أن ﴿تقولوا ﴾ ، وهو من التمييز المنقول من الفاعل ، والتقدير : كبر مقت قولكم ما لا تفعلون. ويجوز أن يكون من باب نعم وبئس ، فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالتمييز ، وأن تقولوا هو المخصوص بالذم ، أي بئس مقتا قولكم كذا ، والخلاف الجاري في المرفوع في : بئس رجلا زيد ، جار في ﴿أن تقولوا ﴾ هنا ، ويجوز أن يكون في كبر ضمير يعود على المصدر المفهوم من قوله : ﴿لم تقولون﴾ ، أي كبر هو ، أي القول مقتا ، ومثله كبرت كلمة ، أي ما أكبرها كلمة ، وأن تقولوا بدل من المضمر ، أو خبر ابتداء مضمر. وقيل : هو من أبنية التعجب ، أي ما أكبره مقتا. وقال الزمخشري : قصد في كبر التعجب من غير لفظه كقوله :
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٩

غلت ناب كليب بواؤها

ومعنى التعجب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظرائه وأشكاله ، وأسند إلى ﴿أن تقولوا ﴾ ونصب ﴿مقتا﴾ على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض ، ولم يقتصر على أن جعل البغض كثيرا حتى جعل أشده وأفحشه ، وعند الله أبلغ من ذلك ، لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته. انتهى. وقال ابن عطية : والمقت : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت. انتهى. وقال المبرد : رجل ممقوت ومقيت ، إذا كان يبغضه كل أحد. انتهى. وقرأ زيد بن علي : يقاتلون بفتح التاء. وقيل : قرىء يقتلون ، وانتصب صفا على الحال ، أي صافين أنفسهم أو مصفوفين ، كأنهم فيء في تراصهم من غير فرجة ولا خلل ، بنيان رص بعضه إلى بعض. والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص. وقيل : المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. قيل : وفيه دليل على فضل القتال راجلا ، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة ؛ وصفا وكأنهم ، قال الزمخشري : حالان متداخلان. وقال الحوفي : كأنهم في موضع النعت لصفا. انتهى. ويجوز أن يكونا

٢٦١

حالين من ضمير يقاتلون.." (١)

"ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل ، وهو راجع إلى الكذب ، فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول عليه الصلاة والسلام ، إذ كان في أتباعه من عانى الكذب ، فناسب ذكر قصة موسى وقوله لقومه : ﴿لم تؤذونني﴾ ، وإذايتهم له كان بانتقاصه في نفسه وجحود آيات الله تعالى واقتراحاتهم عليه ما ليس لهم اقتراحه ، ﴿وقد تعلمون﴾ : جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكريمه ، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية ، وقد تدل على التحقق في الماضي والتوقع في المضارع ، والمضارع هنا معناه المضي ، أي وقد علمتم ، كقوله : ﴿قد يعلم مآ أنتم عليه﴾ ، أي قد علم ، ﴿قد نرى تقلب﴾ . وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب الفعل ، ﴿فلما زاغوا ﴾ عن الحق ، ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ . قال الزمخشري : بأن منع ألطافه ، ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ : لا يلطف بهم ، لأنهم ليسوا من أهل اللطف. وقال غيره : أسند الزيغ إليهم ، ثم قال : ﴿أزاغ الله﴾ كقوله تعالى : ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ ، وهو من العقوبة على الذنب بالذنب ، بخلاف قوله : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ .

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٩

ولما ذكر شيئا من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل ، ذكر أيضا شيئا من قصة عيسى عليه السلام. وهناك قال : ﴿عليه قوم﴾ لأنه من بني إسرائيل ، وهنا قال عيسى : ﴿معى بنى إسرا ءيل﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب ، وإن كانت أمه منهم. ومصدقا ومبشرا : حالان ، والعامل رسول ، أي مرسل ، ويأتي واسمه جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية ، ولمن تأخر من النبي المذكور ، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته. وروي أن

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٩٦/٨

الحواريين قالوا : يا رسول الله هل بعدنا من أمة ؟ قال : "نعم ، أمة أحمد صلى الله عليه وسلم ، حكماء علماء أبرار أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل". وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم ، أو من أحمد أفعل التفضيل ، وقال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشهوالطيبون على المبارك أحمد

وقال القشيري : بشر كل نبي قومه بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الموضع لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم ، فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدا بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام. والظاهر أن الضمير المرفوع في ﴿جآءهم﴾ يعود على عيسى لأنه المحدث عنه. وقيل : يعود على أحمد. لما فرغ من كلام عيسى ، تطرق إلى الإخبار عن أحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين ، أي فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة قالوا : ﴿هاذا سحر مبين﴾ . وقرأ الجمهور : سحر ، أي ما جاء به من البينات. وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب : ساحر ، أي هذا الحال ساحر. وقرأ الجمهور : يدعى مبنيا للمفعول ؛ وطلحة : يدعى مضارع ادعى مبنيا للفاعل ، وادعى يتعدى بنفسه إلى المفعول به ، لكنه لما ضمن معنى الانتماء والانتساب عدى بإلى. وقال الزمخشري : أيضا ، وقرأ طلحة بن مصرف : وهو يدعى بشد الدال ، بمعنى يدعى دعاه وادعاه ، نحو لمسه والتمسه.

﴿يريدون﴾ الآية : تقدم تفسير نظيرها في سورة التوبة. وقال الزمخشري : أصله : ﴿يريدون أن﴾ ، كما جاء في سورة براءة ، وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدا له لما فيها من معنى الإرادة في قولك : جئتك لأكرمك ، كما زيدت اللام في : لا أبا لك ، تأكيدا لمعنى الإضافة في : لا أبا لك. انتهى. وقال نحوه ابن عطية ، قال : واللام في قوله : لام مؤكدة ، دخلت على المفعول لأن التقدير : يريدون أن يطفؤا ، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم ، تقول : لزيد ضربت ، ولرؤيتك قصرت. انتهى. وما ذكره ابن عطية من أن هذه اللام أكثر ما تلزم المفعول إذا تقدم ليس بأكثر ، بل الأكثر : زيدا ضربت ، من : لزيد ضربت. وأما قولهما إن اللام للتأكيد ، وإن التقدير أن يطفؤا ، فالإطفاء

٢٦٢

مفعول ﴿إن يريدون﴾ ، فليس بمذهب سيبويه والجمهور. وقال ابن عباس وابن زيد : هنا يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول. وقال السدي : يريدون دفع الإسلام بالكلام. وقال الضحاك : هلاك الرسول صلى الله عليه وسلم بالأراجيف. وقال ابن بحر : إبطال حجج الله بتكذيبهم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٩

". (١)

"" " صفحة رقم ٥١ " "

(وإذ قال موسى لقومه يقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

---

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١٩٧/٨

الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (

قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه (الآية .

لما ذكر الجهاد ، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد ، وجاهدا في سبيل الله ، وحل العقاب بمن خالفهما ، أي : واذكر لقومك يا محمد هذه القصة .

قوله : (لم تؤذونني) .

وذلك حين رموه بالأدرة ، كما تقدم في سورة الأحزاب .

ومن الأذى : ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور ، ومن الأذى قولهم : (اجعل لنآ إل اها كما لهم آلهة ([الأعراف : ١٣٨] ، وقولهم : (ف اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ([المائدة : ١٢٤] ، وقولهم : أنت قتلت هارون .

قوله : (وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) . جملة حالية .

قال ابن الخطيب : و " قد " معناه : التوكيد ، كأنه قال : وتعلمون علما يقينا ، لا شبه [لكم] فيه .

قوله : (أني رسول الله إليكم) .

والمعنى : أن رسول الله يحترم يقينا .

قوله : (فلما زاغو اا (، أي : مالوا عن الحق ،) أزاغ الله قلوبهم (أي : أمالهم عن الهدى .

وقيل : (فلما زاغو اا (عن الطاعة ،) أزاغ الله قلوبهم (عن الهداية .

وقيل : (فلما زاغو اا (عن الإيمان ،) أزاغ الله قلوبهم (عن الثواب .

وقيل : لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول – عليه الصلاة والسلام – وطاعة الرب ، " خلق " الله في قلوبهم الضلالة عقوبة لهم على فعلهم .." (١)

"[وقوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾ محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أي هم كفار في كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿ لا يؤمنون ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ لا يؤمنون ﴾ خبرا لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾ جملة معترضة، والله أعلم] (١).

﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) ﴾

قال السدي: ﴿ ختم الله ﴾ أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٥١/١٩

وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به (٢) من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهدا يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد من ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه (٣) -يعني: الكف-فإذا أذنب العبد ذنبا ضم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضم. وقال بأصبع أخرى وهكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال (٤) : يطبع عليه بطابع.

وقال مجاهد: كانوا (٥) يرون أن ذلك: الرين.

ورواه ابن جرير: عن أبي كريب، عن وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

قال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلانا لأصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع (٦) نفسه عن تفهمه تكبرا.

قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم.

(قلت): وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هاهنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده -تعالى الله عنه في اعتقاده-ولو فهم قوله تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال، والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ وذكر حديث تقليب القلوب: "ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك"، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٢) في جـ، ط، ب، أ، و: "وقال: الطبع ينبت الذنوب على القلب فحفت به".

(٣) في جـ، ط، ب، أ، و: "هذا".

(٤) في ط، ب: "قال: ثم".

(٥) في جـ، ط، ب: "وكانوا".

(٦) في جـ: "يرفع".." (١)

"[صلى الله عليه وسلم]. (١) وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفا صالحا في كتاب "أحاديث الأصول"، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي، رحمه الله، في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك (٢) .

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له -استدراجا له -كما قال تعالى: ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ [القلم: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف :٥]. وقوله ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم [وما كانوا يعبدون. من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم] (٣) ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وقال: ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ [الكهف:٥٣] .

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (١١٦) إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) ﴾

---

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر: كلام الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة (ص ٤٧١) في إثبات حجية الإجماع ومناقشة الخصوم.

(٣) زيادة من ر، أ، وفي هـ: "الآية".." (٢)

"والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس (١) بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام:١١٠] وقال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥]

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر.

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ١٧٤/١

(٢) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٤١٣/٢

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدا.
وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.
قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة (٢)
قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.
وقوله: ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ كما قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ [يونس:٩٦ ، ٩٧] .
وقوله: ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا.
ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي: لا يعلمون شيئا مما فيها.
وقوله: ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله.
وقوله: ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب (٣) أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وكما تدين تدان.
﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨) ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩) ﴾
يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و"الخوار" صوت البقر.

(١) في أ: "على الله".
(٢) تفسير الطبري (١٣/١١٣).
(٣) في أ: "نجازيهم إلا بحسب".." (١)

"﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (١٢٦) وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (١٢٧) ﴾
يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون (١) ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي: يختبرون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٤٧٥/٣

يذكرون ﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع.

وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقال شريك، عن جابر -هو الجعفي -عن أبي الضحى، عن حذيفة: ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

وفي الحديث عن أنس: "لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحا، وما من عام إلا والذي بعده شر منه" ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم. (٢)

وقوله: ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ (٣) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي: تلفتوا، ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]، وقال تعالى: ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ [المعارج:٣٦، ٣٧]، أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾ كقوله: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف: ٥]،

---

(١) في ك، أ: "المنافقين".

(٢) هذا الحديث مركب من حديثين عن أنس: الأول: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٠٣٩) والحاكم في المستدرك (٤/٤٤١) من طريق محمد بن خالد الجندي، عن أبان ابن صالح، عن الحسن، عن أنس رضي الله عنه مرفوعا: "لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارا، ولا الناس إلا شحا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، وما المهدى إلا عيسى ابن مريم" ففيه ضعف ونكارة بينهما المؤلف - الحافظ ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (١/٣٢). وأما الثاني: فرواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٦٨) من طريق سفيان عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: "اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم" سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم.

(٣) في ت: "رآكم".." (١)

"أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه (١) وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارا طوالا فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٤/٢٤٠

كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله (٣) : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿ فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ [المائدة: ٤٩].

وعلى هذا تكون (٤) السوءى منصوبة مفعولا لأساءوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى ﴾ أي: كانت السوءى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوءى منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، ﴿ وكانوا بها يستهزئون ﴾ .

﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (١١) ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (١٢) ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين (١٣) ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون (١٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون (١٥) ﴾

---

(١) في ت: "صلى الله عليه وسلم".

(٢) في ت: "أمر".

(٣) في ت، ف: "وقال".

(٤) في ف: "يكون".

(٥) تفسير الطبري (١٨/٢١).

(٦) في ت: "ومنقول".." (١)

"﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧) حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠) فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢) فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم (٤٣) وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (٤٤) واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥) ﴾

يقول تعالى: ﴿ ومن يعش ﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٦/٣٠٦

هاهنا: عشا البصيرة، ﴿ نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ كقوله: ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [فصلت:٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا ﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ [أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا] (١) وقرأ بعضهم: "حتى إذا جاءانا" يعني: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (٢)

والمراد بالمشرقين هنا (٣) هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال (٤) القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران] (٥) . قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على قتلاهم لقتلت نفسي ...

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي ...

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسي وتسلية ولا تخفيف] . (٦)

ثم قال تعالى: ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله: ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل (٧) في ذلك.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/١٦١).

(٣) في ت، م، أ: "هاهنا".

(٤) في ت، م: "قيل".

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت، م، أ: "الحاكم العادل".." [1]

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٧/٢٢٨

"﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ﴾." [١]

"﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿ لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ أي: لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟. وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصاب (١) من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: "رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" (٢) وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ [الأحزاب : ٦٩]

وقوله: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] وقال ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ [النساء : ١١٥] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

وقوله: ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام (٣) في ملأ بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب".

ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه (٤)

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: "أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة".

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به (٥)

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٨/١٠٩

(١) في م: "فيما أصابه".

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٦٢٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في م: "وقد قام".

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤).

(٥) مسند الطيالسي برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥).." [1]

"تفسير سورة الصف

وهي مدنية كلها تفسير سورة الصف الآيات من الآية إلى الآية سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز في نقمته الحكيم في أمره يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون تفسير الحسن يعني المنافقين نسبهم إلى الإسلام الذي أظهروا وهو الإقرار وكانوا يقولون نجاهد مع رسول الله ونؤمن به فإذا جاء الجهاد بعدوا عنه فقال الله كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون قال محمد لم تقولون الأصل لما فحذفت الألف لكثرة استعمالهم ما في الإستفهام فإذا وقفت عليها قلت لمه ولا وقف عليها في القرآن بالهاء إتباعا للمصحف ل وينبغي للقارئ أن يصلها وقوله كبر مقتا عند الله أن تقولوا أن في موضع رفع و مقتا منصوب على التمييز المعنى كبر قولكم ما لا تفعلون مقتا قال يحيى ثم وصف المؤمنين فقال إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ذكر ثبوتهم في صفوفهم كأنه بنيان قد

رص بعضه إلى بعض تفسير سورة الصف الآية وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم يعني الخاصة الذين يعلمون أنه رسول الله الذين كذبوه وآذوه فكان فيما آذوه به أن زعموا أنه آدر فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والزيغ الشرك والله لا يهدي القوم الفاسقين يعني الذين يلقون الله بشركهم تفسير سورة الصف الآيات من الآية إلى الآية ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد مالك بن أنس عن الزهري عن ابن جبير بن مطعم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب يعني الآخر

والله لا يهدي القوم الظالمين يعني الذين يلقون الله بشركهم." [2]

"قوله تعالى: " وما قدروا الله حق قدره "

عن سعيد بن جبير، رضي الله عنه، قال:"تكلمت اليهود في صفة الرب، فقالوا: ما لم يعلموه، وما لم يروا، فأنزل الله: " وما قدروا الله حق قدره " "

عن الحسن، رضي الله عنه، قال:"اليهود نظروا في خلق السماوات، والأرض، والملائكة، فلما زاغوا أخذوا يقدرونه، فأنزل الله: " وما قدروا الله حق قدره " "

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ١٠٩/٨

(٢) تفسير ابن أبي زمنين، ٢٤٦/٢

عن الربيع بن أنس، رضي الله عنه، قال:"لما نزلت: " وسع كرسيه السماوات والأرض " ، قالوا: يا رسول الله، هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش؟ فأنزل الله: " وما قدروا الله حق قدره " "

عن ابن عمر، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر:" " وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه " ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده، ويحركها يقبل بها ويدبر، يمجد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الكريم، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا: ليخرن به"." (١)

" الأعراف آية ١٤٦

أحسن من المباح وقيل المعنى بأخذوا بها وأحسن صلة قال قطرب أي بحسنها وكلها حسن كقوله تعالى ولذكر الله أكبر وقيل هو أن تحمل الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب سأريكم دار الفاسقين تلوين للخطاب وتوجيه له إلى قومه عليه الصلاة و السلام بطريق الالتفات حملا لهم على الجد في الامتثال بما أمروا به إما على نهج الوعيد والترهيب على أن المراد بدار الفاسقين أرض مصر وديار عاد وثمود واضرابهم فإن رؤيتها وهي الخالية عن أهلها خاوية على عروشها موجبة للاعتبار والانزجار عن مثل أعمال أهلها كيلا يحل بهم ما حل بأولئك وإما على نهج الوعد والترغيب على أن المراد بدار الفاسقين إما أرض مصر خاصة أو مع أرض الجبابرة والعمالقة بالشام فإنها أيضا مما أتيح لبني إسرائيل وكتب لهم حسبما ينطق به قوله عز و جل يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ومعنى الإراءة الإدخال بطريق الإيراث ويؤيده قراءة من قرأ سأورثكم بالثاء المثلثة كما في قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وقرىء سأوريكم ولعله من أوريت الزند أي سأبينها لكم وقوله تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعد إراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لاصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع أن في المؤخر نوع كول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعني سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل وعلى هذا فالأنسب أن يراد بدار الفاسقين ارض الجبابرة والعمالقة والمشهورين بالفسق والتكبر في الأرض ووبإراءتها للمخاطبين إدخالهم الشام وإسكانهم في مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتي الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشيء من الوعد بإدخال الشام على أن المراد بالآيات ما تلي آنفا ونظائره وبصرفهم عنها إزالتهم عن مقام معارضتها وممانعتها لوقوع

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ١٢/١٦٠

أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة و السلام حين سار بعد التيه بمن بقي من بني إسرائيل ." (١)

" ٥٤ -

وقوله تعالى إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا بيان لما هو مرضى عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده وهذا صريح في أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال لا عما تقوله المتمدح أو انتحله المنتحل أو أعاده المنافق وأن مناط التعبير والتوبيخ هو إخلافهم لا وعدهم كما أشير إليه وقرىء يقاتلون بفتح التاء ويقاتلون وصفا مصدر وقع موقع الفاعل أو المفعول نصبه على الحالية من فاعل يقاتلون أى صافين أنفسهم أو مصفوفين وقوله تعالى كأنهم بنيان مرصوص حال من المستكن في حال الأولى أى مشبهين في تراصهم من غير فرجة وخلل ببنيان رص بعضه الى بعض ورصف حتى صار شيئا واحدا وقوله تعالى وإذ قال موسى لقومه كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة و السلام بطريق التلوين أى واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل حين ندبهم الى قتال الجبابرة بقوله يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبلوا خاسربن فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون الى قوله تعالى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون واصروا على ذلك وآذوه عليه الصلاة و السلام كل الآذية يا قوم لم تؤذنني اى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به وقوله تعالى وقد تعلمون أني رسول الله إليكم جملة حالية مؤكدة لانكار الإيذاء ونفى سببه وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره أى والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدى من المعجزات القاهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجاؤكم من ملكته أني رسول الله إليكم لأرشدكم الى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعاظيمى وتسارعوا الى طاعتى فلما زاغوا أى أصروا على الزيغ عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه أزاغ الله قلوبهم أى صرفها عن قبول الحق والميل الى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغى والضلال وقوله تعالى و الله لا يهدي القوم الفاسقين اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة ومؤذن بعلته أى لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة الى ما يوصل إليها فإنها شاملة للكل والمراد بهم إما المذكورون خاصة والإظهار في موقع الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهدية به أو جنس الفاسقين وهم داخلون ف حكمه دخولا أوليا وأيا ما كان فوصفهم بالفسق ناظر الى ما في قوله تعالى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين هذا هو الذى تقتضيه جزالة النظم ." (٢)

"٤٢١

لقومه الكفار لم تؤذونني بالتكذيب والشتم " وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا " يعني مالوا عن الحق وعدلوا عنه " أزاغ الله قلوبهم " يعني خذلهم عن الهدى فثبتوا على اليهودية

(١) تفسير أبي السعود، ٢٧١/٣

(٢) تفسير أبي السعود، ٢٤٣/٨

" والله لا يهدي " يعني لا يرشد إلى دينه " القوم الفاسقين " يعني العاصين المكذبين الذين لا يرغبون في الحق

قوله تعالى " وإذ قال عيسى ابن مريم " يعني وقد قال عيسى ابن مريم لبني إسرائيل " يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم " يعني أرسلني الله تعالى إليكم لأدعوكم إلى الإسلام

" مصدقا لما بين يدي من التوراة " يعني أقرأ عليكم الإنجيل موافقا للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع " ومبشرا برسول " يعني أبشركم برسول " يأتي من بعدي اسمه أحمد "

وروى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن نفسك

فقال (أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى صلوات الله وسلامه عليهما ورأت أمي رؤياها حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى في أرض الشام)

" فلما جاءهم بالبينات " يعني جاءهم عيسى بالعجائب التي كان يريهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص

" قالوا هذا سحر مبين " يعني بينا ظاهرا

قرأ حمزة والكسائي " ساحر " بالألف والباقون " سحر " بغير ألف

فمن قرأ " ساحر " فهو فاعل ومن قرأ " سحر " فهو نعت الفعل

سورة الصف ٧ - ٩

ثم قال عز وجل " ومن أظلم " يعني من أشد في كفره " ممن افترى على الله " يعني اختلق على الله " الكذب " وهم اليهود " وهو يدعى إلى الإسلام " يعني إلى دين محمد صلى الله عليه وسلم " والله لا يهدي القوم الظالمين " أي لا يرشدهم ويقال لا يرحمهم ما داموا على كفرهم

ثم قال عز وجل " يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم " يعني ليبطلوا دين الله بقولهم " والله متم نوره " يعني مظهر توحيده وكتابه " ولو كره الكافرون " يعني وإن كره اليهود والنصارى

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية حفص " والله متم نوره " على معنى الإضافة والباقون " متم " بالتنوين " نوره " بالنصب

لأنه مفعول به

ثم قال عز وجل " هو الذي أرسل رسوله بالهدى " يعني بالتوحيد " ودين الحق " يعني بشهادة أن لا إله إلا الله " ليظهره على الدين كله " يعني على الأديان كلها

قال." (١)

" ﴿ وإذ قال موسى ﴾ أي : اذكر يا محمد لقومك قصة موسى إذ قال لقومه : ﴿ يا قوم لم تؤذونني ﴾ وذلك حين رموه بالأذرة ﴿ وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ والرسول يعظم ولا يؤذى ﴿ **فلما زاغوا** ﴾ عدلوا عن الحق ﴿ أزاغ الله

---

(١) بحر العلوم ـ موافق للمطبوع، ٤٢١/٣

قلوبهم ﴾ أضلهم الله وصرف قلوبهم عن الحق ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي : من سبق في علمه انه فاسق وقوله : ". (١)

"قال ابن زيد : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بأعمالهم ، والأولون قوم لم يصدقوا قولهم بأعمالهم ، لما خرج النبي A نكصوا عنه وتخلفوا.

وقيل : أن الآية تدل على أن القتال راجلا أحب إليه من القتال فارسا.

قال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾.

واذكر يا محمد إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون حقا أني رسول الله إليكم.

﴿ **فلما زاغوا** ﴾ أي : عدلوا عن الحق ، وجاروا عن الهدى ، أزاغ الله قلوبهم ؛ أي : أمالها عن الحق ، وقيل عن الثواب.

وقال أبو أمامة : هم الخوارج.

وعن سعد بن أبي وقاص : هم الحرورية.

ثم قال : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (أي : لا يوفق للصواب) من خرج عن الإيمان إلى الكفر.

قال : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم ﴾ .." (٢)

"باب قول الله D : واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (١) وقوله : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (٢) وقوله : وحيل بينهم وبين ما يشتهون (٣) ، وقوله : كذلك نسلكه في قلوب المجرمين (٤) وقوله : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه (٥) وقوله : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم (٦) وقوله : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا (٧) وقوله : إن كان الله يريد أن يغويكم (٨) وقوله : رب بما أغويتني (٩) وقوله : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها (١٠) وقوله : وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها (١١) وقوله : وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا (١٢) وقوله : أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا (١٣) وقوله : ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم (١٤) وقوله : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة (١٥) وقوله : وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة (١٦) وقوله : أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم (١٧) وقوله : بل طبع الله عليها بكفرهم (١٨) وقوله : فأصمهم وأعمى أبصارهم (١٩) وقوله : وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (٢٠) وقوله : ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون (٢١) وقوله : ويذرهم في طغيانهم يعمهون (٢٢) وقوله : إنما نملي لهم ليزدادوا إثما (٢٣) وقوله : سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين (٢٤) وقوله : فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة وقوله : وكذلك زينا لكل أمة عملهم إلى سائر ما ورد في هذا المعنى في كتاب الله D سوى هذا وفيما ذكرنا كفاية . وقوله : فإنا قد فتنا قومك من بعدك (٢٥) وقوله : لنفتنهم فيه (٢٦) وقوله : وما جعلنا عدتهم إلا فتنة (٢٧) وقوله : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة

---

(١) الوجيز للواحدي، ص/١٠٩٣

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية، ٧٤٣٩/١١

الملعونة في القرآن (٢٨) وقوله : وكذلك فتنا بعضهم ببعض (٢٩) وقوله : ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون (٣٠) إلى سائر ما ورد في كتاب الله D في هذا المعنى . ومعقول في هذه الآيات وما في معناها أنه لم يفعل ما أخبر عنه من الحول والتقليب والسلك والإغفال والإزاغة والإغواء والتسليط وإرسال الشياطين والختم والطبع والغشاوة والأكنة والقساوة والإملاء والاستدراج والتزيين والفتنة وإرادة الخير بهم في دنياهم ولا ليزيدهم قربة إليه ، وإنما فعل ما فعل من ذلك إرادة الشر بهم وليزيدهم بعدا منه نعوذ بالله من غضبه

---

(١) سورة : الأنفال آية رقم : ٢٤

(٢) سورة : الأنعام آية رقم : ١١٠

(٣) سورة : سبأ آية رقم : ٥٤

(٤) سورة : الحجر آية رقم : ١٢

(٥) سورة : الكهف آية رقم : ٢٨

(٦) سورة : الصف آية رقم : ٥

(٧) سورة : آل عمران آية رقم : ٨

(٨) سورة : هود آية رقم : ٣٤

(٩) سورة : الحجر آية رقم : ٣٩

(١٠) سورة : الإسراء آية رقم : ١٦

(١١) سورة : الأنعام آية رقم : ١٢٣

(١٢) سورة : الإسراء آية رقم : ٤

(١٣) سورة : مريم آية رقم : ٨٣

(١٤) سورة : الصافات آية رقم : ١٦٢

(١٥) سورة : البقرة آية رقم : ٧

(١٦) سورة : الجاثية آية رقم : ٢٣

(١٧) سورة : النحل آية رقم : ١٠٨

(١٨) سورة : النساء آية رقم : ١٥٥

(١٩) سورة : محمد آية رقم : ٢٣

(٢٠) سورة : الأنعام آية رقم : ٢٥

(٢١) سورة : الأعراف آية رقم : ١٠٠

(٢٢) سورة : الأعراف آية رقم : ١٨٦

(٢٣) سورة : آل عمران آية رقم : ١٧٨

(٢٤) سورة : الأعراف آية رقم : ١٨٢

(٢٥) سورة : طه آية رقم : ٨٥

(٢٦) سورة : طه آية رقم : ١٣١

(٢٧) سورة : المدثر آية رقم : ٣١

(٢٨) سورة : الإسراء آية رقم : ٦٠

(٢٩) سورة : الأنعام آية رقم : ٥٣

(٣٠) سورة : الدخان آية رقم : ١٧." (١)

"@ ١٢٤@عز وجل : ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ [المائدة : ٤١] فهو يجعل في قلوبهم المرض ، ويقلبها من المرض إلى الزيغ ، ومن الزيغ إلى الدين ، والدين إلى أن يجعلها في اكنة ، ومنها إلى الطبع ، ومن الطبع إلى الختم ، وذلك عدل منه ، وهو يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، قال الله عز وجل ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال جل جلاله : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف : ٥] وقال عز وجل : ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ [المطففين : ١٤] وقال جل جلاله : ﴿وجعلنا على قلوبهم اكنة﴾ [الإسراء : ٤٦] وقال جل جلاله ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء : ١٥٥] وقال عز وجل : ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة : ٧] فهو عز وجل يفعل ذلك بالمنافقين والكافرين دون المؤمنين المخلصين ، وله أن يفعل ما يشاء إذ هو المالك لهم ، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فعلى هذا يقلب قلوب أعدائه ومن سبق له من الله تعالى الشقاء فكفر وجحد وأشرك ونافق ، تعالى الله عن ظلم عباده علوا كبيرا ، ويقلب قلوب أوليائه بفضله من حال إلى حال إرادة الخير لهم ليهتدوا ويوفقوا ويزيدهم إيمانا قال الله تعالى : ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ [الفتح : ٤] وتثبيتا لهم كما قال الله عز وجل ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم : ٢٧] فقلوب أولياء المؤمنين المخلصين الذين سبقت لهم منه الحسنى تتقلب بين الخوف والرجاء ، واللين والشدة ، والوجل والطمأنينة ، والقبض والبسط ، والشوق والمحبة ، والأنس والهيبة ، والله تعالى يقلبها بفضله ، قال الله عز وجل : ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الانفال : ٢] وقال الله تعالى : ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر﴾ [الزمر : ٢٣] وقال تعالى : ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [الحجرات : ٣] وقال الله تعالى : ﴿ولا تأخذك بهما رأفة في دين الله﴾ [النور : ٢] وقال الله تعالى : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد : ٢٨] ، وقال ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر : ٢٢] وقال الله تعالى : ﴿والذين آمنوا اشد حبا لله﴾ [البقرة : ١٦٥] والله يقبض ويبسط ، يقبض قلوبهم بالخوف منه ، ويبسطها بالأنس به ، والذكر له ، فقلوب عباده تتقلب بين هاتين الصفتين العدل والفضل وهو يقلبها ، له الخلق والأمر | ." (٢)

---

(١) القضاء والقدر للبيهقي، ٢٦٩/١

(٢) معاني الأخبار للكلاباذي ٣٨٤، ص/١٢٤

" يقال لهم : أليس قد قال الله تعالى : (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) من الآية (٧ / ٢) وقال تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله (١ / ١٩٩) يجعل صدره ضيقا حرجا) من الآية (١٢٥ / ٦) فخبرونا عن الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم أتزعمون أنه هداهم وشرح للإسلام صدورهم وأضلهم

فإن قالوا : نعم تناقض قولهم

وقيل لهم : كيف تكون الصدور مشروحة للإيمان وهي ضيقة حرجة مختوم عليها وكيف يجتمع الفعل الذي قال الله عز و جل : (أم على قلوب أقفالها) من الآية (٢٤ / ٤٧) مع الشرح والضيق مع السعة والهدى مع الضلال إن كان هذا جاز أن يجتمع التوحيد والإلحاد الذي هو ضد التوحيد والكفر والإيمان معا في قلب واحد وإن لم يجز هذا لم يجز ما قلتموه

فإن قالوا : الختم والضيق والضلال لا يجوز أن يجتمع مع شرح الله الصدر

قيل لهم : وكذلك الهدى لا يجتمع مع الضلال وإذا كان هذا هكذا (١ / ٢٠٠) فما شرح الله صدور الكافرين للإيمان بل ختم الله على قلوبهم وأقفلها عن الحق وشد عليها كما دعا نبي الله موسى صلى الله عليه و سلم على قومه فقال : (ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى تروا العذاب الأليم) من الآية (٨٨ / ١٠) قال الله تعالى : (قد أجبت دعوتكما) من آية (٨٩ / ١٠) وقال تعالى يخبر عن الكافرين إنهم قالوا : (قلوبنا في أكنة مما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) من الآية (٥ / ٤١) فإذا خلق الله الأكنة في قلوبهم والقفل والزيغ لأن الله تعالى قال : (**فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم) من الآية (٥ / ١٦) (١ / ٢٠١) والختم وضيق الصدر تم أمرهم بالإيمان الذي علم أنه لا يكون فقد أمرهم بما لا يقدرون عليه وإذا خلق الله في قلوبهم ما ذكرنا من الضيق عن الإيمان فهل الضيق عن الإيمان إلا الكفر الذي في قلوبهم ؟ وهذا يبين أن الله خلق كفرهم ومعاصيهم ." [1]

"ذكر آيات تدل على وحدانية الخالق وأنه مقلب القلوب على ما يشاء قال الله D ، مخبرا على قدرته وعلمه بما في قلوب العباد واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه (١) وقال : ونقلب أفئدتهم وأبصارهم (٢) الآية . وقال منبها على دعائه : ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا (٣) وقال : **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم (٤) بيان ذلك من الأثر

---

(١) سورة : الأنفال آية رقم : ٢٤

(٢) سورة : الأنعام آية رقم : ١١٠

(٣) سورة : آل عمران آية رقم : ٨

(٤) سورة : الصف آية رقم : ٥." [2]

---

(١) الإبانة – الأشعري، ص/١٩٨

(٢) التوحيد لابن منده، ص/١٥٢

" صفحة رقم ٥٧٤

الصف : (٥ - ٦) وإذ قال موسى. . . . .

) وإذ قال موسى لقومه يقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (( )

ولما كان التخلف عن أمر الله تعالى والغفلة عن شيء يؤدي تركه إلى التهاون به والإخلال بأدب من آدابه موجبا للكون في صف الشيطان ومفارقة حزب الرحمن ، فيكون أذى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فيوجب ذلك الشقاء كله لأنه جدير بأن يجر إلى أكبر منه إلى أن تحيط الخطايا فتبيح الرزايا ، وكان للتذكير بالمشاهدات والأمور الواقعات ما ليس لغيره في التأجيب ومرجع الترهيب ، ذكر بما كان لبني إسرائيل ترهيبا من مثل حالهم ، لئلا يوقع في نكالهم ، حين تقاعسوا عما أمروا به من فتح بيت المقدس من الله تعالى غضب من فعلهم ذلك فسماهم فاسقين وضربهم بالتيه أربعين سنة ، وأمات في تلك الأربعين كل من توانى منهم في ذلك ، فلم يدخل إلى بيت المقدس منهم أحد ، فحرموا البلاد التي تقاعدوا عن فتحها ، وهي بعد مكة والمدينة خير بلاد الله تعالى ومهاجر أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومواطن أبويهما إسحاق ويعقوب عليهما الصلاة والسلام وأنزه الأرض ، وأكثرها خيرا وأبركها ، مع ما كانوا فيه من لاضيق والنكد من التيه الذي هو طرد عن جناب الله بما اراد - بما أشار إليه التعبير عن زمنه بالسنين - إلى ما أبقوا بعدهم ثم سوء الذكر وشناعة القالة إلى آخر الدهر فقال تعالى : (وإذ (عطفا على ما تقديره : اذكروا ما فعل بعضكم - بما أشرت إليه أول هذه الآيات من الآداب من تنبيه الكفار بما قد يمنع من الفتح أو يكون سببا في عسره أو في إهلاك خلق كثير من عباي الذي خلقتهم في أحسن تقويم من المؤمنين وغيرهم ، أو من الفرار من الكفار عند المقارعة ، أو التقاعس عن اللقاء عند البعث عليه ، فآذى ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي أذاه من أذى الله فحلم عنكم ، وقبل بما له من بليغ الرحمة بكم والشفقة عليكم منكم ، وكان أنهى ما عاتبكم به مرسوله سبحانه النداء بما هو أدنى الأسنان في الإيمان في نظير إطلاقه على بني إسرائل الفسق بالوصف المؤذن بالرسوخ : واذكروا حين) قال موسى لقومه (وهم - مع كونه منهم - ممن له قوة على ما يحاولونه : (يا قوم (استعطافا لهم واستنهاضا إلى رضى ربهم) لم تؤذونني) أي تجددون إذائي مع الاستمرار بالتواني في أمر الله والتقاعد عن فتح بيت المقدس مع قولي عن الله أنكم فاتحوها إن أطعمتموه وأن الله أقسم لآبائكم أنه ما نحكموها لا محالة .

ولما كان هذا الاستفهام الإنكار موجبا لتوقع ما يأتي بعده من موجب التعظيم." (١)

" صفحة رقم ٥٧٥

بدل الأذى ، والتبيجيل والانقياد موضع التوقف والإباء ، قال محققا بحرف التحقيق مضمون الكلام : (وقد) أي والحال أنكم) تعلمون) أي علمتم قطعيا مع تجدده لكم في كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات وبالكتاب الحافظ

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٧٤/٧

لكم من الزيغ) أني رسول الله) أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ورسوله أيضا يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم) إليكم (لا أقول لكم شيئا إلا عنه ، ولا أنطق عن الهوى ، فعصياني عصاينه مع أني ما قلت لكم شيئا إلا تم ، وإن كنتم قاطعين بخلافه فهي معصيته لا حامل عليها أصلا إلا رداءة الجبلات .

ولما تحنن إليهم واستعطفهم وذكرهم ما يعلمون من رسليته وصلته بالله بما شاهدوا من الآيات التي هي أعظم الإحسان إليهم ، أعلم أنهم أوشكوا العصيان ، فقال معبرا عن ذلك بالفاء تسبيبا عن هذا القول الذي هو أهل لأن يسبب الثبات وتعقيبا وتقريبا : (**فلما زاغوا**) أي تحقق زيغهم عن قرب عن أوامر الله في الكتبا الآتي إليهم بما أبوا من قبول أمره في الإقدام على الفتح) أزاغ الله) أي الذي له الأمر كله) قلوبهم (من الاستواء ، وجمع الكثرة يدل على أنه لم يثبت منهم إلا القليل فهزمهم بين يدي أعدائهم وضربهم بالتيه لأنهم فسقوا عن أمر الله) فالله (- لا يهديهم ، فأسند الذنب إليهم والعقوبة إليه وإن كان الكل فعله تعليما لعباده الأدب وإعلاما بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ويقوم به الحجة عليهم لعدم علمهم بالعاقبة) والله) أي الملك الأعظم الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال) لا يهدي) أي بالتوفيق بعد هداية البيان) القوم الفاسقين) أي العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة فلم يحملهم على الفسق ضعف ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم - انتهى .

ولما كان أذى النبي (صلى الله عليه وسلم) بمخالفة أمره تارة يكون مع العلم برسالته والإقرار بها وتارة مع الإنكار ، وقدم العتاب على ما كان منه على تقدير التصديق ، وذكر فيه بقصة موسى عليه الصلاة والسلام الذي كانوا يؤذونه مع العلم برسالته ، وهدد بما اتفق لهم من زيغ القلوب التي هي عماد الأبدان وصلاح الإنسان ، أتبعه ما يكون منه عند فرض الإنكار .

ولما كان رد المنكر تارة بالعقل وتارة بالنقل ، وكان الذي بالعقل يكون بنظر المعجزات ولا سيما إخراج الخبأ وقد كان منه في قصة حاطب رضي الله تعالى عنه في إخراج كتابه الذي اجتهد في إخفائه واجتهدت الظعينة الحاملة له في كتمانه ما فيه مقنع في العلم بالرسالة وتحقق الجلالة ، أتبع ذلك دليلا نقليا تأييدا للعقل مع كونه دليلا على صحة الإخبار بإزاغة قلوب بني إسرائيل جزاء على زيغهم عن الحق فقال : (وإذ) أي واذكروا حين) قال عيسى (ووصفه بما حقق من هو فقال : (ابن مريم) أي لقوم." (١)

"السجستاني ، أنه سأل أبا عبد الله عن أمر الخوارج عندنا ، قال : قلت : إنا في المدينة نظهر خلافهم ، ونصلي في جماعة ، ونجمع ، غير أنهم إن كتبوا إلى الوالي بأمر لم يجد الوالي بدا من أن ينفذه ، فقال : يظهرون مخالفتهم ؟ قلت : نعم ، قال : أكره مجاورتهم ، قلت : إذا كانت معيشته فيها يعني في البلد الذي هم فيه ، قال : أرجو أن لا يكون به بأس ، وإن وجدت محيصا فتخلص.

١٣٧- أخبرني أحمد بن الحسين ، أن أبا عبد الله ، سئل عن الخوارج ، فقال : لا تكلمهم ولا تصلي عليهم.

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٧/٥٧٥

١٣٨- أخبرنا الميموني ، قال : حدثنا ابن حنبل ، قال : حدثنا هشيم ، قال : أنا العوام ، قال : حدثنا أبو غالب ، عن أبي أمامة : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ قال : هم الخوارج.." [(١)]

"[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ١٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)." [(٢)]

"ثم رجع إلى مخاطبة موسى فقال: وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا يقول** مالوا عن الحق وعدلوا عنه أزاغ الله يعني أمال الله قلوبهم والله لا يهدي إلى دينه من الضلالة القوم الفاسقين- ٥- يعني العاصين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي يعني الذي قبلي من التوراة «ومبشرا «١» » برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد بالسريانية فارقليطا فلما جاءهم عيسى بالبينات يعني بالعجائب التي كان يصنعها قالوا هذا سحر مبين- ٦- الذي يصنع عيسى سحر بين، قوله: ومن أظلم يقول فلا أحد أظلم منه يعني اليهود ممن افترى على الله الكذب حين زعموا أنه ساحر وهو يدعى إلى الإسلام يعني اليهود والله لا يهدي من الضلالة إلى دينه القوم الظالمين- ٧- يعني فى علمه، قوله: يريدون [١٩٦ أ] ليطفؤا نور الله يعني دين الله بأفواههم يعني بألسنتهم وهم اليهود والنصارى حين كتموا أمر محمد- صلى الله عليه وسلم- ودينه في التوراة والإنجيل والله متم نوره يعني مظهر دينه ولو كره الكافرون- ٨- يعني اليهود والنصارى، ثم قال: هو الذي أرسل رسوله محمدا- صلى الله عليه وسلم- بالهدى ودين الحق يعني الإسلام لأن كل دين باطل غير دين الإسلام، يعني دين محمد- صلى الله عليه وسلم- ليظهره على الدين كله يعني الأديان كلها، ففعل- الله تعالى- ذلك

---

(١) كتاب السنة للخلال كاملا موافقا للمطبوع، ١/١٥٧

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٤/٣١١

وأظهر دين محمد- صلى الله عليه وسلم- على أهل كل دين، حين قتلهم وأذلهم فأدوا إليه الجزية مثل قوله:

---

(١) فى أ: «ومبشركم» ، وفى حاشية أ، الآية «ومبشرا» .." (١)

"وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] يقول: فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] : يقول: أمال الله قلوبهم عنه.." (٢)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف: ٥] يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد إذ قال موسى بن عمران لقومه: ﴿يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون﴾ [الصف: ٥] حقا ﴿أني رسول الله إليكم﴾ [الصف: ٥] .." (٣)

"أبي بكر ابن أبي مريم، عن يحيى بن جابر الطائي، عن أبي بحرية، قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض، لقول الله (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) قال: وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفت في الصف، فجئوا في لحيي.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ﴾

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: واذكر يا محمد (إذ قال موسى) بن عمران (لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون) حقا (أني رسول الله إليكم) .

وقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) يقول: فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل أزاغ الله قلوبهم: يقول: أمال الله قلوبهم عنه. وقد حدثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا هشيم، قال: أخبرنا العوام، قال: ثنا أبو غالب، عن أبي أمامة في قوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) قال: هم الخوارج (والله لا يهدي القوم الفاسقين) يقول: والله لا يوفق لإصابة الحق القوم الذين اختاروا الكفر على الإيمان.." (٤)

"(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

أي بنيان لاصق بعضه ببعض لا يغادر بعضه بعضا.

فأعلم الله – عز وجل – أنه يحب من يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كبيوت البناء المرصوص.

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان مقاتل ٣١٦/٤

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦١٢/٢٢

(٣) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ٦١٢/٢٢

(٤) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٣٥٨/٢٣

ويجوز - والله أعلم - أن يكون عني أن تستوي نياتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص.

* * *

وقوله: (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

قد بينا في سورة الأحزاب ما كان آذوه به.

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم).

أي عدلوا عن الحق وانصرفوا عنه فأضلهم الله وصرف قلوبهم.

وقوله: (والله لا يهدي القوم الفاسقين)

معناه لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

* * *

وقوله: (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

موضع (إذ قال عيسى ابن مريم) و (إذ قال موسى) جميعا نصب.

المعنى اذكر إذ قال موسى، واذكر إذ قال عيسى ابن مريم.

أي اذكر لقومك وأمتك قصة موسى وعيسى وما كان عاقبة من آمن بهما وعاقبة من كفر وآذى الأنبياء.

وقوله: (للحواريين).

قيل إن الحواريين سموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل كانوا قصارين.

والحواريون خلصان الأنبياء وصفوتهم، والدليل على ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -:." (١)

"الله ولا قوة إلا بالله، الأول والآخر والظاهر والباطن، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرات أعطي خصلا ستا أما أولاهن: فيحرس من إبليس وجنوده، وأما الثانية فيعطى قنطارا من الأجر، وأما الثالثة: فترفع له درجة في الجنة، وأما الرابعة: فيتزوج من الحور العين، وأما الخامسة: فيحضره اثنا عشر ملكا، وأما السادسة: فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور. وله مع هذا يا عثمان من الأجر كمن حج وتقبلت حجته، واعتمر فتقبلت عمرته، فإن مات من يومه طبع بطابع الشهداء «١» .

١٨٤٠٦ - عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: له مقاليد السماوات والأرض قال: مفاتيحها «٢» .

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٥/١٦٤

قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره

١٨٤٠٦ - عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا ما لم يعلموه، وما لم يروا فأنزل الله: وما قدروا الله حق قدره «٣» .

١٨٤٠٧ - عن الحسن رضي الله عنه قال: اليهود نظروا في خلق السموات والأرض **والملائكة، فلما زاغوا أخذوا** يقدرونه فأنزل الله: وما قدروا الله حق قدره «٤» .

١٨٤٠٨ - عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت: وسع كرسيه السماوات والأرض قالوا: يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش؟ فأنزل الله: وما قدروا الله حق قدره «٥» .

١٨٤٠٩ - عن ابن عمر رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه ورسول الله- صلى الله عليه وسلم- يقول هكذا بيده، ويحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الكريم. فرجف برسول الله- صلى الله عليه وسلم- المنبر حتى قلنا ليخرن به» «٦» .

---

(١) ابن كثير ٧/ ١٠٣- وقال: حديث غريب جدا وفي صحته نظر.

(٢) الدر ٧/ ٢٤٦.

(٣) الدر ٧/ ٢٤٦- ٢٤٨.

(٤) الدر ٧/ ٢٤٦- ٢٤٨.

(٥) الدر ٧/ ٢٤٦- ٢٤٨.

(٦) الدر ٧/ ٢٤٦- ٢٤٨.." [1]

"سورة الصف

وهي أربع عشرة آية مدنية

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم - محققا الرازي، ابن أبي حاتم ٣٢٥٥/١٠

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)
وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)
قوله تبارك وتعالى: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا بعد ما فروا يوم أحد: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى، وأفضل لفعلناه، فنزل: لم تقولون ما لا تفعلون. ويقال: قالوا ذلك قبل يوم أحد، فابتلوا بذلك وفروا، فنزل تيسيرا لهم بترك الوفاء، فقال: لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله، يعني: عظم بغضا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، يعني: يصفون بمنزلة الصف في الصلاة وملتزمة بعضهم في بعض، لا يتأخر أحدهم عن صاحبه بمنزلة البنيان الذي بني بالرصاص ويقال: كأنهم بنيان مرصوص أي: متفقي الكلمة بعضهم على بعض على عدوهم، فلا يخالف بعضهم بعضا. وروي في الخبر: أنه كان يوم مؤتة وكان عبد الله بن رواحة أحد الأمراء الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهم: يا." [1]
"أهل المجلس الذين وعدتم ربكم قولكم، ثم مشى فقاتل حتى قتل.
قوله تعالى: وإذ قال موسى وقد قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني بالتكذيب، وذلك أنهم كذبوه وقالوا: إنه آدر، ويقال: إنه حين مات هارون، ويقال: إنه قال لقومه الكفار: لم تؤذونني بالتكذيب والشتم؟ وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا يعني**:
مالوا عن الحق وعدلوا عنه. أزاغ الله قلوبهم يعني: خذلهم عن الهدى فثبتوا على اليهودية.
والله لا يهدي يعني: لا يرشد إلى دينه القوم الفاسقين، يعني: العاصين المكذبين، الذين لا يرغبون في الحق.
وإذ قال عيسى ابن مريم يعني: وقد قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، يعني: أرسلني الله تعالى إليكم، لأدعوكم إلى الإسلام. مصدقا لما بين يدي من التوراة يعني: أقرأ عليكم الإنجيل موافقا للتوراة في التوحيد وفي بعض الشرائع، ومبشرا برسول يعني: أبشركم برسول الله يأتي من بعدي اسمه أحمد. وروى ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك.
فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى- صلوات الله عليهم- ورأت أمي رؤياها حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى في أرض الشام» . فلما جاءهم بالبينات، يعني: جاءهم عيسى بالبينات التي كان يريهم من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص. قالوا هذا سحر مبين يعني: بينا ظاهرا. قرأ حمزة والكسائي ساحر بالألف، والباقون سحر بغير ألف. فمن قرأ ساحر فهو فاعل، ومن قرأ سحر فهو نعت الفعل.

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٤٤٢/٣

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٧ الى ١٤]
ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩) يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١)
يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)." (١)

"قال: حدثنا حاتم بن عقيل، قال: ح يحيى بن إسماعيل قال: ح يحيى الحماني قال: ح إسحاق وهو حازم بن الحسين الحميسي، وفي بعض النسخ: الحمسي، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من قلب آدمي إلا وهو بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أن يثبته ثبته، وإذا شاء أن يقلبه قلبه، وإنما مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة في ريح عاصف، تقلبها الرياح» قال الشيخ الإمام الزاهد المصنف رحمه الله: وصف النبي صلى الله عليه وسلم الرب بالأصابع، كما وصف الله تعالى نفسه باليد، والسمع، والبصر، فقامت -[١٢٣]- الدلائل على أن يده وسمعه وبصره ليست بجوارح، ولا أعضاء، ولا أصابع، ولا أجزاء، إذ هو عز وجل واحد أحد صمد فرد بعيد عن أوصاف الحدث، وعن شبه المخلوقين، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، فعلينا الإيمان به، والوصف له بما وصف نفسه به، ونفي أوصاف الحدث عنه، وتنزيهه عن التشبيه، والكيفية والدرك إلا من حيث الإقرار به والإيمان والتصديق له، فكذلك ما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإصبع، فعلينا التسليم له، وفي بعض النسخ: الإسلام له، والإيمان به، والتصديق على أنها صفة له على ما يستحقه، ويليق به من غير كيفية، ولا إدراك، ولا تشبيه. أو هو صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق وأعرفهم وبأوصافه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا أعلمكم بالله عز وجل» ، وقال الله تعالى ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [النجم: ٤] ، فالإصبع صفة لله عز وجل، ومن صفاته العدل، والفضل، فيجوز أن يكون معنى قوله: «بين أصبعين» أي: بين صفتين من صفات الله عز وجل، ويعني الفضل والعدل، وفي بعض النسخ: ويعني بالصفتين العدل والفضل لقوله: يقلبها، فيكون التقليب عن حالتين مختلفتين، وفي بعض النسخ: بين حالتين مختلفتين مرة إلى كذا، ومرة إلى كذا، كما قال في حديث آخر: «يقلبها الريح ظهرا لبطن، فإذا قلب قلب عبد إلى هدى فهو فضل منه، وإذا قلبه إلى ضلال فهو عدل منه» ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب» ، ويسأله التثبيت، فالله تعالى يقلب قلوب أعدائه بعدل، والعدل صفة له، فهو يقلب قلوبهم من حال إلى حال، وكلها إرادة الشر بهم والضلال لقوله -[١٢٤]- عز وجل ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١] ، فهو يجعل

---

(١) تفسير السمرقندي = بحر العلوم أبو الليث السمرقندي ٤٤٣/٣

في قلوبهم المرض، ويقلبها من المرض إلى الزيغ، ومن الزيغ إلى الدين، والدين إلى أن يجعلها في أكنة، ومنها إلى الطبع، ومن الطبع إلى الختم، وذلك عدل منه، وهو يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، قال الله عز وجل ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ [البقرة: ١٠] ، وقال جل جلاله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وقال عز وجل ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ [المطففين: ١٤] ، وقال جل جلاله ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ [الأنعام: ٢٥] ، وقال جل جلاله ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء: ١٥٥] ، وقال عز وجل ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ [البقرة: ٧] ، فهو عز وجل يفعل ذلك بالمنافقين والكافرين دون المؤمنين المخلصين، وله أن يفعل ما يشاء إذ هو المالك لهم، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فعلى هذا يقلب قلوب أعدائه، ومن سبق له من الله تعالى الشقاء فكفر وجحد وأشرك ونافق تعالى الله عن ظلم عباده علوا كبيرا، ويقلب قلوب أوليائه بفضله من حال إلى حال إرادة الخير لهم ليهتدوا ويوفقوا ويزيدهم إيمانا، قال الله تعالى ﴿ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ [الفتح: ٤] ، وتثبيتا لهم، كما قال الله عز وجل ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧] ، فقلوب أوليائه المؤمنين المخلصين الذين سبقت لهم منه الحسنى تتقلب بين الخوف والرجاء، واللين والشدة، والوجل والطمأنينة، والقبض البسط، والشوق والمحبة، والأنس والهيبة، والله تعالى يقلبها بفضله قال الله عز وجل ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ [الأنفال: ٢] ، وقال الله تعالى ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقال الله تعالى ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ [الحجرات: ٣] ، وقال الله تعالى ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ [النور: ٢] ، وقال الله تعالى ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨] ، وقال ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ [الزمر: ٢٢] ، وقال الله تعالى ﴿والذين آمنوا أشد حبا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] والله يقبض ويبسط، يقبض قلوبهم بالخوف منه، ويبسطها بالأنس به والذكر له، فقلوب عباده تتقلب بين هاتين الصفتين العدل والفضل، وهو يقلبها له الخلق والأمر -[١٢٥]- بين الهدى والضلال، ومنه التثبيت والإزالة، له الحكم وإليه المصير، وقلوب عامة المؤمنين تتقلب بين أحوال مختلفة بين يقين واضطراب، وغفلة وتيقظ، وسكون إلى الدنيا وميل إلى الآخرة، مرة إلى هذا، ومرة إلى هذا. قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: إنما سمي القلب قلبا لأنه يتقلب. وقال بعض الحكماء: ما من شيء أشد على العبد من حفظ القلب بين ما يجول حول العرش، حتى تراه يجول حول الحش. وقال سهل بن عبد الله رحمة الله عليه: إنما على العبد ذم جوارحه، وحفظ حدود الله، وكف النفس عن شهواتها، فإذا فعل ذلك حفظ الله تعالى قلبه، وأصلح سره، وفي بعض الروايات: من صلح برانيه أصلح الله تعالى جوانيه معناه: من أصلح ظاهره بذم جوارحه، وحفظ حركاته، أعانه الله تعالى على حفظ قلبه. وقال بعض الحكماء: استجلب نور القلب بدوام الحزن، واستفتح باب الحزن بطول الذكر، واطلب راحة البدن بإحجام القلب، واطلب إحجام القلب بترك خلطاء السوء، وقيل: موت القلب بالجهل، وحياة القلب بالعلم." (١)

"على أن العبد مجبور مسلوب الإرادة والاختيار وضح ذلك بقوله والقرآن من أوله إلى آخره إنما يدل على أن الطبع والختم والغشاوة لم يفعلها الرب سبحانه بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان أو بين له وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه

---

(١) بحر الفوائد المسمى بمعاني الأخبار للكلاباذي أبو بكر الكلاباذي ص/١٢٢

سبحانه والتأكيد في البيان والإرشاد وتكرار الأعراض منهم والمبالغة في الكفر والعناد فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها فلا تقبل الهدى بعد ذلك والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع بل كان اختيارا فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية

ثم ساق ابن القيم أدلة من كتاب الله توضح هذا المعنى منها قوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾

وقال ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾

وقال ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

وقال سبحانه ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾

وقال ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾

وقال سبحانه ﴿فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾

إلى غير ذلك من الآيات التي تؤدي هذا المعنى وهي كثيرة في القرآن الكريم." (١)

"ذكر آيات تدل على وحدانية الخالق وأنه مقلب القلوب على ما يشاء قال الله عز وجل ، مخبرا على قدرته وعلمه بما في قلوب العباد ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ [الأنفال: ٢٤] وقال: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ [الأنعام: ١١٠] الآية. وقال منبها على دعائه: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ [آل عمران: ٨] وقال: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] بيان ذلك من الأثر." (٢)

"﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ يعني: الخاصة الذين يعلمون أنه رسول الله الذين كذبوه وآذوه، فكان فيما آذوه به أن زعموا أنه آدر ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ والزيغ: الشرك ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يعني: الذين يلقون الله بشركهم.

تفسير سورة الصف الآيات من الآية ٦ إلى الآية ٩.." (٣)

"سورة الصف

مكية، وهي تسعمائة حرف، ومائتان وأحدى وعشرون كلمة، وأربع عشرة آية

أخبرنا أبو الحسن الحيازي قال: حدثنا ابن حبش قال: حدثني أبو عباس محمد بن موسى الرازي قال: حدثنا عبد الله بن روح المدائني قال: حدثني شبابة بن سواد الغزاري قال: حدثنا مخلد بن عبد الواحد عن علي بن زيد وعن عطاء بن أبي ميمونة عن بن حبش عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ سورة عيسى (عليه السلام) كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه» [٢٨٣] «١»

---

(١) الإبانة الكبرى لابن بطة العكبري، ابن بطة ١٩٤/٣

(٢) التوحيد لابن منده ابن منده محمد بن إسحاق ٢٧٢/١

(٣) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ابن أبي زَمَنِين ٣٨٣/٤

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ١٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون

---

(١) تفسير مجمع البيان: ٩/ ٤٥٩.." [(١)]

"حبيسا في سبيل الله حتى أموت أو أقتل فقتل بمؤته شهيدا رحمة الله عليه ورضوانه، وقال:

ميمون بن مهران: نزلت في الرجل يقرض نفسه بما لم يفعله نظيره ويحبون أن يحمدوا عما لم يفعلوا.

حدثنا أبو القاسم الحسيني لفظا قال: حدثنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدوس الطرائفي قال: حدثنا عمي سعيد الدارمي قال: حدثنا محبوب بن موسى الأنطاكي قال: حدثنا أبو إسحاق الفراري عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن سلام قال: خرجنا نتذاكر فقلنا: أيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أي الأعمال أحب الى الله، ثم تفرقنا وهبنا أن يأتيه أحدنا، فأرسل إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعنا فجعل يومي بعضنا الى بعض فقرأ علينا سبح لله الى آخرها.

قال أبو سلمة: فقرأها علينا عبد الله بن سلام الى آخرها قال يحيى بن أبي كثير: فقرأ علينا أبو سلمة الى آخرها، قال

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٩/٣٠١

الأوزاعي: فقرأ علينا يحيى بن إسحاق الى آخرها، قال أبو إسحاق الفزاري: فقرأها علينا الأوزاعي الى آخرها، قال محبوب بن موسى: قرأها علينا الفزاري الى آخرها، قال عثمان بن سعيد: فقرأها علينا محبوب الى آخرها، قال الطائفي:

فقرأها علينا عثمان بن سعيد الى آخرها، قال القاسم: وقرأها علينا أبو الحسن الطرائفي الى آخره، وقرأها علينا الأستاذ أبو القاسم الى آخرها وسألنا أحمد الثعلبي أن يقرأ فقرأ علينا إلى آخرها.

كبر مقتا نصب على الحال وأن شئت على التمييز.

وقال الكسائي: أن تقولوا في موضع رفع لان كبر بمنزلة قولك بئس رجلا أخوك، وأضمر القراء فيه اسما مرفوعا، والمقت والمقاتة مصدر واحد يقال: رجل ممقوت ومقيت إذا لم تحبه الناس إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيان مرصوص قد رص بعضه الى بعض أي أحكم وأيقن وأدق فليس فيه فرجه ولا خلل، وأصله من الرصاص، ومنه

قول النبي صلى الله عليه وسلم: «تراصوا بينكم في الصفوف لا يتخللنكم الشياطين كأنها بنات حذف» [٢٨٤] «١» .

وإذ قال: موسى لقومه من بني إسرائيل يا قوم لم تؤذونني وذلك حين رموه بالادرة وقد تعلمون أني رسول الله إليكم والرسول يحترم **ويعظم فلما زاغوا أزاغ** الله عن الحق قلوبهم عن الدين والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد وهو الذي لا يذم، وفي وجهه قولان:

(١) تفسير مجمع البيان: ٥/ ٣٨٧ بتفاوت.." (١)

"قال ابن زيد: هؤلاء الذين صدقوا قولهم بأعمالهم، والأولون قوم لم يصدقوا قولهم بأعمالهم، لما خرج النبي A نكصوا عنه وتخلفوا.

وقيل: أن الآية تدل على أن القتال راجلا أحب إليه من القتال فارسا.

قال: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾.

واذكر يا محمد إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون حقا أني رسول الله إليكم.

﴿فلما زاغوا﴾ أي: عدلوا عن الحق، وجاروا عن الهدى، أزاغ الله قلوبهم؛ أي: أمالها عن الحق، وقيل عن الثواب.

وقال أبو أمامة: هم الخوارج.

وعن سعد بن أبي وقاص: هم الحرورية.

ثم قال: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (أي: لا يوفق للصواب) من خرج عن الإيمان إلى الكفر.

قال: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾.." (٢)

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٠٣/٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٧٤٣٩/١١

"﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وفي الزيغ وجهان: أحدهما: أنه العدول ، قاله السدي. الثاني: أنه الميل ، إلا أنه لا يستعمل إلا في الزيغ عن الحق دون الباطل. ويحتمل تأويله وجهين: **أحدهما: فلما زاغوا عن** الطاعة أزاغ الله قلوبهم عن الهداية. **الثاني: فلما زاغوا عن** الإيمان أزاغ قلوبهم عن الكلام.." (١)

"باب قول الله عز وجل: ﴿واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ [الأنفال: ٢٤] وقوله: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ [الأنعام: ١١٠] وقوله: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ [سبأ: ٥٤] ، وقوله: ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ [الحجر: ١٢] وقوله: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾ [الكهف: ٢٨] وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ [آل عمران: ٨] وقوله: ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ [هود: ٣٤] وقوله: ﴿رب بما أغويتني﴾ [الحجر: ٣٩] وقوله: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها﴾ [الأنعام: ١٢٣] وقوله: ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا﴾ [الإسراء: ٤] وقوله: ﴿أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا﴾ [مريم: ٨٣] وقوله: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم﴾ [الصافات: ١٦٣] وقوله: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾ [البقرة: ٧] وقوله: ﴿وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة﴾ [الجاثية: ٢٣] وقوله: ﴿أولئك الذين طبع الله على." (٢)

"«وسيجزي الله الشاكرين» : وجزاء الشكر الشكر.

قوله جل ذكره:

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤٦]

وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين (١٤٦)

إن الذين درجوا على الوفاء، وقاموا بحق الصفاء، ولم يرجعوا عن الطريق، وطالبوا نفوسهم بالتحقيق، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق- وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث صبرهم، وكان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم، فما «١» زاغوا عن شرط الجهد، ولا زاغوا فى حفظ العهد، وسلموا تسليما، وخرجوا عن الدنيا وكان كل منهم للعهد مقيما مستديما، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيما.

قوله جل ذكره:

---

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ٥/٥٢٨

(٢) القضاء والقدر للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٢٣٧

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤٧]
وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (١٤٧)
تحققوا بحقائق المعنى فخرسوا «٢» عن إظهار الدعوى، ثم نطقوا بلسان الاستغفار، ووقفوا فى موقف الاستحياء، كما قيل:
يتجنب الآثام ثم يخافها ... فكأنما حسناته آثام
قوله جل ذكره:

[سورة آل عمران (٣) : آية ١٤٨]
فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين (١٤٨)
وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأنس فى الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه، ثم استقلال السر بوجوده.

---

(١) أخطا الناسخ إذ نقلها (فلما زاغوا) وهذا يخالف المعنى المراد، والصحيح (فما)
(٢) وردت بالحاء والصواب أن تكون بالخاء، فالمعنى يتطلب ذلك ويقوى به.." [1]
"ويقال: لم يتوعد- سبحانه- زلة بمثل ما على هذا حين قال: «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» «١» .
قوله جل ذكره:

[سورة الصف (٦١) : آية ٤]
إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)
المحبة توجب الإثار، وتقديم مراد حبيبك على مراد نفسك، وتقديم محبوب حبيبك على محبوب نفسك. فإذا كان الحق تعالى يحب من العبد أن يقاتل على الوجه الذي ذكره فمن لم يؤثر محبوب الله على محبوب نفسه- أي على سلامته- انسلخ من محبته لربه، ومن خلا من محبة الله وقع في الشق الآخر، فى خسرانه.
قوله جل ذكره:

[سورة الصف (٦١) : آية ٥]
وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)
لما زاغوا بترك الحد أزاغ الله قلوبهم بنقض العهد.
ويقال: لما زاغوا عن طريق الرشد أزاغ الله قلوبهم بالصد والرد والبعد عن الود.
ويقال: لما زاغوا بظواهرهم أزاغ الله سرائرهم.

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٢٨٣/١

ويقال: لما زاغوا عن خدمة الباب أزاغ الله قلوبهم عن التشوق إلى البساط.

ويقال: لما زاغوا عن العبادة أزاغ الله قلوبهم عن الإرادة.

قوله جل ذكره:

[سورة الصف (٦١) : آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

---

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (ص) : «أتيت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت وقت (تمت وطالت) » قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: «هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ولا يفعلون، ويقرمون كتاب الله ولا يعلمون» . (ابو نعيم من حديث مالك بن دينار عن ثمامة) .." [1]

"قال أصحابنا (١): وهذه الآية دليل على أن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء، فإذا أراد الكافر أن يؤمن والله تعالى لا يريد إيمانه (٢) حال بينه وبين قلبه (٣) وإذا أراد المؤمن أن يكفر والله لا يريد كفره حال بينه وبين قلبه.

---

(١) يعني الأشاعرة، انظر: كتاب "تمهيد الأوائل" ص ٣١٨، و"الغنية" ص ١٢٧، و"تفسير الخازن" ٢/ ١٧٥، وهذا مذهب أهل السنة قاطبة. انظر: "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" لأبي القاسم اللالكائي ٤/ ٥٧٨، و"مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" ٨/ ٤٥٩، و"شرح العقيدة الطحاوية" ص ١٠٦ - ١٠٧.

(٢) يعني الإرادة الكونية المستلزمة لوجود المراد، أما من ناحية الإرادة الشرعية فإن الله تعالى يريد إيمان الكافر ولا يريد كفر المؤمن، كما قال تعالى: ﴿إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾ [الزمر: ٧].

وانظر تفصيل الإرادتين والفرق بينهما في: "مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" ٨/ ٤٤٠، ٤٧٥ - ٤٨٠، و"مدارج السالكين" للإمام ابن القيم ١/ ٢٧٥ - ٢٨١، و"شرح العقيدة الطحاوية" ص ٦٩، ٧٠.

(٣) الله جل جلاله لا يحول بين العبد وبين الإيمان إلا بسبب من العبد نفسه كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف: ٥]. وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ [الأنعام: ١١٠]. وقال تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة: ٢٦]. والله تعالى لا يظلم أحدا، وقد مكن العباد من الهداية والطاعة، كما مكنهم من الكفر والمعصية، قال تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [الكهف: ٢٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إذا أراد العبد الطاعة التي أوجبها عليه إرادة جازمة كان قادرا عليها، وكذلك إذا أراد ترك المعصية التي حرمت عليه إرادة جازمة كان قادرا على ذلك، وهذا مما اتفق عليه المسلمون وسائر أهل الملل، ثم قال: فمن

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ٥٧٦/٣

قال إن الله أمر العباد بما يعجزون عنه إذا أرادوه إرادة جازمة فقد كذب على الله ورسوله لكن مع قوله ذلك فيجب أن تعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن، وأن الله خالق كل شيء فهو خالق العباد وقدرتهم وإرادتهم وأفعالهم، فهو رب كل شيء ومليكه لا يكون شيء إلا بمشيئته وإذنه وقضائه وقدره. "مجموع الفتاوى" ٨/ ٤٣٧، ٤٤٠.." [(١)]

"تري (١) أنه (٢) أضاف حبسهم ومنعهم من الخروج إلى نفسه في قوله: ﴿فثبطهم﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وقيل اقعدوا مع القاعدين﴾، قال ابن عباس: يعني: أولى الضرر والزمنى (٤)، وقال عطية: يعني الصبيان والنساء (٥)، واختلفوا في أن هذا القول ممن كان؟ فقال بعضهم: رسول الله قال لهم لما (٦) استأذنوا: اقعدوا مع الخالفين غضبا منه عليهم، ولم يقصد بذلك سوى الوعيد فاغتنموا هذه اللفظة، وقالوا: قد أذن لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (٧)، فقال

---

(١) في (ج): (ألا تراه).

(٢) ساقط من (ج) و (م).

(٣) وهذا مذهب أهل السنة قاطبة، انظر: "شرح العقيدة الطحاوية" ٢/ ٦٤٠، ولكن يجدر بالتنبيه أن الله تعالى لا يخلق الكفر في نفس إنسان إلا إذا باشر أسباب ذلك كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥].

(٤) لم أجد من ذكره إلا المؤلف في "الوجيز" ١/ ٤٦٦.

(٥) ذكره الثعلبي ٦/ ١٣٥، والبغوي ٤/ ٨١، عند تفسير قوله تعالى: ﴿فاقعدوا مع الخالفين﴾ دون تعيين القائل.

(٦) في (ج): (كما)، وهو خطأ.

(٧) ذكر هذا القول مختصرا النحاس في: "إعراب القرآن" ٢/ ٢٢، والماوردي في "النكت والعيون" ٢/ ٣٦٨، والخازن في "تفسيره" ٢/ ٢٣٠، والقرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" ٨/ ١٥٦. ولا يخفى ضعف هذا القول لما يأتي:

أ- أن الأصل في اللفظ الحقيقة، ولا يجوز تجريد نفظ كلام الله من حقيقته إلا ببرهان قاطع، وليس ثمت برهان.

ب- أن الآية صدرت بقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك﴾ المشعر بأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خالف الأولى، فدد ذلك على أنه أذن للمنافقين بالقعود إذنا حقيقيا لا صوريا.

جـ- أن جميع من ذكر هذا القول لم يسنده إلى شاهد حال، وإنما قيل على وجه الظن والتخمين.." [(٢)]

"وقال عطاء عن ابن عباس: لم يبق لهم معدن إلا [طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعد (١).

قال الزجاج: تأويل طمس الشيء: إذهابه عن] (٢) صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كانت عليها (٣) (٤).

وقوله تعالى: ﴿واشدد على قلوبهم﴾، قال ابن عباس: يريد: امنعهم عن الإيمان (٥)، وتأويله: أقسها واطبع عليها حتى لا

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٩١/١٠

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٤٦٣/١٠

تلين ولا تنشرح للإيمان، وهذا دليل على أن الله يفعل ذلك بمن يشاء (٦)، ولولا ذلك لما حسن من موسى هذا السؤال.

وقوله تعالى: ﴿فلا يؤمنوا﴾، قال المبرد: هو عطف على قوله: ﴿ليضلوا عن سبيلك﴾ أي: ربنا إنك آتيتهم ليضلوا فلا يؤمنوا (٧).

وهذا اختيار أبي علي، قال: هو عطف على النصب الحادث من اللام في ﴿ليضلوا﴾، وما بين ذلك من قوله: ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾

---

(١) ذكره القرطبي ٨/ ٣٧٤، وأبو حيان ٥/ ١٨٧، وانظر التعليق السابق.

(٢) ما بين المعقوفين ساقط من (ح) و (ز).

(٣) في (ى): (عليه).

(٤) "معاني القرآن وإعرابه" ٣/ ٣١، والطمس في اللغة: الدروس والانمحاء، وطمس الكواكب: ذهاب نورها. انظر: "اللسان" (طمس).

(٥) ذكره المؤلف في "الوسيط" ٢/ ٥٥٧، والقرطبي ٨/ ٣٧٤، وأبو حيان ٥/ ١٨٧، ورواه بمعناه ابن جرير ١١/ ٥٨١، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩.

(٦) لكن وفق حكمته وعدله كما قال تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥].

(٧) ذكر قول المبرد هذا: الزجاج في "معاني القرآن" ٣/ ٣١، وانظر: "زاد المسير" ٤/ ٥٧.." [1]

"قوله تعالى: ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ إنكارا عليهم إيذاؤه بعد ما علموا أنه رسول الله، ورسول الله يحترم ويعظم، ولا يؤذى.

قوله: ﴿فلما زاغوا﴾ قال ابن عباس: مالوا إلى غير الحق (١).

وقال مقاتل: عدلوا عن الحق، ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أمالها عن الحق (٢). والمعنى أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم وأظلهم وصرفهم عن الدين جزاء لما ارتكبوا، ويدل عليه قوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ قال أبو إسحاق: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق (٣)، وفي هذا تنبيه على عظم إيذاء الرسول حتى أنه يؤدي إلى الكفر ويزيغ القلب عن الهدى.

قوله تعالى: ﴿يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ هاتان جملتان في موقع جر، لأنهما صفتان للنكرة التي هي قوله: ﴿برسول﴾، وفي قوله: ﴿من بعدي اسمه أحمد﴾ قراءتان: تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء الساكنين (٤)، فإن كان موضع يظهر فيه التحريك والإسكان حسنا كقوله: ﴿ولي دين﴾ [الكافرون: ٦] ﴿ولمن دخل بيتي مؤمنا﴾ (٥) فمن فتح فعلى الأصل، ومن أسكن فجائز، ومن أسكن

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٢٩٥/١١

---

(١) "تنوير المقباس" ٦/ ٦١.

(٢) انظر: "تفسير مقاتل" ١٥٣ ب، و"التفسير الكبير" ٢٩/ ٣١٢.

(٣) انظر: "معاني القرآن" للزجاج ٥/ ١٦٤.

(٤) وهو الاختيار عند الخليل، وسيبويه، وأبي عبيد، قال النحاس: والقول هذا عند أهل العربية أن هذه ياء النفس فمن العرب من يفتحها ومنهم من يسكنها. "إعراب القرآن" ٣/ ٤٢٢.

(٥) من الآية (٢٨) من سورة نوح.." [1]

"١٤٦ - قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾. قال ابن عباس: (يريد: الذين يتجبرون على عبادي، ويحاربون أوليائي. ويستحلون محارمي حتى لا يؤمنوا بما جئت به) (١)، فالآيات على قول ابن عباس: هي القرآن، و ﴿الذين يتكبرون﴾ هم: المشركون.

قال (٢) ابن الأنباري: (والمعنى على هذا ﴿سأصرف﴾ ﴿الذين يتكبرون﴾ عن قبول آياتي والتصديق بها لعنادهم الحق؛ عوقبوا بأن حرموا الهداية وستر عنهم الحق. وهذا كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ [التوبة: ١٢٧]). وذكر قولا آخر، قال: (المعنى: ﴿سأصرف﴾ عن إبطال ﴿آياتي﴾ وعن الاعتراض عليها هؤلاء الكفرة، كما تقول: وهو يمنعني من زيد، أي: من ضربه، وأذاه، وكما قال عبد المطلب لما قصدت الحبشة البيت: (إن لهذا البيت (٣) ربا سيمنع منه) (٤). أي: سيمنع من تخريبه وقتل أهله) (٥).

وقال ابن جريج: (الآيات خلق السموات والأرض، يعني: أصرفهم

---

(١) ذكره الواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٤١، والبغوي ٣/ ٢٨٢، والخازن ٢/ ٢٨٩.

(٢) في: (ب): (كما قال).

(٣) هذه كلمة سارت مسير الأمثال، وذلك أن أبرهة الحبشي لما سار لهدم الكعبة وأشرف على مكة وجد إبلا لعبد المطلب وأخذها فذهب عبد المطلب إليه وكلمه في الإبل فعجب أبرهة منه وقال: (أتكلمني في الإبل ولا تكلمني في بيت فيه عزك وشرفك؟ فقال عبد المطلب: (أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه) وفي رواية (يحميه). انظر: "السيرة النبوية" لابن هشام ١/ ٥١، و"الروض الأنف" ١/ ٦٩، و"السيرة النبوية" لأبي شهبة ص ١٦٧ - ١٦٩.

(٤) في: (ب): (عنه).

(٥) ذكره الواحدي في "الوسيط" ٢/ ٢٤١.." [2]

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٤٣٤/٢١

(٢) التفسير البسيط الواحدي ٣٥٠/٩

"﴿وإذ قال موسى﴾ أي: اذكر يا محمد لقومك قصة موسى إذ قال لقومه: ﴿يا قوم لم تؤذونني﴾ وذلك حين رموه بالأذرة ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ والرسول يعظم ولا يؤذى ﴿فلما زاغوا﴾ عدلوا عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أضلهم الله وصرف قلوبهم عن الحق ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: من سبق في علمه أنه فاسق وقوله:." (١)

"تكونوا منهم، وهذا تهديد لمن خالف أمر الله، وقال قتادة: سأدخلكم الشام فأريكم منازل القرون الماضية الذي خالفوا أمر الله، لتعتبروا به.

قوله: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال ابن عباس: يريد: الذين يتجبرون على عبادي، ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بما جئت به.

وشرحه ابن الأنباري، والزجاج، فقال ابن الأنباري: المعنى: سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها لعنادهم الحق، وعوقبوا بحرمان الهداية، وهذا كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] وقال الزجاج: أي: أجعل جزاءهم الإضلال عن هداية آياتي.

قال: ومعنى يتكبرون أنهم يرون أنهم أفضل الخلق وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم، وقال ابن جريج: الآيات خلق السموات والأرض.

يعني: أصرفهم عن الاعتبار بما فيها، ﴿وإن يروا سبيل الرشد﴾ [الأعراف: ١٤٦] يعني: الهدى والبيان الذي جاء من الله، ﴿لا يتخذوه سبيلا﴾ [الأعراف: ١٤٦] دينا، ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ [الأعراف: ١٤٦] طاعة الشيطان وضلالته، يتخذوه سبيلا دينا ذلك بأنهم: قال الزجاج: فعل الله ذلك بأنهم.

كذبوا بآياتنا: جحدوا الإيمان بها، وكانوا عنها أي: عن النظر فيها والتدبر لها ﴿غافلين﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ [الأعراف: ١٤٧] يعني: ولقاء الدار الآخرة التي هي موعد الثواب والعقاب، حبطت أعمالهم: صارت كأنها لم تكن، وقوله: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٤٧] هذا استفهام تقرير يعني: أنهم لا يجزون إلا بما يستحقون من العقاب، وهو قوله: ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ [الأعراف: ١٤٧] أي: إلا بما كانوا، أو على ما كانوا يعملون.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿١٤٨﴾ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٤٩] قوله تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده﴾ [الأعراف: ١٤٨] أي: من بعد انطلاقه إلى الجبل للميقات، من حليهم: الحلي جمع حلي مثل ثدي وثدي، ومن كسر الحاء،." (٢)

"مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴿٣﴾ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا﴾ [الصف: ١-٤] إلى آخر السورة،

(١) الوجيز للواحدي الواحدي ص/١٠٩٣

(٢) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٢/٤١٠

فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال المفسرون: إن المؤمنين، قالوا: وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا.

فأنزل الله: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا﴾ [الصف: ٤] فكرهوا الموت، وأحبوا الحياة، وتولوا يوم أحد، فأنزل الله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢] .

ثم ذم القول إذا لم يشفعه الفعل، فقال: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٣] أي: عظم ذلك عند الله في المقت، والبغض عند الله، أي: إن الله يبغضه بغضا شديا أن تعدوا من أنفسكم شيئا ثم لم تفوا به.

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا﴾ [الصف: ٤] أي: يصفون أنفسهم عند القتال صفا، ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ [الصف: ٤] يقال: رصصت البناء أرصه رصا، إذا صممت بعضه إلى بعض، قال مقاتل: مرصوص ملتزق بعضه إلى بعض.

أعلم الله أنه يحب من يثبت في القتال، ويلزم مكانه، كثبوت البناء المرصوص.

﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٥﴾ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴿٦﴾ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴿٧﴾ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴿٨﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿٩﴾ ﴾ [الصف: ٥-٩] .." (١)

"قوله: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني﴾ [الصف: ٥] يعني: حين رموه بالأدرة، وذكرنا ذلك عند قوله: ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ [الأحزاب: ٦٩] ، ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ [الصف: ٥] هذا إنكار عليهم إيذاءه بعد ما علموا أنه رسول الله، والرسول يعظم ولا يؤذى، **وقوله: فلما زاغوا قال** مقاتل: عدلوا عن الحق.

﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] أمالها عن الحق، يعني: أنهم تركوا الحق بإيذاء نبيهم، أمال الله قلوبهم عن الحق، جزاء لما ارتكبوا، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف: ٥] قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

وما بعد هذا مفسر فيما سبق إلى قوله: ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦] هذا بيان أن عيسى بشر قومه بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿اسمه أحمد﴾ [الصف: ٦] يحتمل معنيين: أحدهما: أن نجعل أحمد مبالغة من الفاعل، فيكون معناه: أنه أكثر حمدا لله من غيره، والآخر: أن يجعل مبالغة من المفعول، فيكون معناه: أنه يحمد بما فيه من الأخلاق، والمحاسن أكثر مما يحمد غيره، وأحمد معروف في أسماء نبينا صلى الله عليه وسلم.

١١٨٩ - أخبرنا أبو بكر بن الحارث، أنا أبو الشيخ الحافظ، أنا أبو بكر بن أبي عاصم، نا الشافعي، نا سفيان، عن الزهري، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن لي أسماء أنا أحمد، وأنا

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/٢٩١

محمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي» رواه البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي اليمان، عن شعيب، عن الزهري

وما بعد هذا ظاهر مفسر في ﴿ [براءة، إلى قوله:] يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴿١٠﴾ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١١﴾ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴿١٢﴾ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الصف: ١٠-١٣] .

﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ [الصف: ١٠] نزل هذا لما قالوا: لو نعلم أي الأعمال أفضل وأحب إلى الله.

وجعل ذلك العمل بمنزلة التجارة، لأنهم يربحون فيها رضا الله تعالى، ونيل جنته،." (١)

"الحق. ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥]، وقال (١): ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ [سبأ: ١٢].

(يتبعون) يتتبعون، و (التأويل) رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وقيل: هو تبيين ما يؤدي إليه فحوى الخطاب على وجه الاستخراج. ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي: مآله ومصيره وما يؤدي إليه، وها هنا وقف تام، وفي قراءة أبي: ويقول (٢): ﴿والراسخون﴾، وكذلك روى طاوس عن ابن (٣) عباس، وفي مصحف عبد الله: ﴿إن تأويله إلا عند الله﴾، ثم استأنف (٤): ﴿والراسخون﴾.

وقال أبو حاتم: والراسخون في تقدير: وأما الراسخون، وإلى هذا ذهب في مسألة القدر والصفات علي وعائشة وأم سلمة وغيرهم، وإحدى فوائد نزول (٥) المتشابه الائتلافات، قيل: هل كان النبي -عليه السلام- (٦) يعلم تأويل هذا النوع من المتشابه؟ قلنا: يجوز أن يعلم بالتوقيف (٧) لا من جهة نفسه، كما علم أشياء من الغيب.

فإن قيل: هل يجب الإيمان بغير المعلوم؟ قلنا: نعم للإعجاز (٨) الحاصل بالنظم المعلوم ووقوع بائن معناه موافق للمحكم المعلوم، وفي

---

(١) (وقال) من "ي" "أ".

(٢) في الأصل: (يقول) بدون واو.

(٣) في "ي" "ب": (بن).

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء (١/ ١٩١)؛ ومعاني القرآن للزجاج (١/ ٣٧٨). ورواية طاوس عن ابن عباس - رضي الله عنهما - رواها الطبري في تفسيره (٥/ ٢١٨)، وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ١١٦)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٢٨٩)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢/ ٦) إلى عبد بن حميد وابن المنذر.

(٥) (نزول) ليست في "ب".

---

(١) التفسير الوسيط للواحدي الواحدي ٤/٢٩٢

(٦) (السلام) ليست في "ي".

(٧) في الأصل و"ي": (بالتوقف).

(٨) في "ب" "أ": (الإعجاز).." [1]

"سورة الصف

مكية (١)، عن عطاء: مدنية، وعن الحسن وعكرمة وقتادة (٢) ، وهي أربع عشرة آية بلا خلاف (٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ هم الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم، والشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، قيل لميمون بن مهران (٤): أهو الذي يفرط بنفسه أو هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وفيه تقصير، قال: كلاهما ممقوت.

﴿فلما زاغوا﴾ تهيأوا للزيغ مختارين له بخذلان الله تعالى خلق فيهم الزيغ، وعن عطاء ومقاتل والضحاك عن ابن عباس: اسمه في التوراة

---

(١) ذكره النحاس (٧٤٥) عن ابن عباس.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (١٤/ ٤٤٠) عن ابن عباس وابن الزبير وقتادة، وانظر: "زاد المسير" (٨/ ٢٤٩).

(٣) انظر: "البيان" (٢٤٥).

(٤) هو ميمون بن مهران أبو أيوب مولى بني أسد يعد في أهل الجزيرة، سمع عبد الله بن عمر وابن عباس وأبا الدرداء، قال ابن سعد: كان ميمون ثقة كثير الحديث.

[التاريخ الكبير للبخاري (٧/ ٣٣٨)، سير أعلام النبلاء (٢/ ٧١)، تاريخ دمشق (٦١/ ٣٣٦)، حلية الأولياء (٤/ ٨٢)].." [2]

"وإنما قال: ﴿هن أم الكتاب،﴾ ولم يقل: أمهات الكتاب؛ لأنه اعتبر المعنى وهو الأصل، فجعل الآيات شيئا واحدا ثم وحد، وقريب منه قوله: ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ [المؤمنون:٥٠] (١).

﴿وأخر:﴾ جمع (٢) أخرى. وإنما [لم] (٣) يصرف للتأنيث والعدل عند البصريين (٤)، وقال الكسائي: لأنه صفة كالاسم مثل: عمر (٥).

﴿زيغ:﴾ «ميل عن الحق» (٦)، قال الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥]، وقال: ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا﴾ [سبأ:١٢].

﴿فيتبعون:﴾ يتتبعون.

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة الجرجاني، عبد القاهر ٢/٤٦٤

(٢) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة الجرجاني، عبد القاهر ١٦٢١/٤

و (التأويل) (٧): رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر، وقيل: هو تبيين ما يؤدي إليه فحوى الخطاب على وجه الاستخراج (٨). (٦٢ و)

﴿وما يعلم تأويله إلا الله:﴾ أي: مآله ومصيره وما يؤدي إليه (٩). وههنا وقف تام (١٠).

وفي قراءة أبي (١١): (ويقول الراسخون)، وكذلك روى طاووس عن ابن عباس (١٢)، وفي مصحف عبد الله: (إن تأويله إلا عند الله) ثم استأنف: (والراسخون) (١٣). وقال أبو حاتم:

(والراسخون) في تقدير: وأما الراسخون (١٤)، وإلى هذا ذهب في مسألة القدر والصفات علي وعائشة وأم سلمة وغيرهم.

وإحدى فوائد نزول (١٥) المتشابه الابتلاء. فإن قيل: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم تأويل هذا النوع

---

(١) ينظر: تفسير الطبري:٣/ ٢٣١ - ٢٣٢، ومعاني القرآن الكريم ١/ ٣٤٨ - ٣٤٩، وتفسير البغوي ١/ ٢٧٨.

(٢) ساقطة من ب.

(٣) يقتضيها السياق، وبعدها في ك: يثبت، بدل (يصرف).

(٤) ينظر: الكتاب ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤، ومعاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٧٧، وإعراب القرآن ١/ ٢٨٥ و ٣٥٥.

(٥) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٢/ ٣٩٨، ومجمع البيان ٢/ ٢٣٨.

(٦) تفسير الطبري ٣/ ٢٤٠، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ١٣ - ١٤، والتبيان في تفسير القرآن ٢/ ٣٩٩.

(٧) في الآية نفسها: وابتغاء تأويله.

(٨) ينظر: البرهان ٢/ ١٤٨ - ١٥٠، والتأويل اللغوي في القرآن الكريم دراسة دلالية ٢ - ١١.

(٩) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٥٠ - ٢٥١، والبحر المحيط ٢/ ٣٨٧، والبرهان ٢/ ١٤٨.

(١٠) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ٣٧٨، والقطع والائتناف ٢١٢، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ١٤.

(١١) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٠، والكشاف ١/ ٣٣٩.

(١٢) ينظر: تفسير القرآن ١/ ١١٦، والقطع والائتناف ٢١٢، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ١٥.

(١٣) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ١٩١، وتفسير البغوي ١/ ٢٨٠، والكشاف ١/ ٣٣٩.

(١٤) ينظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٤٨.

(١٥) ساقطة من ك. وينظر: الكشاف ١/ ٣٣٨، وتفسير النسفي ١/ ١٤٢، والبحر المحيط ٢/ ٣٩٨.." [1]

"سورة الصف

مكية (١)، عن عطاء. (٢) مدنية، عن الحسن وعكرمة وقتادة. (٣)

وهي أربع عشرة آية بلا خلاف. (٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٣٧٩/١

٢ – ﴿لم تقولون ما لا تفعلون:﴾ هم: ﴿كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال﴾ [النساء:٧٧] (٥)، تولوا إلا قليلا منهم، والشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون.

٣ – (٦) قيل لميمون بن مهران: أهو الذي يقرظ نفسه، أو هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وفيه تقصير؟ قال: كلاهما ممقوت. (٧)

٥ – ﴿فلما زاغوا:﴾ تهيؤوا للزيغ مختارين له بخذلان الله تعالى، خلق الله فيهم الزيغ. (٨)

٦ – وعن عطاء ومقاتل والضحاك، عن ابن عباس: اسمه في التوراة أحمد الضحوك القتال، يركب البعير، ويلبس الشملة، ويجتزئ بالكسرة، سيفه على عائقه. (٩)
﴿فلما جاءهم بالبينات:﴾ عيسى أو نبينا عليهما السلام. (١٠)

١١ – ﴿تؤمنون﴾ ﴿وتجاهدون:﴾ رفع بحذف الناصبة (١١)، تقديره: هو أن تؤمنوا وتجاهدوا، (١٢) ويحتمل: أنه خبر بمعنى الأمر. (١٣) والله أعلم.

---

(١) ساقطة من ع.
(٢) البيان في عد آي القرآن ٢٤٥، والمحرر الوجيز ١٤/ ٤٢٣.
(٣) البيان في عد آي القرآن ٢٤٥ عن قتادة، وزاد المسير ٨/ ٤٥ عن جميعهم.
(٤) البيان في عد آي القرآن ٢٤٥، التلخيص في القراءات الثمان ٤٣٥، وجمال القراء ٢/ ٥٤٩، وإتحاف فضلاء البشر ٥٤١.
(٥) جاء هذا المعنى في سبب نزول الآية الكريمة، ينظر: تفسير الطبري ١٢/ ٧٩، ومعاني القرآن وإعرابه ٥/ ١٦٣، وزاد المسير ٨/ ٤٦.
(٦) في قوله تعالى: كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.
(٧) الموافقات للشاطبي ٤/ ٢٥٥، والدر المنثور ٨/ ١٣٨.
(٨) ينظر: المحرر الوجيز ١٤/ ٣٢٨، وتفسير القرطبي ١٨/ ٨٣.
(٩) ينظر: تفسير السمعاني ٥/ ٢٩٦ عن كعب موقوفا، والخصائص الكبرى ١/ ١٣٣ عن ابن عباس رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
(١٠) ينظر: التفسير الكبير ١٠/ ٥٢٩، والمحرر الوجيز ١٤/ ٤٢٩، وتفسير القرطبي ١٨/ ٨٤.
(١١) ع: الناصب.

(١٢) ينظر: معاني القرآن للفراء ٣/ ١٥٤، وكشف المشكلات وإيضاح المعضلات ٢/ ٣٦٣، والتبيان في إعراب القرآن ٢/ ٤١٠.

(١٣) ينظر: الكشاف ٤/ ٥٢٥، والبيان في غريب إعراب القرآن ٢/ ٣٦٣، وتفسير القرطبي ١٨/ ٨٧ عن المبرد والزجاج.." [١]

"قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني﴾ قد بينا ما كان يؤذون به موسى عليه السلام في سورة الأحزاب.

وقوله: ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ أي: وتعلمون، " وقد " صلة.

وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: مالوا عن الحق [فأمال] الله قلوبهم، أي: زادهم ميلا عن الحق.

وقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الكافرين.." [٢]

"﴿يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله﴾ استشهد فجعفر بن أبي طالب، فإن استشهد فعبد الله بن رواحة [قال: فاستشهد زيد] بن حارثة، ثم أخذ الراية جعفر فاستشهد، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة فاستشهد، ثم إنه أخذ الراية خالد بن الوليد وقاتل حتى رجع بالمسلمين ".." [٣]

"وقيل: أحسنها الفرائض والنوافل، وهي ما يستحق عليها الثواب وما دونها المباح لأنه لا يستحق عليه الثواب. وقيل: بأحسنها، بأحسن الأمرين في كل شيء كالعفو أحسن من القصاص والصبر أحسن من الانتصار. سأريكم دار الفاسقين، قال مجاهد: مصيرها [١] في الآخرة، وقال الحسن وعطاء: يعني جهنم يحذركم أن تكونوا مثلهم.

وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشأم فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها.

وقال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدل عليه قراءة قسامة بن زهير:

(سأورثكم دار الفاسقين) . وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفار. وقال الكلبي: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل [٢] عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٦]

سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٤٦)

قوله تعالى: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٦٣٦/٢

(٢) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ٤٢٥/٥

(٣) تفسير السمعاني السمعاني، أبو المظفر ٤٢٥/٥

ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق **كقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] . قال سفيان بن عيينة: سأمنعهم [٣] فهم القرآن. قال ابن جريج: يعني عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي سأصرفهم أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى. والأكثرون على أن الآية عامة، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا، يعني: هؤلاء المتكبرين، سبيل الرشد، قرأ حمزة والكسائي الرشد بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسقم والسقم والبخل والبخل والحزن والحزن. وكان أبو عمر يفرق بينهما، فيقول: الرشد بالضم الصلاح في الأمر وبالفتح الاستقامة في الدين. ومعنى الآية: وإن يروا طريق الهدى والسداد، لا يتخذوه لأنفسهم سبيلا، وإن يروا سبيل الغي، أي: طريق الضلال يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين، عن التفكر فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٧ الى ١٥٠]

والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (١٤٧) واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨) ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩) ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين (١٥٠)

---

(١) في المخطوط «مصيرهم» .

(٢) في المخطوط «مصارع» .

(٣) في المطبوع «ساء منعهم» .." (١)

"سورة الصف

مدنية [وقال عطاء: مكية وهي أربع عشرة آية] [١]

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي، أبو محمد ٢/٢٣٤

الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) ،.

قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا [الصف: ٤] فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين، فأنزل الله تعالى: لم تقولون ما لا تفعلون.

وقال محمد بن كعب: لما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بثواب شهداء بدر، قالت الصحابة: لئن لقينا بعده قتالا لنفرغن فيه وسعنا، ففروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية. وقال قتادة والضحاك: نزلت في شأن القتال، كان الرجل يقول: قاتلت ولم يقاتل: وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية. قال ابن زيد: نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

كبر مقتا عند الله أن تقولوا، قوله: أن تقولوا في موضع رفع فهو كقولك بئس رجلا أخوك، ومعنى الآية أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله أي إن الله يبغض بغضا شديدا أن تقولوا، ما لا تفعلون، أي تعدوا من أنفسكم شيئا ثم لم تفوا به. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا، أي يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيان مرصوص، قد رص بعضه ببعض أي ألزق بعضه ببعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل. وقيل أحكم بالرصاص [٢] .

وإذ قال موسى لقومه، من بني إسرائيل، يا قوم لم تؤذونني، وذلك حين رموه بالأدرة، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، والرسول يعظم ويحترم، فلما زاغوا، عدلوا عن الحق،

---

(١) زيد في المطبوع.

(٢) في المخطوط وط «وقيل: كالرصاص» .." [١]

"جهنم، يحذركم أن تكونوا مثلهم. وقال قتادة وغيره: سأدخلكم الشأم فأريكم منازل القرون الماضية الذين خالفوا أمر الله لتعتبروا بها. قال عطية العوفي: أراد دار فرعون وقومه وهي مصر، يدل عليه قراءة قسامة بن زهير: "سأوريكم دار الفاسقين"، وقال السدي: دار الفاسقين مصارع الكفار. وقال الكلبي: ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا.

﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٤٦) والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (١٤٧) ﴾

قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال ابن عباس: يريد الذين يتجبرون على عبادي

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ٧٩/٥

ويحاربون أوليائي حتى لا يؤمنوا بي، يعني: سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم للحق، كقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

قال سفيان بن عيينة: سأمنعهم فهم القرآن. قال ابن جريج: يعني عن خلق السموات والأرض وما فيها أي أصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها. وقيل: حكم الآية لأهل مصر خاصة، وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى موسى عليه السلام. والأكثرون على أن الآية عامة ﴿وإن يروا﴾ [يعني: هؤلاء المتكبرين] (١) ﴿كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد﴾ قرأ حمزة والكسائي "الرشد" بفتح الراء والشين، والآخرون بضم الراء وسكون الشين وهما لغتان كالسقم والسقم والبخل والبخل والحزن والحزن.

وكان أبو عمرو يفرق بينهما، فيقول: الرشد -بالضم -الصلاح في الأمر، وبالفتح الاستقامة في الدين. معنى الآية: إن يروا طريق الهدى والسداد ﴿لا يتخذوه﴾ لأنفسهم ﴿سبيلا﴾ ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ أي طريق الضلال ﴿يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ عن التفكير فيها والاتعاظ بها غافلين ساهين.

---

(١) ما بين القوسين ساقط من "ب".." (١)

"وطعنت ولم يطعن، وضربت ولم يضرب، فنزلت هذه الآية (١) قال ابن زيد: نزلت في المنافقين كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون (٢) ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا﴾ في موضع الرفع فهو كقولك: بئس رجلا أخوك، ومعنى الآية: أي عظم ذلك في المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضا شديدا أن تقولوا ﴿ما لا تفعلون﴾ أن تعدوا من أنفسكم شيئا ثم لم توفوا به.

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ﴾

﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا﴾ أي يصفون أنفسهم عند القتال صفا ١٦٣/أولا يزولون عن أماكنهم ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ قد رص بعضه ببعض [أي ألزق بعضه ببعض] (٣) وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل. وقيل كالرصاص.

﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ من بني إسرائيل: ﴿يا قوم لم تؤذونني﴾ وذلك حين رموه بالأدرة ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ والرسول يعظم [ويكرم] (٤) ويحترم ﴿فلما زاغوا﴾ عدلوا عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أمالها عن الحق، يعني أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ قال الزجاج: يعني لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق.

---

(١) أخرجه الطبري: ٢٨ / ٨٤-٨٥، وذكره ابن كثير: ٤ / ٣٥٩. وانظر: البحر المحيط: ٨ / ٢٦١.

(٢) ذكره الطبري: ٢٨ / ٨٥ وقال مرجحا: "وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عنى بها الذين قالوا: لو عرفنا

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٢٨٢/٣

أحب الأعمال إلى الله لعملنا به، ثم قصروا في العمل بعد ما عرفوا"، وانظر البحر المحيط ٨ / ٢٦١.

(٣) ما بين القوسين زيادة من "ب".

(٤) ما بين القوسين زيادة من "ب".." (١)

"فصل

والدليل على أن الله تعالى مقلب القلوب على ما يشاء: قوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ . وقوله ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ وقوله ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، وقوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ .

٢٦٣ - أخبرنا أبو عمرو، أنا والدي، أنا خيثمة بن سليمان، نا العباس بن الوليد بن مزيد، أخبرني أبي، نا عبد الرحمن، بن يزيد بن جابر، حدثني بسر بن عبيد الله، عن أبي إدريس الخولاني قال: سمعت النواس ابن سمعان الكلابي يقول: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه، وأن شاء أزاغه ". وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، والميزان بيد الرحمن يرفع أقواما، ويضع آخرين إلى يوم القيامة ".." (٢)

"[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

وإذ منصوب بإضمار اذكر. أو: وحين قال لهم ما قال كان كذا وكذا تؤذونني كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه، وجحود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه وقد تعلمون في موضع الحال، أى: تؤذوننى عالمين علما يقينا «١» أني رسول الله إليكم وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري، لا أن تؤذوني وتستهينوا بى، لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله، علما بأن تعظيمه في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لا حقا **به فلما زاغوا عن** الحق أزاغ الله قلوبهم بأن منع ألطافه عنهم «٢» والله لا يهدي القوم الفاسقين لا يلطف بهم لأنهم ليسوا من أهل اللطف. فإن قلت: ما معنى قد في قوله قد تعلمون؟ قلت: معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علما يقينا لا شبهة لكم فيه.

[سورة الصف (٦١) : آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٠٨/٨

(٢) الحجة في بيان المحجة إسماعيل الأصبهاني ٣٠٩/٢

(١) . قال محمود: «بين أنهم على عكس الصواب حيث قال: تؤذونني عالمين ... الخ» قال أحمد: أهل العربية تقول: إن «قد» تصحب الماضي لتقريبه من الحال. ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة، وتشتمل المصاحبة للماضي أيضا على معنى التوقع، فلذلك قال سيبويه «قد فعل» جواب لما يفعل، وقال الخليل: هذا الخبر لقوم ينتظرونه، وأما مع المضارع فإنها تفيد التقليل مثل: ربما، كقولهم: إن الكذوب قد يصدق، فإذا كان معناها مع المضارع التقليل وقد دخلت في الآية على مضارع، فالوجه- والله أعلم- أن يكون هذا من الكلام الذي يقصدون به الافراط فيما ينعكس عنه، وتكون «قد» في هذا المعنى نظيرة «ربما» في قوله ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين فإنها في هذا الموضع أبلغ من كم في التكثير، فلما أوردت «ربما» في التكثير على عكس معناها الأصلى في التقليل، فكذلك إيراد «قد» هاهنا لتكثير علمهم، أى: تحقيق تأكيده على عكس معناها الأصلى في تقليل الأصل، وعليه:

قد أترك القرن مصفرا أنامله

وإنما مدح نفسه بكثرة هذا الفعل منه عكس ديدنه الأصلى، ولا يقال: إن حملها في الآية على التكثير متعذر، لأن العلم معلوم التعلق لا يتكثر ولا يتقلل، لأنا نقول: يعبر عن تمكن الفعل وتحققه وتأكده وبلوغه الغاية في نوعه بما يعبر به عن التكثير، وهو تعبير صحيح.

ألا ترى أن قوله ربما يود الذين كفروا هو من هذا القبيل، فان المراد شدة ودهم لذلك وبلوغه أقصى منتهاه لا غير، والله الموفق.

(٢) . قوله «بأن منع ألطافه عنهم» فسر الازاغة بذلك بناء على مذهب المعتزلة: أنه تعالى لا يريد الشر.

ومذهب أهل السنة: أنه تعالى يريد الشر والخير، كما تقرر في محله. (ع)." [١]

"أعلم محمدا، وارتد ولحق بمكة، ونزلت الآية فيه.

قال القاضي أبو محمد: هذا نصراني أسلم وكتب، ثم ارتد ولحق بمكة ومات، ثم لفظته الأرض، وإلا فهذا القول يضعف لأن الكاتب المشهور الذي ارتد لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبد الله بن أبي سرح العامري، ولسانه ليس بأعجمي فتأمله.

قوله عز وجل:

[سورة النحل (١٦) : الآيات ١٠٤ الى ١٠٦]

إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم (١٠٤) إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون (١٠٥) من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم (١٠٦)

المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر، تهمما بتقبيح فعلهم والتشنيع لخطابهم، وذلك كقوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] والمراد ما ذكرناه فكأنه قال إن الذين لم يؤمنوا لم

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٤/٥٢٤

يهدهم الله، وقوله: إنما يفتري الكذب بمعنى يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم: إنما أنت مفتر، وإنما أبدا حاصرة، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها، فقد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقيا كقوله تعالى:

إنما الله إله واحد [النساء: ١٧١] وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجوزا ومبالغة، كقولك: إنما الشجاع عنترة، وهكذا هي في هذه الآية، قال الزجاج: يفتري هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله، كذبوا بها، فهذا أفحش الكذب، وكرر المعنى في قوله: وأولئك هم الكاذبون لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به، لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضه الخبر فبدأ في هذه الآية بالخبر، ثم أكد بالصفة، وقد اعترض هذا النظر مكي، وليس اعتراضه بالقوي، ومن في قوله من كفر بدل من قوله هم الكاذبون ولم يجز الزجاج غير هذا الوجه لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله، والذي أبى الزجاج سائغ على ما أورده الآن إن شاء الله.

قال القاضي أبو محمد: وهذا يتأكد بما روي من أن قوله وأولئك هم الكاذبون يراد به عبد الله بن أبي سرح ومقيس بن صبابة وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ثم ارتد، فلما بين في هذه الآية أمر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنون المعذبون بمكة، وهم بلال وعمار وسمية أمه وخباب وصهيب وأشباههم، وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء الضعفة، يعذبونهم ليرتدوا، فربما سامعهم بعضهم بما أرادوا من القول، يروى أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده، ثم ابتدأ الإخبار: «أن من شرح." (١)

"الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اسم اليتم بعد البلوغ أي كانا يتيمين على معنى التشفق عليهما، واختلف الناس في «الكنز» : فقال عكرمة وقتادة كان مالا جسيما، وقال ابن عباس كان علما في صحف مدفونة، وقال عمر مولى غفرة كان لوحا من ذهب قد كتب فيه عجبا للموقن بالرزق كيف يتعب، وعجبا للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجبا للموقن بالموت كيف يفرح، وروي نحو هذا مما هو في معناه، قوله وكان أبوهما صالحا ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دنية، وقيل هو الأب السابع، وقيل العاشر، فحفظا فيه وإن لم يذكرا بصلاح، وفي الحديث «إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته» ، وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة فأردت أن أعيبها [الكهف: ٧٩] وفي الثانية فأردنا أن يبدلهما وفي الثالثة فأراد ربك أن يبلغا وإنما انفرد أولا في الإرادة لأنها لفظة عيب، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله وإذا مرضت فهو يشفين [الشعراء: ٨٠] ، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى لنفسه، إذ هو معنى نقص ومصيبة، وهذا المنزع يطرد في فصاحة القرآن كثيرا، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله [الصف: ٥] ، وتقديم فعل الله تعالى في قوله ثم تاب عليهم ليتوبوا [التوبة: ١١٨] ، وإنما قال الخضر في الثانية فأردنا لأنه أمل قد كان رواه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين، وتمنى البديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى. لأنها في أمر مستأنف في الزمن طويل غيب من

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٤٢٢/٣

الغيوب، فحسن إفادة هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضا ذلك الذي أعلمه الله أنه يريده، فهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصر، والله أعلم، و «الأشد» كما الخلق والعقل واختلف الناس في قدر ذلك من السن، فقيل خمس وثلاثون، وقيل ست وثلاثون، وقيل أربعون، وقيل غير هذا مما فيه ضعف، وقول الخضر وما فعلته عن أمري يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه: فقيل هو نبي، وقيل هو عبد صالح وليس بنبي، وكذلك جمهور الناس على أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم، وتقول فرقة إنه حي، لأنه شرب من عين الحياة، وهو باق في الأرض، وأنه يحج البيت، وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، كلها لا يقوم على ساق، ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له في ملة الإسلام ظهور والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره، ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي صلى الله عليه وسلم «أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» ، وقوله ذلك تأويل أي مآل، وقرأت فرقة «تستطع» ، وقرأ الجمهور «تسطع» قال أبو حاتم كذا نقرأ «نتبع» المصحف، وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تعالى: وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا [الكهف: ٥٨] إن هذه القصة إنما جلبت على معنى المثل للنبي صلى الله عليه وسلم في قومه أي لا تهتم بإملاء الله لهم وإجراء النعم لهم على ظاهرها، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسف ما فتأمله.

قوله عز وجل:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٨٣ الى ٨٦]

ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا (٨٣) إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا (٨٤) فأتبع سببا (٨٥) حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا (٨٦)." (١)

"بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الصف

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكي عن ابن عباس والمهدوي عن عطاء ومجاهد إنها مكية والأول أصح لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكي والمدني.

قوله عز وجل:

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥٣٧/٣

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

قد تقدم القول غير مرة في تسبيح الجمادات، والعزيز في سلطانه وقدرته، والحكيم في أفعاله وتدبيره، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه: يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون فقال ابن عباس وأبو صالح: نزلت بسبب أن جماعة قالوا: لوددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا حتى نفني فيه، ففرض الله الجهاد وأعلمهم بفضله لديه وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص، وكان إذ فرض قد تكرهه قوم منهم، وفر من فر يوم أحد فعاتبهم الله بهذه الآية بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا ويقولون فعلنا وصنعنا وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك. وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين نحن منكم ومعكم ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتابا لهم، وحكم هذه الآية باق غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل، فهو ممقوت مذق الكلام، والقول الآخر في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مجلحين بالنفاق فلذلك خوطبوا بالمؤمنين أي في زعمكم وما تظهرون، والقول الأول يترجح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال. و «المقت» : البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت، وهذا حد المقت فتأمله، ومقتا نصب على التمييز، والتقدير كبر فعلكم مقتا، والمراد كبر مقت فعلكم فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تريد تفقأ شحم بطنك فتقول: تفقأ بطنك شحما، وأن تقولوا، يحتمل أن يكون بدلا من المقدر، ويحتمل أن يكون فاعلا ب كبر، وقول المرء ما لا يفعل." [1]

"اختيار القاضي أبي يعلى، وأبي سليمان الدمشقي.

[سورة النساء (٤) : آية ١١٥]

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (١١٥)

قوله تعالى: ومن يشاقق الرسول في سبب نزولها قولان:

(٣٦٤) أحدهما: أنه لما نزل القرآن بتكذيب طعمة، وبيان ظلمه، وخاف على نفسه من القطع والفضيحة، هرب إلى مكة، فلحق بأهل الشرك، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، والسدي.

(٣٦٥) وقال مقاتل: لما قدم مكة نزل على الحجاج بن علاط السلمي فأحسن نزله، فبلغه أن في بيته ذهبا، فخرج في الليل فنقب حائط البيت، فعلموا به فأحاطوا بالبيت، فلما رأوه، أرادوا أن يرجموه، فاستحيا الحجاج، لأنه ضيفه، فتركوه، فخرج، فلحق بحرة بني سليم يعبد صنمهم حتى مات على الشرك، فنزل فيه: إن الله لا يغفر أن يشرك به. وقال غيره: بل خرج مع تجار فسرق منهم شيئا، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، وقيل: ركب سفينة، فسرق فيها مالا، فعلم به، فألقي في البحر.

---

(١) تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية ٥/٣٠١

والقول الثاني: أن قوما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلموا، ثم ارتدوا، فنزلت فيهم هذه الآية، روي عن ابن عباس.

ومعنى الآية: ومن يخالف الرسول في التوحيد، والحدود، من بعد ما تبين له التوحيد والحكم، ويتبع غير دين المسلمين، نوله ما تولى، أي: نكله إلى ما اختار لنفسه، ونصله جهنم: ندخله إياها.

قال ابن فارس: تقول صليت اللحم أصليه: إذا شويته، فإن أردت أنك أحرقته، قلت: أصليته. وساءت مصيرا، أي: مرجعا يصار إليه «١» .

انظر الأحاديث المتقدمة (عند الآية ١٠٥) .

عزاه المصنف لمقاتل، وهو ابن سليمان، وقد كذبه غير واحد، فخبره لا شيء.

وذكره البغوي في «تفسيره» ١/ ٤٨٠ بدون إسناد، ومن غير عزو لأحد.

---

(١) قال ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» ١/ ٥٦٨: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق والشرع في شق وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له وقوله: ويتبع غير سبيل المؤمنين هذا ملازم للصفة الأولى ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، وقد ذكرنا منها طرفا صالحا في كتاب «أحاديث الأصول» ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجا له كما قال تعالى: فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون [القلم: ٤٤] وقال تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم [الصافات: ٢٢- ٢٣] وقال تعالى: ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا [الكهف: ٥٣] .." (١)

"قولكم ما لا تفعلون مقتا عند الله. ثم أعلم عز وجل ما الذي يحبه، فقال عز وجل: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي: بنيان لاصق بعضه ببعض، فأعلم أنه يحب من يثبت في الجهاد، ويلزم مكانه كثبوت البنيان المرصوص. ويجوز أن يكون عنى أن يستوي ثباتهم في حرب عدوهم حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤٧١/١

وللمفسرين في المراد ب «المرصوص» قولان: أحدهما: أنه الملتصق بعضه ببعض، فلا يرى فيه خلل لإحكامه، قاله الأكثرون. والثاني: أنه المبني بالرصاص وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وكان أبو بحرية يقول: كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض لهذه الآية. اسم أبي بحرية: عبد الله بن قيس التراغمي، يروي عن معاذ، وكأنه أشار بذلك إلى أن الفرسان لا يصطفون في الغالب إنما يصطف الرجالة.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٥ الى ٩]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

قوله عز وجل: وإذ قال موسى المعنى: اذكر لمن يؤذيك من المنافقين ما صنعته بالذين آذوا موسى. وقد ذكرنا ما آذوا به موسى في الأحزاب «١» .

قوله عز **وجل: فلما زاغوا أي**: مالوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم أي: أمالها عن الحق جزاء لما ارتكبوه، وما بعد هذا ظاهر إلى قوله عز وجل: يأتي من بعدي قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم «من بعدي اسمه» بفتح الياء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم «من بعدي اسمه» بإسكان الياء ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وفيهم قولان: أحدهما: أنهم اليهود، قاله مقاتل. والثاني: النصارى حين قالوا: عيسى ابن الله، قاله أبو سليمان الدمشقي. وقرأ ابن مسعود، وعاصم الجحدري، وطلحة بن مصرف وهو «يدعي إلى الإسلام» بفتح الياء، والدال، وتشديدها، وبكسر العين، وما بعد هذا في براءة «٢» إلى قوله عز وجل: متم نوره قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم وخلف «متم نوره» مضاف. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم «متم» رفع منون.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١٠ الى ١٤]

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)

---

(١) الأحزاب: ٦٩.

(٢) التوبة: ٣٢.." [1]

"حاجته غير متناهية والأجسام متناهية والمتناهي لا يصير مقابلا لغير المتناهي بل الذي يكفي في الحاجة الغير المتناهية الكمال الذي لا نهاية له وما ذاك إلا للحق سبحانه وتعالى فلهذا قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه: **أحدها: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم. وثانيها: ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم. وثالثها: في قلوبهم مرض. ورابعها: جعلنا قلوبهم قاسية.

وخامسها: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه. وسادسها: ختم الله على قلوبهم. وسابعها: أم على قلوب أقفالها. وثامنها: كلا بل ران على قلوبهم. وتاسعها: أولئك الذين طبع الله على قلوبهم. إلهنا وسيدنا بفضلك وإحسانك أغلق هذه الأبواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا بإحسانك وافتح لنا تلك الأبواب التسعة من إحسانك بفضلك ورحمتك إنك على ما تشاء قدير.

الفصل الخامس: في حقيقة شرح الصدر، ذكر العلماء فيه وجهين: الأول: أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالأهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم، وأما الرهبة فهي أن يكون خائفا من الأعداء والمنازعين فإذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته، فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة إليها ولا تمنعه رهبة عنها، فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى، فإن القلب في المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فإذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فأما إذا انصب الكل في موضع واحد قوي فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فإذا حصلت النفرة توجه إلى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية. الثاني: أن موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج إلى تكاليف شاقة منها ضبط الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها إصلاح العالم الجسداني فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات إلى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر، ألا ترى أن المشتغل بالإبصار يصير/ ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الإبصار والخيال، فهذه القوى متجاذبة متنازعة وأن موسى عليه السلام كان محتاجا إلى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر. وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة. المثال الأول: اعلم أن البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم إلى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذي يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم إن الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الأخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج في مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو إلى الله

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٤/٢٧٨

تعالى والهوى يدعو إلى الشيطان ثم إن الروح أخرج الفطنة إعانة للعقل فأخرج الشيطان في مقابلة الفطنة الشهوة، فالفطنة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تحركك إلى لذات الدنيا ثم إن الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعائب على ما

قال عليه السلام: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»

فأخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فإن العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فأخرج الشيطان في مقابلته العجلة والسرعة فلهذا

قال عليه السلام: «ما دخل الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا." (١)

"وهم الذين وعدوا بالقتال ولم يقاتلوا، وهذه الآية محمدة الموافقين في القتال وهم الذين قاتلوا في سبيل الله وبالغوا فيه. ثم قال تعالى:

[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

معناه اذكر لقومك هذه القصة، وإذ منصوب بإضمار اذكر أي حين قال لهم: تؤذونني وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى قولا وفعلا، فقالوا: أرنا الله جهرة [النساء: ١٥٣] ، لن نصبر على طعام واحد [البقرة: ٦١] وقيل: قد رموه بالأدرة، وقوله تعالى: وقد تعلمون أني رسول الله في موضع الحال، أي تؤذونني عالمين علما قطعيا أني رسول الله وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والتوقير، **وقوله: فلما زاغوا أي** مالوا إلى غير الحق أزاغ الله قلوبهم أي أمالها عن الحق، وهو قول ابن عباس وقال مقاتل: زاغوا أي عدلوا عن الحق بأبدانهم أزاغ الله أي أمال الله قلوبهم عن الحق وأضلهم جزاء ما عملوا، ويدل عليه قوله تعالى: والله لا يهدي القوم الفاسقين قال أبو إسحاق معناه: والله لا يهدي من سبق في عمله أنه فاسق، وفي هذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم حتى إنه يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى وقد معناه التوكيد كأنه قال: وتعلمون علما يقينيا لا شبهة لكم فيه. ثم قال تعالى:

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٦ الى ٧]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧)

قوله: إني رسول الله أي اذكروا أني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصداقا بالتوراة وبكتب

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٠/٢٢

الله وبأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر ومبشرا برسول يصدق بالتوراة على مثل تصديقي، فكأنه قيل له: ما اسمه؟ فقال: اسمه احمد قلوله: يأتي من بعدي اسمه أحمد جملتان في موضع الجر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول، وفي بعدي اسمه قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها، كما في قوله تعالى:

ولمن دخل بيتي [نوح: ٢٨] فمن أسكن في قوله: من بعدي اسمه حذف الياء من اللفظ لالتقاء الساكنين، وهما الياء والسين من اسمه، قاله المبرد وأبو علي، وقوله تعالى: أحمد يحتمل معنيين أحدهما:

المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمدا لله من غيره وثانيهما: المبالغة من المفعول، يعني أنه يحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يحمد غيره.

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام، بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «وأنا أطلب لكم إلي أبي حتى يمنحكم، ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط هو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ: «وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي،." (١)

"العقلية، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، ولا يفسرون القرآن إلا بما يطابق دلائل العقول، وتوافق اللغة والإعراب.

واعلم أن الشيء كلما كان أشرف كان ضده أخس، فكذلك مفسر القرآن متى كان موصوفا بهذه الصفة كانت درجته هذه الدرجة العظمى التي عظم الله الثناء عليه، ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحرا في علم الأصول، وفي علم اللغة والنحو كان في غاية البعد عن الله، ولهذا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» .

[سورة آل عمران (٣) : آية ٨]

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب (٨)

واعلم أنه تعالى كما حكى عن الراسخين أنهم يقولون آمنا به حكى عنهم أنهم يقولون: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا وحذف (يقولون) لدلالة الأول عليه، وكما في قوله ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا [آل عمران: ١٩١] وفي هذه الآية اختلف كلام أهل السنة وكلام المعتزلة.

أما كلام أهل السنة فظاهر، وذلك لأن القلب صالح لأن يميل إلى الإيمان، وصالح لأن يميل إلى الكفر، ويمتنع أن يميل إلى أحد الجانبين إلا عند حدوث داعية وإرادة يحدثها الله تعالى، فإن كانت تلك الداعية داعية الكفر، فهي الخذلان، والإزاغة، والصد، والختم، والطبع، والرين، والقسوة، والوقر، والكنان، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن، وإن كانت تلك الداعية

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢٨/٢٩

داعية الإيمان فهي: التوفيق، والرشاد، والهداية، والتسديد، والتثبيت، والعصمة، وغيرها من الألفاظ الواردة في القرآن، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»

والمراد من هذين الأصبعين الداعيتان، فكما أن الشيء الذي يكون بين أصبعي الإنسان يتقلب كما يقلبه الإنسان بواسطة ذينك الأصبعين، فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسطة تينك الداعيتين، ومن أنصف ولم يتعسف، وجرب نفسه وجد هذا المعنى كالشيء المحسوس، ولو جوز حدوث إحدى الداعيتين من غير محدث ومؤثر لزمه نفي الصانع

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»

ومعناه ما ذكرنا/ فلما آمن الراسخون في العلم بكل ما أنزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات تضرعوا إليه سبحانه وتعالى في أن لا يجعل قلوبهم مائلة إلى الباطل بعد أن جعلها مائلة إلى الحق، فهذا كلام برهاني متأكد بتحقيق قرآني.

ومما يؤكد ما ذكرناه أن الله تعالى مدح هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يتبعون المتشابهات، بل يؤمنون بها على سبيل الإجمال، وترك الخوض فيها فيبعد منهم في مثل هذا الوقت أن يتكلموا بالمتشابه فلا بد وأن يكونوا قد تكلموا بهذا الدعاء لاعتقادهم أن من المحكمات، ثم إن الله تعالى حكى ذلك عنهم في معرض المدح لهم والثناء عليهم بسبب أنهم قالوا ذلك، وهذا يدل على أن هذه الآية من أقوى المحكمات، وهذا كلام متين.

وأما المعتزلة فقد قالوا: لما دلت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعالى، وجب صرف هذه الآية إلى التأويل، فأما دلائلهم فقد ذكرناها في تفسير قوله تعالى: سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون [البقرة: ٦] .

ومما احتجوا به في هذا الموضع خاصة قوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] وهو صريح." (١)

"في أن ابتداء الزيغ منهم، وأما تأويلاتهم في هذه الآية فمن وجوه الأول: وهو الذي قاله الجبائي واختاره القاضي: أن المراد بقوله لا تزغ قلوبنا يعني لا تمنعها الألطاف التي معها يستمر قلبهم على صفة الإيمان، وذلك لأنه تعالى لما منعهم ألطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز أن يقال: أزاغهم ويدل على هذا قوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] والثاني: قال الأصم: لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا فهو كقوله ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم [النساء: ٦٦] وقال: لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة [الزخرف: ٣٣] والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ، وقد يقول القائل: لا تحملني على إيذائك أي لا تفعل ما أصير عنده مؤذيا لك الثالث: قال الكعبي لا تزغ قلوبنا أي لا تسمنا باسم الزائغ، كما يقال: فلان يكفر فلانا إذا سماه كافرا، والرابع: قال الجبائي: أي لا تزغ قلوبنا عن جنتك وثوابك بعد إذ هديتنا وهذا قريب من الوجه الأول إلا أن يحمل على شيء آخر، وهو أنه تعالى إذا علم أنه مؤمن في الحال، وعلم أنه لو بقي إلى السنة الثانية لكفر، فقوله لا تزغ قلوبنا محمول على أن يميته قبل أن يصير كافرا، وذلك لأن إبقاءه حيا إلى السنة الثانية يجري مجرى ما إذا أزاغه عن طريق الجنة الخامس: قال الأصم لا تزغ قلوبنا عن كمال العقل بالجنون بعد إذ هديتنا بنور العقل السادس: قال أبو مسلم: احرسنا من الشيطان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٨/٧

ومن شرور أنفسنا حتى لا نزيغ، فهذا جمل ما ذكروه في تأويل هذه الآية وهي بأسرها ضعيفة.
أما الأول: فلأن من مذهبم أن كل ما صح في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لطفا/ وجب عليه ذلك وجوبا لو تركه لبطلت إلهيته، ولصار جاهلا ومحتاجا والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجة إلى الدعاء في طلبه بل هذا القول يستمر على قول بشر بن المعتمر وأصحابه الذين لا يوجبون على الله فعل جميع الألطاف.
وأما الثاني: فضعيف، لأن التشديد في التكليف إن علم الله تعالى له أثرا في حمل المكلف على القبيح قبح من الله تعالى، وإن علم الله تعالى أنه لا أثر له البتة في حمل المكلف على فعل القبيح كان وجوده كعدمه فيما يرجع إلى كون العبد مطيعا وعاصيا، فلا فائدة في صرف الدعاء إليه.
وأما الثالث: فهو أن التسمية بالزيغ والكفر دائر مع الكفر وجودا وعدما والكفر والزيغ باختيار العبد، فلا فائدة في قوله لا تسمنا باسم الزيغ والكفر.
وأما الرابع: فهو أنه لو كان علمه تعالى بأنه يكفر في السنة الثانية، يوجب عليه أن يميته لكان علمه بأن لا يؤمن قط ويكفر طول عمره يوجب عليه لا يخلقه.
وأما الخامس: وهو حمله على إبقاء العقل فضعيف، لأن هذا متعلق بما قال قبل هذه الآية فأما الذين في قلوبهم زيغ [آل عمران: ٧] .
وأما السادس: وهو أن الحراسة من الشيطان ومن شرور النفس إن كان مقدورا وجب فعله، فلا فائدة في الدعاء وإن لم يكن مقدورا تعذر فعله فلا فائدة في الدعاء، فظهر بما ذكرنا سقوط هذه الوجوه، وأن الحق ما ذهبنا إليه.
فإن قيل: فعلى ذلك القول كيف الكلام في تفسير قوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] .. "(١)

"..................................

ما فروا من أجله، فوقعوا في حبائل شراكهم التي نصبوها، ورضوا من الغنيمة بالتناقض والاضطراب، ويوضح الإمام ابن القيم هذا الأمر فيقول: " ... إن المتأولين لم يستفيدوا بتأويلهم إلا تعطيل النصوص، والتلاعب بها، وانتهاك حرمتها، ولم يتخلصوا مما ظنوه محذورا، بل هو لازم لهم فيما فروا إليه، كلزومه فيما فروا منه، بل قد يقعون في ما هو أعظم محذورا، كحال الذين تأولوا نصوص العلو والفوقية والاستواء فرارا من التحيز والحصر، ثم قالوا هو في كل مكان بذاته، فنزهوه عن استوائه على عرشه ومباينته لخلقه، وجعلوه في أجواف البيوت والآبار والأواني والأمكنة التي يرغب عن ذكرها، فهؤلاء قدماء الجهمية، فلما علم متأخروهم فساد ذلك قالوا: ليس وراء العالم، ولا فوق العرش إلا العدم المحض، وليس هناك رب يعبد، ولا إله يصلى له ويسجد، ولا هو أيضا في العالم، فجعلوا نسبته إلى العرش كنسبته إلى أخس مكان، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.
انظر: الصواعق المنزلة ١/١٢١.

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٩/٧

وهذه هي نتيجة الزيغ والضلال، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (الصف: من الآية: ٥) ، فاللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك." (١)

"﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ﴾." (٢)

"(٦١) سورة الصف

مدينة، وقيل مكية وآيها أربع عشرة آية

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٣]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢)كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣)

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم سبق تفسيره.

يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون

روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا فأنزل الله إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا فولوا يوم أحد فنزلت.

ولم مركبة من لام الجر وما الاستفهامية والأكثر على حذف ألفها مع حرف الجر لكثرة استعمالهم معا واعتناقهما في الدلالة على المستفهم عنه.

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون المقت أشد البغض ونصبه على التمييز للدلالة على أن قولهم هذا مقت خالص كبر عند من يحقر دونه كل عظيم، مبالغة في المنع عنه.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٤ الى ٥]

إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا مصطفين مصدر وصف به. كأنهم بنيان مرصوص في تراصهم من غير فرجة، حال من المستكن في الحال الأولى. والرص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه.

وإذ قال موسى لقومه مقدر باذكر أو كان كذا. يا قوم لم تؤذونني بالعصيان والرمي بالادرة. وقد تعلمون أني رسول الله إليكم

---

(١) إثبات صفة العلو - ابن قدامة موفق الدين ابن قدامة المقدسي ص/٨٩

(٢) تفسير العز بن عبد السلام ابن عبد السلام ٣١٤/٣

بما جئتكم من المعجزات، والجملة حال مقررة للإنكار فإن العلم بنبوته يوجب تعظيمه ويمنع إيذاءه، وقد لتحقيق **العلم**. **فلما زاغوا عن** الحق. أزاغ الله قلوبهم صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب. والله لا يهدي القوم الفاسقين هداية موصلة إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

[سورة الصف (٦١) : آية ٦]

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل ولعله لم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم. إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا في حال تصديقي لما تقدمني من التوراة وتبشيري برسول يأتي من بعدي. والعامل في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسال لا الجار لأنه لغو إذ هو صلة للرسول فلا يعمل. برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد يعني محمدا عليه الصلاة والسلام،." (١)

"وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

﴿وإذ﴾ منصوب باذكر ﴿قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى﴾ بجحود الآيات والقذف بما ليس في ﴿وقد تعلمون﴾ في موضع الحال أي تؤذونني عالمين علما يقينا ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ من الهداية أو لما تركوا أوامره نزع نور الإيمان من قلوبهم او فلما اختاروا الزيغ زاغ الله قلوبهم أي اخذلهم وحرمهم توفيق اتباع الحق ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق." (٢)

"سورة الصف

وفيها قولان: أحدهما أنها مدنية وهو قول ابن عباس والجمهور.

والثاني أنها مكية وهي أربع عشرة آية ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وتسعمائة حرف.

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الصف (٦١): الآيات ١ الى ٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢)

قوله عز وجل: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون قيل سبب نزولها ما روي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال «قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/٢٠٨

(٢) تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل النسفي، أبو البركات ٣/٤٧٥

فتذاكرنا فقلنا لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا فأنزل الله تعالى سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون قال عبد الله بن سلام فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه الترمذي وقال المفسرون إن المؤمنين قالوا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعلمناه ولبذلنا فيها أموالنا وأنفسنا فأنزل الله عز وجل: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وأنزل الله هل أدلكم على تجارة الآية فابتلوا بذلك يوم أحد فولوا مدبرين وكرهوا الموت وأحبوا الحياة فأنزل الله تعالى لم تقولون ما لا تفعلون وقيل لما أخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بثواب أهل بدر قالت الصحابة لئن لقينا قتالا لنفرغن فيه وسعنا ففروا يوم أحد فعيرهم الله بهذه الآية وقيل نزلت في شأن القتال كان الرجل يقول قاتلت ولم يقاتل وأطعمت ولم يطعم وضربت ولم يضرب فنزلت هذه الآية وقيل نزلت في المنافقين وذلك أنهم كانوا يعدون النصر للمؤمنين وهم كاذبون.

[سورة الصف (٦١): الآيات ٣ الى ٦]

كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

كبر مقتا عند الله أي عظم بغضا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون معناه أن يعدوا من أنفسهم شيئا ولم يفوا به إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا أي يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيان مرصوص أي قد رص بعضه ببعض وألزق بعضه إلى بعض وأحكم فليس فيه فرجة ولا خلل ومنه." (١)

"الحديث «تراصوا في الصف» ومعنى الآية إن الله يحب من يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مكانه كثبوت البناء المرصوص.

قوله تعالى: وإذ قال موسى لقومه أي واذكر يا محمد لقومك إذ قال موسى لقومه بني إسرائيل يا قوم لم تؤذونني قيل: إنهم كانوا يؤذونه بأنواع من الأذى التعنت منها قولهم أرنا الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد ومنها أنهم رموه بالأدرة وقد تعلمون أني رسول الله إليكم يعني تؤذونني وأنتم عالمون علما قطعيا أني رسول الله إليكم والرسول يعظم ويوقر ويحترم ولا **يؤذي فلما زاغوا أي** عدلوا ومالوا عن الحق أزاغ الله قلوبهم أي أمالها عن الحق إلى غيره والله لا يهدي القوم الفاسقين أي لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق خارج عن طاعته وهدايته وهذا تنبيه على عظم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة مصدقا لما بين يدي من التوراة أي مقر معترف بأحكام التوراة وكتب الله وأنبيائه جميعا ممن قد تقدم ومبشرا برسول يأتي من بعدي أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكأنه قيل ما اسمه فقال اسمه أحمد عن

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/٢٨٦

أبي موسى قال «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يأتوا النجاشي» وذكر الحديث، وفيه قال سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيته حتى أحمل نعليه» أخرجه أبو داود وعن عبد الله بن سلام قال مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى صلى الله عليه وسلم يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم «١» يأتي بعدكم أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤوفا رحيما» وأحمد يحتمل معنيين أحدهما أنه مبالغة من الفاعل ومعناه أن الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل وهو أكثر حمدا لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره، فلما جاءهم بالبينات قيل هو عيسى صلى الله عليه وسلم وقيل هو محمد صلى الله عليه وسلم قالوا هذا سحر مبين أي ظاهر.

[سورة الصف (٦١): الآيات ٧ الى ١٤]

ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩) يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١)

يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)

---

(١) قوله قال نعم إلخ كذلك في نسخة وفي أخرى قال نعم أمة أحمد حكماء اهـ من هامش.." [1]

"رسول الله إليكم

هذا إقامة حجة عليهم وتوبيخ لهم، وتقبيح لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله، ولذلك أدخل قد الدالة على **التحقيق فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم هذه عقوبة على الذنب بذنب، وزيغ القلب هو ميله عن الحق وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢٨٧/٤

إنما قال موسى يا قوم، وقال عيسى يا بني إسرائيل، لأنه لم يكن له فيهم أب مصدقا لما بين يدي من التوراة معناه مذكور في [البقرة: ٤١] في قوله مصدقا لما معكم ومبشرا برسول عن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال نعم أمة أحمد حكماء علماء أتقياء أبرار اسمه أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الله الناس على قدمي وأنا العاقب فلا نبي بعدي «١» وأحمد مشتق من الحمد، ويحتمل أن يكون فعلا سمي به، أو يكون صفة سمي بها كأحمد، ويحتمل أن يكون بمعنى حامد أو بمعنى محمود كمحمد فلما جاءهم بالبينات «٢» يحتمل أن يريد عيسى أو محمدا عليهما الصلاة والسلام ويؤيد الأول اتصاله بما قبله، ويؤيد الثاني قوله وهو يدعى إلى الإسلام لأن الداعي إلى الإسلام هو محمد صلى الله عليه وسلم يريدون ليطفؤا نور الله «٣» ذكر في براءة [٣٢] تؤمنون بالله الآية تفسير للتجارة المذكورة، قال الأخفش: هو عطف بيان عليها يغفر لكم جزم في جواب تؤمنون لأنه بمعنى الأمر، وقد قرأه ابن مسعود آمنوا وجاهدوا على الأمر لأنه يقتضي التحضيض وأخرى تحبونها ارتفع أخرى على أنه خبر ابتداء مضمر تقديره:

ولكم نعمة أخرى، أو انتصب على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره: ويمنحكم أخرى نصر من الله تفسير لأخرى فهو بدل منها وبشر المؤمنين قال الزمخشري عطف على تؤمنون

---

(١) . رواه البخاري في كتاب المناقب ص ١٦٢ ج ٤ عن جبير بن مطعم.

(٢) . بقية الآية: سحر مبين: قرأها حمزة والكسائي: ساحر مبين.

(٣) . بقية الآية: متم نوره، قرأ نافع وأبو عمرو وغيرهما: والله متم نوره بالتنوين.." [1]

"سورة الصف

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ١٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

---

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٢/٣٧١

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)." (١)

"المرصوص، قال الفراء والقاضي منذر بن سعيد: هو المعقود بالرصاص. وقال المبرد: رصصت البناء: لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة، قال الراعي:

ما لقي البيض من الحرقوص ... بفتح باب المغلق المرصوص

الحرقوص: دويبة تولع بالنساء الأبكار، وقيل: هو من الترصيص، وهو انضمام الأسنان.

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم، يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص، وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين، وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين، ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين، يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين، يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

هذه السورة مدنية في قول الجمهور، ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة.

وقال ابن يسار: مكية، وروي ذلك أيضا عن ابن عباس ومجاهد. وسبب نزولها قول المنافقين للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك أو قول شباب من المسلمين: فعلنا في الغزو كذا ولم يفعلوا أو قول ناس: وددنا أن نعرف أحب الأعمال." (٢)

"أنفسهم أو مصفوفين، كأنهم فيء في تراصهم من غير فرجة ولا خلل، بنيان رص بعضه إلى بعض. والظاهر تشبيه الذوات في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص. وقيل: المراد استواء نياتهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٦٢/١٠

(٢) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٦٣/١٠

كالبنيان المرصوص. قيل: وفيه دليل على فضل القتال راجلا، لأن الفرسان لا يصطفون على هذه الصفة وصفا وكأنهم، قال الزمخشري: حالان متداخلان. وقال الحوفي: كأنهم في موضع النعت لصفا. انتهى.

ويجوز أن يكونا حالين من ضمير يقاتلون.

ولما كان في المؤمنين من يقول ما لا يفعل، وهو راجع إلى الكذب، فإن ذلك في معنى الإذاية للرسول عليه الصلاة والسلام، إذ كان في أتباعه من عانى الكذب، فناسب ذكر قصة موسى وقوله لقومه: لم تؤذونني، وإذايتهم له كان بانتقاصه في نفسه وجحود آيات الله تعالى واقتراحاتهم عليه ما ليس لهم اقتراحه، وقد تعلمون: جملة حالية تقتضي تعظيمه وتكريمه، فرتبوا على علمهم أنه رسول الله ما لا يناسب العلم وهو الإذاية، وقد تدل على التحقق في الماضي والتوقع في المضارع، والمضارع هنا معناه المضي، أي وقد علمتم، كقوله: قد يعلم ما أنتم عليه «١» ، أي قد علم، قد نرى تقلب «٢» . وعبر عنه بالمضارع ليدل على استصحاب **الفعل، فلما زاغوا عن** الحق، أزاغ الله قلوبهم. قال الزمخشري: بأن منع ألطافه، والله لا يهدي القوم الفاسقين: لا يلطف بهم، لأنهم ليسوا من أهل اللطف. وقال غيره: أسند الزيغ إليهم، ثم قال: أزاغ الله كقوله تعالى: نسوا الله فأنساهم أنفسهم «٣» ، وهو من العقوبة على الذنب بالذنب، بخلاف قوله: ثم تاب عليهم ليتوبوا «٤» .

ولما ذكر شيئا من قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، ذكر أيضا شيئا من قصة عيسى عليه السلام. وهناك قال: يا قوم لأنه من بني إسرائيل، وهنا قال عيسى:

يا بني إسرائيل من حيث لم يكن له فيهم أب، وإن كانت أمه منهم. ومصدقا ومبشرا:

حالان، والعامل رسول، أي مرسل، ويأتي واسمه جملتان في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية، ولئن تأخر من النبي المذكور، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته.

وروي أن الحواريين قالوا: يا رسول الله هل بعدنا من أمة؟ قال:

«نعم، أمة أحمد صلى الله عليه وسلم، حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله

---

(١) سورة النور: ٢٤/ ٦٤.

(٢) سورة البقرة: ٢/ ١٤٤.

(٣) سورة الحشر: ٥٩/ ١٩.

(٤) سورة التوبة: ٩/ ١١٨.." [1]

"لما في الإشعار بلفظة الرب من النظر في مصلحة عبيده، فلولا أن في المتشابه مصلحة ما أنزله تعالى، ولجعل كتابه كله محكما.

وما يذكر إلا أولوا الألباب أي: وما يتعظ بنزول المحكم والمتشابه إلا أصحاب العقول، إذ هم المدركون لحقائق الأشياء، ووضع الكلام مواضعه، ونبه بذلك على أن ما أشتبه من القرآن، فلا بد من النظر فيه بالعقل الذي جعل مميزا لإدراك:

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ١٦٥/١٠

الواجب، والجائز، والمستحيل، فلا يوقف مع دلالة ظاهر اللفظ، بل يستعمل في ذلك الفكر حتى لا ينسب إلى البارئ تعالى، ولا إلى ما شرع من أحكامه، ما لا يجوز في العقل.

وقال ابن عطية: أي، ما يقول هذا ويؤمن به، ويقف حيث وقف، ويدع اتباع المتشابه إلا ذو لب.

وقال الزمخشري: مدح للراسخين بإلقاء الذهن وحسن التأمل.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ويحتمل أن يكون هذا من جملة المقول أي:

يقولون ربنا، وكأنهم لما رأوا انقسام الناس إلى زائغ، ومتذكر مؤمن، دعوا الله تعالى بلفظ الرب أن لا يزيغ قلوبهم بعد هدايتهم، فيلحقوا بمن في قلبه زيغ، ويحتمل أن يكون تعالى علمهم هذا الدعاء، والتقدير: قولوا ربنا.

ومعنى الإزاغة هنا الضلالة. وفي نسبة ذلك إليه تعالى رد على المعتزلة في قولهم:

إن الله لا يضل، إذ لو لم تكن الإزاغة من قبله تعالى لما جاز أن يدعى في رفع ما لا يجوز عليه فعله.

وقال الزجاج: المعنى: لا تكلفنا عبادة ثقيلة تزيغ بها قلوبنا، وهذا القول فيه التحفظ من خلق الله الزيغ والضلالة في قلب أحد من العباد.

وقال ابن كيسان: سألوا أن لا يزيغوا، فيزيغ الله قلوبهم، **نحو: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم «١» أي: ثبتنا على هدايتك، وأن لا نزيغ، فنستحق أن تزيغ قلوبنا. وهذه نزعة اعتزالية، كما قال الجبائي: لا تمنعها الألطاف التي بها يستمر القلب على صفة الإيمان.

ولما منعهم الألطاف لاستحقاقهم منع ذلك، جاز أن يقال: أزاغهم، ويدل عليه: فلما زاغوا. وقال الجبائي أيضا: لا تزغنا عن جنتك وثوابك.

---

(١) سورة الصف: ٦١/ ٥.." (١)

"فقلت لهم ظنوا بألفي مدحج ... سراتهم في الفارسي المسرد

وقال قوم: الظن هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزين، لأنه وقف أمرهم على الوحي ولم يكونوا قاطعين بأنه ينزل في شأنهم قرآن، أو كانوا قاطعين لكنهم يجوزون تطويل المدة في بقائهم في الشدة، فالظن عاد إلى تجويز تلك المدة قصيرة. وجاءت هذه الجمل في كنف إذا في غاية الحسن والترتيب، فذكر أولا ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم، ونبوة الناس عن كلامهم. وثانيا وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع، فذكر أولا ضيق المحل، ثم ثانيا ضيق الحال فيه، لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة سم الخياط مع المحبوب ميدان. ثم ثالثا لما يئسوا من الخلق عذقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون «١» وإذا إن كانت شرطية فجوابها محذوف تقديره: تاب عليهم، ويكون قوله: ثم تاب عليهم، نظير قوله: ثم تاب عليهم، بعد قوله لقد تاب الله على النبي «٢» الآية.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٣١/٣

ودعوى أن ثم زائدة وجواب إذا ما بعد ثم بعيد جدا، وغير ثابت من لسان العرب زيادة ثم.

ومن زعم أن إذا بعد حتى قد تجرد من الشرط وتبقى لمجرد الوقت فلا تحتاج إلى جواب بل تكون غاية للفعل الذي قبلها وهو قوله: خلفوا أي: خلفوا إلى هذا الوقت، ثم تاب عليهم ليتوبوا، ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا، أو ليتوبوا أيضا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علما منهم أن الله تواب على من تاب، ولو عاد في اليوم مائة مرة. وقيل: معنى ليتوبوا ليدوموا على التوبة ولا يراجعوا ما يبطلها. وقيل:

ليتوبوا، ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم من الاختلاط بالمؤمنين، وتستكن نفوسهم عند ذلك.

قال ابن عطية: وقوله: ثم تاب عليهم ليتوبوا، لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله تعالى ليكون ذلك منبها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم «٣» ليكون هذا أشد تقريرا للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه. وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها أنها تكمل مع

---

(١) سورة النحل: ١٦/ ٥٣.

(٢) سورة الصف: ٦١/ ٥.

(٣) سورة الصف: ٦١/ ٥.." [1]

"الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون. ذكر أولا ما يحدث عنهم من القول على سبيل الاستهزاء، ثم ذكر ثانيا ما يصدر منهم من الفعل على سبيل الاستهزاء وهو الإيماء والتغامز بالعيون إنكارا للوحي، وسخرية قائلين: هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف، فإنا لا نقدر على استماعه ويغلبنا الضحك، فنخاف الافتضاح بينهم، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون: هل يراكم من أحد؟ والظاهر إطلاق السورة أية سورة كانت. وقيل: ثم صفة محذوفة أي: سورة تفضحهم ويذكر فيها مخازيهم، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة التقرير: هل يراكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم؟ ثم انصرفوا أي: عن طريق الاهتداء، وذلك أنهم حين ما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة النظر الصحيح والاهتداء. قال الضحاك: هل اطلع أحد منهم على سرائركم ثم انصرفوا إن كان حقيقة فالمعنى: قاموا من المكان الذي تتلى فيه السورة أو مجازا، فالمعنى: انصرفوا عن الإيمان، وذلك وقت رجوعهم إليه وإقبالهم عليه، قاله الكلبي، أو رجعوا إلى الاستهزاء أو إلى الطعن في القرآن والتكذيب له ولمن جاء به، أو عن العمل بما كانوا يسمعونه، أو عن طريق الاهتداء بعد أن بين لهم ومهد وأقيم دليله، وهذا القول راجع لقول الكلبي.

صرف الله قلوبهم صيغته خبر، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان، قاله الفراء. والظاهر أنه خير لما كان الكلام في معرض ذكر التكذيب، بدأ بالفعل المنسوب إليهم وهو قوله: ثم انصرفوا، ثم ذكر فعله تعالى بهم على سبيل

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥/٥٢٠

المجازاة لهم على فعلهم **كقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم «١» . قال الزجاج: أضلهم. وقيل: عن فهم القرآن والإيمان به. وقال ابن عباس: عن كل رشد وخير وهدى. وقال الحسن: طبع عليها بكفرهم. قال الزمخشري: صرف الله قلوبهم دعاء عليهم بالخذلان، وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح. بأنهم قوم لا يفقهون يحتمل أن يكون متعلقا بانصرفوا، أو بصرف، فيكون من باب الإعمال أي: بسبب انصرافهم، أو صرف الله قلوبهم هو بسبب أنهم لا يتدبرون القرآن فيفقهون ما احتوى عليه مما يوجب إيمانهم والوقوف عنده.

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم

---

(١) سورة الصف: ٦١/ ٥.." (١)

"الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم: لما ذكر تعالى نسبتهم إلى الافتراء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن ما أتى به من عند الله إنما يعلمه إياه بشر، كان ذلك تسجيلا عليهم بانتفاء الإيمان، فأخبر تعالى عنهم أنهم لا يهديهم الله أبدا إذ كانوا جاحدين آيات الله، وهو ما أتى به الرسول من المعجزات وخصوصا القرآن، فمن بالغ في جحد آيات الله سد الله عليه باب الهداية. وذكر تعالى وعيده بالعذاب الأليم لهم، ومعنى لا يهديهم: لا يخلق الإيمان في قلوبهم. وهذا عام مخصوص، فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى. وقال الزمخشري:

لا يهديهم الله لا يلطف بهم، لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة، لا من أهل اللطف والثواب انتهى. وهو على طريقة الاعتزال. وقال ابن عطية: المفهوم من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخبرتهما بتقبيح فعلهم والتشنيع بخطئهم، وذلك **كقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم «١» والمراد ما ذكرناه، فكأنه قال: إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله انتهى. وقال القاضي: أقوى ما قيل في ذلك لا يهديهم إلى طريق الجنة، ولذلك قال بعده: ولهم عذاب أليم، والمراد أنهم لما تركوا الإيمان بالله لا يهديهم الله إلى الجنة بل يسوقهم إلى النار. وقال العسكري: يجوز أن يكون المعنى أنهم إن لم يؤمنوا بهذه الآيات لم يهتدوا، والمراد بقوله: لا يهديهم الله أي لا يهتدون، وإنما يقال: هدى الله فلانا على الإطلاق إذا اهتدى هو، وأما من لم يقبل الهدى فإنه يقال: إن الله هداه فلم يهتد، كما قال: وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى «٢» ثم رد تعالى قولهم: إنما أنت مفتر «٣» بقوله: إنما يفتري الكذب، أي إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن، لأنه يترقب عقابا عليه. ولما كان في كلامهم إنما وهو يقتضي الحصر عند بعضهم، جاء الرد عليهم بإنما أيضا، وجاء بلفظ يفتري الذي يقتضي التجدد، ثم علق الحكم على الوصف المقتضي للافتراء وهو: انتفاء الإيمان، وختم بقوله: وأولئك هم الكاذبون. فاقتضى التوكيد البالغ والحصر بلفظ الإشارة، والتأكيد بلفظ هم، وإدخال ال على الكاذبون، وبكونه اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام، فجاء يفتري يقتضي التجدد، وجاء الكاذبون يقتضي الثبوت والدوام.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥٣١/٥

وقال الزمخشري: وأولئك إشارة

---

(١) سورة الصف: ٦١/ ٥.

(٢) سورة فصلت: ٤١/ ١٧.

(٣) سورة النحل: ١٦/ ١٠١.." [1]

"سأله عمر: ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة إذا جاء نصر الله والفتح وما خص به ابن عباس من فهمه منها: أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا، وأين تجد هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها.

فصل

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام. وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه. بحيث يصير مشهودا للقلب، كشهود العين للمرئيات وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، التي لا يعذب أحدا ولا يضله، إلا بعد وصوله إليها. قال الله تعالى ٩: ١١٥ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم ولم يعملوا. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا من بعد هذا البيان. وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ٦١: **٥ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ٤: ١٥٥ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع، وقوله: ٦: ١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. ونذرهم في طغيانهم يعمهون فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه. بأن قلب." [2]

"يمشي به في الطريق ويراها، ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي بنوره فهم يقتبسون فيه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله، ٨: ٤ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه المشهور في الآية: أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته وبين أهل معصيته وبين طاعته. وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين: وفي الآية قول آخر: أن المعنى: أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية. فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥٩٧/٦

(٢) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٤٥

وكان هذا أنسب بالسياق. لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن. دون القلب. فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه. فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

وعلى القول الأول: فوجه المناسبة: إنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن الله يحول بينكم وبين قلوبكم. فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة، وعقوبة لكم على تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون كقوله: ٦: ١١٠ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وقوله: ٦١: **٥ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وقوله: ٧:

١٠١ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل.

ففي الآية تحذير عن ترك الاستجابة بالقلب، وإن استجاب بالجوارح.

وفي الآية سر آخر وهو أنه جمع لهم بين الشرع والأمر به وهو الاستجابة، وبين القدر والإيمان به. فهي كقوله: ٨١: ٢٨، ٢٩ لمن شاء منكم أن يستقيم. وما تشاؤن إلا أن يشاء الله رب العالمين قوله:." [١]

"والإذعان، فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن. فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول، كما قال: ٦١: **٥ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال إليه. ولتكن قصة إبليس منكر على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع. فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك عاقبه بأن جعله داعيا إلى كل معصية. فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية وفروعها، صغيرها وكبيرها. وصار هذا الإعراض والكفر عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق. فمن عقاب السيئة السيئة بعدها. كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه وقد قال تعالى: فأنى تصرفون وأنى يؤفكون وقال: فما لهم عن التذكرة معرضين فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف ينعي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم، فمكنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب. فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم على ألسنة رسله. وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الردى وأسباب الفلاح. وجعل لهم أسماعا وأبصارا، فآثروا الهوى على التقوى، واستحبوا العمى على الهدى، وقالوا:

معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته. فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم. فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختيارا، فسده عليهم اضطرارا. فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تركوه ومكنهم." [٢]

"سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٣٠١

(٢) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٣١٤

[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

وقال عن عباده المؤمنين إنهم سألوه التثبيت على الهدى بقولهم:

٣: ٨ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

وأصل الزيغ: الميل، ومنه: زاغت الشمس، إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته عن الهدى. وزيغه: ميله عن الهدى الى الضلال.

والزيغ: يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ٣٣: ١٠ وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر.

قال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا. وهذا تقريب للمعنى: فإن الشخوص غير الزيغ. وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء، فلا يطرف.

ومنه: شخص بصر الميت.

ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر، فمالت عنه.." (١)

"يتعالى الله عنه في اعتقاده، ولو فهم قوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] وقوله: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام: ١١٠] وما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي «١» : وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: بل طبع الله عليها بكفرهم [النساء: ١٥٥] وذكر حديث تقليب القلوب «اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك» وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباد «٢» كالكوز مجخيا «٣» لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا» الحديث «٤» ، قال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ما حدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر»

صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو «٦» قلبه فذلك الران الذي قال الله تعالى: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون «٧» . وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذي والنسائي عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٥٤١

عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به. وقال الترمذي: حسن صحيح. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم نظير الختم والطبع على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ١٨٧.

(٢) أي اختلط سواده بكدرة.

(٣) مجخيا: مائلا.

(٤) تفسير القرطبي ١/ ١٨٩، وصحيح مسلم (إيمان حديث ٢٣١) .

(٥) في الأصل «واستعتب» . وما أثبتناه عن الطبري.

(٦) في الطبري «تغلق» .

(٧) سورة المطففين، الآية: ١٤. والحديث في تفسير الطبري ١/ ١٤٥. ورواه أحمد في المسند (ج ٣ ص ١٥٤) عن صفوان بن عيسى بهذا الإسناد. [.....]."[١]

"ابن ماجه من طرق عن الزهري به نحوه.

قال الإمام أحمد «١» : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين» ، قال: «وفساد ذات البين هي الحالقة» «٢» . ورواه أبو داود والترمذي من حديث أبي معاوية، وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن عبد الرحيم، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر حدثنا أبي عن حميد، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي أيوب «ألا أدلك على تجارة؟» قال: بلى يا رسول الله. قال «تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا» ثم قال البزار: وعبد الرحمن بن عبد الله العمري لين، وقد حدث بأحاديث لم يتابع عليها.

ولهذا قال: ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله أي مخلصا في ذلك محتسبا ثواب ذلك عند الله عز وجل، فسوف نؤتيه أجرا عظيما أي ثوابا جزيلا كثيرا واسعا.

وقوله: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فصار في شق، والشرع في شق، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح له.

وقوله: ويتبع غير سبيل المؤمنين هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١/٨٥

عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفا لهم وتعظيما لنبيهم، وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك، قد ذكرنا منها طرفا صالحا في كتاب أحاديث الأصول، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك، ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجا له، كما قال تعالى:

فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون [القلم: ٤٤] ، وقال **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] ، وقوله: ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام: ١١٠] وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا

---

(١) مسند أحمد ٦/ ٤٤٤.

(٢) الحالقة: التي تستأصل الدين فتحلقه كما يحلق الشعر.." (١)

"وكن من الشاكرين أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به.

ثم أخبر تعالى أنه كتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء قيل كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاما مفصلة مبينة للحلال والحرام وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة التي قال الله تعالى فيها: ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس [القصص: ٤٣] وقيل الألواح أعطيها موسى قبل التوراة والله أعلم، وعلى كل تقدير فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها والله أعلم.

وقوله فخذها بقوة أي بعزم على الطاعة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها قال سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد ما أمر قومه «١» . وقوله سأريكم دار الفاسقين أي سترون عاقبة من خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب.

قال ابن جرير «٢» : وإنما قال سأريكم دار الفاسقين كما يقول القائل لمن يخاطبه سأريك غدا إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره، ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصري وقيل معناه سأريكم دار الفاسقين أي: من أهل الشام وأعطيكم إياها وقيل: منازل قوم فرعون والأول أولى والله أعلم لأن هذا بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبني إسرائيل قبل دخولهم التيه والله أعلم.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٤٦ الى ١٤٧]

سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣٦٥/٢

وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٤٦) والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون (١٤٧)

يقول تعالى: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ويتكبرون على الناس بغير حق، أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل كما قال تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام: ١١٠] وقال **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر، وقال آخر:

من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذلك الجهل أبدا، وقال سفيان بن عيينة في قوله: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق قال: أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم

---

(١) انظر تفسير الطبري ٦/ ٥٩.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٥٩.." (١)

"إيمانا وهم يستبشرون وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء. بل قد حكى غير واحد الإجماع على ذلك. وقد بسط الكلام على هذه المسألة في أول شرح البخاري رحمه الله وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم أي زادتهم شكا إلى شكهم وريبا إلى ريبهم كما قال تعالى:

وننزل من القرآن ما هو شفاء الآية، وقوله تعالى: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد [فصلت: ٤٤] وهذا من جملة شقائهم أن ما يهدي القلوب يكون سببا لضلالهم ودمارهم كما أن سيئ المزاج لو غذي به لا يزيده إلا خبالا ونقصا.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٢٦ الى ١٢٧]

أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (١٢٦) وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (١٢٧)

يقول: تعالى أو لا يرى هؤلاء المنافقون أنهم يفتنون أي يختبرون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم، قال مجاهد يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة بالغزو في السنة مرة أو مرتين، وقال شريك عن جابر: هو الجعفي عن أبي الضحى عن حذيفة في قوله: أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين فيضل بها فئام من الناس كثير رواه ابن جرير «١» وفي الحديث عن أنس: لا يزداد الأمر إلا شدة ولا يزداد الناس إلا شحا وما من عام إلا والذي بعده شر منه، سمعته من نبيكم

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣/٤٢٦

صلى الله عليه وسلم «٢» .
وقوله: وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر بعضهم إلى بعض أي تلفتوا هل يراكم من أحد ثم انصرفوا أي تولوا عن الحق وانصرفوا عنه وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يفهمونه كقوله تعالى: فما لهم عن التذكرة معرضين كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة [المدثر: ٤٩- ٤١] وقوله تعالى: فمال الذين كفروا قبلك مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزين
[المعارج: ٣٦- ٣٧] أي ما لهؤلاء القوم يتفللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق وذهابا إلى الباطل وقوله: ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم **كقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ... بأنهم قوم لا يفقهون [الصف: ٥] أي لا يفهمون عن الله خطابه ولا يقصدون لفهمه

---

(١) تفسير الطبري ٦/ ٥٢٠.
(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن باب ٢٤.." (١)

"مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة، قال الحسن البصري: والله لبلغ من أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي. وقال ابن عباس في قوله تعالى: يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا، وهم في أمر الدين جهال «١» .

[سورة الروم (٣٠) : الآيات ٨ الى ١٠]
أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون (٨) أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (٩) ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن (١٠)
يقول تعالى منبها على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال أولم يتفكروا في أنفسهم يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة، ولهذا قال تعالى:
وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ثم نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم من المعجزات والدلائل

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٤/ ٢١٠

الواضحات من إهلاك من كفر بهم ونجاة من صدقهم، فقال تعالى:
أولم يسيروا في الأرض أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين.
ولهذا قال فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة أي كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم أيها المبعوث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه وعمروا فيها أعمارا طوالا، فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال.
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أي وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزءوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم، ولهذا قال تعالى: ثم كان عاقبة الذين أساؤا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن كما قال تعالى:
ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام:
١١٠] وقال تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] وقال تعالى:

(١) انظر تفسير الطبري ١٠/ ١٦٨.." (١)
"في الدنيا لحقارتهم كما روى الترمذي وابن ماجه من طريق أبي حازم عن سهل بن سعد قال:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا» «١»
قال الترمذي: حسن صحيح.

[سورة الزخرف (٤٣) : الآيات ٣٦ الى ٤٥]
ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧) حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠)
فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢) فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم (٤٣) وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون (٤٤) وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥)
يقول تعالى: ومن يعش أي يتعامى ويتغافل ويعرض عن ذكر الرحمن والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد هاهنا عشا البصيرة نقيض له شيطانا فهو له قرين كقوله تعالى:

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٦/٢٧٥

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا [النساء: ١١٥] الآية، **وكقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] وكقوله جل جلاله: وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين [فصلت: ٢٥] الآية، ولهذا قال تبارك وتعالى هاهنا: وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا «٢» أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين وقرأ بعضهم «حتى إذا جاءانا» يعني القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما الله تبارك وتعالى إلى النار، فذلك حين يقول يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل هاهنا تغليبا كما يقال: القمران والعمران والأبوان، قاله ابن جرير «٣» وغيره.

ثم قال تعالى: ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون أي لا يغني عنكم

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ١٣، وابن ماجة في الزهد باب ٣.

(٢) انظر تفسير الطبري ١١/ ١٨٩. [.....]

(٣) تفسير الطبري ١١/ ١٨٩.." [1]

"عن ربعي بن خراش عن زيد بن بيان عن أبي ذر بأبسط من هذا السياق وأتم، وقد أوردناه في مواضع آخر ولله الحمد.

وعن كعب الأحبار أنه قال: يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: «عبدي المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، مولده بمكة وهجرته بطابة وملكه بالشام وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال، وفي كل منزلة لهم دوي كدوي النحل في جو السماء بالسحر، يوضون أطرافهم ويأتزرون على أنصافهم صفهم في القتال مثل صفهم في الصلاة» ثم قرأ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم لو على ظهر دابة. رواه ابن أبي حاتم.

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال وقوله تعالى: كأنهم بنيان مرصوص أي ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال، وقال مقاتل بن حيان: ملتصق بعضه إلى بعض، وقال ابن عباس كأنهم بنيان مرصوص مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٢٠٩/٧

وقال قتادة كأنهم بنيان مرصوص ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه. فكذلك الله عز وجل لا يحب أن يختلف أمره وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به، أورد ذلك كله ابن أبي حاتم، وقال ابن جرير «١» : حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية بن الوليد عن أبي بكر بن أبي مريم عن يحيى بن جابر الطائي عن أبي بحرية قال: كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عز وجل: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص قال: وكان أبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفت في الصف فجؤوا في لحيي.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٥ الى ٦]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه:

لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم أي لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة. وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر ولهذا قال «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٨٢.." (١)

"فصبر» وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما قال تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها [الأحزاب: ٦٩].

وقوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان كما قال تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا [النساء: ١١٥] ولهذا قال تعالى في هذه الآية والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وقوله تعالى: وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد.

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٣٥/٨

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملإ بني إسرائيل مبشرا بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.

وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن لي أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب» «١» ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبي موسى قال:

سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال «أنا محمد وأنا أحمد والحاشر والمقفي ونبي الرحمة والتوبة والملحمة» «٢» ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به.

وقد قال الله تعالى: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل [الأعراف: ١٥٧] الآية، وقال تعالى: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس:

ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه.

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٦١، باب ١، ومسلم في الفضائل حديث ١٢٤.

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل حديث ١٢٦.." (١)

"[وقوله: ﴿لا يؤمنون﴾ محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ أي هم كفار في كلا الحالين؛ فلهذا أكد ذلك بقوله: ﴿لا يؤمنون﴾ ويحتمل أن يكون ﴿لا يؤمنون﴾ خبرا لأن تقديره: إن الذين كفروا لا يؤمنون، ويكون قوله: ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم﴾ جملة معترضة، والله أعلم] (١) .

﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم (٧) ﴾

قال السدي: ﴿ختم الله﴾ أي: طبع الله، وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه؛ فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة، فهم لا يبصرون هدى ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون.

وقال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ قال: نبئت أن الذنوب على القلب تحف به (٢) من كل نواحيه حتى تلتقي عليه، فالتقاؤها عليه الطبع، والطبع الختم، قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع.

قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير، أنه سمع مجاهدا يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ١٣٦/٨

أشد من ذلك كله.

وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه (٣) -يعني: الكف-فإذا أذنب العبد ذنبا ضم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم. وقال بأصبع أخرى، فإذا أذنب ضم. وقال بأصبع أخرى وهكذا، حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال (٤) : يطبع عليه بطابع.

وقال مجاهد: كانوا (٥) يرون أن ذلك: الرين.

ورواه ابن جرير: عن أبي كريب، عن وكيع، عن الأعمش، عن مجاهد، بنحوه.

قال ابن جرير: وقال بعضهم: إنما معنى قوله: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ إخبار من الله عن تكبرهم، وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق، كما يقال: إن فلانا لأصم عن هذا الكلام، إذا امتنع من سماعه، ورفع (٦) نفسه عن تفهمه تكبرا. قال: وهذا لا يصح؛ لأن الله قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم.

(قلت) : وقد أطنب الزمخشري في تقرير ما رده ابن جرير هاهنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله؛ لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده -تعالى الله عنه في اعتقاده-ولو فهم قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقوله ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال، والله أعلم.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ وذكر حديث تقليب القلوب: "ويا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك"، وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها

---

(١) زيادة من جـ، ط، ب، أ، و.

(٢) في جـ، ط، ب، أ، و: "وقال: الطبع ينبت الذنوب على القلب فحفت به".

(٣) في جـ، ط، ب، أ، و: "هذا".

(٤) في ط، ب: "قال: ثم".

(٥) في جـ، ط، ب: "وكانوا".

(٦) في جـ: "يرفع".." (١)

"[صلى الله عليه وسلم] . (١) وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة، قد ذكرنا منها طرفا صالحا في كتاب "أحاديث الأصول"، ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي، رحمه الله، في الاحتجاج على كون

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٧٤/١

الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها، وإن كان بعضهم قد استشكل ذلك واستبعد الدلالة منها على ذلك (٢) .

ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله: ﴿نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له -استدراجا له -كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [القلم: ٤٤] . وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥] . وقوله ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] .

وجعل النار مصيره في الآخرة، لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم [وما كانوا يعبدون. من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم] (٣) ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] .

وقال: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا﴾ [الكهف:٥٣] .

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (١١٦) إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا (١١٧) لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا (١١٨) ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا (١١٩) يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا (١٢٠) أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا (١٢١) ﴾

---

(١) زيادة من أ.

(٢) انظر: كلام الإمام الشافعي رحمه الله في الرسالة (ص ٤٧١) في إثبات حجية الإجماع ومناقشة الخصوم.

(٣) زيادة من ر، أ، وفي هـ: "الآية".." (١)

"والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على الناس (١) بغير حق، أي: كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ [الأنعام:١١٠] وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥]

وقال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر.

وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبدا.

وقال سفيان بن عيينة في قوله: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ قال: أنزع عنهم فهم القرآن، وأصرفهم عن آياتي.

قال ابن جرير: وهذا يدل على أن هذا خطاب لهذه الأمة (٢)

قلت: ليس هذا بلازم؛ لأن ابن عيينة إنما أراد أن هذا مطرد في حق كل أمة، ولا فرق بين أحد وأحد في هذا، والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤١٣/٢

وقوله: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس:٩٦، ٩٧] .

وقوله: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا﴾ أي: وإن ظهر لهم سبيل الرشد، أي: طريق النجاة لا يسلكوها، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلا.

ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ أي: كذبت بها قلوبهم، ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ أي: لا يعلمون شيئا مما فيها.

وقوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ أي: من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات، حبط عمله.

وقوله: ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي: إنما نجازيهم بحسب (٣) أعمالهم التي أسلفوها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وكما تدين تدان.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين (١٤٨) ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين (١٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، الذي اتخذه لهم السامري من حلي القبط، الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل، عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، و"الخوار" صوت البقر.

---

(١) في أ: "على الله".

(٢) تفسير الطبري (١١٣/١٣) .

(٣) في أ: "نجازيهم إلا بحسب".." (١)

"﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون (١٢٦) وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون (١٢٧) ﴾

يقول تعالى: أولا يرى هؤلاء المنافقون (١) ﴿أنهم يفتنون﴾ أي: يختبرون ﴿في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون﴾ أي: لا يتوبون من ذنوبهم السالفة، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم.

قال مجاهد: يختبرون بالسنة والجوع.

وقال قتادة: بالغزو في السنة مرة أو مرتين.

وقال شريك، عن جابر -هو الجعفي -عن أبي الضحى، عن حذيفة: ﴿أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين﴾ قال: كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين، فيضل بها فئام من الناس كثير. رواه ابن جرير.

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٤٧٥/٣

وفي الحديث عن أنس: "لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا يزداد الناس إلا شحا، وما من عام إلا والذي بعده شر منه"، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم. (٢)

وقوله: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (٣) هذا أيضا إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ أي: تلفتوا، ﴿هل يراكم من أحد ثم انصرفوا﴾ أي: تولوا عن الحق وانصرفوا عنه، وهذا حالهم في الدين لا يثبتون عند الحق ولا يقبلونه ولا يقيمونه كما قال تعالى: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين. كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] ، وقال تعالى: ﴿فمال الذين كفروا قبلك مهطعين. عن اليمين وعن الشمال عزين﴾ [المعارج:٣٦، ٣٧] ، أي: ما لهؤلاء القوم يتقللون عنك يمينا وشمالا هروبا من الحق، وذهابا إلى الباطل.

وقوله: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ،

---

(١) في ك، أ: "المنافقين".

(٢) هذا الحديث مركب من حديثين عن أنس: الأول: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٠٣٩) والحاكم في المستدرك (٤٤١/٤) من طريق محمد بن خالد الجندي، عن أبان ابن صالح، عن الحسن، عن أنس رضي الله عنه مرفوعا: "لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدبارا، ولا الناس إلا شحا، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، وما المهدى إلا عيسى ابن مريم" ففيه ضعف ونكارة بينهما المؤلف - الحافظ ابن كثير في النهاية في الفتن والملاحم (٣٢/١) . وأما الثاني: فرواه البخاري في صحيحه برقم (٧٠٦٨) من طريق سفيان عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج، فقال: "اصبروا فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم" سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم.

(٣) في ت: "رآكم".." (١)

"أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة أشد منكم -أيها المبعوث إليهم محمد صلوات الله وسلامه عليه (١) وأكثر أموالا وأولادا، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعمارا طوالا فعمروها أكثر منكم. واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا، أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس (٢) الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم؛ ولهذا قال: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ ، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] ، وقوله (٣) : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وقال: ﴿فإن

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٤٠/٤

تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ [المائدة: ٤٩] .
وعلى هذا تكون (٤) السوءى منصوبة مفعولا لأساءوا. وقيل: بل المعنى في ذلك: ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى﴾ أي: كانت السوءى عاقبتهم؛ لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون. فعلى هذا تكون السوءى منصوبة خبر كان. هذا توجيه ابن جرير (٥) ، ونقله (٦) عن ابن عباس وقتادة. ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم، وهو الظاهر، والله أعلم، ﴿وكانوا بها يستهزئون﴾ .
﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون (١١) ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون (١٢) ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين (١٣) ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون (١٤) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون (١٥) ﴾

---

(١) في ت: "صلى الله عليه وسلم".
(٢) في ت: "أمر".
(٣) في ت، ف: "وقال".
(٤) في ف: "يكون".
(٥) تفسير الطبري (١٨/٢١) .
(٦) في ت: "ومنقول".." [(١)]

"﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون (٣٧) حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون (٣٩) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠) فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون (٤٢) فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم (٤٣) وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون (٤٤) واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥) ﴾
يقول تعالى: ﴿ومن يعش﴾ أي: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿عن ذكر الرحمن﴾ والعشا في العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نقيض له شيطانا فهو له قرين﴾ كقوله: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء: ١١٥] ، وكقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وكقوله: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين﴾ [فصلت:٢٥] ؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون. حتى إذا جاءنا﴾ أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٠٦/٦

الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به، ﴿قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ [أي: فبئس القرين كنت لي في الدنيا] (١) وقرأ بعضهم: "حتى إذا جاءانا" يعني: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجريري قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ (٢)

والمراد بالمشرقين هنا (٣) هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال (٤) القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران] (٥) . قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك في المصيبة في الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه في مصيبته، كما قالت الخنساء تبكي أخاها:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على قتلاهم لقتلت نفسي ...

وما يبكون مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي ...

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسي وتسلية ولا تخفيف] . (٦)

ثم قال تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون﴾ أي: لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم.

وقوله: ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين﴾ أي: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل (٧) في ذلك.

---

(١) زيادة من ت.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/١٦١) .

(٣) في ت، م، أ: "هاهنا".

(٤) في ت، م: "قيل".

(٥) زيادة من أ.

(٦) زيادة من ت، أ.

(٧) في ت، م، أ: "الحاكم العادل".." (١)

"﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ﴾." (٢)

"﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٢٢٨/٧

(٢) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٠٩/٨

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ أي: لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟. وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصاب (١) من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: "رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" (٢) وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ [الأحزاب: ٦٩]

وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ [النساء: ١١٥] ولهذا قال الله تعالى في هذه الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾

وقوله: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام (٣) في ملإ بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه:

حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب".

ورواه مسلم، من حديث الزهري، به نحوه (٤)

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماء، منها ما حفظنا فقال: "أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة".

ورواه مسلم من حديث الأعمش، عن عمرو بن مرة، به (٥)

---

(١) في م: "فيما أصابه".

(٢) رواه البخاري في صحيحه برقم (٣٤٠٥) ومسلم في صحيحه برقم (١٠٦٢٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) في م: "وقد قام".

(٤) صحيح البخاري برقم (٤٨٩٦) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٤) .

(٥) مسند الطيالسي برقم (٤٩٢) وصحيح مسلم برقم (٢٣٥٥) .." [١]

"قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ الآية.

لما ذكر الجهاد، بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، أي: واذكر لقومك يا محمد هذه القصة.

قوله: ﴿لم تؤذونني﴾ .

وذلك حين رموه بالأدرة، كما تقدم في سورة الأحزاب.

ومن الأذى: ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور، ومن الأذى قولهم: ﴿اجعل لنآ إلها كما لهم آلهة﴾ [الأعراف: ١٣٨] ، وقولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ [المائدة: ١٢٤] ، وقولهم: أنت قتلت هارون.

قوله: ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ . جملة حالية.

قال ابن الخطيب: و «قد» معناه: التوكيد، كأنه قال: وتعلمون علما يقينا، لا شبهة [لكم] فيه.

قوله: ﴿أني رسول الله إليكم﴾ .

والمعنى: أن لرسول الله يحترم يقينا.

قوله: ﴿فلما زاغوا﴾ ، أي: مالوا عن الحق، ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي: أمالهم عن الهدى.

وقيل: ﴿فلما زاغوا﴾ عن الطاعة، ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عن الهداية.

وقيل: ﴿فلما زاغوا﴾ عن الإيمان، ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عن الثواب.

وقيل: لما تركوا ما أمروا به من احترام الرسول - عليه الصلاة والسلام - وطاعة الرب، «خلق» الله في قلوبهم الضلالة عقوبة لهم على فعلهم.." [٢]

"والأبصار ثبت قلوبنا على دينك» ومعناه ما ذكرنا، وقال صلى الله عليه وسلم : «مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن» .

وقالت المعتزلة: الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله؛ لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وهذا صريح في أن ابتداء الزيغ منهم.

والجواب: أن مذهبهم أن كل ما صح في قدرة الله تعالى أن يفعل في حقهم لطفا، وجب عليه ذلك وجوبا لو تركه لبطلت إلاهيته، ولصار محتاجا، والشيء الذي يكون كذلك فأي حاجة إلى طلبه بالدعاء؟

فإن قيل: فما الجواب عن قوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ؟

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٠٩/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥١/١٩

قلنا: لا يبعد أن الله تعالى يزيغهم ابتداء، فعند ذلك يزيغون، ثم يترتب على الزيغ إزاغة أخرى سوى الأولى من الله تعالى، ولا منافاة فيه.

وقوله: ﴿بعد إذ هديتنا﴾ ، أي: جعلتنا مهتدين، وهذا صريح أيضا في أن حصول الاهتداء في القلب بتخليق الله تعالى.

قوله: ﴿وهب لنا﴾ الهبة: العطية، حذفت فاؤها، وكان حق عين المضارع منها كسر العين منه، إلا أن ذلك منعه كون العين حرف حلق، فالكسرة مقدرة، فلذلك اعتبرت تلك الكسرة المقدرة فحذفت لها الواو وهذا نحو: «يضع» و «يسع» ، لكون اللام حرف حلق، ويكون «هب» فعل أمر بمعنى اعتقد، فيتعدى لمفعولين.

كقوله: [المتقارب]

١٣٣٤ - ... ... وإلا فهبني أمرأ هالكا

وحينئذ لا يتصرف.

ويقال أيضا: وهبني الله فداك، أي: جعلني، ولا يتصرف أيضا عن الماضي بهذا المعنى.." (١)

"سأصرفهم عن قبول آياتي والتصديق بها، عوقبوا بحرمان الهداية لعنادهم الحق كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] . واحتج أهل السنة بهذه الآية على أنه تعالى قد يمنع الإيمان.

وقالت المعتزلة: لا يمكن حمل الآية على ذلك لوجوه:

الأول: قال الجبائي: لا يجوز أن يكون المراد منه أنه تعالى يصرفهم عن الإيمان؛ لأن قوله: «سأصرف» يتناول المستقبل، وقد بين تعالى أنهم كفروا وكذبوا من قبل هذا الصرف، لأنه وصفهم بكونهم: ﴿يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ وبأنهم: ﴿وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا﴾ فدلت الآية على أن الكفر قد حصل لهم في الزمان الماضي؛ فدل على أن المراد من هذا الصرف ليس الكفر بالله.

الثاني: أن قوله ﴿سأصرف عن آياتي﴾ مذكور على وجه العقوبة على التكبر والكفر، فلو كان المراد من هذا الصرف هو كفرهم، لكان معناه أنه تعالىخلق فيهم الكفر عقوبة لهم على إقدامهم على الكفر، والعقوبة على فعل الكفر بمثل ذلك الفعل المعاقب عليه لا يجوز؛ فثبت أن المراد من هذا الصرف ليس هو الكفر.

الثالث: أنه تعالى لو صرفهم عن اليمان وصدهم عنه، فكيف يمكن أن يقول مع ذلك: ﴿فما لهم عن التذكرة معرضين﴾ [المدثر: ٤٩] ﴿فما لهم لا يؤمنون﴾ [الانشقاق: ٢٠] ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا﴾ [الإسراء: ٩٤] فثبت أن حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن؛ فوجب حملها على وجوه أخرى:

الأول: قال الكلبي وأبو مسلم الأصفهاني: إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى به من إهلاك أعدائه ومعنى صرفهم، أهلكهم فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها، ولا يمنع المؤمنين من الإيمان بها، وهو تشبيه بقوله: ﴿بلغ مآ أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس﴾ [المائدة: ٦٧] فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٤/٥

التأويل الثاني: قال الجبائي: سأصرف المتكبرين عن نيل ما في آياتي من العزة والكرامة المعدين للأنبياء، والمؤمنين. وإنما صرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم، وذلك يجري مجرى العقوبة على كفرهم، وتكبرهم على الله.

التأويل الثالث: أن من الآيات ما لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان، فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات، فحينئذ يصرفهم الله عنها.

التأويل الرابع: أن الله عز وجل إذا علم من حال بعضهم أنه إذا شاهد تلك الآيات." (١)

"يومئذ منافقا حين سأل حذيفة، لكن خاف أن يبتلى بذلك قبل أن يموت

قال: هذا قول أهل البدع.

وقال الإمام أحمد – في رواية ابن هانئ – وسئل: ما تقول فيمن لا

يخاف النفاق على نفسه؟ فقال: ومن يأمن على نفسه النفاق؟

وأصل هذا: يرجع إلى ما سبق ذكره من أن النفاق أصغر وأكبر.

فالنفاق الأصغر هو نفاق العمل، وهو الذي خافه هؤلاء على أنفسهم.

وهو باب النفاق الأكبر، فيخشى على من غلب عليه خصال النفاق الأصغر في حياته أن يخرجه ذلك إلى النفاق الأكبر، حتى ينسلخ من الإيمان بالكلية. طما قال الله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

وقال: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

والأثر الذي ذكره البخاري عن ابن أبي مليكة، هو معروف عنه من رواية

الصلت بن دينار، عنه.

وفي الصلت ضعف.

وفي بعض الروايات عنه، عن ابن أبي مليكة، قال: أدركت زيادة على

خمسمائة من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، ما مات أحد منهم إلا وهو يخاف النفاق على نفسه.

وأما الأثر الذي ذكره عن الحسن، فقال: ويذكر عن الحسن، قال: ما

خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.." (٢)

"١٠ – باب دوام الجهاد

١٦١٧ – أخبرنا أبو يعلى، حدثنا داود بن رشيد، حدثنا الوليد بن. مسلم، عن محمد بن مهاجر، عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير. عن النواس بن سمعان قال: "فتح على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فتح، فأتيته فقلت: يا رسول الله، سيبت الخيل، ووضعوا السلاح، وقد وضعت الحرب أوزارها، وقالوا: لا قتال. فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: "كذبوا، الآن جاء القتال، الآن جاء القتال. إن الله– عز وعلا– يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم، ويرزقكم الله

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣١١/٩

(٢) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ٢١١/١

منهم حتى يأتي أمر الله على ذلك وعقر دار المؤمنين بالشام" (١).

---

(١) إسناده ضعيف، الوليد بن مسلم كثير التدليس وقد عنعن. والحديث في الإحسان ٩/ ٢٠٧ برقم (٧٢٦٣). وعنده "يقاتلونهم" بدل "تقاتلونهم" و "يرزقهم" بدل "ويرزقكم". وأورده صاحب الكنز فيه ٤/ ٤٥٣ برقم (١١٣٤٩) ونسبه إلى أبي يعلى، وابن عساكر.

نقول: يشهد له حديث سلمة بن نفيل عند أحمد ٤/ ١٠٤، والنسائي في الخيل ٦/ ٢١٤ - ٢١٥ في فاتحته، من طريق ... الوليد بن عبد الرحمن الجرشي، عن جبير بن نفير، عن سلمة بن نفيل ... وهذا إسناد صحيح. وانظر جامع الأصول ٢/ ٥٧٠.

وزاغ، قال ابن فارس في "مقاييس اللغة" ٣/ ٤٠ - ٤١: "الزاي، والياء، والغين أصل يدل على ميل الشيء. يقال: زاغ، يزيغ، زيغا، والتزيغ: التمايل. وزاغت الشمس، وذلك إذا مالت وفاء الفيء، وقال جل ثناؤه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ... ".

وقوله: "عقر دار المؤمنين بالشام" قال ابن الأثير: "أي: أصله وموضعه، كأنه =." (١)

"يهدي نفسك والقرآن يهدي روحك والمولى يهدي قلبك، والأول قد يحصل وقد لا يحصل إنك لا تهدي من أحببت [القصص: ٥٦] وكذا الثاني يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا [البقرة: ٢٦] وأما هداية القلب فلا تزول البتة لأن الهادي لا يزول ولكن الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [القصص: ٥٦] وخامسها الكتابة أولئك كتب في قلوبهم الإيمان [المجادلة: ٢٢] وفيه أن القرطاس إذا كتب فيه القرآن لم يجز إحراقه، فقلب المؤمن الذي فيه القرآن وجميع أحكام ذات الله وصفاته كيف يليق بالكريم إحراقه؟ وأيضا إن بشرا الحافي أكرم قرطاسا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين، فإكرام قلب فيه معرفة الله أولى بذلك. وأيضا إن القرطاس إذا كتب فيه اسم الله الأعظم عظم قدره حتى إنه لا يجوز للجنب والحائض مسه، فالقلب الذي فيه أكرم الموجودات كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه؟ وسادسها هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين [الفتح: ٤] وفيه أن أبا بكر لما نزلت عليه السكينة في الغار قيل له لا تحزن إن الله معنا. فالمؤمن إذا نزلت السكينة في قلبه لا بد أن يقال له عند قبض الروح: لا تخف ولا تحزن كما قال تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا [فصلت: ٣٠] وسابعها المحبة والزينة كما قال ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم [الحجرات: ٦] وفيه أن الدهقان إذا ألقى في الأرض حبة فهو لا يفسدها ولا يحرقها، فهو سبحانه حين ألقى حبة المحبة في أرض القلب كيف يحرقها؟ وثامنها فألف بين قلوبكم [آل عمران: ١٠٣] وفيه أن محمدا حين ألف بين قلوب أصحابه ما تركهم غيبة ولا حضورا سلام «علينا وعلى عباد الله الصالحين» فأكرم الأكرمين وأرحم الراحمين كيف يتركهم سلام قولا من رب رحيم [يس: ٥٨] .

وتاسعها الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب [الرعد: ٢١] وفيه أن الحاجات غير متناهية وما سوى الله فهو متناه،

---

(١) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ت حسين أسد نور الدين الهيثمي ٥/٢٠٥

والمتناهي لا يقابل غير المتناهي. فالكافي للمهمات لا يكون إلا من له كمالات غير متناهيات فلا يزيل قلق الحوائج واضطراب الأماني إلا الله سبحانه، وبإزاء هذه الكرامات ورد في حق الكفار **أضدادها فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم [التوبة: ١٢٧] في قلوبهم مرض [البقرة: ١٠] قلوبهم قاسية [المائدة: ١٣] إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه [الكهف: ٥٧] ختم الله على قلوبهم [البقرة: ٧] أم على قلوب أقفالها [محمد: ٢٤] بل ران على قلوبهم [المطففين: ١٤] طبع الله على قلوبهم [النحل: ١٠٨] فلأجل تلك الكرامات والهرب من أضدادها قال موسى رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري.
الثامنة: في حقيقة شرح الصدر وذلك أن لا يبقى للقلب التفات إلى الدنيا إلا رغبة." [١]

"(سورة الصف)

(مدنية وقيل مكية كلماتها مائتان وإحدى وعشرون وحروفها تسعمائة وستة وعشرون وآياتها أربع عشرة)

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ١٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)
وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)
يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين (١٤)

القراآت:

زاغوا بالإمالة مثل زاغ البصر [النجم: ١٧] بعدي بفتح الياء:

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٤/٥٣٣

أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وحماد وأبو بكر غير ابن غالب متم نوره بالإضافة: ابن كثير وحمزة وعلي وخلف وحفص. الآخرون: بالتنوين ونصب نوره تنجيكم بالتشديد: ابن عامر أنصارا بالتنوين لله جارا ومجرورا: أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو. والباقون: بالإضافة أنصاري إلى الله بالفتح كما مر في «آل عمران» .." (١)

"﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني﴾ قالوا إنه آدر أي منتفخ الخصية وليس كذلك وكذبوه ﴿وقد﴾ للتحقيق ﴿تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ الجملة حال والرسول يحترم ﴿فلما زاغوا﴾ عدلوا عن الحق بإيذائه ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أمالها عن الهدى على وفق ما قدره في الأزل ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ الكافرين في علمه." (٢)

"الشيخ ابن أبي جمرة رحمه الله: قال بعض أهل التوفيق: إذا نزلت بي نازلة ما من أي نوع كانت، فألهمت فيها اللجأ، فلا أبالي بها، / واللجأ على وجوه منها: الاشتغال بالذكر والتعبد وتفويض الأمر له عز وجل، لقوله تعالى على لسان نبيه: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» «١» ، ومنها: الصدقة، ومنها: الدعاء، فكيف بالمجموع. انتهى.

وقوله سبحانه: ثم تاب عليهم ليتوبوا لما كان هذا القول في تعديد النعم، بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ليكون ذلك منها على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره، ولو كان هذا القول في تعديد ذنب، لكان الابتداء بالجهة التي هي على المذنب، كما قال عز **وجل: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] ليكون ذلك أشد تقريرا للذنب عليهم، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه.

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلفوا في الكتب المذكورة، فانظره، وإنما عظم ذنبهم، واستحقوا عليه ذلك، لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه، وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين، والطاعنين، إذ كان كعب من أهل العقبة، وصاحباه من أهل بدر، وفي هذا ما يقتضي أن الرجل العالم والمقتدى به أقل عذرا في السقوط من سواه، وكتب الأوزاعي رحمه الله إلى أبي جعفر المنصور في آخر رسالة: واعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تزيد حق الله عليك إلا عظما، ولا طاعته إلا وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا، والسلام.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١١٩ الى ١٢١]

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين (١١٩) ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين (١٢٠) ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون (١٢١)

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٢٩٥/٦

(٢) تفسير الجلالين المحلي، جلال الدين ص/٧٣٩

وقوله سبحانه: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين هذا الأمر بالكون مع الصادقين حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق، وذهب بهم عن منازل المنافقين،

---

(١) تقدم تخريجه في أوائل التفسير.." (١)

"ما لا يفعل موجب مقت الله تعالى، ولذلك فر كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير وآثروا السكوت، /- قلت-: وهذا بحسب فقه الحال إن وجد الإنسان من يكفيه هذه المئونة في وقته، فقد يسعه السكوت وإلا فلا يسعه، قال الباجي في «سنن الصالحين» له: قال الأصمعي: بلغني أن بعض الحكماء كان يقول: إني لأعظكم وإني لكثير الذنوب، ولو أن أحدا لا يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه لترك الأمر بالخير، واقتصر على الشر، ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس وتذكير من النسيان، وقال أبو حازم: إني لأعظ الناس وما أنا بموضع للوعظ «١» ، ولكن أريد به نفسي، وقال الحسن لمطرف: عظ أصحابك، فقال: إني أخاف أن أقول ما لا أفعل فقال: رحمك الله وأينا يفعل ما يقول، ود الشيطان أنه لو ظفر منكم بهذه فلم يأمر أحد منكم بمعروف، ولم ينه عن منكر، انتهى.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٤ الى ٩]

إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨)

هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

وقوله تعالى: إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله ... الآية، قال معاذ بن جبل: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من قاتل في سبيل الله فواق ناقة فقد وجبت له الجنة، ومن سأل الله القتل من نفسه صادقا، ثم مات أو قتل فإن له أجر شهيد» «٢» ،

---

(١) في د: للموعظ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢/ ٢٥) ، كتاب «الجهاد» باب: فيمن سأل الله تعالى الشهادة (٢٥٤١) ، والترمذي (٤/ ١٨٣) ، كتاب «فضائل الجهاد» باب: ما جاء فيمن سأل الشهادة (١٦٥٤) مختصرا، والنسائي (٦/ ٢٥- ٢٦) ، كتاب «الجهاد» باب: ثواب من قاتل في سبيل الله فواق ناقة (٣١٤١) ، وابن ماجه (٢/ ٩٣٣- ٩٣٤) ، كتاب «الجهاد»

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٢٢٥/٣

باب: القتال في سبيل الله سبحانه (٢٧٩٢) ، والحاكم (٢/ ٧٧) ، وابن حبان (١٠/ ٤٧٨- ٤٧٩) ، كتاب «السير» باب: فضل «الجهاد» : ذكر إيجاب الجنة لمن قاتل في سبيل الله قل ثباته فيه أو كثر (٤٦١٨) مختصرا، وأخرجه البيهقي (٩/ ١٧٠) ، كتاب «السير» باب: تمني الشهادة ومسألتها، وأحمد (٥/ ٢٣٠- ٢٣١، ٢٣٥، ٢٤٣- ٢٤٤) ، وعبد الرزاق في «المصنف» (٥/ ٢٥٥) ، كتاب «الجهاد» باب: الفرار من الزحف (٩٥٣٤) ، والدارمي (٢/ ٢٠١) ، كتاب «الجهاد» باب: من قاتل في سبيل الله فواق ناقة. -." [١]

"﴿أني رسول الله﴾ أي الملك الأعظم الذي لا كفوء له ورسوله أيضا يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم ﴿إليكم﴾ لا أقول لكم شيئا إلا عنه، ولا أنطق عن الهوى، فعصياني عصيانه مع أني ما قلت لكم شيئا إلا تم، وإن كنتم قاطعين بخلافه فهي معصيته لا حامل عليها أصلا إلا رداءة الجبلات.

ولما تحنن إليهم واستعطفهم وذكرهم ما يعلمون من رسليته وصلته بالله بما شاهدوا من الآيات التي هي أعظم الإحسان إليهم، أعلم أنهم أوشكوا العصيان، فقال معبرا عن ذلك بالفاء تسبيبا عن هذا القول الذي هو أهل لأن يسبب الثبات وتعقيبا وتقريبا: ﴿فلما زاغوا﴾ أي تحقق زيغهم عن قرب عن أوامر الله في الكتاب الآتي إليهم بما أبوا من قبول أمره في الإقدام على الفتح ﴿أزاغ الله﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿قلوبهم﴾ من الاستواء، وجمع الكثرة يدل على أنه لم يثبت منهم إلا القليل فهزمهم بين يدي أعدائهم وضربهم بالتيه لأنهم فسقوا عن أمر الله ﴿فالله﴾ - لا يهديهم، فأسند الذنب إليهم والعقوبة إليه وإن كان الكل فعله تعليما لعباده الأدب وإعلاما بأن أفعالهم الاختيارية ينسب إليهم كسبها ويقوم به الحجة عليهم لعدم علمهم بالعاقبة ﴿والله﴾ أي الملك الأعظم الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال." [٢]

"سورة الصف مكية

وهي أربع عشرة آية، وفيها ركوعان

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٤٢٥/٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١١/٢٠

* * *

(سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم) قد مر مرارا تفسيره (يا أيها الذين آمنوا لم) حذف ألف ما الاستفهامية إذا كانت مع حرف الجر أكثر من إثباتها (تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا) المقت أشد البغض منصوب." (١)

"بالتمييز (عند الله أن تقولوا) فاعل كبر (ما لا تفعلون) في هذا الأسلوب من الكلام ما لا يخفى من المبالغة نزلت في جماعة قالوا: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به. فأخبر الله نبيه أنه الجهاد، فلما فرض نكل عنه بعضهم، وكرهوا، أو نزلت لما التمسوا الجهاد فابتلوا به، فولوا يوم أحد مدبرين، أو في قوم قالوا: قاتلنا طعنا ضربنا صبرنا، وهم كاذبون، أو في المنافقين يعدون نصر المؤمنين ولا يفون، وعلى أي ففيه وعيد شديد لمخلف الوعد والعهد (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) مصطفين (كأنهم بنيان مرصوص) قد رص بعضه ببعض فليس فيه فرجة حال من ضمير صفا (وإذ قال موسى) أي اذكر للتسلية (لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) لظهور المعجزات (فلما زاغوا) صرفوا عن الحق مع علمهم (أزاغ الله قلوبهم) عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) أي: من سبق في علمه أنه فاسق (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا) منصوب بما في الرسول من معنى الإرسال أي: أرسلت في حال تصديقي وتبشيري (برسول يأتي من بعدي اسمه." (٢)

"أخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والدارقطني في الأسماء والصفات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يحمل السموات يوم القيامة على إصبع والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع

فيقول: أنا الملك

فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة﴾

وأخرج أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع الله السموات على ذه وأشار بالسبابة والأرضين على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه

كل ذلك يشير باصابعه فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: تكلمت اليهود في صفة الرب فقالوا ما لم يعلموه وما لم يروا

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٠٥/٤

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٣٠٦/٤

فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه قال: اليهود نظروا في خلق السموات والأرض **والملائكة فلما زاغوا أخذوا** يقدرونه

فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت (وسع كرسيه السموات والأرض) (البقرة الآية ٢٥٥) قالوا: يا رسول الله هذا الكرسي هكذا فكيف بالعرش فأنزل الله ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السموات بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير." (١)

"هذه المفتريات الباطلة البعيدة بمراحل عن الصدق والحال انه قد تعلمون أنتم يقينا بما جئت به من المعجزات الساطعة الدالة على صدقي في دعواي أني رسول الله المرسل من عنده بمقتضى وحيه إليكم لأرشدكم الى سبيل الهداية الموصل الى معرفة الحق وتوحيده ومقتضى علمكم هذا ان لا تؤذونني فلم **تؤذونني فلما زاغوا ومالوا** عن الحق وانصرفوا عن مقتضى الفطرة الاصلية أزاغ الله المقلب للقلوب قلوبهم وصرفها عن قبول الحق والميل اليه فانحرفوا نحو الباطل فضلوا عن سواء السبيل واستحقوا الويل العظيم والعذاب الأليم وبالجملة الله العليم الحكيم لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن مقتضى الفطرة الاصلية التي هي التحقق بمقام المعرفة والتوحيد

واذكر لهم يا أكمل الرسل ايضا وقت إذ قال أخوك عيسى ابن مريم مناديا لقومه يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم قد أرسلني نحوكم لأرشدكم الى طريقه وصراط توحيده ولأكون انا في نفسي مصدقا لما بين يدي من التوراة المنزل من عنده سبحانه لضبط ظواهر الاحكام والأخلاق المستتبعة لتهذيب الباطن عن مطلق الزيغ والضلال المنافي لصفاء مشرب التوحيد ومبشرا ايضا أبشركم برسول اى ببعثة رسول كامل في الرسالة متمم لمكارم الأخلاق يأتي من بعدي مظهرا للتوحيد الذاتي خاتما لأمر النبوة والرسالة والتشريع اسمه أحمد سمى به صلى الله عليه وسلم لكون حمده أتم واشمل من حمد سائر الأنبياء والرسل إذ محامدهم لله انما هو بمقتضى توحيد الصفات والأفعال وحمده صلى الله عليه وسلم انما هو بحسب توحيد الذات المستوعب لتوحيد الصفات والأفعال وبعد ما اظهر عيسى صلوات الله عليه وسلامه دعوته طالبوه بالبينة الدالة على صدقه فلما جاءهم بالبينات الواضحة والمعجزات الساطعة التي هي اكبر من معجزات موسى عليه السلام ورأوا منه الخوارق التي ما اظهر مثلها من سائر الأنبياء بادروا الى تكذيبه مكابرة وعنادا حيث قالوا هذا اى عيسى او ما جاء به من المعجزات سحر مبين ظاهر كونه سحرا او كامل في السحر الى حيث كأنه قد تجسم منه وليس تكذيبهم إياه صلوات الله عليه سيما بعد وضوح البرهان ونسبته الى شيء لا يليق بشأنه الا خروج عن مقتضى الحدود الإلهية الموضوعة لأداء العبودية

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ٧/٢٤٦

ومن أظلم وأشد خروجا عن مقتضى الحدود الإلهية ممن افترى على الله الحكيم المتقن في أفعاله الكذب ونسب ما أنزله سبحانه من المعجزات الدالة على صدق رسوله المؤيد من عنده بالنفس القدسية المبعوث الى الناس ليرشدهم الى طريق توحيده والحال انه هو اى المفترى الظالم يدعى إلى الإسلام المتقدس عن جميع الآثام لو قبله وصدقه وامتثل بما فيه من الأوامر والنواهي وهو من غاية عتوه وعناده في موضع الاجابة ومحل القبول يرده ويكذبه وينسب معجزات الداعي الى السحر والشعبذة مراء وافتراء عدوانا وظلما وبالجملة الله المطلع على ما في استعدادات عباده لا يهدي القوم الظالمين الخارجين عن مقتضى الفطرة الاصلية الإلهية التي قد فطر الناس عليها ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون لذلك يخرجون وبالجملة ليس غرضهم عن هذا الافتراء والتكذيب بعد ثبوت الحجج والبراهين القاطعة الا انهم
يريدون بفتنتهم هذه ليطفؤا نور الله الواحد الأحد الفرد الصمد المتشعشع نوره من مطالع عموم الكائنات ومشارق جميع الذرات ألا وهو دين الإسلام المنزل على خير الأنام ليبين لهم توحيد الذات بأفواههم اى بمجرد قولهم الباطل الرهق الزائل بلا مستند عقل." (١)

"متحرفا لقتال﴾ (الأنفال: ١٦)

وتجوز المبارزة لكافر لم يطلبها بلا كره، وندب لقوي أذن له الإمام أو نائبه لإقراره صلى الله عليه وسلم عليها، وهي ظهور اثنين من الصفين للقتال، من البروز وهو الظهور، فإن طلبها كافر سنت للقوي المأذون له للأمر بها في خبر أبي داود، ولإن تركها حينئذ إضعافا لنا وتقوية لهم، وإلا كرهت
ولما ذكر تعالى الجهاد ذكر قصة موسى وعيسى عليهما السلام تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم ليصبر على أذى قومه، مبتدئا بقصة موسى عليه السلام لتقدمه فقال تعالى:
﴿وإذ﴾ أي: واذكر ياأشرف الخلق إذ ﴿قال موسى لقومه﴾ أي: بني إسرائيل، وقوله: ﴿ياقوم﴾ استعطاف لهم واستنهاض إلى رضا ربهم ﴿لم تؤذونني﴾ أي: تجددون أذاي مع الاستمرار، وذلك حين رموه بالأدرة كما مر في سورة الأحزاب ومن الأذى ما ذكر في قصة قارون أنه دس إلى امرأة تدعي على موسى الفجور، ومن الأذى قولهم ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة﴾ (الأعراف: ١٣٨)
وقولهم: ﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون﴾ (المائدة: ٢٤)

وقولهم: أنت قتلت هارون، وغير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وقد تعلمون﴾ جملة حالية، أي: علمتم علما قطعيا تجدده لكم كل وقت بتجدد أسبابه بما آتيتكم به من المعجزات، والكتاب الحافظ لكم من الزيغ ﴿إني رسول الله﴾ الملك الأعظم الذي لا كفؤ له ﴿إليكم﴾ ورسوله يعظم ويحترم لا أنه تنتهك جلالته وتخترم، وأنا لا أقول لكم شيئا إلا عنه، ولا أنطق عن الهوى ﴿فلما زاغوا﴾ أي: عدلوا عن الحق بمخالفة أوامر الله تعالى وبإيذائه. وقرأ حمزة بالإمالة والباقون بالفتح ﴿أزاغ الله﴾ أي:

(١) الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية النخجواني ٢/٤١٠

الملك الذي له الأمر كله ﴿قلوبهم﴾ أي: أمالهم عن الهدى على وفق ما قدره في الأزل ﴿والله﴾ أي: الذي له الحكمة البالغة لأنه المستجمع لصفات الكمال ﴿لا يهدي﴾ أي: بالتوفيق بعد هداية البيان ﴿القوم الفاسقين﴾ أي: العريقين في الفسق الذين لهم قوة المحاولة، فلم يحملهم على الفسق ضعف فاحذروا أن تكونوا مثلهم في العزائم فتساووهم في عقوبات الجرائم، وهذا تنبيه على عظيم إيذاء الرسل حتى إن أذاهم يؤدي إلى الكفر وزيغ القلوب عن الهدى، ثم ذكر القصة الثانية بقوله تعالى:

﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ ﴿وإذ﴾ أي: واذكر يا أشرف المرسلين إذ ﴿قال عيسى﴾ ووصفه بقوله ﴿ابن مريم﴾ ليعلم أنه من غير أب وثبتت نبوته بالمعجزات ﴿يا بني إسرائيل﴾ فذكرهم بما كان عليه أبوهم من الدين وما أوصى به بنيه من التمسك بالإسلام، ولم يقل: يا قوم، كما قال موسى عليه السلام؛ لأنه لا أب له فيهم وإن كانت أمه منهم، فإن النسب إنما هو من جهة الأب، وأكد لإنكار بعضهم فقال ﴿إني رسول الله﴾ أي: الملك الأعظم ﴿إليكم﴾ أي: لا إلى غيركم ﴿مصدقا لما بين يدي﴾ أي: قبلي ﴿من التوراة﴾ التي تعلمون أن الله تعالى أنزلها على موسى عليه السلام، وهي أول الكتب التي نزلت بعد الصحف وحكم بها النبيون، فتصديقي لها مع تأييدي بها مؤيد، لأن ما أقمت من الدلائل حق ومبين أنها دليلي فيما لم أنسخه منها، كما يستدل بما قدامه من الإعلام ويراعيه ببصره. وقرأ أبو عمرو وابن ذكوان والكسائي بالإمالة محضة، وقرأ حمزة ونافع بين بين بخلاف عنه عن قالون، والباقون بالفتح ﴿ومبشرا﴾ في حال تصديقي للتوراة ﴿برسول﴾ أي: إلى كل من شملته الربوبية ﴿يأتي من بعدي﴾ أي: يصدق بالتوراة. فكأنه قيل: ما اسمه؟ قال: ﴿اسمه أحمد﴾ والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي ما تقدمني من التوراة، وفي حال تبشيري برسول." (١)

"﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض﴾ استئناف مسوق لتحذيرهم عن التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والأحكام أو ما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية التي من جملتها ما وعد إراءته من دار الفاسقين ومعنى صرفهم عنها الطبع على قلوبهم بحيث لا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها لإصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بالمقدم والتشويق إلى المؤخر مع أن في المؤخر نوع كول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الجليل أي سأطبع على قلوب الذين يعدون أنفسهم كبراء ويرون لهم على الخلق مزية وفضلا فلا ينتفعون بآياتي التنزيلية والتكوينية ولا يغتنمون مغانم آثارها فلا تسلكوا مسلكهم لتكونوا أمثالهم وقيل المعنى سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون في إبطال ما رآه من الآيات فأبى الله تعالى إلا إحقاق الحق وإزهاق الباطل وعلى هذا فالأنسب أن يراد بدار الفاسقين أرض الجبابرة والعمالقة والمشهورين بالفسق والتكبر في الأرض وو بإراءتها للمخاطبين إدخالهم الشام وإسكانهم في مساكنهم ومنازلهم حسبما نطق به قوله تعالى يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ويكون قوله تعالى سأصرف عن آياتي الخ جوابا عن سؤال مقدر ناشيء من الوعد بإدخال الشام على أن المراد بالآيات ما تلي آنفا ونظائره وبصرفهم عنها إزالتهم عن

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير الخطيب الشربيني ٤/٢٧٥

مقام معارضتها وممانعتها لوقوع أخبارها وظهور أحكامها وآثارها بإهلاكهم على يد موسى عليه الصلاة والسلام حين سار بعد التيه بمن بقي من بني إسرائيل." (١)

"﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ كلام مستأنف مقرر لما قبله من شناعة ترك القتال وإذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين أي واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبلوا خاسربن فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون إلى قوله تعالى فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون وأصروا على ذلك وآذوه عليه الصلاة والسلام كل الآذية ﴿يا قوم لم تؤذوننى﴾ أي بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به وقوله تعالى ﴿وقد تعلمون إنى رسول الله إليكم﴾ جملة حالية مؤكدة لإنكار الإيذاء ونفي سببه وقد لتحقيق العلم وصيغة المضارع للدلالة على استمراره أي والحال أنكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات القاهرة التي معظمها إهلاك عدوكم وإنجاؤكم من ملكته إنى رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعاظيمى وتسارعوا إلى طاعتي ﴿فلما زاغوا﴾ أي أصروا على الزيغ عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام واستمروا عليه ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ أي صرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب لصرف اختيارهم نحو الغي والضلال وقوله تعالى ﴿والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله من الإزاغة ومؤذن بعلته أي لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المصرين على الغواية هداية موصلة إلى ما يوصل إليها فإنها شاملة للكل والمراد بهم إما المذكورون خاصة والإظهار في موقع الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم الهدية به أو جنس الفاسقين وهم داخلون ف حكمه دخولا أوليا وأيا ما كان فوصفهم بالفسق ناظر إلى ما في قوله تعالى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم." (٢)

"عليه السلام بطريق التلوين اى اذكر لهؤلاء المؤمنين المتقاعدين عن القتال وقت قول موسى لبنى إسرائيل حين ندبهم الى قتال الجبابرة بقوله يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا بأمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون الى قوله فاذهب أنت وربك فقاتلا انا هاهنا قاعدون وأصروا على ذلك وآذوه عليه السلام كل الأذية كذا في الإرشاد يقول الفقير لا شك ان قتل الأعداء من باب التسبيح لانهم الذين قالوا اتخذ الله ولدا وعبدوا معه الأصنام فكان في مقاتلتهم توسيع ساحة التنزيه ولذا بدأ الله تعالى في عنوان السورة بالتسبيح وأشار بلفظ الحكيم الى ان القتال من باب الحكمة وانه من باب دفع القضاء بالقضاء على ما يعرفه اهل الله وبلفظ العزيز الى غلبة المؤمنين المقاتلين

ثم انهم كرهوا ذلك كأنهم لم يثقوا بوعد الله بالغلبة ووقعوا من حيث لم يحتسبوا في ورطة نسبة العجز الى الله سبحانه ولذا تقاعدوا عن القتال وبهذا التقاعد حصلت الاذية له عليه السلام لان مخالفة اولى الأمر اذية لهم فأشار الحق تعالى بقصة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧١/٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٤٣/٨

موسى الى ان الرسول حق وان الخروج عن طاعته فسق وان الفاسق مغضوب الله تعالى لان الهداية من باب الرحمة وعدمها من باب السخط والعياذ بالله تعالى من سخطه وغضبه وأليم عذابه وعقابه يا قوم اى كروه من فأصله يا قومى ولذا تكسر الميم ولولا تقدير الياء لقيل يا قوم بالضم لانه حينئذ يكون مفردا معرفة فيبنى على الضم وهو نداء بالرفق والشفقة كما هو شأن الأنبياء ومن يليهم لم تؤذونني چرا مى رنجانيد مرا اى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به والا ذى ما يصل الى الإنسان من ضرر اما في نفسه او في جسمه او قنياته دنيويا كان او أخرويا قال في القاموس آذى فعل الأذى وصاحبه أذى واذاة واذية ولا تقل إيذاء انتهى فلفظ الإيذاء في أفواه العوام من الاغلاط وربما تراه في عبارات بعض المصنفين وقد تعلمون أني رسول الله إليكم جملة حالية مؤكدة لانكار الأذية ونفى سببها وقد لتحقيق العلم لا للتوقع ولا للتقريب ولا للتقليل فانهم قالوا ان قد إذا دخلت على الحال تكون للتحقيق وإذا دخلت على الاستقبال تكون للتقليل وصيغة المضارع للدلالة حلى استمرار العلم اى والحال انكم تعلمون علما قطعيا مستمرا بمشاهدة ما ظهر بيدي من المعجزات انى مرسل من الله إليكم لأرشدكم الى خير الدنيا والآخرة ومن قضية علمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمى وتسارعوا الى طاعتى فان تعظيمى تعظيم لله وإطاعتي إطاعة له وفيه تسلية للنبى عليه السلام بأن الاذية قد كانت من الأمم السالفة ايضا لأنبيائهم والبلاء إذا عم خف وفي الحديث (رحمة الله على أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر) وذلك انه عليه السلام لما قسم غنائم الطائف قال بعض المنافقين هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله فتغير وجهه الشريف وقال **ذلك فلما زاغوا الزيغ** الميل عن الاستقامة والتزايغ التمايل اى أصروا على الزيغ عن الحق الذي جاء به." (١)

"القلوب، أشد تأثيرا من غيرهم، فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان حده الآذان، وفي الحكم: " تسبق أنوار الحكماء أقوالهم، فحيث ما صار التنوير وصل التعبير ". فأهل النور تسري أنوارهم في الجالسين قبل أن يتكلموا، وربما انتفع الناس بصمتهم، كما ينتفعون بكلامهم، وأما أهل الظلمة . وهو من في قلبه حب الدنيا . فكلامهم قليل الجدوى، تسبق ظلمة قلوبهم إلى قلوب السامعين، فلا ينتفع إلا القليل.

يقول الحق جل جلاله: واذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن الجهاد قول موسى لبنى إسرائيل، حين ندبهم إلى قتل الجبابرة، بقوله: ﴿ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ [المائدة: ٢١] الآية، فلم يمتثلوا أمره، وعصوه أشد عصيان، حيث قالوا: ﴿ياموسى إن فيها قوما جبارين ... ﴾ [المائدة: ٢٢] الآية، إلى أن قالوا: ﴿فاذهب أنت وربك ... ﴾ [المائدة: ٢٤] الآية. وآذوه عليه السلام كل الإذاية فقال: ﴿يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ ، فالجملة: حال، والحال أنكم تعلمون علما قطعيا، مستمرا، بمشاهدة ما ترون من المعجزات الباهرة، إني رسول الله إليكم، لأرشدكم إلى خير الدنيا والأخرة، ومن قضية علمكم أن تبالغوا في تعظيمي، وتسارعوا إلى طاعتي، ﴿فلما زاغوا﴾ أي: أصروا على الزيغ عن الحق الذي جاءهم به، واستمروا عليه ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ ؛ صرفها عن قبول الحق، والميل إلى الصواب، لصرف اختيارهم نحو الغي والإضلال، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق، المصرين على الغواية، هداية موصلة إلى الطاعة وحسن الأدب، والمراد بهم المذكورون خاصة، والإظهار في موضع الإضمار لذمهم بالفسق وتعليل عدم

---

(١) روح البيان إسماعيل حقي ٩/٤٩٦

الهداية، أو جنس الفاسقين، وهم داخلون في حكمهم دخولا أوليا، وأيا ما كان فوصفهم بالفسق نظر إلى ما في قوله تعالى: ﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ [المائدة: ٢٥] ، هذا الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم." (١)

"ما يلين قلبه من الثواب والعقاب وتفصيلا لكل شيء اى تبيانا لكل شيء من الأمر والنهى والحلال والحرام والحدود والاحكام بدل من الجار والمجرور اى كتبنا كل شيء من المواعظ وتفصيل الاحكام فخذها عطف على كتبنا بإضمار القول او بدل من قوله فخذ ما أتيتك والضمير راجع الى الألواح او الى كل شيء فانه بمعنى الأشياء او للرسالات بقوة اى بجد واجتهاد وقيل بقوة القلب وصحة العزيمة لانه إذا اخذه بضعف النية رده الى الفتور وأمر قومك يأخذوا بأحسنها اى بما هو بالغ فى الحسن مطلقا وليس افعل للتفضيل بالاضافة فان كل ما هو فى كتاب الله حسن بالغ فى الحسن لا يحتمل النقيض ولا يجوز ان يكون شيء احسن منه فهو كقولهم الصيف أحر من الشتاء كذا قال قطرب وقال عطاء عن ابن عباس يحلوا حلالها ويحرموا حرامها ويتدبروا ويتعظوا بامثالها ويعملوا بحكمها ويقفوا عند متشابهها وقيل المراد بأحسنها الفرائض والنوافل يعنى ما يستحق عليه الثواب وما دونها المباح لانه لا يستحق عليها الثواب وقيل بالعزيمة دون الرخصة و بأحسن الامرين فى كل شيء كالعفو احسن من القصاص والصبر احسن من الانتصار سأريكم دار الفاسقين تحذيرا من ان لا تأخذوا بكتاب الله تعالى فتكونون مثلهم والمراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه بمصر خاوية على عروشها كذا قال عطية العوفى وقال السدى مصارع الكفار وقال الكلبي وقتادة ما مروا عليه إذا سافروا من منازل عاد وثمود والقرون الذين اهلكوا وقال مجاهد والحسن وعطاء دار الفاسقين مصيرهم فى الاخرة يعنى جهنم.

سأصرف عن آياتي قرأ ابن عامر وحمزة بإسكان الياء والباقون بفتحها والمعنى ساصرف عن التفكر فى آياتي التي فى الآفاق والأنفس وعن الاعتبار بها وقيل معناه ساصرفهم عن ابطال آياتي المنزلة والمعجزات وان يطفئوا نور الله بأفواههم كما فعل فرعون فعاد عليه باعلائها او باهلاكهم والله متم نوره ولو كره الكافرون او المعنى ساصرف عن قبول آياتي المنزلة فى الكتاب والتصديق بها بالحرمان عن الهداية لعنادهم الحق نظيره قوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم كذا قال ابن عباس وقال سفيان سامنع عن فهم القران ودرك عجائبه الذين يتكبرون في الأرض ويتجبرون على عبادى ويحاربون أوليائي بغير الحق صلة يتكبرون اى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل او حال من فاعله فحكم الاية عام بجميع الكفار وقيل حكم الاية خاص وأراد بالآيات الآيات التسع التي أعطاها الله تعالى." (٢)

"بالعصيان والرمي بالادرة وهى نفخة فى الخصيتين وقد تعلمون أني رسول الله إليكم بما جئتكم بالمعجزات وانجيتكم من اهل فرعون يسومونكم سوء العذاب وجاوزت بكم البحر والعلم بالنبوة يوجب التعظيم ويمنع الإيذاء فلما زاغوا اى عدلوا عن الحق ولم يمتنعوا عن الإيذاء أزاغ الله قلوبهم صرفها عن قبول الحق والميل الى الصواب والله لا يهدي القوم الفاسقين هداية موصولة الى معرفة الحق او الجنة قال الزجاج لا يهدى من سبق فى علمه انه فاسق.

وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل لعله لم يقل يا قوم كما قال موسى لانه لا نسب له فيهم إني رسول الله إليكم مصدقا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٥/٧

(٢) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٤٠٩/٣

لما بين يدي اى من قبلى من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسكن الياء ابن عامر وحفص وحمزة والكسائي وفتحها الباقون ومصدقا ومبشرا حالان من ضمير انى رسول الله والعامل فيهما وفى الرسول من معنى الإرسال لا الجار والمجرور فانه ظرف لغوصلة للرسول فلا يعمل اسمه أحمد وهو أحد اسمى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – افعل من الحمد يعنى اكثر حامدية لله تعالى من غيره والأنبياء كلهم حمادون واكثر محمودية من غيره من المخلوقات والأنبياء كلهم محمودون موصوفون بالخصال الحميدة وهو – صلى الله عليه وسلم – اكثر مناقبا واجمع فضايلا ومحاسنا بها يستحق الحمد من غيره قال المجدد اسمه – صلى الله عليه وسلم – أحمد له خصوصية بنشإ الروحانية ولذلك سماه عيسى بذلك الاسم قبل نشاء العنصرية بالجسمانية واسمه عليه السلام محمد له خصوصية بنشاء الجسمانية وله ولايتان ولاية محمدية وهى المحبوبية الممتزجة بالمحبة وولاية احمدية وهى المحبوبية الخالصة فعلى هذا الاولى ان يقال اشتقاه من المحمودية والله تعالى اعلم ذكر عيسى عليه السلام تصديقه بالأنبياء حتى يكون دليلا على صدق دعواة الرسالة فان الحق يطابق الحق والأنبياء شهداء بعضهم لبعض فذاك أول الكتب المشهورة الذي حكم به النبيون والنبي الذي هو خاتم المرسلين الذي بشر به الأنبياء كلهم والتورية وغيرها من الكتب السماوية فلما جاءهم عيسى او احمد – صلى الله عليه وسلم – بالبينات المعجزات الظاهرة من احياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وبالقران المعجز الباقي بمعنى الدهور والأزمان وشق القمر وغير ذلك ما لا يحصى والظرف متعلق بقوله تعالى قالوا يعنى كفار بنى إسرائيل او كفار قريش وغيرهم هذا سحر قرأ حمزة ساحر اشارة الى عيسى او محمد – صلى الله عليه وسلم – وقرأ الباقون سحر اشارة الى ما جاء به المعجزات مبين ظاهر.

ومن يعنى لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب نسبة الشريك والولد اليه وبان قالوا." (١)

"غير ضمير، أي: كل واحد منهما، وهذا من تمام المقول المذكور قبله. وقوله: وما يذكر إلا أولوا الألباب أي: العقول الخالصة، وهم الراسخون في العلم، الواقفون عند متشابهه، العاملون بمحكمه، العاملون بما أرشدهم الله إليه في هذه الآية. وقوله: ربنا لا تزغ إلخ، من تمام ما يقوله الراسخون، أي: يقولون: آمنا به كل من عند ربنا، ويقولون: ربنا لا تزغ قلوبنا قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا فتزيغ قلوبهم، نحو قوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم «١» كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه قالوا: ربنا لا تزغ قلوبنا باتباع المتشابه بعد إذ هديتنا إلى الحق، بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات، والظرف: وهو قوله: بعد منتصب بقوله: لا تزغ. قوله: وهب لنا من لدنك رحمة أي: كائنة من عندك، ومن: لابتداء الغاية ولدن: بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أخر، هذه أفصحها، وهو ظرف مكان، وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير: رحمة، للتعظيم، أي: رحمة عظيمة واسعة. وقوله: إنك أنت الوهاب تعليل للسؤال، أو لإعطاء المسؤول. وقوله: ربنا إنك جامع الناس أي: باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم ليوم هو يوم القيامة، أي: لحساب يوم، أو لجزاء يوم، على تقدير حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله: لا ريب فيه أي: في وقوعه، ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء، وقد تقدم تفسير الريب، وجملة قوله: إن الله لا يخلف الميعاد للتعليل لمضمون ما قبلها، أي: أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه وخلفه يخالف الألوهية، كما أنها تنافيه، وتباينه.

---

(١) التفسير المظهري المظهري، محمد ثناء الله ٢٧١/٩

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: المحكمات: ناسخه، وحلاله، وحرامه، وحدوده، وفرائضه، وما نؤمن به ونعمل به، والمتشابهات: منسوخه، ومقدمه، ومؤخره، وأمثاله، وأقسامه، وما نؤمن به ولا نعمل به. وأخرج سعيد بن منصور، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه عن ابن عباس قال في قوله: منه آيات محكمات قال: الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات قل تعالوا «٢» والآيتان بعدها. وفي رواية عنه أخرجها عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم في قوله: آيات محكمات قال: من هنا قل تعالوا إلى ثلاث آيات، ومن هنا وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه «٣» إلى ثلاث آيات بعدها. وأقول: رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه. فإن تعيين ثلاث آيات أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة شيء، فالمحكمات: هي أكثر القرآن على جميع الأقوال، حتى على قوله المنقول عنه قريبا من أن المحكمات ناسخه وحلاله إلخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام؟ وأخرج عبد بن حميد عنه قال: المحكمات: الحلال والحرام، وللسلف أقوال كثيرة هي راجعة إلى ما قدمناه في أول هذا البحث. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فأما الذين في قلوبهم زيغ يعني: أهل الشك، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبسون فلبس الله عليهم وما يعلم تأويله إلا الله قال: تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله. وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود

---

(١) . الصف: ٥.

(٢) . الأنعام: ١٥١.

(٣) . الإسراء: ٢٣.." [١]

"عن العود إلى مثل هذا السؤال. قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية فإن الأنبياء معصومون وقيل: هي توبة من قتله للقبطي، ذكره القشيري، ولا وجه له في مثل هذا المقام وأنا أول المؤمنين بك قبل قومي الموجودين في هذا العصر المعترفين بعظمتك وجلالك، وجملة قال يا موسى مستأنفة كالتي قبلها، متضمنة لإكرام موسى واختصاصه بما اختصه الله به. والاصطفاء: الاجتباء والاختيار، أي: اخترتك على الناس المعاصرين لك برسالتي كذا قرأ نافع وابن كثير بالإفراد، وقرأ الباقون بالجمع. والرسالة مصدر، والأصل فيه الإفراد، ومن جمع فكأنه نظر إلى أن الرسالة هي على ضروب، فجمع لاختلاف الأنواع، والمراد بالكلام هنا: التكليم. امتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام، وهما: الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما آتاه، أي: أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل. قوله وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء من كل شيء: أي من كل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم ودنياهم، وهذه الألواح: هي التوراة، قيل: كانت من زمردة خضراء وقيل: من ياقوتة حمراء، وقيل:

من زبرجد، وقيل: من صخرة صماء. وقد اختلف في عدد الألواح وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح:

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٣٦٥/١

جمع لوح، وسمي لوحا لكونه تلوح فيه المعاني، وأسند الله سبحانه الكتابة إلى نفسه تشريفا للمكتوب في الألواح، وهي مكتوبة بأمره سبحانه وقيل: هي كتابة خلقها الله في الألواح، ومن كل شيء في محل نصب على أنه مفعول كتبنا وموعظة وتفصيلا بدل من محل كل شيء، أي: موعظة لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم وتفصيلا للأحكام المحتاجة إلى التفصيل فخذها بقوة أي: خذ الألواح بقوة، أي: بجد ونشاط، وقيل: الضمير عائد إلى الرسالات، أو إلى كل شيء، أو إلى التوراة، قيل: وهذا الأمر على إضمار القول، أي: فقلنا له: خذها، وقيل: إن فخذها بدل من قوله فخذ ما آتيتك وأمر قومك يأخذوا بأحسنها أي: بأحسن ما فيها بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم «١» ، وقوله فيتبعون أحسنه، ومن الأحسن الصبر على الغير، والعفو عنه، والعمل بالعزيمة دون الرخصة، وبالفريضة دون النافلة، وفعل المأمور به، وترك المنهي عنه. قوله سأريكم دار الفاسقين قيل: هي أرض مصر التي كانت لفرعون وقومه، وقيل: منازل عاد وثمود، وقيل: هي جهنم، وقيل: منازل الكفار من الجبارة والعمالقة ليعتبروا بها، وقيل الدار: الهلاك. والمعنى: سأريكم هلاك الفاسقين. وقد تقدم تحقيق معنى الفسق. قوله سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق قيل: معنى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون سأمنعهم فهم كتابي، وقيل سأصرفهم عن الإيمان بها، وقيل سأصرفهم عن نفعها مجازاة على تكبرهم كما في قوله فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم «٢» ، وقيل: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها.

واختلف في تفسير الآيات، فقيل: هي المعجزات، وقيل: الكتب المنزلة، وقيل: هي خلق السموات والأرض، وصرفهم عنها: أن لا يعتبروا بها، ولا مانع من حمل الآيات على جميع ذلك، وحمل الصرف على

---

(١) . الزمر: ٥٥. [.....]

(٢) . الصف: ٥.." (١)

"سورة الصف

وهي مدنية. قال الماوردي: في قول الجميع. وأخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بالمدينة. وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. وأخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الصف بمكة، ولعل هذا لا يصح عنه. ويؤيد كونها مدنية ما أخرجه أحمد عن عبد الله ابن سلام قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا رجلا رجلا فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها، وأخرجه ابن أبي حاتم، وقال في آخره: فنزلت فيهم هذه السورة. وأخرجه أيضا الترمذي وابن حبان والحاكم وقال:

صحيح على شرط الشيخين، والبيهقي في الشعب والسنن.

بسم الله الرحمن الرحيم

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٢٧٨/٢

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

قوله: سبح لله ما في السماوات وما في الأرض قد تقدم الكلام على هذا، ووجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بلفظ المضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر: الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها، وقد قدمنا نحو هذا في أول سورة الحديد وهو العزيز الحكيم أي: الغالب الذي لا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه، و «لم» مركبة من اللام الجارة، وما الاستفهامية، وحذفت ألفها تخفيفا لكثرة استعمالها كما في نظائرها، ثم ذمهم سبحانه على ذلك فقال: كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون أي: عظم ذلك في المقت، وهو البغض، والمقت." (١)

"والمقاتة مصدران، يقال: رجل مقيت وممقوت إذا لم يحبه الناس. قال الكسائي: أن تقولوا في موضع رفع، لأن «كبر» فعل بمعنى بئس، و «مقتا» منتصب على التمييز، وعلى هذا فيكون في كبر ضمير مبهم مفسر بالنكرة، وأن «تقولوا» هو المخصوص بالذم، ويجيء فيه الخلاف هل رفعه بالابتداء، وخبره الجملة المتقدمة عليه، أو خبره محذوف أو هو خبر مبتدأ محذوف. وقيل: إنه قصد بقوله كبر التعجب، وقد عده ابن عصفور من أفعال التعجب. وقيل: إنه ليس من أفعال الذم ولا من أفعال التعجب، بل هو مسند إلى «أن تقولوا» ، و «مقتا» تمييز محول عن الفاعل. إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا قال المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه حتى نعمله ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا.

فأنزل الله: إن الله يحب الذين يقاتلون الآية، وانتصاب «صفا» على المصدرية، والمفعول محذوف، أي: يصفون أنفسهم صفا، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، أي: صافين أو مصفوفين. قرأ الجمهور:

يقاتلون على البناء للفاعل. وقرأ زيد بن علي على البناء للمفعول، وقرئ «يقتلون» بالتشديد، وجملة كأنهم بنيان مرصوص في محل نصب على الحال من فاعل يقاتلون، أو من الضمير في «صفا» على تقدير أنه مؤول بصافين أو مصفوفين، ومعنى

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٥/٢٦١

مرصوص: ملتصق بعضه ببعض، يقال: رصصت البناء أرصه رصا إذا ضممت بعضه إلى بعض. قال الفراء: مرصوص بالرصاص. قال المبرد: هو مأخوذ من رصصت البناء إذا لاءمت بينه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة، وقيل: هو من الرصيص، وهو ضم الأشياء بعضها إلى بعض، والتراص: التلاصق. وإذ قال موسى لقومه لما ذكر سبحانه أنه يحب المقاتلين في سبيله بين أن موسى وعيسى أمرا بالتوحيد، وجاهدا في سبيل الله، وحل العقاب بمن خالفهما، والظرف متعلق بمحذوف هو اذكر، وأي: اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين وقت قول موسى، ويجوز أن يكون وجه ذكر قصة موسى وعيسى بعد محبة المجاهدين في سبيل الله التحذير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما يا قوم لم تؤذونني هذا مقول القول، أي: لم تؤذونني بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لم تؤذونني بالشتم والانتقاص، ومن ذلك رميه بالأدرة، وقد تقدم بيان هذا في سورة الأحزاب، وجملة وقد تعلمون أني رسول الله إليكم في محل نصب على الحال، و (قد) لتحقق العلم أو لتأكيده، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار، والمعنى: كيف تؤذونني مع علمكم بأني رسول الله، والرسول يحترم ويعظم، ولم يبق معكم شك في الرسالة لما قد شاهدتم من المعجزات التي توجب عليكم الاعتراف برسالتي، وتفيدكم العلم بها علما **يقينيا فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم أي: لما أصروا على الزيغ، واستمروا عليه، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وصرفها عن قبول الحق، **وقيل: فلما زاغوا عن** الإيمان أزاغ الله قلوبهم عن الثواب. قال مقاتل: لما عدلوا عن الحق أمال الله قلوبهم عنه، يعني أنهم لما تركوا الحق بإيذاء نبيهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء بما ارتكبوا والله لا يهدي القوم الفاسقين هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها. قال الزجاج: لا يهدي من سبق في علمه أنه فاسق، والمعنى: أنه لا يهدي كل متصف بالفسق وهؤلاء من جملتهم وإذ قال عيسى ابن مريم معطوف على وإذ قال موسى معمول لعامله، أو." (١)

"سورة الصف

مدنية، أربع عشرة آية، مائتان وإحدى وعشرون كلمة، تسعمائة وستة وعشرون حرفا

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض أي شهد له تعالى بالربوبية والوحدانية وغيرهما من الصفات السنية جميع ما في السموات والأرض، وهو العزيز أي الذي يغلب على غيره، الحكيم (١) أي الذي يضع الأشياء في أتقن مواضعها. يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) .

روي أن المسلمين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فلما نزل الجهاد كرهوه، فنزلت هذه الآية، أي لم تعدون ما لا توفون. وقيل: إنها نزلت فيمن يتمدح كاذبا حيث كان الرجل يقول: قتلت ولم يقتل، وطعنت ولم يطعن، وهذا أي لم تتكلمون بما لا تعملون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) .

قال الزجاج: أي كبر قولكم ما لا تفعلون بغضا عند الله، إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله، أي في طاعته تعالى صفا في القتال.

قرأ زيد بن علي «يقاتلون» بفتح التاء. وقرئ «يقتلون» ، أي يصفون وصفا حال من فاعل «يقاتلون» ، أي صافين

---

(١) فتح القدير للشوكاني الشوكاني ٥/٢٦٢

أنفسهم أو مصفوفين كأنهم بنيان مرصوص (٤) أي مشبهين ببنيان ألصق بعضه على بعض حتى صار شيئا واحدا، وإذ قال موسى لقومه أي واذكر لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى لبني إسرائيل، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين فلم يمتثلوا بأمره، يا قوم لم تؤذونني أي بالمخالفة فيما أمرتكم به، وقد تعلمون أني رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خير الدنيا والآخرة، وقضية علمكم بذلك موجبة للتعظيم والمسارعة إلى الطاعة، **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم أي لما مالوا عن الحق وكذبوا موسى زاد الله زيغ قلوبهم حتى صرفها عن قبول الحق.

وقال مقاتل: أي لما عدلوا عن الحق بأبدانهم أمال الله قلوبهم عن الحق جزاء ما عملوا، والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) ، أي لا يهدي من سبق في علمه تعالى أنه خارج عن منهاج الحق." (١)

"في الغي، وانهماكهم في التقليد، وإعراضهم عن منهاج النظر الصحيح- بحيث لا يؤثر فيها الإنذار، ولا ينفذ فيها الحق أصلا.

قال أبو السعود: وإسناد إحداث تلك الحالة في قلوبهم إلى الله تعالى، لاستناد جميع الحوادث عندنا- من حيث الخلق- إليه سبحانه. وورود الآية الكريمة ناعية عليهم سوء صنيعهم، ووخامة عاقبتهم، لكون أفعالهم- من حيث الكسب- مستندة إليهم. فإن خلقها منه سبحانه ليس بطريق الجبر، بل بطريق الترتيب- على ما اقترفوه من القبائح- كما يعرب عنه قوله تعالى: بل طبع الله عليها بكفرهم [النساء: ١٥٥] ونحو ذلك، يعني كقوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وقوله: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام: ١١٠] .

وأما المعتزلة فقد سلكوا مسلك التأويل، وذكروا في ذلك عدة من الأقاويل.

منها: أن القوم لما أعرضوا عن الحق، وتمكن ذلك في قلوبهم، حتى صار كالطبيعة لهم، شبه بالوصف الخلقي المجبول عليه.

ومنها: أن المراد به تمثيل قلوبهم بقلوب البهائم التي خلقها الله تعالى خالية عن الفطن، أو بقلوب قدر ختم الله تعالى عليها. كما في: سال به الوادي- إذا هلك- وطارت به العنقاء- إذا طالت غيبته-.

ومنها: أن أعراقهم لما رسخت في الكفر، واستحكمت، بحيث لم يبق إلى تحصيل إيمانهم طريق سوى الإلجاء والقسر، ثم لم يفعل ذلك محافظة على حكمة التكليف، عبر عن ذلك بالختم، لأنه سد لطريق إيمانهم بالكلية. وفيه إشعار بترامي أمرهم في الغي والعناد.

ومنها: أن ذلك حكاية لما كانت الكفرة يقولونه. مثل قولهم: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب [فصلت: ٥] .

تهكما بهم.

ومنها: أن ذلك في الآخرة، وإنما أخبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه. ويعضده قوله تعالى: ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما [الإسراء: ٩٧] .

---

(١) مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد نووي الجاوي ٥٢٢/٢

انتهى ملخصا.

(فائدة) قال الراغب: المراد بالقلب في كثير من الآيات: العقل والمعرفة.." [1]

"يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث: في الحرب. والإصلاح بين الناس.

وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها.

وروى الإمام أحمد «١» وأبو داود «٢» والترمذي «٣» عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى. يا رسول الله! قال: إصلاح ذات البين. قال: وفساد ذات البين هي الحالقة.

قال الترمذي: حسن صحيح.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة النساء (٤) : آية ١١٥]

ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا (١١٥)

ومن يشاقق الرسول أي يخالفه ويعاديه من بعد ما تبين له الهدى أي اتضح له الحق ويتبع غير سبيل المؤمنين أي غير ما هم مستمرون عليه من عقد وعمل، وهو الدين القيم نوله ما تولى أي. نجعله واليا مرجحا ما تولاه من المشاقة ومتابعة غير سبيلهم فنزينه له تزين الكفر على الكفرة، استدراجا له ليكون دليلا على شدة العقوبة في الآخرة. كما قال تعالى: فذرني ومن يكذب بهذا الحديث، سنستدرجهم من حيث لا يعلمون [القلم: ٤٤] . وقال تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] . وقال سبحانه: ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام: ١١٠] ونصله جهنم أي: ندخله إياها وساءت مصيرا وجعل النار مصيره في الآخرة. لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا إلى النار يوم القيامة. كما قال تعالى: احشروا الذين ظلموا وأزواجهم [الصافات: ٢٢] .

الآية. وقال تعالى: ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا [الكهف: ٥٣] .

قال الإمام ابن كثير: قوله تعالى: ويتبع غير سبيل المؤمنين هذا ملازم للصفة الأولى. ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقا. فإنه قد ضمنت لهم العصمة، في

---

(١) الإمام أحمد في المسند ٦/ ٤٤٥.

(٢) أخرجه أبو داود في: الأدب، ٥٠- باب في إصلاح ذات البين، حديث ٤٩١٩.

(٣) أخرجه الترمذي في: الزهد، ٥٦- باب حدثنا أبو يحي محمد بن عبد الرحيم البغدادي.." [2]

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢٤٧/١

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٢٩/٣

"القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٥]
وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأريكم دار الفاسقين (١٤٥)
وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء من الحلال والحرام فخذها بقوة أي بعزم على العمل بما فيها وأمر قومك يأخذوا بأحسنها أي بما أمروا به دون ما نهوا عنه سأريكم دار الفاسقين وهي الأرض التي وعدوا بها من فلسطين، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر، وبقائهم في البرية. فإن موسى عليه السلام، لما مات، خلفه يشوع بن نون، فحارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان، وفتح بلادهم، وصارت ملكا للإسرائيليين.

تنبيه:
قال الجشمي: تدل الآية على حدوث كلامه، لأن قوله: اصطفيتك أي اختصصتك به، ولو كان قديما لكان موسى وغيره سواء، ولما صح الاختصاص.
ويدل قوله: وكتبنا أنه أعطاه التوراة مكتوبة في الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقين، ليقع لهم العلم ضرورة. ويدل على أن في التوراة شرائع، وجميع ما يحتاج إليه. ويدل قوله: بقوة أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل، وأنه يفعل بقدرة. انتهى.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأعراف (٧) : آية ١٤٦]
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين (١٤٦)
سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي، قلوب المتكبرين عن طاعتي، والمتكبرين على الناس. أي فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل، كقوله تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام: ١١٠] . وقوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] . وقوله تعالى: بغير الحق إما صلة للفعل، أي." (١)

"الأرض. وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا، أو برزوا من قبورهم أي: ظهروا لذلك فقال الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا أي: على الرسل وهم قادتهم- توبيخا لهم إنا كنا لكم تبعا أي: تابعين، مهما أمرتمونا ائتمرنا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء أي: بعض الإغناء قالوا أي: المستكبرون لو هدانا الله لهديناكم إحالة، لضلالهم وإضلالهم، على مقامه سبحانه، أو لو هدانا باهتدائنا، ولكن زغنا فأزاغنا كما قال **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١٨٢/٥

أي: منجى ومهرب من العذاب ونظير الآية قوله تعالى: ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين [سبأ: ٣١] .

واستظهر ابن كثير هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها لآية: وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار [غافر: ٤٧] .

ولا يخفى أن الآية في هذه السورة تصدق بالتخاصم في الموقف وفي النار، لإفادتها أن ذلك أثر بروزهم، وهو صادق بما ذكرنا، فلا قرينة فيها لكون ذلك في النار فقط، كما ادعاه. وربما كان قوله وبرزوا يدل للموقف بمعناه المتقدم. ثم إن هذا التخاصم يجوز أن يكون متعدد المواطن لظاهر قوله: عند ربهم وقوله:

في النار ويجوز أن يكون مرة واحدة. والمراد ب (النار) العذاب. ووقوفهم عند ربهم، واليأس محيط بهم، وجهنم ترقبهم، عذاب وأي عذاب!.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة إبراهيم (١٤) : آية ٢٢]

وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم (٢٢)

وقال الشيطان لما قضي الأمر وهو الحكم بنجاة السعداء وهلاك الأشقياء إن الله وعدكم وعد الحق أي: على ألسنة رسله بأن في اتباعهم النجاة والسلامة، أي: فوفى به وأنجز ووعدتكم فأخلفتكم أي: ووعدتكم وعد الباطل، وهو أن لا." (١)

"الثابت عن مقره. وليس ذلك بحاصل لهم. وأصل (الإدحاض) إزلاق القدم وإزالتها عن موطئها. فاستعير من زلل القدم المحسوس، لإزالة الحق المعقول. قال الشهاب:

ولك أن تقول: فيه تشبيه كلامهم بالوحل المستكره.

ثم أنشد لنفسه:

أتانا بوحل لإنكاره ... ليزلق أقدام هذي الحجج

واتخذوا آياتي وما أنذروا أي وإنذارهم. أو والذي أنذروا به من العقاب هزوا أي استهزاء وسخرية وهو أشد التكذيب. وصف بالمصدر مبالغة.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨) : آية ٥٧]

ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا (٥٧)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣١١/٦

ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها كناية عن عدم تدبرها والاتعاظ بها، بأبلغ أسلوب ونسي ما قدمت يداه أي ما عمله من الكفر والمعاصي، وصرف ما أنعم به، إلى غير ما خلقت له، فلم يتفكر في عاقبة ذلك إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه أي جعلنا عليها حجبا وأغطية كثيرة، كراهة أن يفقهوه، أي يقفوا على كنه ما خلقت النعم من أجله وفي آذانهم وقرا أي وجعلنا فيها ثقلا يمنعهم من استماعه. والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم، بأنهم مطبوع على قلوبهم. وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف: ٥] .

وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا أي فلا يكون منهم اهتداء، البتة.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الكهف (١٨) : آية ٥٨]

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨)

وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا.." [١]

"(اذكر) أو (لا يجدون) أو (خالدين) أو (نصيرا) يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا أي فكنا ننجو من هذا العذاب.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٧ الى ٦٩]

وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا (٦٧) ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا (٦٨) يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها (٦٩)

وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا وهم رؤساء الكفر الذين لقنوهم الكفر وزينوه لهم حتى قلدوهم فيه فأضلونا السبيلا أي بما زينوه لنا. قال الزمخشري:

وزيادة الألف لإطلاق الصوت جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف ربنا آتهم ضعفين من العذاب أي مثلي العذاب الذي آتيتناه، لأنهم ضلوا وأضلوا والعنهم لعنا كبيرا أي لعنا هو أشد اللعن وأعظمه. وقرئ (كثيرا) تكثيرا لأعداد اللعائن يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها لما بين تعالى وعيد من يؤذي نبيه صلى الله عليه وسلم، من استحقاقه اللعنة في الدارين، تعريضا بمن صدر منهم شيء من الأذى في قصة زيد وزينب، التي سيقت السورة لأجلها، ختمها أيضا بالوصية بالتباعد عن التشبه بقوم صدر منهم إيذاء لموسى عليه السلام، بتنقصه تارة، وقلة الأدب معه طورا، ونسبته إلى ما ينافي الرسالة آونة. كما يمر كثير من ذلك بقارئي توراتهم. مما ينبئ عن عدم إيفائهم رسالته ونبوته حقها، من التعظيم له والصلاة عليه والتسليم لأمره وقضيته. فكانت النتيجة أن غضب الله عليهم ورماهم بأفانين العقوبات، ولحقتهم المخازي، وبرأ رسوله موسى عليه السلام من إفكهم، ونزه مقامه عن تنقيصهم، بأن حقق فضله، وأسمى منزلته، وآتاه الوجاهة- وهي العظمة والقرب-

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٤٥/٧

عنده. وهكذا حقت كلمة اللعنة والخزي على مؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولحقهم الدمار، وشرح لنبيه صدره، ورفع له ذكره، وأعلى منزلته، وفخم وجاهته، ما تعاقبت الأدوار. ويقرب من هذه الآية، في المعنى والإشارة، قوله تعالى وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم، فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين [الصف: ٥] ، وفيهما كلتيهما تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بتأسيه بأخيه موسى صلوات الله وسلامه عليهما. وكثيرا ما كان." (١)

"وفي رواية ابن أبي حاتم هذه فائدة جليلة: وهي أن قول الصحابي نزلت هذه السورة، بمعنى قرئت في الحادثة، كما بينته الرواية قبله. والروايات يفسر بعضها بعضا. وقد نبهنا على ذلك مرارا.

الثالث- في (الإكليل) في قوله: كأنهم بنيان مرصوص: استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفا كصفوف الصلاة. وأنه يستحب سد الفرج والخلل في الصفوف، وإتمام صف الأول فالأول، وتسوية الصفوف قدما بقدم، لا يتقدم بعض على بعض فيها.

قال ابن أبي الفرس: واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان. لأن التراص إنما يمكن منهم. قال: وهو ممنوع. انتهى.

وفي التشبيه وجهان آخران:

أحدهما- أن يكون المراد الثبات ورسوخ الأقدام في الموقف، تنبيها على أن المتزلزل القدم، والمضطرب في الموقف- دع من يعزم على الفرار- ممن يمقته الله تعالى، ولا تناله محبته.

ثانيهما- أن يكون المعنى به اجتماع الكلمة، والاتفاق على تسوية الشأن مع العدو، حتى يكونوا في الاتحاد وموالاة بعضهم بعضا كالبنيان المرصوص. وقد أشار لهذين الوجهين الرازي. وهما أقرب من الأول، لتقويتهما لمعنى طليعة السورة، من الثبات على الوعد والوفاء به، والعتب على من يخلف فيه، كما تقدم.

القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم أي لم توصلون إلي الأذى بالمخالفة والعصيان لما آمركم به، وأنتم تعلمون علم اليقين صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، لما شاهدتم من الآيات البينات؟ ومقتضى علمكم ذلك، تعظيمي وإطاعتي، لأن من عرف الله وعظمته، عظم رسوله، لأن تعظيمه في تعظيم رسوله.

قال ابن كثير: وفي هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من الكفار من قومه." (٢)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١١٧/٨

(٢) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٢١٩/٩

"كثير، وإن اشتركوا في مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين، وأما حظيرة القدس في صدر الميدان فهي أعلى من أن تطأها أقدام العارفين، وأرفع من أن تمتد إليها أبصار الناظرين، بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير أو كبير إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب إليه البصر خاسئا وهو حسير ؛ فهذا ما يجب على العامي أن يؤمن به جملة وإن لم يحط به تفصيلا، فهذه هي الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق في هذه الأخبار التي سألت عنها. وهي حقيقة مذهب السلف، وأما الآن فنشتغل بإقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف. اهـ.

أقول: ثم إن الغزالي أورد بعد هذا فصلا في الاحتجاج على أن مذهب السلف هو الحق، وقد علمت صفوة المذهب مما سلف. ونعود إلى تفسير باقي الآيات.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

لما كان المتشابه مزلة الأقدام ومدرجة الزائغين إلى الفتنة وصل الراسخون الإقرار بالإيمان به بالدعاء بالحفظ من الزيغ بعد الهداية، فإنهم لرسوخهم في العلم يعرفون ضعف البشر وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول، ويعرفون أن قدرة الله فوق كل شيء، وعلمه لا يحاط به، وهو المحيط بكل شيء، فيخافون أن يستزلوا فيقعوا في الخطأ والخطأ في هذا المقام قرين الخطر، وليس للإنسان بعد بذل جهده في إحكام العلم في مسائل الاعتقاد وإحكام العمل بحسن الاهتداء إلا اللجأ إلى الله – تعالى – بأن يحفظه من الزيغ العارض، ويهبه الثبات على معرفة الحقيقة، والاستقامة على الطريقة، فالرحمة في هذا المقام هي الثبات والاستقامة واختاره الأستاذ الإمام. أقول: ولا تلتفت في معنى الآية إلى مجادلة الأشعرية للمعتزلة في إسناد الإزاغة إلى الله – تعالى –، فإنه – تعالى – يسند إليه كل شيء في مقام تقرير الإيمان به، وذلك لا ينافي اختيار العبد في زيغه. فقد قال – تعالى – في سورة **الصف: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١: ٥] ولكل مقام مقال.

ومن مباحث الألفاظ في الآية أن قوله – تعالى –: من لدنك معناه: من عندك فإن (لدن) تستعمل بمعنى (عند) وإن لم تكن مرادفة لها – بل هي أخص وأقرب مكانا – ولا لـ (لدى) .

فقد فرقوا بينهما بخمسة أمور، ولا تستعمل " لدن " إلا في الشيء الحاضر، فهي أدل على الاختصاص. فهذه الرحمة المطلوبة منه في هذا المقام هي العناية الإلهية والتوفيق الذي لا يناله العبد بكسبه. ولا يصل إليه بسعيه، ويؤيد ذلك التعبير بالهبة ووصفه – تعالى – بالوهاب، فإن الهبة عطاء بلا مقابل.

ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد جمع الناس وحشرهم واحد، وجمعهم لذلك اليوم للجزاء فيه وهو يوم القيامة، وكونه." (١)

"يساري نورا، وتحتي نورا، وأمامي نورا، وخلفي نورا، واجعل لي نورا" (١).

...

الهداية نوعان:

قد دل الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم، ومرضاة خالقهم.

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٨٩/٣

وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار قامت حجة الله على العبد.

ثم يسر من شاء- وهو الحكيم العدل- إلى العمل بما دل عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته، وأقبلوا على ما آتاهم من عنده؛ فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل معه، كما قال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾ [محمد: ١٧].

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف: ٥].

فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هدوا دلالة وتوفيقا.

والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم.

بماذا تكون الهداية:

كما أنعم الله على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون؛ إذ من طلب الهدى في غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين فلذا بين تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه، فيتمسك بها من يريد الهدى، وليحكم على من لم يهتد بها بالزيغ والضلال.

ولما كانا في حكم شيء واحد في الهداية يصدق كل واحد منهما الآخر- جاء بالضمير مفردا في قوله تعالى: ﴿يهدي به الله﴾.

لمن تكون الهداية:

أما هداية الدلالة والإرشاد وحدها، فهي كما تقدم عامة. وأما هداية الدلالة والإرشاد مع التوفيق والتسديد، فهي للذين اتبعوا ما جاء من عند الله: من رسوله وكتابه، وكانوا باتباعهم لها

---

(١) من حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما، رواه البخاري في الدعوات باب ٩. ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها حديث ١٨١ و١٨٧ و١٨٩. وأبو داود في التطوع باب ٢٦. والترمذي في الدعوات باب.٣. وأحمد في المسند (١/ ٢٨٤، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٧٣).." (١)

"الأمامى، وهكذا تراعى الأمم فى عصرنا الحاضر النظام فى كل أعمالها، فى أكلها ونومها ورياضتها وتربية أولادها، بحيث لا يطغى عمل على عمل، فللجد وقت لا يعدوه، وللرياضة وقت آخر، وللنوم كذلك، ولهذا لا يوجد تواكل ولا تراخ فى الأعمال، ولا تخاذل فيها، ومن ثم

---

(١) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ابن باديس، عبد الحميد ص/٣٣١

جاء فى الأثر.

«أفضل الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» .

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٥ الى ٦]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

شرح المفردات

تؤذوننى: أي تخالفون أمرى بترك القتال، زاغوا: أي أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، أزاغ الله قلوبهم: أي صرفها عن قبول الحق، الفاسقين: أي الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرين على الغواية، وأحمد: من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال حسان:

صلى الإله ومن يحف بعرشه ... والطيبون على المبارك أحمد

المعنى الجملي

بعد أن أنب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله: «لم تقولون ما لا تفعلون؟» ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى حين ندبهم إلى قتال الجبارين." (١)

"بقوله: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين» فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد العصيان، و «قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون» وقالوا: «فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» وأصروا على ذلك وآذوه أشد الإيذاء، فوبخهم على ذلك بما جاء فى الآية الكريمة، وقد صرفهم الله عن قبول الحق وألحق بهم الضيم والذل فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى.

ومثلهم أيضا فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى: إنى رسول الله:

وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال: إنى مبشر برسول سيأتى من بعدي يسمى أحمد، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره.

الإيضاح

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم؟) أي واذكر لقومك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله حين قال لقومه: لم تؤذوننى وتخالفون أمرى فتتركوا القتال وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من رسالة

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٨٢/٢٨

ربى؟ وفى هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم «رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»

كما أن فيه نهيا للمؤمنين أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما جاء فى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها» .

ثم بين عاقبة عصيانهم ومخالفة أمره بقوله:

(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، وأصروا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الحيرة والشك، جزاء." (١)

"المعنى الجملي

بعد أن أبان سبحانه فى الآيات السالفة ما لحق فرعون وقومه من الهلاك بسبب استكباره وظلمه وفساده فى الأرض- ذكر هنا سننه تعالى فى ضلال البشر بعد مجىء البينات وتكذيبهم لدعاة الحق والخير من الرسل وأتباعهم، وأبان أن السبب الأول لذلك هو التكبر، فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق والهدى، فهم يكونون دائما من المكذبين بالآيات الدالة عليه، ومن الغافلين عنه كما هى حال الملوك والرؤساء والزعماء الضالين كفرعون وملئه.

وفى هذا إيماء للنبى صلى الله عليه وسلم بأن الطاغين المستكبرين من صناديد قومه لن ينظروا فى دعوته ولا فى آيات القرآن الدالة على وحدانية الله بما أقامته عليها من البراهين الكثيرة من آيات كونية، وآيات فى الآفاق والأنفس.

وجملة الموانع الصادة لهم عن اتباعه ترجع إلى التكبر، فإنهم بزعمهم يعتقدون أنهم سادة قريش وكبراؤها وأقوياؤها فلا ينبغى أن يتبعوا من دونهم سنا وقوة وثروة وعصبية.

الإيضاح

(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) أي سأمنع قلوب المتكبرين عن طاعتى وعلى الناس بغير حق- فهم الأدلة والحجج الدالة على عظمتى وعلى ما فى شرائعى من هدى وسعادة لهم كما قال «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» كما منعت فرعون وقومه عن فهم آيات موسى التي أوحيتها إليه، وقوله بغير الحق أي بتلبسهم بالباطل وانغماسهم فيه- إذ لا قيمة للحق فهم لا يبحثون عنه ولا يطلبونه، وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون كما قال تعالى فى قوم فرعون «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا» .." (٢)

"وفي قوله عن المنافقين: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٨٣/٢٨

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٦٤/٩

رجسهم﴾ فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ .

-[٤٣]-

﴿١١ - ١٢﴾ ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ .

أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قالوا إنما نحن مصلحون﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية (١) فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إنما نحن مصلحون﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ فإنه لا أعظم فسادا (٢) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟ " ولكن لا يعلمون علما ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا، لأنه يتضمن فساد (٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما (٤) يحصل فيها من الآفات بسبب (٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم (٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته] ، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيا فيها بالفساد فيها، وإخرابا لها عما خلقت له.

---

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فسادا.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

(٥) في ب: التي سببها.

(٦) في ب: عليهم.." (١)

"﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين﴾ .

يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٤٢

لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال ﴿وأولئك هم الضالون﴾ وأي: ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياذا بالله من حالهم.." (١)

"﴿١١٥، ١١٦﴾ ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا * إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا﴾ .

أي: ومن يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم ويعانده فيما جاء به ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ بالدلائل القرآنية والبراهين النبوية.

﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم ﴿نوله ما تولى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائرا ويزداد ضلالا إلى ضلاله.

كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ .

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله واتباع رسوله ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه ويعصمه من السوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه السوء، وكذلك كل -[٢٠٣]- مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل.

وقوله: ﴿ونصله جهنم﴾ أي: نعذبه فيها عذابا عظيما. ﴿وساءت مصيرا﴾ أي: مرجعا له ومآلا.

وهذا الوعيد المرتب (١) على الشقاق ومخالفة المؤمنين مراتب لا يحصيها إلا الله بحسب حالة الذنب صغرا وكبرا، فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بمن هو مالك النفع والضر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/١٣٧

الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبارات.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود وعدم الكمال وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.

وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن إجماع هذه الأمة حجة وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و ﴿سبيل المؤمنين﴾ مفرد مضاف يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال. فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، أو تحريمه أو كراهته، أو إباحته – فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ .

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفا ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهوا عنه فلا يكون إلا منكرا، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطا أي: عدلا خيارا ليكونوا شهداء على الناس أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة لكونهم عالمين بما شهدوا به عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ يفهم منها أن ما لم يتنازعوا فيه بل اتفقوا عليه أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقا للكتاب والسنة فلا يكون مخالفا.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

---

(١) في ب: المترتب.." (١)

"﴿١٣٧﴾ ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ .

أي: من تكرر منه الكفر بعد الإيمان فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد من المغفرة لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها. فإن كفره يكون عقوبة وطبعا لا يزول كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كفرا بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة.

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٢٠٢

وإذا كان هذا الحكم في الكفر فغيره من المعاصي التي دونه من باب أولى أن العبد لو تكررت منه ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.." (١)

"﴿٧٥﴾ ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا﴾ .

لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبا، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾

﴿حتى إذا رأوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا﴾ ﴿ما يوعدون إما العذاب﴾ بقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جندا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.." (٢)

"﴿ولقد جاءكم يوسف﴾ بن يعقوب عليهما السلام ﴿من قبل﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له، ﴿فما زلتم في شك مما جاءكم به﴾ -[٧٣٨]- في حياته ﴿حتى إذا هلك﴾ ازداد شككم وشرككم، و ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسله، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلما وعلوا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت -من ظهورها- بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها ﴿بغير سلطان أتاهم﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلا ﴿كبر﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مقتا عند الله وعند الذين آمنوا﴾ فالله أشد بغضا لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمقتون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٢٠٩

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٤٩٩

على شناعة من مقتوه، ﴿كذلك﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وقال فرعون﴾ معارضا لموسى ومكذبا له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يا هامان ابن لي صرحا﴾ أي: بناء عظيما مرتفعا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا﴾ في دعواه أن لنا ربا، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسنا ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وصد عن السبيل﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وما كيد فرعون﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إلا في تباب﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وقال الذي آمن﴾ معيدا نصيحته لقومه: ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلا ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملا يسعدكم فيها.

﴿من عمل سيئة﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فلا يجزى إلا مثلها﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.." (١)

"﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم -[٨٥٩]- لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾

[أي:] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخا لهم على صنيعهم، ومقرعا لهم على أذيته، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذونني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ .

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد (١) بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيغ عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقهم الله للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر،

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٧٣٧

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفا لهم، لا (٢) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله لعباده، ليس ظلما منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعد ما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال (٣) والزيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلا منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ .

---

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.." (١)

"تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١- ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ ﴿الم﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢- ٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾

﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد -صلى الله عليه وسلم-، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والثواب العاجل والآجل.

و ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن عصاه.

﴿٥﴾ ومن تمام قيوميته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متنقلين في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك-

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٨٥٨

فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.
﴿لا إله إلا هو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو ينعت بذم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.
﴿٧- ٨﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمته، وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد- ولن يوجد- له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم.
فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المتشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلبا للفتنة، وتحريفا لكتابه، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.
وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف- فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأن كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.
فلعلمهم أن المحكمات، معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة.
فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكما، ويقولون: ﴿آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولو الألباب﴾
أي: أهل العقول الرزينة.
ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة.
وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على "إلا الله" حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى، فيكون هذا مدحا للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومتشابهها، ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.
﴿بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: كثير الفضل والهبات.
وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات أخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾
فالعبد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختاره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه،

عقوبة له على زيغه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا." (١)

"قال ابن كثير: أي: إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك، بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجا له، كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ، وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . انتهى. والله أعلم.

* * *." (٢)

"الدرس الثمانون بعد المائتين

[سورة الصف]

مدنية، وآياتها أربع عشر آية

عن عبد الله بن سلام قال: (تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلينا رجلا رجلا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة) . رواه أحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧)." (٣)

"ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا، واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا اؤتمن خان» .

وقوله تعالى: ﴿كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ ، قال البغوي: أي: عظم ذلك في المقت والبغض عند الله، أي: إن الله يبغض بغضا شديدا أن تقولوا ما لا تفعلون، بأن تعدوا من أنفسكم شيئا ثم لم تفوا به؛ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن عبد الرحمن السعدي ص/٩٦٢

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٥٩٣/١

(٣) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٢٦٦/٤

في سبيله صفا﴾ أي: يصفون أنفسهم عند القتال صفا ولا يزولون عن أماكنهم، ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «ثلاثة يضحك الله إليهم: الرجل يقوم من الليل، والقوم إذا صفوا في الصلاة، والقوم إذا صفوا للقتال» . رواه أحمد، وابن ماجة. وقال قتادة: ﴿كأنهم بنيان مرصوص﴾ ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه، كذلك الله تبارك وتعالى لا يحب أن يختلف أمره، وإن الله وصف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به.

قوله عز وجل: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي

من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم." (١)

"الظالمين (٧) يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩) ﴾ .

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾ ، أي: لم توصلون الأذى إلي وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟ وفي هذا تسلية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر» . وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي – صلى الله عليه وسلم – أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها﴾ .

وقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، أي: فلما عدلوا عن إتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ، وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾ ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ يعني: التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي وهو." (٢)

"[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

---

(١) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٢٦٩/٤

(٢) توفيق الرحمن في دروس القرآن فيصل المبارك ٢٧٠/٤

الإعراب:

(الواو) استئنافية (إذ) اسم ظرفي في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر (لقومه) متعلق ب (قال) ، (قوم) منادى مضاف منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف.

وهي مضاف إليه (لم) متعلق ب (تؤذونني) ، و (ما) للاستفهام حذفت ألفها (الواو) حالية (قد) للتحقيق «١» ، (إليكم) متعلق ب (رسول) .

والمصدر المؤول (أني رسول ...) في محل نصب سد مسد مفعولي تعلمون.

(الفاء) استئنافية (لما) ظرف بمعنى حين متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب أزاغ (الواو) استئنافية (لا) نافية.

جملة: «قال موسى ... » في محل جر مضاف إليه.

وجملة: «النداء ... » في محل نصب مقول القول.

وجملة: «تؤذونني ... لا محل لها جواب النداء.

وجملة: «تعلمون ... » في محل نصب حال من فاعل تؤذونني.

وجملة: «زاغوا ... » في محل جر مضاف إليه.

وجملة: «أزاغ الله ... » لا محل لها جواب شرط غير جازم.

---

(١) ذلك لتحقق علمهم برسالته فليست للتقليل ولا للتقريب.." (١)

"الهدى أو يقبله، إذا عرض عليه.. وهؤلاء المشركون لا يطلبون الهدى، ولا يستجيبون له إذا دعوا، لما ركب في طبيعتهم من فساد.

قوله تعالى:

«كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون» .

الإشارة هنا إلى ما تضمنته الآية السابقة، من استغلاق مدارك المشركين عن أن يدخل عليها هدى، وذلك لأن الله قد طبع على قلوبهم.. وإنه مع ما ضرب الله سبحانه من أمثال، وما حملت هذه الأمثال من شواهد واضحة وآيات بينة، فإن أهل الضلالات والأهواء لم ينتفعوا بها، ولم يروا إشارة مضيئة من إشاراتها، تعدل بهم عن طريق الكفر الذي يركبونه، إلى طريق الإيمان الذي يدعون إليه، وهذا شأنهم أبدا مع كل آية من آيات الله.. وهذا لا يكون إلا عن فساد فطرة، وعمى بصيرة، وزيغ قلب، وهذا ما عليه حال أولئك الذين شغلتهم دنياهم عن أن يقفوا على آيات الله، وأن ينظروا فيها، وأن يحصلوا علما منها، فخذلهم الله، وخلى بينهم وبين أنفسهم كما يقول سبحانه: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» (٥ الصف) قوله تعالى:

«فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون» .

---

(١) الجدول في إعراب القرآن محمود صافي ٢٨/٢٣٣

بهذه الآية تختم السورة الكريمة، وهي تحمل إلى النبي الكريم دعوة من الله سبحانه وتعالى إلى الصبر على ما يلقى من قومه من مكاره، مستعينا على الصبر، واحتمال المكروه، بما وعده ربه من نصر لدين الله الذي يدعو إليه، ومن تمكن له وللمؤمنين معه في هذه الدنيا، ومغفرة من الله ورضوان." (١)

"ما كان من إعراض هذا الضال عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءه منها..

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون» (١١٥: التوبة) وقوله سبحانه: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم.. والله لا يهدي القوم الفاسقين» (٥: الصف) .

وقوله تعالى: «وختم على سمعه وقلبه» - معطوف على قوله تعالى:

«وأضله الله» أي وأضله الله إذ دعاه إلى الهدى فلم يستجب لدعوته، وختم على سمعه وقلبه، أي أغلقهما، وأطبقهما على ما فيهما من ضلال، فلم تنفذ كلمة الحق إلى أذنه، ولم يدخل نور الهدى إلى قلبه..

فالختم على الشيء: إغلاقه على ما فيه..

وقوله تعالى: «وجعل على بصره غشاوة» .. الغشاوة ما يغشى العين من ظلام، فيحجبها عن أن ترى الأشياء رؤية كاشفة.. وهذا من الأدواء التي رمى الله سبحانه وتعالى بها أهل الضلال، حيث يحجب أبصارهم عن النظر فى آيات الله، نظرا يكشف ما فيها من حق، وهدى، يهدى إلى الله، وإلى طريق مستقيم..

وقوله تعالى: «فمن يهديه من بعد الله» ؟ أي أنه لا سبيل إلى هداية هذا الإنسان التعس الشقي، بعد أن أضله الله سبحانه وتعالى، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة! إن الله سبحانه قد رماه بهذه الآفات، وحال بينه وبين أن ينال خيرا من هذا الخير الممدود على مائدة الهدى..

فمن ذا الذي يمكن أن يرد بهذا الضال موارد الهدى؟ ومن ذا الذي يفض هذا الختم الذي ختم الله به على سمعه وقلبه؟ ومن ذا الذي يرفع هذه الغشاوة التي ضربها الله على بصره؟ والله سبحانه وتعالى يقول: «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا» (١٧: الكهف)." (٢)

"بسم الله الرحمن الرحيم

الآيات: (١- ٦) [سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١١/٥٤٩

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٣/٢٤٧

الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)

التفسير:

قوله تعالى:

«سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم» ..

هو خبر يراد به تمجيد الله وتعظيمه، لذاته سبحانه وتعالى.. فهو- سبحانه- ممجد ومعظم، وإن لم يستجب المشركون والكافرون للإيمان به.

ولتمجيده وتعظيمه..." (١)

"أن يكون عليها إيمان المؤمن، بعد أن كشفت الآيتان السائقتان عن الصورة المهزوزة، المنكرة، التي تكون للمؤمن حين يقول، ولا يفعل ما يقول..

ولما كان الجهاد فى سبيل الله أعظم الأفعال، وأكرمها، وأصدقها، حيث موقف المجاهد، وثباته فى ميدان القتال، والتحامه فى صفوف المجاهدين، وجعل كيانه بعضا من كيانهم، وحيث يكون هذا الموقف دليلا عمليا قاطعا على صدق الإيمان ووثاقته- لما كان هذا شأن الجهاد، فقد جعله الله سبحانه وتعالى هو المحك الذي يظهر عليه إيمان المؤمن، والشهادة التي تشهد له عند الله وعند الناس أن فعله يصدق قوله على أتم صورة وأكملها..

وعلى هذا، فإن من أراد أن يكون مؤمنا حقا، وأن يبرىء نفسه من الكذب والنفاق- عليه أن يشهد مواقف القتال، وأن يأخذ مكانه فى صف المجاهدين، وأن يعطى الجهاد حقه، وأن يقاتل حتى يكتب الله النصر للمومنين، أو يقتل وهو فى مواجهة العدو، لا موليا دبره، ولا محتميا بظهر غيره من المجاهدين.. فذلك هو الإيمان، بل هو أعلى درجات الإيمان وأكرمها، وأصدقها.. فأى قول يقوله المؤمن المجاهد بعد هذا، هو قادر على الوفاء به.. فإن من قدم نفسه للاستشهاد فى سبيل الله، لهو أقوى من أن يضعف عن الوفاء بكلمة يقولها..

وقوله تعالى:

«وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين» فى هذه الآية عزاء للنبى- صلوات الله وسلامه عليه- عما يرى فى بعض المؤمنين من ضعف إيمان، أو انحراف عن غير الطريق القويم، أو انحياز إلى المشركين، أو ممالأة للكافرين.. فهذا كله مما يمكن أن يقع فى الإنسانية، حيث." (٢)

"وقوله تعالى: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» أي فلما انحرفوا، ومالوا عن طريق الحق، أمال الله قلوبهم نحو هذا الضلال، وأغرقهم فيه، لأنهم فسقوا «والله لا يهدي القوم الفاسقين» الذين يلبسون ثوب الحق ثم ينزعونه عنهم، ويخرجون منه.. فقد هداهم الله إلى الحق، ثم خرجوا من هذا الهدى، وآثروا الظلام والضلال.. فهم بهذا يخالفون الله عن عمد، وعن علم.. ومن

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٤/ ٩١٥

(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٤/ ٩١٧

كان هذا شأنه، فهو على عداوة متحدية لله، والله لا يهدى من يعاديه..
وفى ذكر كلمة القوم فى قوله تعالى: «والله لا يهدي القوم الفاسقين» بدلا من أن يقال «والله لا يهدى الفاسقين» - فى هذا إشارة إلى أن المراد بهذا، هم قوم مخصوصون، وهم هؤلاء القوم، أي اليهود..
قوله تعالى:
«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» ..
نسب السيد المسيح إلى أمه، لأنه هو النسب الذي له فى الناس، إذ لا أب له من بنى الإنسان، وإنما هو نفحة من روح الله..
ونادى المسيح بنى إسرائيل بقوله «يا بني إسرائيل» ولم يقل يا قوم كما هو حديث الأنبياء إلى أقوامهم، لأنه- وإن ولد فيهم- ليس ابنا لرجل منهم..
واليهود لا ينسبون أحدا إليهم إلا إذا كان مولودا من أبوين يهوديين، أو من أب يهودى على الأقل..
ومع أن اليهود، كانوا ينسبون السيد المسيح- عليه السلام- نسبة غير شرعية- إلى يهودى منهم، هو يوسف النجار، وإنه بهذا لا مانع عندهم من أن ينسب." (١)

"وفى الآية الكريمة تعريض بأهل الكتاب، وخاصة اليهود، الذين نقضوا عهد الله، هذا الذي أخذه على أنبيائهم وعلى أتباع أنبيائهم، فكذبوا بمحمد وبهتوه، وكتموا ما فى أيديهم من كتاب الله الذي لو استقاموا على ما فيه لكانوا أول المصدقين بمحمد، والمؤمنين به، إذ كانت التوراة تشهد لمحمد ولرسالته، وتبشر به، كما يقول الله تعالى فى أهل الكتاب، وموقفهم من الرسول الكريم «الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون» (١٤٦: البقرة) ويقول سبحانه أيضا: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» (٨٩: البقرة) .
وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب هؤلاء الذين يكذبون رسل الله ويبهتونهم، بالفسق.. والفسق- فى اللغة- هو الخروج من حال إلى حال، ومن شأن إلى شأن، ثم كثر استعماله فى الخروج من خير إلى شر..
وأهل الكتاب هؤلاء كانوا على الإيمان قبل أن يمتحنوا بالدعوة التي حملها إليهم رسول **الله، فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم، والله لا يهدى القوم الفاسقين.

الآية: (٨٣) [سورة آل عمران (٣) : آية ٨٣]

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٤/٩٢٠

أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون (٨٣)
التفسير: تكر هذه الآية على الكتاب الذين كفروا بمحمد،." (١)

"التي أطلقوها على آلهتهم، هى كلمات، لا معنى لها.. وإنما هى أصوات، تبدو فى ظاهرها كأنها كلام، أما باطنها فأجوف لا شىء فيه! قوله تعالى: «بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل.. ومن يضلل الله فما له من هاد» .. هو الحكم المناسب لما كشف عنه الحال من هؤلاء المشركين، وما اتخذوا من دون الله من آلهة، وما جعلوا لتلك الآلهة من أسماء.. «بل زين للذين كفروا مكرهم» .. أي حلا فى أعينهم هذا المكر، وحسن فى عقولهم هذا الضلال، الذي صنعوه بأيديهم، وغذوه بأوهامهم وخيالاتهم، فكان مكرا سيئا.. «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» فأضلهم الله «ومن يضلل الله فما له من هاد» يهديه، ويرفع عن عينيه غشاوة الضلال..

- وفى قوله تعالى: «وصدوا عن السبيل» إشارة إلى أن قوة خارجة عنهم هى التي صدتهم عن سبيل الله، وحالت بينهم وبين الهدى. وتلك القوة وإن كانت خارجة عنهم إلا أنهم قد استدعوها بضلالهم وعنادهم.. والله سبحانه وتعالى يقول: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم» (٥: الصف) .

- وقوله تعالى: «ومن يضلل الله فما له من هاد» - إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد أخلى بينهم وبين أهوائهم، ليضلوا، فضلوا..

قوله تعالى: «لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق» .

هذا هو جزاء المكذبين الضالين، الذين حادوا الله ورسوله.. «لهم عذاب في الحياة الدنيا»
بما ينالهم على يد المؤمنين من هزيمة، وبما تغلى به قلوبهم أبدا من حسرة وكمد.. فالكافر همه كله فى هذه الدنيا، وحياته كله محصورة فى الأيام المعدودة التي يعيشها فيها.. فهو من أجل هذا، حريص أشد الحرص." (٢)

"بإلقاء تبعة الضلال عليهم، وأن العذاب الذي أعد لهم يسلط على أولئك الذين أضلوهم.
ووصف اللعن بالكثرة كما وصف العذاب بالضعفين إشارة إلى أن الكبراء استحقوا عذابا لكفرهم وعذابا لتسببهم في كفر أتباعهم.

فالمراد بالكثير الشديد القوي، فعبر عنه بالكثير لمشاكلة معنى التثنية في قوله:
ضعفين المراد به الكثرة.
وقد ذكر في الأعراف جوابهم من قبل الجلالة بقوله: قال لكل ضعف [الأعراف:
٣٨] يعني أن الكبراء استحقوا مضاعفة العذاب لضلالهم وإضلالهم وأن أتباعهم أيضا استحقوا مضاعفة العذاب لضلالهم ولتسويد سادتهم وطاعتهم العمياء إياهم.
[٦٩]

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ٥١١/٢
(٢) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٣٢/٧

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٦٩]

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها (٦٩)

لما تقضى وعيد الذين يؤذون الرسول عليه الصلاة والسلام بالتكذيب ونحوه من الأذى المنبعث عن كفرهم من المشركين والمنافقين من قوله: إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة [الأحزاب: ٥٧] حذر المؤمنين مما يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم بتنزيههم عن أن يكونوا مثل قوم نسبوا إلى رسولهم ما هو أذى له وهم لا يعبأون بما في ذلك من إغضابه الذي فيه غضب الله تعالى. ولما كان كثير من الأذى قد يحصل عن غفلة

أصحابه عما يوجبه فيصدر عنهم من الأقوال ما تجيش به خواطرهم قبل التدبر فيما يحف بذلك من الاحتمالات التي تقلعه وتنفيه ودون التأمل فيما يترتب عليه من إخلال بالواجبات. وكذلك يصدر عنهم من الأعمال ما فيه ورطة لهم قبل التأمل في مغبة عملهم، نبه الله المؤمنين كي لا يقعوا في مثل تلك العنجهية لأن مدارك العقلاء في التنبيه إلى معاني الأشياء وملازماتها متفاوتة المقادير، فكانت حرية بالإيقاظ والتحذير. وفائدة التشبيه تشويه الحالة المشبهة لأن المؤمنين قد تقرر في نفوسهم قبح ما أوذي به موسى عليه السلام بما سبق من القرآن كقوله: وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [الصف: ٥] الآية.." (١)

"وعدل عن جعل فاعل كبر ضمير القول بأن يقتصر على كبر مقتا عند الله أو يقال: كبر ذلك مقتا، لقصد زيادة التهويل بإعادة لفظه، ولإفادة التأكيد.

وما في قوله: ما لا تفعلون في الموضعين موصولة، وهي بمعنى لام العهد، أي الفعل الذي وعدتم أن تفعلوه وهو أحب الأعمال إلى الله أو الجهاد. فاقتضت الآية أن الوعد في مثل هذا يجب الوفاء به لأن الموعود به طاعة فالوعد به من قبيل النذر المقصود منه القربة فيجب الوفاء به.

[٤]

[سورة الصف (٦١) : آية ٤]

إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

هذا جواب على تمنيهم معرفة أحب الأعمال إلى الله كما في حديث عبد الله بن سلام عند الترمذي المتقدم وما قبله توطئة له على أسلوب الخطب ومقدماتها.

والصف: عدد من أشياء متجانسة منتظمة الأماكن، فيطلق على صف المصلين، وصف الملائكة، وصف الجيش في ميدان القتال بالجيش إذا حضر القتال كان صفا من رجالة أو فرسان ثم يقع تقدم بعضهم إلى بعض فرادى أو زرافات.

فالصف هنا: كناية عن الانتظام والمقاتلة عن تدبر.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٢/١١٩

وأما حركات القتال فتعرض بحسب مصالح الحرب في اجتماع وتفرق وكر وفر.

وانتصب صفا على الحال بتأويل: صافين، أو مصفوفين.

والمرصوص: المتلاصق بعضه ببعض. والتشبيه في الثبات وعدم الانفلات وهو الذي اقتضاه التوبيخ السابق في قوله: لم تقولون ما لا تفعلون [الصف: ٢] .

[٥]

[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين." (١)

"فيكون المقصود الأهم من القصة هو ما تفرع على ذكرها من **قوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم. ويناسب أن تكون هذه الآية تحذيرا من مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وعبرة بما عرض لهم من الهزيمة يوم أحد لما خالفوا أمره من عدم ثبات الرماة في مكانهم.

وقد تشابهت القصتان في أن القوم فروا يوم أحد كما فر قوم موسى يوم أريحا، وفي أن الرماة الذين أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يبرحوا مكانهم «ولو تخطفنا الطير» وأن ينضحوا عن الجيش بالنبال خشية أن يأتيه العدو من خلفه لم يفعلوا ما أمرهم به وعصوا أمر أميرهم عبد الله بن جبير وفارقوا موقفهم طلبا للغنيمة فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين يوم أحد.

والواو على هذا الوجه عطف تحذير مأخوذ من **قوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم على النهي الذي في قوله: لم تقولون ما لا تفعلون [الصف: ٢] الآية.

ويتبع ذلك تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما حصل من مخالفة الرماة حتى تسببوا في هزيمة الناس.

وإذ متعلقة بفعل محذوف تقديره: اذكر، وله نظائر كثيرة في القرآن، أي اذكر لهم أيضا وقت قوله موسى لقومه أو اذكر لهم مع هذا النهي وقت موسى لقومه.

وابتداء كلام موسى عليه السلام ب يا قوم تعريض بأن شأن قوم الرسول أن يطيعوه بله أن لا يؤذوه. ففي النداء بوصف قوم تمهيد للإنكار في قوله: لم تؤذونني.

والاستفهام للإنكار، أي إنكار أن يكون للإذاية سبب كما تقدم في قوله تعالى: لم تقولون ما لا تفعلون.

وقد جاءت جملة الحال من قوله: وقد تعلمون أني رسول الله مصادفة المحل من الترقي في الإنكار.

وقد لتحقيق معنى الحالية، أي وعلمكم برسالتي عن الله أمر محقق لما." (٢)

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/١٧٦

(٢) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢٨/١٧٨

"ومنها: أن معنى الآية: فما كانوا ليؤمنوا بما جاءهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم، وهذا القول حكاه ابن عطية، واستحسنه ابن كثير، وهو من أقرب الأقوال لظاهر الآية الكريمة. ووجهه ظاهر ؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله تعالى: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، **وقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [٢ \ ١٠] ، وقوله: ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم [٦٣ \ ٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد تكون فيها أوجه من التفسير كلها يشهد له قرآن، وكلها حق. فنذكر جميعها، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها الآية.

بين تعالى هنا أن فرعون وملأه ظلموا بالآيات التي جاءهم بها موسى، وصرح في النمل بأنهم فعلوا ذلك جاحدين لها، مع أنهم مستيقنون أنها حق لأجل ظلمهم وعلوهم ؛ وذلك في قوله: فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا [١٣، ١٤] .

قوله تعالى: ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين.

ذكر تعالى هنا أن موسى نزع يده فإذا هي بيضاء، ولم يبين أن ذلك البياض خال من البرص، ولكنه بين ذلك في سورة «النمل» و «القصص» في قوله فيهما: تخرج بيضاء من غير سوء [١٢ \ ٣٢] ، أي من غير برص.

قوله تعالى: قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم.

بين هنا أن موسى لما جاء بآية العصا واليد قال الملأ من قوم فرعون إنه ساحر، ولم يبين ماذا قال فرعون: ولكنه بين في «الشعراء» أن فرعون قال مثل ما قال الملأ من قومه، وذلك في قوله تعالى: قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم [٢٦ \ ٣٤] .

قوله تعالى: فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم.

لم يبين هنا هذا السحر العظيم ما هو؟ ولم يبين هل أوجس موسى في نفسه الخوف منه؟ ولكنه بين كل ذلك في «طه» بقوله: فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في." (١)

"وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيئتهم كما دلت عليه آيات كثيرة كقوله: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، **وقوله فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا الآية [٢ \ ١٠] ، وقوله: وأما

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٨/٢

الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم الآية [٩ \ ١٢٥] ، وقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية [٦ \ ١١٠] ، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: أن المعنى: ما كانوا يستطيعون السمع، أي: لشدة كراهيتهم لكلام الرسل، على عادة العرب في قولهم: لا أستطيع أن أسمع كذا: إذا كان شديد الكراهية والبغض له، ويشهد لهذا القول قوله تعالى: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا [٢٢ \ ٧٢] ، وقوله تعالى وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن الآية [٤١ \ ٢٦] ، وقوله وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم.

الرابع: أن «ما» مصدرية ظرفية، أي يضاعف لهم العذاب مدة كونهم يستطيعون أن يسمعوا ويبصروا، أي يضاعف لهم العذاب دائما.

الخامس: أن «ما» مصدرية في محل نصب بنزع الخافض، أي يضاعف لهم العذاب بسبب كونهم يستطيعون السمع والإبصار في دار الدنيا، وتركوا الحق مع أنهم يستطيعون إدراكه بأسماعهم وأبصارهم، وقد قدمنا في سورة النساء قول الأخفش الأصغر بأن النصب بنزع الخافض مقيس مطلقا عند أمن اللبس.

السادس: أن قوله: ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [١١ \ ٢٠] من صفة الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، فيكون متصلا بقوله وما كان لهم من دون الله من أولياء [١١ \ ٢٠] وتكون جملة يضاعف لهم العذاب [١١ \ ٢٠] اعتراضية، وتقرير المعنى على هذا القول: وما كان لهم من دون الله من أولياء ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون، أي الأصنام التي اتخذوها أولياء من دون الله، وما لا يسمع ولا يبصر لا يصح أن يكون وليا لأحد.

ويشهد لمعنى هذا القول قوله تعالى في «الأعراف» : ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها الآية [٧ \ ١٩٥] ، ونحوها من الآيات.

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن الآية الكريمة قد تكون فيها أقوال." (١)

"فجازاهم الله على كفرهم بطمس البصائر وإزاغة القلوب والطبع والختم والأكنة المانعة من وصول الخير إليها، كقوله تعالى: **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم الآية [٦١ \ ٥] ، وقوله: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، وقوله: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [٦ \ ١١٠] ، وقوله: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا الآية [٢ \ ١٠٢] ، وقوله: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون [٩ \ ١٢٥] ، إلى غير ذلك من الآيات.

تنبيه

في هذه الآية الكريمة الرد الواضح على القدرية في قولهم: إن الشر لا يقع بمشيئة الله، بل بمشيئة العبد ؛ سبحان الله وتعالى علوا كبيرا عن أن يقع في ملكه شيء ليس بمشيئته؟ ولو شاء الله ما أشركوا [٦ \ ١٠٧] ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها الآية [٣٢ \ ١٣] ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى [٦ \ ٣٥] ، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٧٦/٢

قوله تعالى: وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا.

بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن نبيه صلى الله عليه وسلم إذا ذكر ربه وحده في القرآن بأن قال: «لا إله إلا الله» ولى الكافرون على أدبارهم نفورا، بغضا منهم لكلمة التوحيد، ومحبة للإشراك به جل وعلا.

وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، مبينا أن نفورهم من ذكره وحده جل وعلا سبب خلودهم في النار، كقوله: وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون [٣٩ \ ٤٥] ، وقوله: ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير [٤٠ \ ١٢] ، وقوله: إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون [٣٧ \ ٣٥، ٣٦] ، وقوله: كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الآية [٤٢ \ ١٣] ، وقوله: وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا [٢٢ \ ٧٢] ، وقوله: وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون [٤١ \ ٧٢] .." (١)

"فأعرض عنها، وفي قوله: ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا [١١ \ ١٨] لا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله كذبا، وهكذا الأول أولى ؛ لأنه جار على ظاهر القرآن ولا إشكال فيه، وممن اختاره أبو حيان في البحر.

قوله تعالى: إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا.

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أنه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آيات الله إذا ذكروا بها أكنة، أي: أغطية تغطي قلوبهم فتمنعها من إدراك ما ينفعهم مما ذكروا به، وواحد الأكنة كنان، وهو الغطاء، وأنه جعل في آذانهم وقرا، أي: ثقلا يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات التي ذكروا بها، وهذا المعنى أوضحه الله تعالى في آيات أخر، كقوله: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة [٢ \ ٧] ، وقوله: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة الآية [٤٥ \ ٢٣] ، وقوله تعالى: وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا [١٧ \ ٤٥] ، وقوله: أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم [٤٧ \ ٢٣] ، وقوله: ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [١١ \ ٢٠] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة جدا.

فإن قيل: إذا كانوا لا يستطيعون السمع ولا يبصرون ولا يفقهون ؛ لأن الله جعل الأكنة المانعة من الفهم على قلوبهم، والوقر الذي هو الثقل المانع من السمع في آذانهم فهم مجبورون، فما وجه تعذيبهم على شيء لا يستطيعون العدول عنه والانصراف إلى غيره؟ !

فالجواب: أن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل باختيارهم،

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٦١/٣

فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك، جزاء على كفرهم، فمن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، أي: بسبب كفرهم، وهو نص قرآني صريح في أن كفرهم السابق هو سبب الطبع على قلوبهم، **وقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] .." [١]

"لا المكان، وهو قوله تعالى: قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا [١٢ \ ٧٢] ، فتفضيل المكان في الشر هاهنا الظاهر أن المراد به تفضيله إخوته في الشر على نفسه فيما نسبوا إليه من شر السرقة لا نفس المكان، اللهم إلا أن يراد بذلك المكان المعنوي، أي: أنتم شر منزلة عند الله تعالى.

وقوله في هذه الآيات المذكورة مقاما، ونديا، وأثاثا، ومكانا، وجندا، كل واحد منها تمييز محول عن الفاعل، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

والفاعل المعنى انصبن بأفعلا مفضلا كـ «أنت أعلى منزلا»

قوله تعالى: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا.

قوله جل وعلا في هذه الآية الكريمة: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى [١٩ \ ٧٦] ، دليل على رجحان القول الثاني في الآية المتقدمة، وأن المعنى: أن من كان في الضلالة زاده الله ضلالة، ومن اهتدى زاده الله هدى، والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة، كقوله في **الضلال: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، وقوله: ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم [٦٣ \ ٣] ، وقوله تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية [٦ \ ١١٠] ، كما قدمنا كثيرا من الآيات الدالة على هذا المعنى.

وقال في الهدى: والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم [٤٧ \ ١٧] ، وقال: هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم [٤٨ \ ٤] ، وقال: والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا الآية [٢٩ \ ٦٩] ، وقد جمع بينهما في آيات أخر، كقوله: وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا [١٧ \ ٨٢] ، وقوله تعالى: قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى الآية [٤١ \ ٤٤] ، وقوله تعالى: وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون [٩ \ ١٢٤ - ١٢٥] ، كما تقدم إيضاحه.

وقوله: والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا [١٩ \ ٧٦] ، تقدم." [٢]

"ويكون الدين كله لله [٨ \ ٣٩] ، فقوله: حتى لا تكون فتنة أي: حتى لا يبقى شرك على أصح التفسيرين، ويدل على صحته قوله بعده: ويكون الدين لله ؛ لأن الدين لا يكون كله لله حتى لا يبقى شرك، كما ترى. ويوضح ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - «: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» ، كما لا يخفى.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٣١١

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣/٤٨٩

والرابع: إطلاق الفتنة على الحجة في قوله تعالى: ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين [٦ \ ٢٣] ، أي: لم تكن حجتهم، كما قال به بعض أهل العلم.

والأظهر عندي: أن الفتنة في قوله هنا: أن تصيبهم فتنة أنه من النوع الثالث من الأنواع المذكورة.

وأن معناه أن يفتنهم الله، أي: يزيدهم ضلالا بسبب مخالفتهم عن أمره، وأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة من كتاب الله تعالى ؛ كقوله - جل وعلا -: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون [٨٣ \ ١٤] ، وقوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله تعالى: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا الآية [٢ \ ١٠] ، وقوله تعالى: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم الآية [٩ \ ١٢٥] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: قد يعلم ما أنتم عليه بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما عليه خلقه، أي: من الطاعة والمعصية وغير ذلك.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية مع أنه معلوم بالضرورة من الدين، جاء مبينا في آيات كثيرة ؛ كقوله تعالى: وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين [١٠ \ ٦١] ، وقوله تعالى: ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور [١١ \ ٥] وقوله تعالى: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت [١٣ \ ٣٣] أي: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر. وقوله." (١)

"الأول: أن تأنيثها غير حقيقي.

والثاني: الفصل بينها وبين الفعل، كما هو معلوم. وأما على قراءة ضم التاء فوجه تجريد الفعل من التاء هو كون تأنيث العاقبة غير حقيقي فقط.

وأظهر الأقوال في معنى الآية عندي أن المعنى على قراءة ضم التاء: كانت عاقبة المسيئين السوءى، وهي تأنيث الأسوء، بمعنى: الذي هو أكثر سوءى، أي: كانت عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات، أي: أكثرها سوءى وهي النار أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها.

وأما على قراءة فتح التاء، فالمعنى: كانت السوءى عاقبة الذين أساءوا، ومعناه واضح مما تقدم، وأن معنى قوله: أن كذبوا، أي: كانت عاقبتهم أسوأ العقوبات لأجل أن كذبوا.

وهذا المعنى تدل عليه آيات كثيرة توضح أن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه، وسوء عاقبته، والعياذ بالله ؛ كقوله تعالى: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [٢ \ ١٠] ، وقوله: بل

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/٥٦٠

طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] .
وقد أوضحنا الآيات الدالة على هذا في سورة «بني إسرائيل» ، في الكلام على قوله تعالى: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا [١٧ \ ٤٦] . وفي «الأعراف» ، في الكلام على قوله تعالى: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل [٧ \ ١٠١] ، وفي غير ذلك.
وبما ذكرنا تعلم أن قول من قال: إن فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل منصوب بـ أساءوا، أي: اقترفوا الجريمة السوءى خلاف الصواب، وكذلك قول من قال: إن أن في قوله: أن كذبوا تفسيرية، فهو خلاف الصواب أيضا، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: الله يبدأ الخلق ثم يعيده.
قد قدمنا الآيات الموضحة له في «البقرة» ، و «النحل» ، و «الحج» ، وغير ذلك.

قوله تعالى: ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء.." (١)
"وقوله تعالى: ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم [٥ \ ٤١] .
وقوله تعالى: أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون [١٦ \ ١٠٨] ، وقوله تعالى: وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون [١١ \ ٢٠] ، وقوله تعالى: الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعا [١٨ \ ١٠١] ، والآيات بمثل ذلك كثيرة.
وقد قدمنا أن هذا الطبع والختم على القلوب، وكذلك الأغلال في الأعناق، والسد من بين أيديهم ومن خلفهم، أن جميع تلك الموانع المانعة من الإيمان، ووصول الخير إلى القلوب أن الله إنما جعلها عليهم بسبب مسارعتهم لتكذيب الرسل، والتمادي على الكفر، فعاقبهم الله على ذلك، بطمس البصائر والختم على القلوب والطبع عليها، والغشاوة على الأبصار ؛ لأن من شؤم السيئات أن الله جل وعلا يعاقب صاحبها عليها بتماديه على الشر، والحيلولة بينه وبين الخير جزاه الله بذلك على كفره جزاء وفاقا.
والآيات الدالة على ذلك كثيرة ؛ كقوله تعالى: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] ، فالباء سببية. وفي الآية تصريح منه تعالى أن سبب ذلك الطبع على قلوبهم هو كفرهم ؛ وكقوله تعالى: ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم [٦٣ \ ٣] ، ومعلوم أن الفاء من حروف التعليل، أي: فطبع على قلوبهم بسبب كفرهم ذلك، وقوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] ، وقوله تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون [٦ \ ١١٠] ، وقوله تعالى: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [٢ \ ١٠] ، إلى غير ذلك من الآيات، كما تقدم إيضاحه.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٧١/٦

وقد دلت هذه الآيات على أن شؤم السيئات يجر صاحبه إلى التمادي في السيئات، ويفهم من مفهوم مخالفة ذلك، أن فعل الخير يؤدي إلى التمادي في فعل الخير، وهو كذلك ؛ كما قال تعالى: والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم [٤٧ \ ١٧] ، وقوله." (١)

"وكقوله – تعالى –: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم [٦١ \ ٥] فبين أن زيغهم الأول كان سببا لإزاغة الله قلوبهم، وتلك الإزاغة قد تكون بالأكنة والطبع والختم على القلوب.

وكقوله – تعالى –: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [٢ \ ١٠] وقوله – تعالى –: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية [٦ \ ١١٠] وقوله – تعالى –: وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم [٩ \ ١٢٥] .

وإيضاح هذا الجواب أن الكفار قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب يقصدون بذلك إخباره – صلى الله عليه وسلم – بأنهم لا يؤمنون به بوجه، ولا يتبعونه بحال، ولا يقرون بالحق الذي هو كون كفرهم هذا هو الجريمة والذنب الذي كان سببا في الأكنة والوقر والحجاب.

فدعواهم كاذبة ؛ لأن الله جعل لهم قلوبا يفهمون بها، وآذانا يسمعون بها، خلافا لما زعموا، ولكنه سبب لهم الأكنة والوقر والحجاب بسبب مبادرتهم إلى الكفر، وتكذيب الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

وهذا المعنى أوضحه رده – تعالى – على اليهود في قوله عنهم: وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم.

وقد حاول الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة الجواب على الإشكال المذكور، فقال: فإن قيل إنه – تعالى – حكى هذا المعنى عن الكفار في معرض الذم، وذكر أيضا ما يقرب منه في معرض الذم، فقال: وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم [٢ \ ٨٨] ثم إنه – تعالى – ذكر هذه الأشياء الثلاثة بعينها في معنى التقرير والإثبات في سورة الأنعام، فقال: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا [٦ \ ٢٥] فكيف الجمع بينهما؟

قلنا: إنه لم يقل ها هنا إنهم كذبوا في ذلك، إنما الذي ذمهم عليه أنهم قالوا: إنا إذا كنا كذلك لم يجز تكليفنا وتوجيه الأمر والنهي علينا، وهذا الثاني باطل.

أما الأول فلأنه ليس في الآية ما يدل على أنهم كذبوا فيه. اهـ منه. والأظهر هو ما ذكرنا.." (٢)

"قوله تعالى: وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

قول موسى عليه السلام: لم تؤذونني؟ لم يبين نوع هذا الإيذاء وقد جاء مثل هذا الإجمال في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا [٣٣ \ ٦٩] .

وأحال عليه ابن كثير في تفسيره، وساق حديث البخاري أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: «إن موسى – عليه السلام – كان حييا ستيرا لا يرى من جلده شيئا استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يتستر هذا التستر إلا من

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢٨٩/٦

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٨/٧

عيب في جلده، إما برص وإما أدرة وإما آفة، وأن الله – عز وجل – أراد أن يبرئه مما قالوا فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه؛ ليأخذها، وأن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله – عز وجل – وبرأه مما يقولون» . . . . إلى آخر القصة.

ونقله غيره من المفسرين عندها، وعلى هذا يكون إيذاؤهم إياه إيذاء شخصيا بادعاء العيب فيه خلقة، وهذا وإن صح في آية الأحزاب لقوله تعالى: فبرأه الله مما قالوا [٣٣ \ ٦٩] ، فإنه لا يصح في آية «الصف» هذه لأن قوله لهم: وقد تعلمون أني رسول الله إليكم [٦١ \ ٥] مما يثير إلى أن الإيذاء في جانب الرسالة لا في جانبه الشخصي، ويرشح له قوله تعالى بعده **مباشرة: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] .

أي: فلما زاغوا بما آذوا به موسى، فيكون إيذاء قومه له هنا إيذاء زيغ وضلال، وقد آذوه كثيرا في ذلك كما بينه تعالى في قوله عنهم: وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة [٢ \ ٥٥] .

وكذلك قوله تعالى: وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين [٢ \ ٩٣] .

فها هم يؤخذ الميثاق عليهم ويرفع فوقهم الطور، ويقال لهم: خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا." (١)

"فكله يساوي قوله: وقد تعلمون أني رسول الله إليكم، لأن قد هنا للتحقيق، ومع ذلك يؤذونه بقولهم: سمعنا وعصينا، ويؤذونه بأن أشربوا في قلوبهم حب العجل وعبادته بكفرهم، ولذا قال لهم: بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

وقد جمع إيذاء الكفار لرسول الله مع إيذاء قوم موسى لموسى في قوله تعالى: يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم الآية [٤ \ ١٥٣] .

ومن مجموع هذا يتبين أن الإيذاء المنصوص عليه هنا هو في خصوص الرسالة، ولا مانع من أنهم آذوه بأنواع من الإيذاء في شخصه، وفي ما جاء به فبرأه الله مما قالوا في آية «الأحزاب» وعاقبهم على إيذائه فيما أرسل به إليهم بزيغ قلوبهم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله: فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، تقدم كلام الشيخ – رحمة الله تعالى عليه – على هذا المعنى في سورة «الروم» ، عند الكلام على قوله تعالى: ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله الآية [٣٠ \ ١٠] .

وقال: إن الكفر والتكذيب قد يؤدي شؤمه إلى شقاء صاحبه، وساق هذه **الآية: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم

وقوله: في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [٢ \ ١٠] .

وأحال على سورة «بني إسرائيل» على قوله: وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا [٦ \ ٢٥] .

وعلى سورة «الأعراف» على قوله: فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين [٧ \ ١٠١] .

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٠٨/٨

ومما يشهد لهذا المعنى العام بقياس العكس قوله تعالى: والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم [٤٧ \ ١٧] ، وأمثالها.
ومما يلفت النظر هنا إسناد الزيغ للقلوب في قوله **تعالى: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم.." (١)

"قال الشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه –: أي بسبب اتخاذهم أيمانهم جنة وخفاء كفرهم الباطن، تمكنوا من صد بعض الناس عن سبيل الله، لأن المسلمين يظنونهم إخوانا وهم أعداء، وشر الأعداء من تظن أنه صديق ولذا حذر الله نبيه منهم بقوله: هم العدو فاحذرهم [٦٣ \ ٤] ، وصدهم الناس عن سبيل الله كتعويقهم عن الجهاد ؛ كما بينه بقوله: قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا الآية [٣٣ \ ١٨] . وبقوله: وقالوا لا تنفروا في الحر الآية [٩ \ ٨١] . وقوله: الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا الآية [٣ \ ١٦٨] .

قوله تعالى: إنهم ساء ما كانوا يعملون.

قال الشيخ – رحمة الله تعالى علينا وعليه –: (ساء) فعل جامد لإنشاء الذم بمعنى بئس. اهـ.

وقد بين تعالى تلك الإساءة من المنافقين في عدة جهات منها قوله تعالى: يخادعون الله والذين آمنوا [٢ \ ٩] . وقوله: إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم [٤ \ ١٤٢] .

وكان خداعهم بالقول وبالفعل، وخداعهم بالقول في قوله عنهم: يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم [٤٨ \ ١١] .

وخداعهم في الفعل في قوله عنهم: وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس [٤ \ ١٤٢] .

وفي الجهاد قولهم: إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا [٣٣ \ ١٣] .

قوله تعالى: ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم.

في هذه الآية نص على أن الطبع على قلوبهم نتيجة لكفرهم بعد إيمانهم، ومثله قوله تعالى: بل طبع الله عليها بكفرهم [٤ \ ١٥٥] . **وكقوله: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [٦١ \ ٥] .." (٢)

"﴿واختار موسى قومه﴾ أي من قومه ﴿لميقاتنا﴾ أي للوقت الذي ضربناه له للإتيان بهم ليعتذروا عن عبادة العجل، ويستغفروا مما جنت أيديهم ﴿فلما أخذتهم الرجفة﴾ الزلزلة الشديدة؛ وذلك لأنهم لم يفارقوا قومهم – حين عبدوا العجل – ولم ينهروهم على عبادته؛ وهم غير الذين سألوا الرؤية، وأخذتهم الصاعقة ﴿إن هي إلا فتنتك﴾ محنتك وابتلاؤك؛ حين كلمتني وسمعوا كلامك، فطمعوا في رؤيتك. أخذها موسى عليه السلام من قوله تعالى: ﴿فإنا قد فتنا قومك من بعدك﴾ وقد فتنهم الله تعالى بعد أن ضلوا وأضلوا، وزاغوا وأزاغوا ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾." (٣)

"﴿وإذا مآ أنزلت﴾ على الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿سورة﴾ من القرآن ﴿نظر بعضهم إلى بعض﴾ قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المؤمنين ﴿ثم انصرفوا﴾ من مجلس الرسول؛ معرضين عن سماع القرآن ﴿صرف الله قلوبهم﴾ بعد أن مهد لهم تعالى سبل الإيمان فأنكروها، وأبان لهم دواعي الحق فتنكروا لها، وأنزل عليهم آياته

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٠٩/٨

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ١٩١/٨

(٣) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٢٠١

فانصرفوا عنها؛ بعد كل ذلك ﴿صرف الله قلوبهم﴾ جزاء لهم على انصرافهم؛ وهو كقوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقد يكون معنى قوله تعالى: ﴿صرف الله قلوبهم﴾ دعاء عليهم؛ كقوله ﴿قاتلهم الله﴾ هذا شأن الزائغين المنصرفين؛ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ فأولئك ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾." (١)

"﴿أفمن هو قآئم﴾ رقيب ﴿على كل نفس بما كسبت﴾ بما عملت فيجزيها عليه؛ إن خيرا فخير، وإن شرا فشر ﴿وجعلوا لله شركآء﴾ في العبادة ﴿قل سموهم﴾ أي عرفوهم لنا ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي بباطل منه، أو هو الكلام يلقى على عواهنه ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ كيدهم للإسلام ﴿زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ فكادوا للمؤمنين ﴿وصدوا عن السبيل﴾ منعوا عن دينه تعالى ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ قال تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (انظر آية ٢٠٠ من سورة الشعراء)." (٢)

"﴿ألم تر أن الله يسجد له﴾ كل ﴿من في السماوات﴾ من أملاك ﴿ومن في الأرض﴾ من إنس وجن -[٤٠٣]- ﴿والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب﴾ كل هؤلاء يسجدلله تعالى. أي يطيعه، ويخضع لأوامره. أو هو سجود على الحقيقة: يتمثل في ظل هذه الأشياء ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ ﴿وكثير من الناس﴾ أي ويسجد له كثير من الناس؛ وهم المؤمنون ﴿وكثير من الناس﴾ ﴿حق عليه العذاب﴾ أي وجب عليه؛ لكفره، وفسوقه عن أمر ربه ﴿ومن يهن الله﴾ يشقه بالكفر ﴿فما له من مكرم﴾ أي ليس له من مسعد يرتفع به إلى مصاف المؤمنين، ويدفع عنه ما كتبه عليه أحكم الحاكمين

وإنما يهن الله تعالى من استوجب الشقاء والمهانة، وارتضى لنفسه خسة الكفر، وذلة الجهل؛ وأبى رفعة الإيمان، وعزة العلم هذا ولا يعقل أصلا أن المولى الكريم يهين من لا ذنب له، ولا إثم عليه؛ بعد أن رفعه وكرمه ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ وقد اعتاد أكثر المفسرين - سامحهم الله تعالى - على أن يذهبوا في مثل هذه المعاني مذاهب شتى؛ يأباها العدل السماوي، وتنبو عنها الحكمة الإلهية؛ ويتسترون وراء معان فخمة ضخمة؛ هي في الواقع عين الحقيقة، ولب الشريعة. وإلا فمن ذا الذي ينكر أنه تعالى يفعل ما يريد؟ ﴿إن الله يفعل ما يشآء﴾ أو أن الأمر أمره، والخلق خلقه؟ وأن الجميع ملك له وعبيد؟ إن من ينكر هذا أو بعضه؛ فإنه واقع في الكفر لا محالة: لأنه قد أنكر ما لا يصح الإيمان إلا به إنما الذي ننكره، ونحارب من أجله، ونلقى الله تعالى عليه: أنه تعالى ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ وأنه جل شأنه لا يظلم الناس، ولكن الناس ﴿كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فإذا أهان الله تعالى عبدا؛ فإنما يعاقبه بهذه الإهانة على ظلم نفسه؛ بالرضا بالكفر، والركون إليه قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾.

لذا أتبع الله تعالى ذلك بذكر خصومة المؤمنين والكافرين، وما يؤول إليه حال كل منهم. قال تعالى:." (٣)

---

(١) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٢٤٤

(٢) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٣٠٢

(٣) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٤٠٢

"﴿لا يؤمنون به حتى يروا﴾ بأعينهم ﴿العذاب الأليم﴾ الذي وعدوا به في الدنيا، أو يوم القيامة؛ فحينئذ يعلمون أنه الحق من ربهم؛ حيث لا يجدي إيمانهم، ولا تنفع توبتهم

وقد ذهب جل المفسرين – إن لم يكن كلهم – إلى أن المقصود بذلك: أن الله تعالى يسلك التكذيب -[٤٥٦]- في قلوب الكافرين؛ ليمنعهم من الإيمان. وهو قول بادي البطلان، ظاهر الخسران؛ يتنافى مع العدل المطلوب من بني الإنسان؛ فما ظنك بالرحيم الرحمن أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين

هذا ويؤيد ما ذهبنا إليه – وخالفنا المفسرين فيه – قوله جل شأنه في ختام هذا القول: ﴿ومآ أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين﴾ إذ كيف يرسل تعالى المنذرين؛ وقد سلك تكذيبهم في قلوب الكافرين؟ وكيف ينفي الظلم عن نفسه؛ وما زعمه المفسرون هو الظلم المبين

وكيف يتفق قول المفسرين؛ وقول العزيز الحميد، في كتابه المجيد «ولا يرضى لعباده الكفر» وكيف لا يرضاه؛ وقد سلكه في قلوبهم، وأجراه في دمائهم؟ وكيف يحول المولى سبحانه وتعالى بينهم وبين الإيمان؛ وهو جل شأنه القائل: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جآءهم الهدى﴾؟ وكيف يؤمنون، أو يهتدون؛ وقد حال بينهم وبين الإيمان والاهتداء؟ ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾.

ونحن إذا ما وافقنا المفسرين فيما ذهبوا إليه: احتجنا إلى تعليل قولهم تعليلا مقبولا؛ بأن نقول: إن سلوك التكذيب في قلوبهم: كان نتيجة لإصرارهم على الكفر، وتعاميهم عن الحق؛ رغم وضوح آيات الله تعالى، وتواتر معجزاته، وصدق رسالاته وقد وصف الله تكذيبهم بأشنع ما يوصف به المكذبون – من جهل وعناد واستكبار – فقد بلغ تكذيبهم: أن لو قرأ القرآن عليهم من لا يدريه ولا يفهمه؛ بل ومن ليس في عداد الآدميين؛ من الأعجميين ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾ فكان سلوك التكذيب في قلوبهم: عقوبة لهم على عنادهم؛ كقوله تعالى ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فكانت الإزاغة عقوبة على الزيغ. وقوله جل شأنه: ﴿ويضل الله الظالمين﴾ ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ فكان الظلم والفسق سابقان للإضلال وبغير الذي قلنا لا يستقيم المعنى الذي أرادهالله، ولا تتوافر القدسية الواجبة في حقه تعالى فليتأمل هذا، وليعتبر به من كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد (انظر الآيات ٣٣ من سورة الرعد و٨ من سورة فاطر وصلى الله عليه وسلم٨ من سورة الحج)." (١)

"﴿أفمن زين له سوء عمله﴾ زينه له شيطانه، ورغبته فيه نفسه ﴿فرآه حسنا﴾ وهو في الحقيقة أقبح من القبح، وأسوأ من السوء والجواب محذوف تقديره «أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا» كمن هدي إلى الصراط المستقيم؟ ﴿لا يستوون﴾ ﴿فإن الله يضل من يشآء ويهدي من يشآء﴾ يضل من يشاء إضلاله؛ بسبب انصرافه عن آيات ربه بعد أن جاءته بينات محكمات، وبعد أن أدخلها الله تعالى في لبه، وسلكها في قلبه ولا تنس قول الحكيم العلم ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقوله جل شأنه: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾." (٢)

---

(١) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٤٥٥

(٢) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٥٢٩

"﴿أني رسول الله إليكم﴾ لا شك في رسالتي؛ بعد وضوح صدقي، وقيام معجزاتي ﴿فلما زاغوا﴾ مالوا عن الحق ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ صرفها عن الحق، وأمالها عن الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم، وعدم إيمانهم

-[٦٨٤]- ﴿مصدقا لما بين يدي من التوراة﴾ أي مصدقا لما تقدمني من الأنبياء، والكتب التي جاءوا بها ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ هو إمام الرسل: نبينا محمد؛ وهو محمد، وأحمد، ومحمود، وحامد؛ وله عليه الصلاة والسلام من الأسماء مائتا اسم وواحد؛ منها: الطاهر، المطهر، الطيب، رسول الرحمة، المدثر، المزمل، حبيب الله، صفيالله، نجيالله، كليم الله، المحيي، المنجي، البشير، النذير، النور، السراج المنير، البشرى، الغوث، الغيث، نعمة الله، صراط الله، سيف الله، المختار، الشفيع، المشفع. وهي مدونة بكتب الحديث والسير؛ مزينة بها حوائط مسجده الشريف بالمدينة المنورة. (انظر آية ١٥٧ من سورة الأعراف) ﴿فلما جاءهم﴾ أحمد عليه الصلاة والسلام؛ الذي بشروا به. وقيل: الضمير في «جاءهم» عائد إلى عيسى عليه الصلاة والسلام؛ لأنه المحدث عنه ﴿بالبينات﴾ بالحجج الظاهرات، والآيات الواضحات: كفروا به و ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ واضح بين." (١)

"٢- أسند إلى أن تقولوا ونصب مقتا على تفسيره للدلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا مشوب فيه.

٣- اختيار لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه حتى قيل نكاح المقت كما تقدم في باب اللغة.

٤- ثم لم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعله أشده وأفحشه وقوله عند الله أبلغ من ذلك لأنه إذ ثبت كبر مقته عند الله فقد تم كبره وشدته وانجابت عنه الشكوك.

٥- التكرار لقوله ما لا تفعلون وهو لفظ واحد في كلام واحد، ومن فوائد التكرار التهويل والإعظام وإلا فقد كان الكلام مستقلا لو قيل كبر مقتا عند الله ذلك فما إعادته إلا لمكان هذه الفائدة.

٢- اندراج الخاص بالعام، وقد ورد النهي العام عن القول غير المؤيد بالفعل والمقصود اندراج الأمر الخاص الذي ورد عقب ذلك وهو قوله: «إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» وفي ذكره ذلك عقب النهي العام مباشرة دليل على أن المقت قد تعلق بقول الذين وعدوا الثبات في قتال الكفار فلم يفوا كما تقول للمقترف جرما بعينه لا تفعل ما يلصق العار بك ولا تشاتم زيدا وفائدة مثل هذا النظم النهي عن الشيء الواحد مرتين مندرجا في العموم ومفردا بالخصوص وهو أولى من النهي عنه على الخصوص مرتين فإن ذلك معدود في خير التكرار وهذا لا يتكرر مع ما في التعميم من التعظيم والتهويل.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٥ الى ٦]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم

(١) أوضح التفاسير محمد عبد اللطيف الخطيب ص/٦٨٣

الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)." (١)

"الإعراب:

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم) كلام مستأنف مسوق لتسلية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وتوطينه على الصبر. وإذ مفعول لفعل محذوف تقديره اذكر وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها وموسى فاعل ولقومه متعلقان بقال، ولم اللام حرف جر وما اسم استفهام في محل جر باللام وقد تقدم السر في حذف الألف من ما الاستفهامية إذا سبقها حرف جر وتؤذونني فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل والنون للوقاية والياء مفعول به والواو حالية وقد حرف تحقيق وإن دخلت على المضارع وإنما عبر بالمضارع للدلالة على استصحاب الحال وتعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل وأني رسول الله أن واسمها وخبرها وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي تعلمون وإليكم متعلقان برسول وجملة وقد تعلمون إلخ في محل نصب حال. والمعنى أن من عظم الله عظم رسوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) الفاء عاطفة ولما رابطة أو حينية وزاغوا فعل وفاعل وجملة أزاغ الله قلوبهم لا محل لها والله مبتدأ وجملة لا يهدي القوم الظالمين خبر (وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم) الظرف مفعول بفعل محذوف تقديره اذكر وجملة قال في محل جر بإضافة الظرف إليها." (٢)

"نعيد إيرادهما. واحد رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وواحد رواه عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا. ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها. إذا حدث كذب. وإذ عاهد غدر. وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر» حيث يفيدان أن الأخلاق التي نددت بها الآيتان وقررت استحقاق صاحبها لمقت الله الشديد هي صفات المنافقين دون المؤمنين الصادقين المخلصين.

[سورة الصف (٦١) : الآيات ٥ الى ٩]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦) ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين (٧) يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٩)

. تعليق على الآية وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم والآيات الأربع التي بعدها وما

---

(١) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٧٨/١٠

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٧٩/١٠

فيها من تلقين وما في بشارة عيسى بنبوة النبي ومن وعد الله بإظهار دين الإسلام على الدين كله

لم نطلع على مناسبة خاصة لنزول الآيات. والمتبادر أنها متصلة بالآيات السابقة اتصال تعقيب واستطراد. ففي الآيات السابقة تنديد بالذين يقولون ما لا يفعلون. وإيذان لما في ذلك من موجبات غضب الله ومقته الشديدين.

فجاءت هذه الآيات:." (١)

"٦١ سورة الصف

بسم الله الرحمن الرحيم

[سورة الصف (٦١) : الآيات ١ الى ٥]

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤)

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

١- سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم:

سبح لله نزه الله عما لا يليق به.

وهو وحده.

العزيز الغالب على كل شيء.

الحكيم ذو الحكمة البالغة.

٢- يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون:

لم تقولون بألسنتكم.

ما لا تفعلون ما لا تصدقه أفعالكم.

٣- كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون:

كبر مقتا عند الله كره الله كرها شديدا.

٤- إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص:

في سبيله أي فى سبيل إعلاء كلمته.

صفا متماسكين.

مرصوص محكم.

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٨/٥٦٠

٥- وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين:

وإذ واذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم حين.." (١)

"بة ١٢٦ فزادتهم رجسا زادوكم زادوهم زدناهم بة ٤٨ ما زادوكم إلا خبالا هد ١٠٢ وما زادوهم غير تثبيت حر ٦ فزادوهم رهقا نح ٨٨ زدناهم عذابا سر ٩٧ كلما خبت زدناهم سعيرا كه ١٣ وزدناهم هدى يزيد يزيدن تزد أزيد سر ٨٢ ولا يزيد الظالمين إلا فط ١ يزيد فى الخلق ما يشاء مر ٧٧ ويزيد الله الذين فط ٣٩ ولا يزيد الكافرين كفرهم- ولا يزيد الكافرين ما ٦٧ و ٧١ وليزيدن كثيرا ح ٢٤ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا- ٢٨ ولا تزد الظالمين إلا تبارا مد ١٥ ثم يطمع أن أزيد يزيدون نزيد نزد صا ١٤٧ مائة ألف أو يزيدون بق ٥٨ وسنزيد المحسنين (عف ١٦٠) شو ٢٠ نزد له فى حرثه- ٢٣ نزد له فيها حسنا يزده يزدكم ح ٢١ واتبعوا من لم يزده ماله هد ٥٢ ويزدكم قوة إلى قوتكم يزيدهم يزدهم نسا ١٧٢ ويزيدهم من فضله (شو ٢٦) سر ٤١ وما يزيدهم إلا نفورا- ٦٠ فما يزيدهم إلا طغيانا- ١٠٩ يبكون ويزيدهم خشوعا ور ٣٨ ويزيدهم من فضله (فط ٣٠) ح ٦ فلم يزدهم دعائى إلا أزيدنكم تزيدوننى نزيدكم ابر ٧ لئن شكرتم لأزيدنكم هد ٦٣ فما تزيدوننى غير تخسير عم ٣٠ فإن نزيدكم إلا عذابا زد زدنى زده مل ٤ أو زد عليه طه ١١٤ وقل ربى زدنى علما ص ٦٠ فزده عذابا ضعفا ازدادوا يزداد تزداد عمر ٩٠ ثم ازدادوا كفرا (نسا ١٣٦) كه ٢٥ وازدادوا تسعا مد ٣١ ويزداد الذين ءامنوا عد ٩ الأرحام وما تزداد يزدادوا نزداد عمر ١٧٨ ليزدادوا إثما فتح ٤ ليزدادوا إيمانا سف ٦٥ ونزداد كيل بعير زيادة مزيد بة ٣٨ زيادة فى الكفر يو ٢٦ الحسنى وزيادة ق ٣٥ ولدينا مزيد- ٣٠ وتقول هل من مزيد زيغ زاغ زاغت نجم ١٧ ما زاغ البصر حب ١٠ وإذا زاغت الأبصار ص ٦٢ أم زاغت عنهم الأبصار زاغوا أزاغ يزيغ صف **٥ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم بة ١١٨ كاد يزيغ قلوب فريق يزغ تزغ زيغ سب ١٢ ومن يزغ منهم عن أمرنا عمر ٨ ربنا لا تزغ قلوبنا- ٧ الذين فى قلوبهم زيغ زيل زلتم يزال تزال مم ٣٤ فما زلتم فى شك بة ١١١ لا يزال بنيانهم الذى عد ٣٣ ولا يزال الذين كفروا (حج ٥٤) ما ١٤ ولا تزال تطلع." (٢)

"(زيغ) : الزيغ الميل عن الاستقامة والتزايغ التمايل ورجل زائغ وقوم زاغة وزائغون وزاغت الشمس وزاغ البصر وإذ زاغت الأبصار يصح أن يكون إشارة إلى ما يداخلهم من الخوف حتى أظلمت أبصارهم ويصح أن يكون إشارة إلى ما قال: يرونهم مثليهم رأي العين وقال: ما زاغ البصر وما طغى - من بعد ما كاد **يزيغ- فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم لما فارقوا الاستقامة عاملهم بذلك.

(زال) : زال الشيء يزول زوالا: فارق طريقته جانحا عنه وقيل أزلته وزولته، قال: أن تزولا- ولئن زالتا- لتزول منه الجبال والزوال يقال فى شيء قد كان ثابتا قيل فإن قيل قد قالوا زوال الشمس. ومعلوم أن لا ثبات للشمس بوجه، قيل إن ذلك قالوه لاعتقادهم فى الظهيرة أن لها ثباتا فى كبد السماء ولهذا قالوا قام قائم الظهيرة وسار النهار. وقيل زاله يزيله زيلا قال

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ١١/٣٢٠

(٢) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٧/٢٠٩

الشاعر:

زال زوالها

أي أذهب الله حركتها، والزوال التصرف وقيل هو نحو قولهم أسكت الله نأمته، وقال الشاعر:

إذا ما رأتنا زال منها زويلها

ومن قال زال لا يتعدى قال زوالها نصب على المصدر، وتزيلوا تفرقوا، قال: فزيلنا بينهم وذلك على التكثير فيمن قال زلت متعد نحو مزته وميزته، وقولهم ما زال ولا يزال خصا بالعبارة وأجرى مجرى كان فى رفع الاسم ونصب الخبر وأصله من الياء لقولهم زيلت ومعناه معنى ما برحت وعلى ذلك:

ولا يزالون مختلفين وقوله: لا يزال بنيانهم- ولا يزال الذين كفروا- فما زلتم في شك ولا يصح أن يقال ما زال زيد إلا منطلقا كما يقال ما كان زيد إلا منطلقا وذلك أن زال يقتضى معنى النفي إذ هو ضد الثبات وما ولا، يقتضيان النفي، والنفيان إذا اجتمعا اقتضيا الإثبات فصار قولهم ما زال يجرى مجرى كان فى كونه إثباتا فكما لا يقال كان زيد إلا منطلقا، لا يقال ما زال زيد إلا منطلقا.

(زين) : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان فى شيء من أحواله لا فى." (١)

"أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (١١) يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم (١٢) يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور (١٣)

٦١ - سورة الصف مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون (٢) كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون (٣) إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص (٤) وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥) وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما." (٢)

"يفرض عليهم، أن الوقت قد حان لتحقيق أمنيتهم، فما عليهم إلا أن يبادروا للتضحية والفداء: ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾.

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٢٤٥/٨

(٢) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٢١٤/٦

وأشار كتاب الله إلى موسى وعيسى عليهما السلام، ووقوف قومهما منهما موقف الزيغ والعناد: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وسجل كتاب الله بشارة عيسى لبني إسرائيل برسول يأتي من بعده، وبكون هذا الرسول سيحمل اسم " أحمد " وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ﴿ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾، كما تحدثت الآيات الكريمة عن الهدى ودين الحق المرسل بهما إلى العالمين.

ووجه كتاب الله الدعوة إلى المؤمنين ليكونوا أنصارا لله كما كان الحواريون أنصارا لله، وأمرهم بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم على ذلك بالفوز العظيم، وبنصر من الله وفتح قريب: ﴿وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين﴾.

وختم هذا الربع بوعد من الله لا يتخلف، عما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين من ظهور وانتشار، في مختلف القارات والأقطار، ﴿فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾.." (١)

"فالميل موجود عند قلوبهم أولا ثم بدأ الفكر يخضع للميل، والعبارة تخضع للفكر، وهكذا نرى أن الأصل في الميل قد جاء منهم. . ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] .

كأنه يقول: مادمتم تريدون الميل فسأميلكم اكثر وأساعدكم فيه. والحق سبحانه لا يبدأ إنسانا بأمر يناقض تكليفه، لكن الإنسان قد يميله هواه إلى الزيغ، فيتخلى الله عنه: ويدفعه إلى هاوية الزيغ.

وآية أخرى يقول فيها الحق: ﴿وإذا مآ أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧] .

إنهم الذين بدأوا؛ انصرفوا عن الله فصرف الله قلوبهم بعيدا عن الإيمان. وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أي يطلبون الفتنة، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون، وما داموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج، وما داموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين إذن، ومادامو غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير، لأن الإيمان يطلب من الإنسان أن يتجه فقط إلى الإيمان بالرب الإله الحكيم، ثم تأتي المعونة بعد ذلك من الله. لكن عندما لا يكون مؤمنا فكيف يطلب المعونة من الله، إنه سبحانه يقول:

(أنا أغنى الشركاء عن الشرك) .

إنهم يبتغون الفتنة بالمتشابه، ويبتغون تأويله، ومعنى التأويل هو الرجوع، لأننا نقول: «آل الشيء إلى كذا» أي رجع الشيء إلى كذا، فكأن شيئا يرجع إلى شيء، فمن لهم عقل لا زيغ فيه يحاولون جاهدين أن يؤولوا المتشابه ويردوه إلى المحكم، أو يؤمنوا به كما هو.." (٢)

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير محمد المكي الناصري ٢٢٥/٦

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١٢٧٩/٢

"حسير﴾ . [الملك: ٣، ٤] . ﴿والأرض وما طحاها﴾ يعني: الأرض وما سواها حتى كانت مستوية، وحتى كانت ليست لينة جدا، وليست قوية صلبة جدا، بل هي مناسبة للخلق على حسب ما تقوم به حوائجهم، وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى على عباده أن سوى لهم الأرض وجعلها بين اللين والخشونة إلا في مواضع لكن هذا القليل لا يحكم به على الكثير. ﴿ونفس وما سواها﴾ نفس هنا وإن كانت واحدة لكن المراد العموم. يعني كل نفس ﴿وما سواها﴾ يعني سواها خلقة وسواها فطرة، سواها خلقة حيث خلق كل شيء على الوجه الذي يناسبه ويناسب حاله. قال الله تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه﴾ أي خلقه المناسب له ﴿ثم هدى﴾ [طه: ٥٠] . أي: هداه لمصالحه، وكذلك سواه فطرة ولا سيما البشر فإن الله جعل فطرتهم هي الإخلاص والتوحيد كما قال تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ . [الروم: ٣٠] . ﴿فألهمها﴾ أي الله عز وجل ألهم هذه النفوس ﴿فجورها وتقواها﴾ بدأ بالفجور قبل التقوى مع أن التقوى لا شك أفضل، قالوا: مراعاة لفواصل الآيات. ﴿فجورها وتقواها﴾ الفجور هو ما يقابل التقوى، والتقوى طاعة الله، فالفجور معصية الله، فكل عاص فهو فاجر. وإن كان الفاجر خص عرفا بأنه من ليس بعفيف، لكن هو شرعا يعم كل من خرج عن طاعة الله كما قال تعالى: ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ [المطففين: ٧] . والمراد الكفار. وإلهامها تقواها هو الموافق للفطرة؛ لأن الفجور خارج عن الفطرة، لكن قد يلهمه الله بعض النفوس لانحرافها لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] . والله تعالى لا يظلم أحدا، لكن من علم منه أنه لا يريد الحق أزاغ الله قلبه.
﴿قد أفلح من زكاها﴾ ﴿قد أفلح﴾ أي: فاز بالمطلوب." (١)

"مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر» (١) .

﴿أولئك هم الراشدون﴾ . أولئك: المشار إليه من حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ﴿هم الراشدون﴾ يعني الذين سلكوا طريق الرشد، والرشد في الأصل: حسن التصرف، وهو في كل موضع بحسبه، فالرشد في المال أن يحسن الإنسان التصرف فيه، ولا يبذله في غير فائدة، والرشد في الدين: هو الاستقامة على دين الله - عز وجل - فهؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون، وهنا تجد هذه الأفعال كلها مضافة إلى الله، ولهذا قال بعدها: ﴿فضلا من الله﴾ يعني أن الله أفضل عليكم فضلا أي تفضلا منه، وليس بكسبكم، ولكنه من الله - عز وجل - ولكي يعلم أن الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته، وأعلم حيث يجعل الإيمان في الشخص، فمن علم الله منه حسن النية، وحسن القصد والإخلاص حبب إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، ومن لم يعلم الله منه ذلك فإن الله تعالى يقول: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ويقول الله - عز وجل -: ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ فالذنوب سبب للمخالفة والعصيان، فهؤلاء الذين تفضل الله عليهم وأنعم عليهم نعمة الدين هم الذين وفقوا للحق، قال الله - عز وجل -: ﴿فضلا من الله ونعمة﴾ يعني إنعاما

---

(١) تفسير العثيمين: جزء عم ابن عثيمين ص/٢٢٢

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ... (٢٣٣) (١٦) .." (١)

"هذا الذي قلنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ولكن احذر إذا رأيت ضالا أن تقول: هذا ليس أهلا للهداية؛ لأن هناك فرقا بين القول بالعموم، والقول بالتعيين، فالقول بالتعيين حرام؛ لأنك قد ترى شخصا ضالا وتقول: هذا لا يهتدي، وإذا به يهديه الله عز وجل، والعكس بالعكس، ربما ترى شخصا مستقيما تقول: هذا لا يمكن أن يضل، فإذا به يضله الله، فإياك أن تشهد على معين، لكن حقيقة أنك إذا رأيت ضالا متمردا مستكبرا عن الحق فإنك بقلبك تستبعد أن الله يهديه، لكن لا تقل: إن الله لا يهديه، ففي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لايزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر. فوجده يوما على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالما، أو كنت على ما في يدي قادرا، وقال للمذنب؟ اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار» .

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وأخراه (١) . وفي رواية مسلم: فقال الله تعالى: «من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحبطت عملك» (٢)

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي (٤٩٠١) .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى (٢٦٢١) .." (٢)

"من القوي والضعيف خير، وهذه الجملة يسميها علماء البلاغة جملة احترازية، لأنه لما قال: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف» يظن الظان أن المؤمن الضعيف ليس فيه خير، فقال: «وفي كل خير» .

ولها نظائر قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ يعني من قبل صلح الحديبية ﴿أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى﴾ كلا من هؤلاء وهؤلاء، يعني فلا تظنوا أن هذا التفاوت يحط من قدر الآخرين ويحرمهم الخير، وقال تعالى: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾ فهنا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» (١) فإذا فعلت ذلك حرصت على ما ينفع واستعنت بالله، وكنت حازما نشيطا وقويا في مرادك، إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد ابن عثيمين ص/٣١

(٢) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد ابن عثيمين ص/١١٩

يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان، أنت عليك أن تسعى للخير، وليس عليك أن يتم لك ما تريد، المهم أن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، فمن قدر الله له الهداية، ومن قدر له الشقاء فهو بقدر، ولكن السبب لتقدير الله الشقاء على العبد هو نفس العبد، لقول الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ .

---

(١) تقدم ص ٢٩٢.." (١)

"سورة الصف ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يبني إسرءيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ فلما جاءهم هذا الرسول الذي بشر به عيسى، قالوا: هذا سحر مبين، وكفروا به، فهم كفروا بعيسى وردوا بشارته وأنكروها، ولا يجوز لنا أبدا أن نقول أو نعتقد أن أديان اليهود والنصارى اليوم أديان صحيحة أبدا، بل هي أديان باطلة، غير مقبولة عند الله، كما قال الله - عز وجل -: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي ما أعد الله لهؤلاء المؤمنين بالله ورسله فضل الله في أنهم آمنوا بالله وآمنوا برسله واتبعوا الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أثيبوا بهذه الجنات، ﴿يؤتيه من يشاء﴾ المشيئة هنا مقترنة بالحكمة، يعني من كان أهلا للفضل آتاه الله الفضل، ومن لم يكن أهلا له لم يؤته، والدليل قول الله - تبارك وتعالى -: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ فلن يجعل رسالته إلا فيمن هو أهل لها، وقال الله - عز وجل - ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال - عز وجل -: ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون﴾ فلا تظن أن الله يعطي الفضل لمن شاء بدون سبب، لابد من سبب، فمتى
علم الله في قلب الإنسان خيرا آتاه الخير، قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ فأصلح قلبك فيما بينك وبين الله تجد الخير كله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ ، أي: صاحب الفضل العظيم - عز وجل -، فلا أحد أعظم منة من الله تعالى، أوجدك من." (٢)

"قوله: (بآيات ربه) الكونية والشرعية؛ الكونية أن يقال له: إن كسوف الشمس والقمر يخوف الله بهما عباده فيعرض عنها ويقول: أبدا خسوف القمر طبيعي، وكسوف الشمس طبيعي، ولا إنذار ولا نذير، وهذا إعراض، أما الآيات الشرعية فكثير من يذكر بآيات الله ويعرض عنها.

(ونسي ما قدمت يداه) يعني نسي ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي والاستكبار وغير ذلك مما يمنعه عن قبول الحق، لأن الإنسان والعياذ بالله كلما أوغل في المعاصي، ازداد بعدا عن الإقبال على الحق كما قال الله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (الصف: الآية٥) ، ولذلك يجب أن يعلم أن من أشد عقوبات الذنوب أن يعاقب الإنسان بمرض القلب والعياذ بالله،

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد ابن عثيمين ص/٢٩٣

(٢) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد ابن عثيمين ص/٤١١

فالإنسان إذا عوقب بهلاك حبيب أو فقد محبوب من المال، فهذه عقوبة لا شك، لكن إذا عوقب بانسلاخ القلب فهذه العقوبة أشد ما يكون. يقول ابن القيم:
(والله ما خوفي الذنوب فإنها لعلى طريق العفو والغفران) (وإنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي والقرآن) هذا هو الذي يخشاه الإنسان العاقل، أما المصائب الأخرى فهي كفارات وربما تزيد العبد إيمانا.

(إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا) أي صيرنا.

(على قلوبهم) أي قلوب من (ذكر بآيات ربه فأعرض) ، وأعيد ضمير الجمع على مفرد باعتبار المعنى؛ لأن "من" سواء كان اسما موصولا أو شرطية يجوز في عود الضمير." (١)

"مهما كان المنذر والداعي؛ لأنه لا يستفيد. قد ختم الله على قلبه.، كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] ، وقال تعالى: ﴿أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار﴾ [الزمر: ١٩] يعني هؤلاء لهم النار؛ انتهى أمرهم، ولا يمكن أن تنقذهم..

. ٣ ومنها: أن الإنسان إذا كان لا يشعر بالخوف عند الموعظة، ولا بالإقبال على الله تعالى فإن فيه شبها من الكفار الذين لا يتعظون بالمواعظ، ولا يؤمنون عند الدعوة إلى الله ...
٤ ومنها: أن محل الوعي القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ يعني لا يصل إليها الخير..

. ٥ ومنها: أن طرق الهدى إما بالسمع؛ وإما بالبصر: لأن الهدى قد يكون بالسمع، وقد يكون بالبصر؛ بالسمع فيما يقال؛ وبالبصر فيما يشاهد؛ وهكذا آيات الله عز وجل تكون مقروءة مسموعة؛ وتكون بينة مشهودة..

. ٦ ومنها: وعيد هؤلاء الكفار بالعذاب العظيم..

مسألة:.

إذا قال قائل: هل هذا الختم له سبب من عند أنفسهم، أو مجرد ابتلاء وامتحان من الله عز وجل؟

فالجواب: أن له سببا؛ كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وقال تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية (المائدة: ١٣)." (٢)

---

(١) تفسير العثيمين: الكهف ابن عثيمين ص/١٠٣
(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣٨/١

"الفوائد:

. ١ من فوائد الآية: أن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضا فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ لقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ ؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يرده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا﴾ [النساء: ١٣٧] ، وقال تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون﴾ [المنافقون: ٣] ..

. ٢ ومن فوائد الآية: أن أسباب إضلال الله العبد هو من العبد؛ لقوله تعالى: ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾ ؛ ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، وقوله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ [الأنعام: ١١٠] ، وقوله تعالى: ﴿فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ [المائدة: ٤٩] ...
٣ ومنها: أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله تعالى: ﴿فزادهم الله مرضا﴾ ؛ والزيادة لا تعقل إلا في مقابلة النقص؛ فكما أن الإيمان يزيد وينقص، كذلك الفسق يزيد، وينقص؛ والمرض يزيد، وينقص..

. ٤ ومنها: الوعيد الشديد للمنافقين؛ لقوله تعالى: (ولهم عذاب أليم)

. ٥ ومنها: أن العقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي أن الله." (١)

"٤ ومن فوائد الآيتين: أن الإيمان نور له تأثير حتى في قلب المنافق؛ لقوله تعالى: ﴿فلما أضاءت ما حوله﴾ : الإيمان أضاء بعض الشيء في قلوبهم؛ ولكن لما لم يكن على أسس لم يستقر؛ ولهذا قال تعالى في سورة المنافقين. وهي أوسع ما تحدث الله به عن المنافقين: ﴿ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾ [المنافقون: ٣] ..

. ٥ ومنها: أنه بعد أن ذهب هذا الضياء حلت الظلمة الشديدة؛ بل الظلمات..

. ٦ ومنها: أن الله تعالى جازاهم على حسب ما في قلوبهم: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ ، كأنه أخذه قهرا..

فإن قال قائل: أليس في هذا دليل على مذهب الجبرية؟

فالجواب: لا؛ لأن هذا الذي حصل من رب العباد عز وجل بسببهم؛ وتذكر دائما قول الله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] . حتى يتبين لك أن كل من وصفه الله بأنه أضله فإنما ذلك بسبب منه

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٤٤/١

. ٧ ومن فوائد الآيتين: تخلي الله عن المنافقين؛ لقوله تعالى: [وتركهم]

ويتفرع على ذلك: أن من تخلى الله عنه فهو هالك. ليس عنده نور، ولا هدى، ولا صلاح؛ لقوله تعالى: (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) .

٨ ومن فوائد الآيتين: أن هؤلاء المنافقين أصم الله تعالى آذانهم، فلا يسمعون الحق؛ ولو سمعوا ما انتفعوا؛ ويجوز أن ينفى الشيء لانتفاء الانتفاع به، كما في قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا." (١)

"مهتد؛ فكلمة: ﴿كثيرا﴾ لا تعني الأكثر؛ وعلى هذا لو قال إنسان: عندي لك دراهم كثيرة، وأعطاه ثلاثة لم يلزمه غيرها؛ لأن "كثير" يطلق على القليل، وعلى الأكثر..

. ١٠ ومن فوائد الآية: أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سببا في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ ؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ (الصف: ٥) ..

. ١١ ومنها: الرد على القدرية الذين قالوا: إن العبد مستقل بعمله. لا علاقة لإرادة الله تعالى به؛ لقوله تعالى: (وما يضل به إلا الفاسقين) ..

القرآن

) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) (البقرة: ٢٧)

التفسير:.

﴿٢٧﴾ قوله تعالى: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي العهد الذي بينهم وبين الله عز وجل؛ وهو الإيمان به، وبرسله؛ فإن هذا مأخوذ على كل إنسان؛ إذا جاء رسول بالآيات فإن الواجب على كل إنسان أن يؤمن به؛ فهؤلاء نقضوا عهد الله، ولم يؤمنوا به، وبرسله؛ والنقض حل الشيء بعد إبرامه؛ وقد بين الله عز وجل هذا العهد في قوله تعالى: ﴿ولقد." (٢)

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٦٥/١

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ١٠١/١

"لهم أعمالهم﴾ [النمل: ٤] ؛ وإما أن يكون الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ [النمل: ٢٤] ؛ ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن الله زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم أساءوا، كما يفيده قوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ؛ والتزيين من الله باعتبار التقدير؛ أما الذي باشر التزيين، ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان.

قوله تعالى: ﴿للذين كفروا﴾ ، وفي آية أخرى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة ... ﴾ [آل عمران: ١٤] إلخ؛ فإما أن نحمل «الناس» على ﴿الذين كفروا﴾ ، ونقول: هو عام أريد به الخاص؛ أو نقول: إن ذكر بعض ألفاظ العام لا يقتضي التخصيص؛ فيكون ﴿زين للناس﴾ عموما؛ وهنا ذكر الله تعالى تزيينه لبعض أفراد هذا الجنس وهم «الذين كفروا» .

قوله تعالى: ﴿الحياة الدنيا﴾ يعني ما فيها من الشهوات، والملذات؛ وقد بين الله ذلك بقوله تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ [آل عمران: ١٤] ؛ و ﴿الدنيا﴾ فعلى - يعني أنه اسم تفضيل مؤنث مأخوذة من الدنو الذي هو ضد العلو -؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لوجهين: الأول: دنو مرتبتها؛ الثاني: سبقها على الآخرة؛ فهي أدنى منها لقربها، ودنو منزلتها؛ أما قربها وهو سبقها على الآخرة فظاهر معلوم لكل أحد؛ وأما دنو مرتبتها فلقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما." (١)

"١٤ - ومن فوائد الآية: أن الحق لا تمكن المجادلة فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فبهت الذي كفر﴾ .

١٥ - ومنها: إثبات أن من جحد الله فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فبهت الذي كفر﴾ ؛ وهذه هي النكتة في الإظهار مقام الإضمار؛ لأجل أن نقول: كل من جادل كما جادل هذا الرجل فهو كافر.

١٦ - ومنها: الإشارة إلى أن محاجة هذا الرجل محاجة بباطل؛ لقوله تعالى: ﴿الذي كفر﴾ ؛ لأن الذين كفروا هم الذين يحاجون حجة باطلة؛ قال الله تعالى: ﴿ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾ [الكهف: ٥] .

١٧ - ومنها: الرد على القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ؛ لأنهم يقولون: إن الإنسان حر: يهتدي بنفسه، ويضل بنفسه؛ وهذه الآية واضحة في أن الهداية بيد الله.

١٨ - ومنها: التحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ؛ ومن الظلم أن يتبين لك الحق فتجادل لنصرة قولك؛ لأن العدل أن تنصاع للحق، وألا تكابر عند وضوحه؛ ولهذا ضل من ضل من أهل الكلام؛ لأنه تبين لهم

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣/٢١

الحق؛ ولكن جادلوا؛ فبقوا على ما هم عليه من ضلال.

١٩ – ومنها: أن الله لا يمنع فضله عن أحد إلا إذا كان هذا الممنوع هو السبب؛ لقوله تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ؛ فلظلمهم لم يهدهم الله؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] .

٢٠ – ومنها: أنه كلما كان الإنسان أظلم كان عن الهداية." (١)

"٥ – ومنها: إثبات المشيئة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿من يشاء﴾ .

٦ – ومنها: أن هداية الخلق بمشيئة الله؛ ولكن هذه المشيئة تابعة للحكمة؛ فمن كان أهلاً لها هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾ [الأنعام: ١٢٤] ؛ ومن لم يكن أهلاً للهداية لم يهده؛ لقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] ، ولقوله تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] .

٧ – ومنها: أن أعمال الإنسان لا تنصرف إلى غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وما تنفقوا من خير فلأنفسكم﴾ ؛ وليس في الآية دليل على منع أن يتصدق الإنسان بعمله على غيره؛ ولكنها تبين أن ما عمله الإنسان فهو حق له؛ ولهذا جاءت السنة صريحة بجواز الصدقة عن الميت، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي قال: «يا رسول الله، إن أمي أفتلتت نفسها وأراها لو تكلمت تصدقت أفأتصدق عنها؟ قال: نعم تصدق عنها» (١) ؛ وكذلك حديث سعد بن عبادة حين تصدق ببستانه لأمه (٢) ؛ إذاً فالآية لا تدل على منع الصدقة عن الغير؛ وإنما تدل على أن ما عمله الإنسان لا يصرف إلى غيره.

---

(١) أخرجه البخاري ص٢٢٢، كتاب الوصايا، باب ١٩: ما يستحب لمن توفي فجاءة أن يتصدقوا عنه، حديث رقم ٢٧٦٠؛ وأخرجه مسلم ص٨٣٦، كتاب الزكاة، باب ١٥: وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه، حديث رقم ٢٣٢٦ [٥١] ١٠٠٤؛ واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه البخاري ص٢٢١، كتاب الوصايا، باب ١٦: إذا قال: أرضي وبستاني صدقة الله، حديث رقم ٢٧٥٦.." (٢)

"وهذه الأقوال التي حكاها القرآن عنهم، تدل على أنهم قوم قد بلغوا أقصى درجات الجحود والعناد: فقلوبهم قد أغلقت عن إدراك الحق، وأسماعهم قد صمت عن سماعه، وأشخاصهم قد أبت الاقتراب من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يحمل لهم الخير والنور، وما حملهم على ذلك إلا اتباعهم للهوى والشيطان.

وصدق الله إذ **يقول: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين.

ثم لقن الله– تعالى– رسوله صلى الله عليه وسلم الجواب الذي يرد به عليهم فقال: قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٢٨٥/٣

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣٦٤/٣

إلهكم إله واحد.

أى: قل- أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الجاحدين: إنما أنا بشر مثلكم في الصفات البشرية أوجدنى الله- تعالى- بقدرته كما أوجدكم، وينتهى نسبي ونسبكم إلى آدم- عليه السلام- إلا أن الله- تعالى- قد اختصني بوحيه ورسالته- وهو أعلم حيث يجعل رسالته- وأمرني أن أبلغكم أن إلهكم وخالقكم.. هو إله واحد لا شريك له، فعليكم أن تخلصوا له العبادة والطاعة.

وقوله: فاستقيموا إليه واستغفروه أى: فالزموا الاستقامة في طريقكم إليه- تعالى- بالإيمان به وطاعته والإخلاص في عبادته.

وقوله- تعالى-:.. وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون تهديد لهم بسوء المصير إذا استمروا على عنادهم وشركهم.

والويل: لفظ دال على الشر أو الهلاك، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، والمراد به هنا:

الدعاء عليهم بالخزي والهلاك.

أى: فهلاك وخزي وعقاب شديد لهؤلاء المشركين، الذين لا يؤتون الزكاة، أى: لا يؤمنون بها، ولا يخرجونها إلى مستحقيها، ولا يعملون على تطهير أنفسهم بأدائها.. وفضلا عن كل ذلك فهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون.

قال ابن كثير: والمراد بالزكاة ها هنا: طهارة النفس من الأخلاق المرذولة..

وقال قتادة: يمنعون زكاة أموالهم، واختاره ابن جرير..

وفيه نظر، لأن إيجاب الزكاة إنما كان في السنة الثانية من الهجرة، وهذه الآية مكية. اللهم إلا أن يقال: لا يبعد أن يكون أصل الزكاة- وهو الصدقة- كان مأمورا به في ابتداء البعثة، كقوله- تعالى-: وآتوا حقه يوم حصاده فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين." (١)

"ثم ساق- سبحانه- جانبا مما قاله موسى- عليه السلام- لقومه. وكيف أنهم عند ما انصرفوا عن الحق، عاقبهم- سبحانه- بما يستحقون من عقاب فقال:

[سورة الصف (٦١) : آية ٥]

وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)

وموسى- عليه السلام- هو ابن عمران، وهو واحد من أولى العزم من الرسل، وينتهى نسبه إلى إبراهيم- عليه السلام-.

وقد أرسله الله- تعالى- إلى فرعون وقومه وإلى بنى إسرائيل، وقد لقى- عليه السلام- من الجميع أذى كثيرا.

ومن ذلك أن فرعون وقومه وصفوه بأنه ساحر، وبأنه مهين، ولا يكاد يبين.

وأن بنى إسرائيل قالوا له عند ما أمرهم بطاعته: سمعنا وعصينا، وقالوا له: أرنا الله جهرة وقالوا له: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة.. وقالوا له: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٢٧/١٢

وقالوا عنه: إنه مصاب في جسده بالأمراض، فبرأه الله- تعالى- مما قالوا.

قال ابن كثير: وفي هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر» .

وفيه نهى للمؤمنين عن أن ينالوا من النبي صلى الله عليه وسلم، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال- تعالى- يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا، وكان عند الله وجيها «١» .

أى: واذكر- أيها الرسول الكريم- وذكر أتباعك ليتعظوا ويعتبروا، وقت أن قال موسى- عليه السلام- لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم.

يا قوم لم تؤذونني: قال لهم: يا أهلى ويا عشيرتي لماذا تلحقون الأذى بي؟.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٣٥.." [١]

"«وقد» في قوله- تعالى-: وقد تعلمون أني رسول الله إليكم للتحقيق، والجملة حالية، وجيء بالمضارع بعد «قد» للدلالة على أن علمهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات.

قال الجمل: قوله: وقد تعلمون أني رسول الله إليكم قد للتحقيق. أى: تحقيق علمهم. أى: لا للتقريب ولا للتقليل، وفائدة ذكرها التأكيد، والمضارع بمعنى الماضي.

أى: وقد علمتم، وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب الحال، وعلى أنها مقررة للإنكار.

فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه، ويمنع إيذاءه لأن من عرف الله- تعالى- وعظمته، عظم رسوله «١» .

ثم بين- سبحانه- ما ترتب على إيثارهم الغي على الهدى، **فقال: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم.

والزيغ: هو الميل عن طريق الحق، يقال: زاغ يزيغ زيغا وزيغانا، إذا مال عن الجادة، وأزاغ فلان فلانا، إذا حوله عن طريق الخير إلى طريق الشر.

أى: فلما أصروا على الميل عن الحق مع علمهم به. واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ في قلوبهم ... أمال الله- تعالى- قلوبهم عن قبول الهدى. لإيثارهم الباطل على الحق، والضلالة على الهداية.

كما قال- تعالى-: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين، نوله ما تولى، ونصله جهنم وساءت مصيرا «٢» .

وقوله- سبحانه-: والله لا يهدي القوم الفاسقين تذييل قصد به التقرير لما قبله، من أن الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية، وبيان سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن من استحب العمى على الهدى، وأصر على ذلك.. كانت عاقبته الخسران.

أى: وقد اقتضت حكمة الله- تعالى- أن لا يهدى القوم الخارجين عن طريق الحق، إلى ما يسعدهم في حياتهم وبعد مماتهم، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء، وأصروا على سلوكها.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٥٦/١٤

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٣٦.

(٢) سورة النساء الآية ١١٥.." [١]

"أى فأقبل إبراهيم على الأصنام يضربها بيمينه، أو بقوة، أو بسبب اليمين التي حلفها.

ومن هذا النوع فواتح السور المبدوءة بحروف التهجي لأن التشابه والخفاء في المراد منها جاء من ناحية ألفاظها.

ومنه ما يرجع خفاؤه إلى المعنى، ومثاله كل ما جاء في القرآن وصفا الله- تعالى- أو لأهوال القيامة، أو لنعيم الجنة.. فإن العقل البشرى لا يمكن أن يحيط بحقائق صفات الخالق، ولا بأهوال يوم القيامة، ولا بنعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

ثم قال- رحمه الله- ويمكننا أن ننوع المتشابهات ثلاثة أنواع:

النوع الأول: مالا يستطيع البشر جميعا أن يصلوا إليه كالعلم بذات الله وحقائق صفاته، وكالعلم بوقت القيامة ونحوه مما استأثر الله بعلمه.

النوع الثاني: ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه عن طريق البحث والدرس، كالمتشابهات التي نشأ التشابه فيها من جهة الإجمال والبسط والترتيب. والأمثلة على ذلك كثيرة، فمثال التشابه بسبب الإجمال قوله- تعالى:

وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء.

فإن خفاء المراد فيه جاء من ناحية إيجازه. والأصل: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فانكحوا من غيرهن ما طاب لكم من النساء.

النوع الثالث: ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم ولذلك أمثلة كثيرة من المعاني العالية التي تفيض على قلوب أهل الصفاء والاجتهاد عند تدبرهم لكتاب الله» «١» .

ثم بين- سبحانه- موقف الذين في قلوبهم مرض وانحراف عن الحق من متشابه القرآن فقال: فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله فالجملة الكريمة تفصيل لإجمال اقتضاه الكلام السابق.

والزيغ- كما يقول القرطبي- الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، ويقال: زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد، ومنه قوله- **تعالى-: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم. وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران.

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن لفضيلة الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى ج ٢ ص ١٧٤.." [٢]

"أى: بعثنا في كل أمة من الأمم السابقة رسولا لهداية أبنائها فمن هؤلاء الأبناء من هداهم الله- تعالى- إلى الحق وإلى الصراط المستقيم. بأن وفقهم إليه، لانشراح صدورهم له، ومنهم من ثبتت وحقت عليه الضلالة، لاستحبابه العمى

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٥٧/١٤

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٩/٢

على الهدى.

وأسند- سبحانه- هداية بعض أفراد هذه الأمم إليه، مع أنه أمر جميعهم- على ألسنة رسله- بالدخول في طريق الهدى، للرد على المشركين الذين أحالوا شركهم وفسوقهم على مشيئة الله، إذ أن الله- تعالى- قد بين للناس جميعا طرق الخير وطرق الشر، فمنهم من استجاب للأولى، ومنهم من انحدر إلى الثانية، وكلاهما لم يقسره الله- تعالى- قسرا على الهدى أو الضلال. فاهتداء المهتدين إنما هو بسبب اختيارهم لذلك، واتباعهم الرسل، وضلال الضالين إنما هو بسبب استحواذ الشيطان عليهم.

وعبر- سبحانه- في جانب الضالين بقوله: ومنهم من حقت عليه الضلالة للإشارة إلى أنهم لم يستجيبوا لما أرشدهم- سبحانه- إليه، بل ظلوا ثابتين مصممين على البقاء في طريق **الضلالة، فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم، والله لا يهدي القوم الفاسقين «١» .

وقوله- سبحانه-: فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

تحريض لهم على التأمل في آثار المكذبين، لعلهم عن طريق هذا التأمل والتدبر يثوبون إلى رشدهم، ويعودون إلى صوابهم، ويدركون سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن العاقبة الطيبة للمتقين، والعاقبة السيئة للكافرين.

والفاء في قوله «فسيروا ... » للتفريع، وقد جيء بها للإشعار بوجوب المبادرة إلى التأمل والاعتبار.

أى: إن كنتم في شك مما أخبرناكم به، فسارعوا إلى السير في الأرض، لتروا بأعينكم آثار المجرمين، الذين كذبوا الرسل وأسندوا شركهم إلى مشيئة الله. لقد نزل بهؤلاء المكذبين عذاب الله، فدمرهم تدميرا وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون

«٢» .

ثم أخبر الله- تعالى- رسوله صلى الله عليه وسلم بأن حرصه على هداية المصرين على ضلالهم، لن يغير من واقع أمرهم شيئا، فقال- تعالى- إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ...

---

(١) سورة الصف الآية ٥.

(٢) سورة الصافات الآيتان ١٣٧، ١٣٨.." [(١)]

"الصَّلَاةِ وَالدُّعَاءِ، وَالذِّكْرِ وَالذَّبْحِ، وَكَمَا يُوَجَّهُ الْمُحْتَضَرُ وَالْمَدْفُونُ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ"وُجْهَةً"، وَالِاسْتِقْبَالُ خِلَافُ الِاسْتِدْبَارِ، فَالِاسْتِقْبَالُ بِالْوَجْهِ، وَالِاسْتِدْبَارُ بِالدُّبُرِ، فَأَمَّا مَا حَاذَاهُ الْإِنْسَانُ بِرَأْسِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ جَنْبِهِ فَهَذَا لَا يُسَمَّى"قِبْلَةً"، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، فَلَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ لَكَانَ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُوَجِّهَ الدَّاعِي وَجْهَهُ إِلَيْهَا، وَهَذَا لَمْ يُشْرَعْ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي تُرْفَعُ الْيَدُ إِلَيْهِ لَا يُسَمَّى"قِبْلَةً"، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، وَلِأَنَّ الْقِبْلَةَ فِي الدُّعَاءِ أَمْرٌ شَرْعِيٌّ تُتَّبَعُ فِيهِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ تَأْمُرِ الرُّسُلُ أَنَّ الدَّاعِيَ يَسْتَقْبِلُ السَّمَاءَ بِوَجْهِهِ، بَلْ نَهَوْا عَنْ ذَلِكَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ [التَّوَجُّهَ] (١) بِالْقَلْبِ، وَاللَّجْأُ وَالطَّلَبُ الَّذِي يَجِدُهُ الدَّاعِي مِنْ نَفْسِهِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ وَالْعَالِمُ

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ١٤٧/٨

وَالْجَاهِلُ، وَأَكْثَرُ مَا يَفْعَلُهُ الْمُضْطَرُّ وَالْمُسْتَغِيثُ بِاللَّهِ، كَمَا فُطِرَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ يَدْعُو اللَّهَ، مَعَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ مِمَّا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالتَّحْوِيلَ، كَمَا تَحَوَّلَتِ الْقِبْلَةُ مِنَ الصَّخْرَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَأَمْرُ [التَّوَجُّهِ] (٢) فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْجِهَةِ الْعُلْوِيَّةِ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَالْمُسْتَقْبِلُ لِلْكَعْبَةِ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ هُنَاكَ، بِخِلَافِ الدَّاعِي، فَإِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ، وَيَرْجُو الرَّحْمَةَ أَنْ تَنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ.

وَأَمَّا النَّقْضُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ فَمَا أَفْسَدَهُ مِنْ نَقْضٍ، فَإِنَّ وَاضِعَ الْجَبْهَةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ الْخُضُوعُ لِمَنْ فَوْقَهُ بِالذُّلِّ لَهُ، لَا بِأَنْ يَمِيلَ إِلَيْهِ إِذْ هُوَ تَحْتَهُ! هَذَا لَا يخطر في قلب ساجد. ولكن يُحْكَى عَنْ بِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ أَنَّهُ سُمِعَ وَهُوَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَسْفَلِ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَإِنَّ مَنْ أَفْضَى بِهِ النَّفْيُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ حَرِيٌّ أَنَ يَتَزَنْدَقَ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، وَبَعِيدٌ مِنْ مِثْلِهِ الصَّلَاحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (٣)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (٤). فَمَنْ لَمْ يَطْلُبْ الِاهْتِدَاءَ مِنْ مَظَانِّهِ يُعَاقَبْ

---

(١) في الأصل: (التوحيد). ولعل الصواب ما أثبتناه، كما في سائر النسخ. ن.

(٢) في الأصل: (التوحيد). ولعل الصواب ما أثبتناه، كما في سائر النسخ. ن.

(٣) سورة الأنعام آية ١١٠.

(٤) سورة الصف آية ٥.." [١]

"فَأَمَّا مَا حَاذَاهُ الْإِنْسَانُ بِرَأْسِهِ أَوْ يَدَيْهِ أَوْ جَنْبِهِ فَهَذَا لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، فَلَوْ كَانَتِ السَّمَاءُ قِبْلَةَ الدُّعَاءِ لَكَانَ الْمَشْرُوعُ أَنْ يُوَجِّهَ الدَّاعِي وَجْهَهُ إِلَيْهَا، وَهَذَا لَمْ يُشْرَعْ، وَالْمَوْضِعُ الَّذِي تُرْفَعُ الْيَدُ إِلَيْهِ لَا يُسَمَّى قِبْلَةً، لَا حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا، وَلِأَنَّ الْقِبْلَةَ فِي الدُّعَاءِ أَمْرٌ شرعي تتبع فِيهِ الشَّرَائِعُ، وَلَمْ تَأْمُرِ الرُّسُلُ أَنَّ الدَّاعِيَ يستقل السَّمَاءَ بِوَجْهِهِ، بَلْ نَهَوْا [عَنْ] ذَلِكَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوَجُّهَ بِالْقَلْبِ، وَاللَّجْأُ وَالطَّلَبُ الَّذِي يَجِدُهُ الدَّاعِي مِنْ نَفْسِهِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ، يَفْعَلُهُ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ وَالْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ، وَأَكْثَرُ مَا يَفْعَلُهُ الْمُضْطَرُّ وَالْمُسْتَغِيثُ بِاللَّهِ، كَمَا فُطِرَ عَلَى أَنَّهُ إِذَا مَسَّهُ الضُّرُّ يَدْعُو اللَّهَ، مَعَ أَنَّ أَمْرَ الْقِبْلَةِ مِمَّا يَقْبَلُ النَّسْخَ وَالتَّحْوِيلَ، كَمَا تَحَوَّلَتِ الْقِبْلَةُ مِنَ الصَّخْرَةِ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَأَمْرُ التَّوَجُّهِ فِي الدُّعَاءِ إِلَى الْجِهَةِ الْعُلْوِيَّةِ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ، وَالْمُسْتَقْبِلُ لِلْكَعْبَةِ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيْسَ هُنَاكَ، بِخِلَافِ الدَّاعِي، فَإِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى رَبِّهِ وَخَالِقِهِ، وَيَرْجُو الرَّحْمَةَ أَنْ تَنْزِلَ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَمَّا النَّقْضُ بِوَضْعِ الْجَبْهَةِ فَمَا أَفْسَدَهُ مِنْ نَقْضٍ، فَإِنَّ وَاضِعَ الْجَبْهَةِ إِنَّمَا قَصْدُهُ الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا أن يَمِيلَ إِلَيْهِ إِذْ هُوَ تَحْتَهُ! هَذَا لَا يَخْطُرُ فِي قَلْبِ سَاجِدٍ. لَكِنْ يُحْكَى عَنْ بِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ أَنَّهُ سُمِعَ وَهُوَ يَقُولُ [فِي سُجُودِهِ]: سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَسْفَلِ!! تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا، وَإِنَّ مَنْ أَفْضَى بِهِ النَّفْيُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ حَرِيٌّ أَنَ يَتَزَنْدَقَ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ، وَبَعِيدٌ مِنْ مِثْلِهِ الصَّلَاحُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الْأَنْعَامِ: ١١٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّفِّ: ٥]. فَمَنْ لَمْ يَطْلُبْ الِاهْتِدَاءَ مِنْ مَظَانِّهِ يُعَاقَبْ بِالْحِرْمَانِ. نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ.

---

(١) شرح الطحاوية – ط الأوقاف السعودية، ابن أبي العز ص/٢٧٢

وَقَوْلُهُ: وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الْإِحَاطَةِ خَلْقَهُ، أَيْ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَلَا رُؤْيَةً، وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الْإِحَاطَةِ، بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ.

قَوْلُهُ: "وَنَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا، إِيمَانًا وتصديقا وتسليما".

ش: قال [الله] تَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٦٤]. الْخُلَّةُ: كمال المحبة.." (١)

"أيها المسلمون: إن أعداء الإسلام يخططون الخطط لسلب أموالكم وإفساد دينكم والقضاء عليكم. قال تعالى: ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ (٢) إنه لمن المحزن أن أصبح السفر إلى بلاد الكفار موضع افتخار بعض المخدوعين من المسلمين فيفتخر أحدهم بأنه ابتعث أو سيبتعث إلى أمريكا أو أن له ولدا يدرس في أمريكا أو في لندن أو فرنسا إنه يفتخر بذلك بدون تفكير في العواقب أو تقدير للنتائج، وبعض المسلمين يسافرون بعوائلهم للمصيف هناك أو للسياحة بدون اعتبار لحكم الشرع في ذلك السفر هل يجوز أم لا؟ ثم ذهبوا هناك ذابت شخصيتهم فلبسوا لباس الكفار وتخلقوا#

بأخلاقهم حتى نساؤهم يخلعن لباس الستر ويلبسن لباس الكافرات. أيها المسلم: إن خطر السفر إلى بلاد الكفار عظيم وضرره جسيم وإن من سافر إلى تلك البلاد من غير ضرورة فهو حري بأن يعاقب وأن يصاب في دينه وزيغ قلبه إذا عرف الحق فتركه والباطل فارتكبه قال تعالى ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ سورة الصف آية ٥.

(١) سورة البقرة آية ١٢٠.

(٢) سورة النساء آية ٨٩.." (٢)

"ولكن العاقل هو الذي يسلم ويرضى بقضاء الله وقدره ، ويعلم أن ما وقع من حوادث او أمراض أو فقد محبوب هو من الأمور التي أرادَّها الله سبحانه وقدرها والتي لا راد لها ، فإذا علم ذلك اطمأن قلبه وارتاح فؤاده ، فلا يأسف على ما فات ؛ لأنه لو جَمَع الدنيا كلها واجتمع الخلق كلهم على أن يغيروا هذا الأمر ولو كان صغيراً لم يستطيعوا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي أراده وقدره .

ثم قال المؤلف رحمه الله : وقال تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ(وهذه هي الإرادة الكونية الشاملة التي هي بمعنى المشيئة ، فتشمل الخير والشر (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ(أي : ييسره له وينشطه ويفتح على قلبه، فإذا شرح الله صدره للإسلام استجاب وآمن واهتدى .

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً(وجعل الصدر ضيقاً حرجاً - شديد الضيق - وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه، إنما يكون بذنب العبد كإعراضه عن قبول الحق أو تكبره عليه

(١) شرح الطحاوية - ط دار السلام، ابن أبي العز ص/٢٩٣

(٢) تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، ١٣٢/١

كما قال تعالى عن الكفار : (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ((الصف: من الآية٥) وقال :(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ((لأنفال:٢٣) .

فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم العبد، لكنه سبحانه وتعالى يمنع عنه الهدى لظلم العبد نفسه، وهذا عدل منه تبارك وتعالى، ولو أنه تعالى أراد هداية الجميع لما وجد كافر أصلاً ولا عاص أبداً، لكنه لحكمة أرادها سبحانه

وروى ابن عمر أن بجريل عليه السلام قال للنبيُّ (: ما الإيمان ؟ قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره)) فقال جبريل : صدقت . انفرد مسلم بإخراجه .." [١]

"وقال شقيقه في الخوض بعلم الكلام والجدل في الدين : الرازي :

نهاية إقدام العقول عقال

(... وأكثر سعي العالمين ضلال

)

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ...

(... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول

عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن .

أقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ طه٥

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ فاطر١٠

واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١]

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه:١١٠]

ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي – انظر: ((الفتوى الحموية)): (ص٧) ، و ((سير أعلام النبلاء)) : (٢١/٥٠١) ، و ((طبقات الشفاعية)) : (٨/٩٦)–

وقد ضل أكثر من خاض في علم الكلام وما استطاعوا التخلص منه فالشبه خطافه ، ومن أراد التقرب إلى الله بهذا العلم لم يزدد من الله إلا بعدا . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

فإذا عرفت قبح علم الكلام ومضرته ، وأنه بدعة وضلالة ؛ فاعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة : هجر أهل الكلام والبدع ، ومنابذتهم ، والتحذير منهم ، والتنكيل بهم ، سواء كان المبتدع داعية إلى بدعته ،أو لم يكن داعية ، إلا أن الداعية أعظم حتى أنه إذا لم يندفع شره إلا بقتله جاز لإمام المسلمين قتله . فإذا كان قطاع الطريق إذا لم يندفع شرهم إلا بقتالهم جاز قتالهم ، فكيف بالمبتدع الذي ضرره على الإسلام والمسلمين أعظم من ضررهم !

---

(١) تيسير لمعة الاعتقاد، ص/٢١٣

واعلم أن ما يوسوس به بعض جند الشيطان من أهل هذا العصر على العامة وأشباههم من دعواهم أن مجانبة المبتدعة يوقع الشقاق والاختلاف بين الأمة وهي بحاجة إلى توحيد كلمتها . مخالف لهدي سيد المرسلين وصحابته الأكرمين .." (١)

"وكذلك لفظ [العقل] . وإن كان هو في الأصل : مصدر عَقَل يَعْقِل عَقْلاً، وكثير من النظار جعله من جنس العلوم . فلابد أن يعتبر مع ذلك أنه علم يعمل بموجبه، فلا يسمى عاقلاً إلا من عرف الخير فطلبه، والشر فتركه؛ ولهذا قال أصحاب النار : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠] ، وقال عن المنافقين : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر : ١٤] ، ومن فعل ما يعلم أنه يضره؛ فمثل هذا ما له عقل، فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته،وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه، وهذا هو الذي قصدنا بيانه أولا . ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ﴾ [الأعلى : ٩ : ١٢]

فأخبرَ أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر : ١٣] ، وقال : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٨] ؛ ولهذا قالوا في قوله : / ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ﴾ : سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ : إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة . وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره، فإن تذكر محبوباً طلبه، وإن تذكر مرهوباً هرب منه، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ ﴾ [يس : ١١] ، فنفى الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، فأَثْبَت لهم الإنذار من وجه، ونفاه عنهم من وجه؛ فإن الإنذار هو الإعلام بالمخوف،فالإنذار مثل التعليم والتخويف، فمن عَلَّمْتَه فتعلَّم فقد تم تعليمه، وآخر يقول : علَّمته فلم يتعلم . وكذلك من خوَّفته فخاف،فهذا هو الذي تم تخويفه . وأما من خُوِّف فما خاف، فلم يتم تخويفه . وكذلك من هديته فاهتدى، ثم هداه، ومنه قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] ، ومن هديته فلم يهتد . كما قال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] . فلم يتم هداه، كما تقول : قطعته فانقطع،وقطعته فما انقطع .

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاماً، والفعل إذا صادف محلاً قابلاً تم، وإلا لم يتم . والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه؛ ولهذا يسمى هذا العلم : الداعي، ويقال : الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد، وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها، فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة،و الفساد /يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعاً، كالممرور الذي يجد العسل مراً، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] .

---

(١) القول الرشيد في أهم أنواع التوحيد، ص/٤٢

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٥] ،وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٨٨] . و [الغلف] جمع أغلف، وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقلف، كأنهم جعلوا المانع خلقة، أي خلقت القلوب وعليها أغطية، فقال الله تعالى : ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ ﴾ و ﴿ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ ،وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ [محمد : ١٦] .." [(١)]

"أمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر كما فعل إبليس)).

(٢) وفي رواية أبي طالب عنه قال: قال الله تعالى: ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ ٣ فيدعون الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي.

____

١ سورة النور آية : ٦٣.

٢ البخاري : تفسير القرآن (٤٥٤٧) ، ومسلم : العلم (٢٦٦٥) ، والترمذي : تفسير القرآن (٢٩٩٤) ، وأبو داود : السنة (٤٥٩٨) ، وابن ماجه : المقدمة (٤٧) ، وأحمد (٤٨/٦، ١٢٤/٦، ١٣٢/٦، ٢٥٦/٦) ، والدارمي : المقدمة (١٤٥).

٣ سورة البقرة آية : ٢١٧.

ص -٢٨٠- لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)) (١) .

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه (٢) " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ": ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ ١ الآية. " فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم ".

....

(١) أي لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رد بعض قول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقع في قلبه شيء من الزيغ في ذلك، تنبيه منه -رحمه الله- أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ٢. وفي رواية الفضل عنه: وجعل يتلو:

---

(١) المفصل في شرح آية الولاء والبراء، ص/١٢٥

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ ٣ الآية. وإذا كان رفع الصوت فوق صوته سببا لحبوط العمل، فما." (١)

"فالهداية والإضلال بيد الله عز وجل . فالمؤمن اختصه الله بهذه النعمة الدينية دون الكافر والكافر خذله الله. والمعتزلة والقدرية أنكروا هذه المرتبة، وقالوا: الهداية والإضلال بيد العبد ، وتأولوا النصوص بقوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ قالوا معناه: يهدي أي يسميه مهتديا ويبين لهم طريق الصواب فسروها بهداية الدلالة والإرشاد. ويضل من يشاء قالوا: يسميه ضالا أو يحكم عليه بالإضلال بعد أن يخلق الضلال من نفسه، وهذا من أبطل الباطل.

القدرية يضربون مثلا في هذا، والله –تعالى– قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لكنهم يضربون مثلا يقولون: إن الله –تعالى– لم يهد أحدا ولم يضل أحدا، ولكن العبد هو الذي اختار الهداية بنفسه وخلق الهداية لنفسه، والكافر اختار الإضلال وخلق الإضلال لنفسه، واختار الإضلال لنفسه، والله –تعالى– لم يخص المؤمن بنعمة دينية ولم يخذل الكافر، وهذا مبني على شبهتهم السابقة.

وهو أن لو هدى هؤلاء وأضل هؤلاء لكان هذا جورا، والله عادل لا يجور، وسبق الجواب على هذه الشبهة، وأن الله له الحكمة البالغة فيما يقدره، وأن الله عاقبهم لما لم يستجيبوا للحق بعد ظهوره ووضوحه عاقبهم كما سبق في الآية ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ فلما بين لهم ما يتقون واتضح لهم الأمر فلم يقبلوه أضلهم الله عقوبة لهم ، وقال –سبحانه–: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال –سبحانه–: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠)﴾ .

فقالوا: مِثْلُ الله في ذلك مِثْلُ رجل له ابنان أعطى كل واحد منهما سيفا، وقال لهما جاهدا به في سبيل الله فالأول أطاع والده وجاهد به في سبيل الله والثاني عصى والده وجعل يستعرض رقاب المسلمين ويقتل المسلمين. هذا اختار طريق الحق، وهذا اختار طريق الضلال من نفسه ، هذا من نفسه وهذا من نفسه ، والله –تعالى– ما خص الأول بهداية ولا خص الثاني بالإضلال. وهذا من أبطل الباطل فمرتبة الهداية هداية التوفيق والتسليم هذه خاصة بالله عز وجل وهذه أنكرها المعتزلة والقدرية وهي خاصة بالله.

وأما الهداية الثانية –التي هي الدلالة والإرشاد– فهي حجة الله على خلقه، لا يعذب أحدا حتى يهديه هداية الدلالة والإرشاد كما سبق: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتينا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ .

والآيات والنصوص في بيانها كثيرة كقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَن اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧)﴾ .

والمرتبة الرابعة: الهداية إلى طريق الجنة والنار يوم القيامة، فالكفار يهديهم الله إلى النار، والمؤمنون يهديهم الله إلى الجنة، قال سبحانه وتعالى في الكفار: ﴿* احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣)﴾ الآية من سورة الصافات.

---

(١) حاشية كتاب التوحيد لابن قاسم، ٥/٣٩

وقال سبحانه في المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾ فهذه هداية بعد قتلهم يهديهم إلى طريق الجنة، ويصلح بالهم في إلغاء خصومهم وقبول أعمالهم، فهذه مراتب الهداية.

المرتبة الأولى الهداية العامة والمرتبة الرابعة ليس فيهما إشكال، إنما البحث في المرتبة الثانية، مرتبة الهداية الدلالة والإرشاد، وهداية التوفيق والتسديد، هذا محل النزاع والخلاف بينهم وبين أهل السنة.

أهل السنة يقسمون الهداية إلى قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهداية توفيق وإلهام.

والقدرية والمعتزلة ليس عندهم إلا هداية واحدة: هداية الدلالة والإرشاد. وهداية التوفيق يردونها إلى هداية البيان والإرشاد، وهذا من أبطل الباطل، وهذا مبني على أصلهم الفاسد وهو قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله قالوا: يجب على الله فعل الأصلح للعبد. وما دام يجب على الله فعل الأصلح للعبد قالوا: فلا يمكن أن يهدي الله أحدا ولا أن يضل أحدا.

وهذا أيضا مبني على أصلهم الآخر، وهو القول بأن أفعال العباد مخلوقة لهم، فالعباد هم الذين خلقوا الهداية والضلال، هم الذين يخلقون الطاعات والمعاصي، ولو خص الله أحدا بالهداية وخذل أحدا لكان ظالما، والله عدل لا يجور.

وكما سبق أن الله له حكمة بالغة -كما سبق- في بيان حكمة الله في تقدير الكفر والمعاصي وغيرها، وأن الذي ينسب إلى الله إنما هو الخلق، وهو مبني على الحكمة، والذي ينسب إلى العبد هو المباشرة والكسب.." (١)

"تفصيل أمراض القلوب

الكلام يتعلق بمرض القلب وصحته، ومناسبته أن هؤلاء المبتدعة ما أتوا إلا من زيغ القلوب، وما صرفوا عن الحق إلى بسبب مرضها.

ولا شك أن أسباب المرض كثيرة، ومنها تلقي الشبهات، فالله تعالى قد ذكر أن القلوب تمرض فقال تعالى: ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة:١٠].

فذكر المؤلف أن مرض القلوب نوعان: مرض شهوة ومرض شبهة، وقد ذكر الله مرض الشهوة في قوله تعالى: ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ [الأحزاب:٣٢]، هذا مرض الشهوة، وهو الذي يميل إلى الفواحش ويطمع في الأجنبية إذا خضعت بالقول، فلذلك قال: ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ [الأحزاب:٣٢]، ينهى نساء النبي عن هذا.

وأما مرض الشبهة فهو أشد، وهو الذي يصد القلب عن الحق، ومتى صد القلب عنه ابتلي بالباطل، وقد ذكر الله للقلوب أنواعا من الأمراض فمنها الطبع، قال تعالى حكاية عن اليهود: ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها ﴾ [النساء:١٥٥]، فالطبع عليها معناه: أنه ختم عليها بحيث لا يصل إليها الخير ولا تعرفه ولا تطمئن إليه، وهذا الطبع هو أشد الأمراض.

كذلك مرض ثان وهو الختم، وهو بمعنى الطبع، قال تعالى: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ [البقرة:٧]، وقال تعالى: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية - عبدالعزيز الراجحي، ص/٥٤

بصره غشاوة ﴾ [الجاثية:٢٣]، ومعلوم أن الختم هو تغطية الشيء بحيث لا يصل إليه شيء، كما في الظروف المختومة التي لا تصل إليها الأيدي، فالقلب الذي قد ختم عليه لا يصل إليه الخير ولا ينتبه للمواعظ ولا يتذكر، وسبب ذلك هو الشبهات.

وكذلك ذكر الله من أمراض القلوب: الزيغ، قال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥].

والزيغ معناه: الانحراف والميل، ولا شك أن سببه الشبهات والتشكيكات التي تجعل الحق عنده باطلا والباطل حقا، فيميل عن الحق إلى الباطل وذلك هو الزيغ، وقد ذكر الله أيضا أسبابه: فذكر من أسبابه أنهم زاغوا بأنفسهم فزادهم الله من ذلك: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥].

وذكر أيضا من أسبابه تتبع المتشابهات، فقال تعالى: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ [آل عمران:٧] إلى قوله عن الراسخين: ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [آل عمران:٨]، فالزيغ: معناه الانحراف والميل عن الاستقامة، وسببه هذه المعاصي والمخالفات.

وذكر الله أيضا من أمراض القلوب: القسوة، التي هي قسوة معنوية، بحيث إن القلب لا يصل إليه الخير ولا يلين، قال تعالى: ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ [الحديد:١٦].

فعابهم بأنهم قست قلوبهم، وأبعد القلوب من الله تعالى القلب القاسي، وهو الذي لا يلين لموعظة ولا يتأثر بتذكير ولا يقبل ذكرا، ولا يتأثر بتخويف، وتأتيه الإرشادات والنصائح وهو يصد عن كل ذلك صدودا، ولا يزيده ذلك الأمر إلا نفورا، وما ذاك إلا أنه ممتلئ من الانحراف وممتلئ من الشبهات، ولم يبق فيه محل للمواعظ ولا محل للاعتبار ولا لقبول الحق، فكان بذلك قلبا قاسيا لا يلين، وشبه بحجارة أو أشد من الحجارة.

وقد ذكر الله أيضا من أمراض القلوب: الران، الذي ذكره بقوله: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين:١٤]، والران أو الرين: هو الغطاء الذي يحجب القلب عن الاعتبار ويحجبه عن التذكر ولا يصل إليه الخير، ولا شك أن سببه كثرة الذنوب؛ فكلما كثرت الذنوب صارت أغلفة على القلب؛ غلافا فوق غلاف وغطاء فوق غطاء، إلى أن يشق اختراقها وتعسر تنقيتها وإزالتها! وأشد الأمراض كما ذكر بعض العلماء هو: الإقفال الذي ذكره الله بقوله: ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد:٢٤]، ولا شك أن القفل هو ما يغلق به الباب ويوصد ولا يمكن فتحه إلا بمفتاحه الذي صنع له، فالقلب إذا كان قد أقفل ولم يكن له ما يفتح به، فإنه يبقى محجوبا ومحجوزا لا يصل إليه خير.." (١)

"من أدلة علو الله: رفع الأيدي عند الدعاء إلى جهة السماء

يقول الشارح رحمه الله: [واعترض على الدليل الفطري: أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض، مع أنه ليس في جهة الأرض.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية - ابن جبرين، ٦/٣١

وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه: أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة الدعاء.

لم يقله أحد من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال: إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو إن له قبلتين؛ إحداهما: الكعبة، والأخرى السماء.

فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة: هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء، والذكر، والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون؛ ولذلك سميت (وجهة)، والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازا، فلو كانت السماء قبلة الدعاء، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة، لا حقيقة ولا مجازا، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهوا عن ذلك، ومعلوم أن التوجه بالقلب، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري، يفعله المسلم والكافر، والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل، كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة.

وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض! فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته! هذا لا يخطر في قلب ساجد.

لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا! وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال لحري أن يتزندق، إن لم يتداركه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام:١١٠] ، وقال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥] فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان، نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: (وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

أي: لا يحيطون به علما ولا رؤية، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء]..." (١)

"اختلاف التضاد

(١) شرح العقيدة الطحاوية - ابن جبرين، ٧/٣٤

تفرق أهل الخير بقوتهم وبسيطرتهم من مفاسد التحزب، الواجب عليهم كلهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، هذا هو الحكم فليس لنا إلا مرجع واحد، ونحن أمة واحدة كما أمرنا الله: ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ [الأنبياء:٩٢] فإذا كانت الأمة واحدة فليكن منهجها واحدا، وليتركوا هذه التحزبات والاختلافات، قد حصل هذا التفرق الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولكن لنعرف ما هو الحق وما هو الصواب من تلك الفرق، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن (هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) وأخبر بأن الذين تمسكوا بسنته وبما كان عليه أصحابه هم أهل النجاة، وما سواهم فإنهم أهل الهلاك، ولقد وقع هذا التفرق في الأمة فتفرقت وصاروا أحزابا وشيعا، وسموا بأسماء مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان، فهناك فرقة الرافضة، وهناك فرقة الجهمية، وهناك فرقة الجبرية، وفرقة المرجئة، وفرقة كذا وفرقة كذا من الفرق القديمة.

وهكذا أيضا الفرق الجديدة: فرقة الشيعة، وفرقة الإباضية مثلا، وفرقة البعثية، وفرقة الحداثية، وفرقة العلمانية، وأشباهها.

هؤلاء كلهم أو جلهم يقولون: نحن أهل الحق والصواب في جانبنا، ونحن على حق، وأنتم الذين خالفتمونا ضالون مضلون، وأشباه ذلك.

ولا شك أن هذا مصداق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن نقول: المرجع كتاب الله، هذا كتاب الله ينطق بيننا بالحق، فنجعله حكما ونترك ما سواه، ولا نتعصب لأقوالنا، فنرد ما خالف قولنا بأنواع من التكلفات كما تفعله الجهمية والجبرية ونحوهم.

ذلك لأن هؤلاء الذين خالفوا الحق قد أخبر الله تعالى بأنهم زائغون، يقول الله تعالى: ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [آل عمران:٧] فهؤلاء يتمسكون بظواهر لا دلالة فيها، ويتتبعون آيات ويقولون: إنها في جانبنا، وهي عليهم لو تأملوا؛ ولكنهم يأخذون منها جانبا ويتركون البقية، ويتركون الآيات الصريحة الواضحة الدلالة، التي تخالف منهجهم ومعتقدهم، ويسلطون عليها التأويلات، وكذلك يتركون صريح السنة وصحيحها، ويردونها بأنها لا تفيد إلا الظن، وبأنها آحاد، وبأنها وبأنها فيقعون في رد السنة، وفي رد الدليل الواضح من حيث لا يشعرون.

نقول: لا شك أن هذا الفعل فعل شنيع مستبشع، وهو أخذهم ببعض من الآيات وترك بعض الآيات، فهذا هو الذي سلكه أهل الزيغ الذين يتتبعون المتشابه منه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم) يعني: فأولئك هم الزائغون، لا شك أن زيغ القلوب من أشد الأمراض، يقول الله تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥]، والزيغ: هو الميل والانحراف يعني: أن في قلوبهم مرض، وفيها انحراف عن الحق وعن قبوله، فدل على أن مثل هؤلاء زائغون.

فمثلا الرافضة اليوم يقولون: نحن على الحق، ويتمسكون مثلا بحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ليردن علي أقوام، فإذا عرفتهم حيل بيني وبينهم، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك! إنهم لم يزالوا مرتدين منذ فارقتهم)

يستدلون بهذا الحديث على أن الصحابة كلهم ارتدوا، وأنهم لم يبق منهم أحد على الحق إلا علي وذريته، ويستدلون على فضيلته وأفضليته بحديث: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)، وبحديث: (من كنت مولاه ف علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) ويتركون الأحاديث الصريحة الصحيحة التي وردت في فضل الصحابة وفي فضائلهم وهي مشهورة، ويتركون أيضا الآيات الواضحة التي تنص على فضائلهم، وعلى مدائحهم، فيتركون الصحيح الواضح ويتمسكون بأشياء لا دلالة فيها.

ونقول لهم: هذا الحديث يختص بأهل الردة الذين ارتدوا وماتوا وهم مرتدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وقاتلهم أبو بكر ، وقاتلهم علي ، وقاتلهم الخلفاء، أما هؤلاء الخلفاء فلم يغيروا بعد موته، بل تمسكوا بسنته غاية التمسك.

وأما قوله: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى) فالمراد القرابة والأخوة، لا أنه يفضل بهذا على غيره.

ومثلا الخوارج الذين يكفرون بالذنوب وبالسيئات، ويخرجون العاصي أو المذنب من الإسلام ويدخلونه في الكفر، ويستحلون دمه، ويخلدونه في النار إذا مات على ذلك، قد يتشبثون ببعض الأدلة وببعض الآيات في تخليد العصاة في النار كقوله: ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة:١٦٧]، ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ﴾ [المائدة:٣٧]، ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ [السجدة:٢٠]، وينكرون الشفاعة، وينكرون خروج العصاة من النار.

ويغفلون عن الآيات التي فيها مغفرة الله، وسعة رحمته وفضله، ويتركون الآيات الصريحة مثل قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء:٤٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ومثل قوله: ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر:٥٣]، ومثل أحاديث الشفاعة التي تعم كل من قال: لا إله إلا الله خالصا من قلبه، وأشباه ذلك.

ونقول لهم: الآيات التي ذكرتم خاصة بالكفار الذين كتب عليهم الخلود؛ وذلك لأن في أولها ذكر الكفر، وذكر الشرك، فهؤلاء هم الذين لا يخرجون من النار، وإذا أرادوا الخروج منها أعيدوا فيها، وأما الذين من أهل التوحيد ودخلوها عقوبة على ذنوب مؤقتة فإنهم يخرجون منها، إذا: فلا دلالة لكم فيما تمسكتم به من العمومات، بل الأدلة واضحة في أنكم خاطئون ومائلون وزائغون عن الحق والصواب.

كذلك مثلا المرجئة الذين يعتقدون أن المعاصي لا تضر، ويستدلون بآيات الوعد، ويتركون آيات الوعيد، فيستدلون بقوله: ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ [النساء:٤٠] ويقولون: إن الشرك يحبط الأعمال، فإذا كان الشرك يحبط الأعمال، فكذلك الإيمان يمحو السيئات، فلا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل.

ونقول لهم: هذا قياس فاسد، وذلك لأن الله توعد العصاة بأنواع من الوعيد، وجعل هذا الوعيد خاصا بأنهم يعذبون في النار على قدر ذنوبهم، فنحمل على ذلك الآيات التي تمسك بها الوعيدية.

وعلى كل حال: فإذا أردنا أن نجمع هؤلاء الخوارج وهؤلاء المرجئة والمعتزلة والأشعرية والكرامية والكلابية والخطابية وأشباههم من المبتدعة، وكذا الرافضة والزيدية والإمامية والشيعة وما أشبه ذلك، لا بد أنهم إذا تليت عليهم الأدلة الواضحة لم يستطيعوا أن ينفصلوا عنها.

وكذلك نقول للمخالفين في هذا العصر وفي هذه الأيام؛ الذين تمذهبوا وتحزبوا نقول: لا شك أن خلافاتكم هذه صريحة في مخالفة الحق والصواب، إذا رجعتم إلى كتاب الله وسنة رسوله وجدتم أنها تقدح في معتقدكم، وأن الأدلة ترد أقوالكم، وتنص على خلاف ما تقولونه، وأنكم متى فضلتم رأيا أو نظرا أو ميلا فقد أبطلتم الأدلة، وعدلتم عن السنة، وفضلتم اتباع الأهواء والشهوات، وملتم إلى ما تمليه عليكم نفوسكم، فأصبحتم بذلك مخالفين لدينكم الذي تنتمون إليه، وهو دين الإسلام، وأصبحتم بذلك خارقين لإجماع الأمة في أن المرجع إلى كتاب الله.

ولكن هؤلاء الذين خالفوا في هذه الأزمنة، وهؤلاء الذين تمذهبوا بهذه المذاهب الجديدة، في الغالب أن انتماءهم إلى الإسلام مجرد انتماء لا حقيقة له، وإلا فلو نظرنا في مناهجهم التي يسلكونها لوجدناها تخالف الإسلام، تخالفه مخالفة كلية.

فهذا ما يتعلق بأحد النوعين من الاختلاف، وهو اختلاف التضاد الذي كل واحد من الصنفين يضلل الآخر ويبدعه، وهو مثل الاختلاف الذي وقع بين اليهود والنصارى، حتى اختلفوا اختلاف تضاد، حكى الله عنهم هذا الاختلاف بقوله: ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴾ [البقرة:١١٣].

فكذلك هؤلاء المختلفون فإن اختلافهم أيضا اختلاف تضاد، كل منهم يدعي الحق في جانبه.

فالخوارج يقولون مثلا: ليست الجبرية على شيء، وكذا يقول المجبرة.

والأشاعرة يقولون: ليست المعتزلة على شيء، وكذا تقول المعتزلة.

وأهل السنة يقولون في الجميع: لستم على شيء، وكذلك أهل السنة مع الرافضة، كل منهم يقول: إنكم لستم على شيء، هؤلاء يقولون: الحق معنا وأنتم ضالون خاطئون، وهؤلاء يقولون كذلك أيضا.

وكذلك الفرق التي حدثت في هذه الأزمان، وتسمت بأسماء جديدة، كل فرقة تجعل الحق في جانبها، وتفضل نفسها على الأخرى، وتقدح فيما يتمسك به الآخرون.

ولكن المرجع واحد، فإذا رجعنا إلى الأصل الذي هو الشريعة الإسلامية، وتركنا ما سواهما، عرفنا أن الحق واحد لا يتعدد، وحينئذ نقول: ليس لمن خالفه عذر، بل هو ملوم، وليس بمصيب، خلافا للمعتزلة الذين جعلوا الاجتهاد يتعدد، والحق في جانب كل من المجتهدين وقالوا: إن كل مجتهد مصيب، ونحن نقول: الاجتهاد له حدود، ثم أيضا النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن المجتهد واحد، والمصيب واحد، والمجتهد المخطئ معذور إذا أخطأ، وله أجر على اجتهاده، وخطؤه معفو عنه.

وهذا إذا كان الاجتهاد له مجال، وأما الذين قامت عليهم الحجة." (١)

" قوله : (وهو مستغن عن العرش وما دونه محيط بكل شيء وفوقه وقد أعجز عن الاحاطة خلقه)

(١) شرح العقيدة الطحاوية - ابن جبرين، ١١/٩٨

ش : أما قوله : وهو مستغن عن العرش وما دونه فقال تعالى : ﴿ إن الله لغني عن العالمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا لأنه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ليبين أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويا للعالي محيطا به حاملا له [ولا] أن يكون الأعلى مفتقرا إليه فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك بل لوازم علوه من خصائصه وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل وإحاطته عز و جل به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به وحصره للعرش وعدم حصر العرش له وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق

ونفاة العلو [أهل التعطيل] لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ولسلكوا خلف الدليل ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وغيرها : كيف استوى ؟ فقال الاستواء معلوم والكيف مجهول ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا إلى النبي صلى الله عليه و سلم

وأما قوله : محيط بكل شيء وفوقه وفي بعض النسخ : محيط بكل شيء فوقه [بحذف الواو] من قوله : فوقه والنسخة الأولى هي الصحيحة ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء ومعنى الثانية : أنه محيط بكل شيء فوق العرش وهذه – والله أعلم – إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهوا ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصدا للفساد وإنكار لصفة الفوقية ! وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات فلا يبقى لقوله : محيط – بمعنى : محيط بكل شيء فوق العرش والحالة هذه : معنى ! إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحيط به فتعين ثبوت الواو ويكون المعنى : أنه سبحانه محيط بكل شيء وفوق كل شيء

أما كونه محيطا بكل شيء فقال تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ ﴿ ولله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا ﴾ وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وإنما المراد : إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن – إلا كخردلة في يد أحدكم ومن المعلوم – ولله المثل الأعلى – أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها وإن شاء جعلها تحته وهو في الحالين مباين لها عال عليها فوقها من جميع الوجوه فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيامة فإنه لا يتجدد به إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سماواته ؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه ؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره وفي [حديث أبي رزين المشهور الذي رواه عن النبي صلى الله عليه و سلم في رؤية الرب تعالى : فقال له أبو رزين : كيف يسعنا – يا رسول الله – وهو واحد ونحن

جميع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله : هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به والله أكبر من ذلك وإذا أفل تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء] فهذا يزيل كل إشكال ويبطل كل خيال

وأما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ [وقال صلى الله عليه و سلم في حديث الأوعال المتقدم ذكره : والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك كله] وقد أنشد عبد الله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي صلى الله عليه و سلم وأقره على ما قال : وضحك منه وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله عنه قوله :

(شهدت بإذن الله أن محمدا ... رسول الذي فوق السماوات من عل)

(وأن أبا يحيى ويحيى كلاهما ... له عمل من ربه متقبل)

(وأن الذي عادى اليهود ابن مريم ... رسول أتى من عند ذي العرش مرسل)

(وأنا أخا الأحقاف إذ قام فيهم ... يجاهد في ذات الإله ويعدل)

[فقال النبي صلى الله عليه و سلم : وأنا أشهد] [وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال : لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي] وفي رواية : [تغلب غضبي] رواه البخاري وغيره [وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه قال : بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا إليه رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه] [وروى مسلم عن النبي صلى الله عليه و سلم في تفسير قوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ بقوله : أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء] والمراد بالظهور هنا : العلو ومنه قوله تعالى : ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ أي يعلوه فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته واسمان لعلوه وقربه [وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال : أتى رسول الله صلى الله عليه و سلم أعرابي فقال : يا رسول الله جهدت الأنفس [وضاعت العيال] ونهكت الأموال [وهلكت الأنعام] فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ويحك ! أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله صلى الله عليه و سلم فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال : ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك ويحك ! أتدري ما الله ؟ إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سماواته وقال بأصابعه ! مثل القبة [عليه] وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب] [وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم فقال النبي صلى الله عليه و سلم : لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات] وهو حديث صحيح أخرجه الأموي في مغازيه وأصله في الصحيحين وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها أنها كانت تفخر على أزواج النبي صلى الله عليه و سلم وتقول : زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات وعن عمر رضي الله عنه : أنه مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها فقال رجل : يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه العجوز ؟ فقال : ويلك ! أتدري من هذه ؟ أمرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات هذه خولة التي أنزل الله فيها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في

زوجها وتشتكي إلى الله ﴾ أخرجه الدارمي وروى عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ قال : ولم يستطع أن يقول من فوقهم لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم

ومن سمع أحاديث الرسول صلى الله عليه و سلم وكلام السلف وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفا بضد ذلك لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده وضد الفوقية : السفول وهو مذموم على الإطلاق لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده

فإن قيل : لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها قيل : لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وأنه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنيا فقط بل وجوده خارج الأذهان قطعا وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو : إما داخل العالم وإما خارج عنه وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه وأوضح وأبين وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصا ولا يوجب محذورا ولا يخالف كتابا ولا سنة ولا إجماعا فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلا فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله – : إلا بذلك ؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر [المستقيمة] والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعا : أحدها : التصريح بالفوقية مقرونا بأداة : من المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة كقوله تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ الثالث : التصريح بالعروج إليه نحو : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ [وقوله صلى الله عليه و سلم : يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم] الرابع : التصريح بالصعود إليه كقوله تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ الخامس : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه كقوله تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ وقوله : ﴿ إني متوفيك ورافعك إلي ﴾ السادس : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وشرفا كقوله تعالى : ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ ﴿ الله عليم حكيم ﴾ السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه كقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ﴿ حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين ﴾ الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده وأن بعضها أقرب إليه من بعض كقوله : ﴿ إن الذين عند ربك ﴾ ﴿ وله من في السماوات والأرض ومن عنده ﴾ ففرق بين من له عموما وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصا [وقول النبي صلى الله عليه و سلم في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه : أنه عنده فوق العرش] التاسع : التصريح بأنه تعالى في السماء وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين : إما أن تكون في بمعنى على وإما أن يراد بالسماء العلو لا يختلفون في ذلك ولا يجوز الحمل على غيره العاشر : التصريح بالاستواء مقرونا بأداة على مختصا بالعرش الذي هو أعلى

المخلوقات مصاحبا في الأكثر لأداة : ثم الدالة على الترتيب والمهلة الحادي عشر : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى [كقوله صلى الله عليه و سلم : إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا] والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة وهذا يجده من نفسه كل داع كما يأتي إن شاء الله تعالى الثاني عشر : التصريح بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل الثالث عشر : الإشارة إليه حسا إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الأعظم [الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم في المكان الأعظم قال لهم : [أنتم مسؤولون عني فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت] فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا : [اللهم أشهد] فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه : [اللهم أشهد] ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين وأدى رسالة ربه كما أمر ونصح أمته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين وحذلقة المتحذلقين ! والحمد لله رب العالمين الرابع عشر : التصريح بلفظ : الأين كقول أعلم الخلق به وأنصحهم لأمته وأفصحهم بيانا عن المعنى الصحيح بلفظ لا يوهم باطلا بوجه : [أين الله] في غير موضع الخامس عشر : شهادته صلى الله عليه و سلم لمن قال إن ربه في السماء - بالإيمان السادس عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات فقال : ﴿ يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب * أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ﴾ فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن أثبته فهو موسوي محمدي السابع عشر : إخباره صلى الله عليه و سلم : أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار الثامن عشر : النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة وإخبار النبي صلى الله عليه و سلم أنهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه إلا من فوقهم [كما قال صلى الله عليه و سلم : بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم] رواه الإمام أحمد في المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية ولهذا طرد الجهمية الشقين وصدق أهل السنة بالأمرين معا وأقروا بهما وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله ! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك !

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جدا : فمنه : ما روى شيخ الإسلام أبو اسماعيل الأنصاري في كتابه الفاروق بسنده إلى مطيع البلخي : أنه سأل أبا حنيفة عمن قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض ؟ فقال : قد كفر لأن الله يقول : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وعرشه فوق سبع سماواته قلت : فإن قال : إنه على العرش ولكن يقول : لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر لأنه أنكر أنه في السماء فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر وزاد غيره : لأن الله في أعلى عليين وهو يدعى من أعلى لا من أسفل انتهى ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته وقد ينتسب إلى مالك و

الشافعي و أحمد من يخالفهم في [بعض] اعتقاداتهم وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز و جل فوق العرش – : مشهورة رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره

ومن تأول فوق بأنه خير من عباده وأفضل منهم وأنه خير من العرش وأفضل منه كما يقال : الأمير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم – : فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة ! فإن قول القائل [ابتداء] : الله خير من عباده وخير من عرشه : من جنس قوله : الثلج بارد والنار حارة والشمس أضوأ من السراج والسماء أعلى من سقف الدار والجبل أثقل من الحصى ورسول الله أفضل من فلان اليهود [ي] والسماء فوق الأرض ! ! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه ! فكيف يليق بكلام الله الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؟ ! بل في ذلك تنقص كما قيل في المثل السائر :

(ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا)

ولو قال قائل : الجوهر فوق قشر البصل وقشرالسمك ! لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك بأن كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ وقوله تعالى : ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ ﴿ والله خير وأبقى ﴾

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه فإن قالوا بل علو المكانة لا المكان ؟ فالمكانة : تأنيث المكان والمنزلة : تأنيث المنزل فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الأمكنة الجسمانية فإذا قيل : لك في قلوبنا منزلة ومنزلة فلان في قلوبنا وفي نفوسنا أعظم من منزلة فلان كما جاء في الأثر : إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه فإن الله ينزل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه فقوله : منزلة الله في قلبه : هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك فإذا عرف أن المكانة والمنزلة : تأنيث المكان والمنزل والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة إذا كان مطابقا كان حقا وإلا باطلا فإن قيل : المراد علوه في القلوب وأنه أعلى في القلوب من كل شيء قيل : وكذلك هو وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء فإن لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء كان علو في القلوب غير مطابق كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة أما ثبوته بالعقل فمن وجوه : أحدها : العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين إما أن يكون أحدهما ساريا في الآخر قائما به كالصفات وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر الثاني : أنه لما خلق العالم فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجا عن ذاته والأول باطل : أما أولا : فبالاتفاق وأما ثانيا : فلأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا والثاني يقتضي كون العلم واقعا خارج ذاته فيكون منفصلا فتعينت المباينة لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه – غير معقول الثالث : أن

كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه - : يقتضي [نفي] وجوده بالكلية لأنه غير معقول : فيكون موجودا إما داخله وإما خارجه والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة

وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول : كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ! فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط : يا الله إلا وجد في قلبه ضرورة طلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن أنفسنا ؟ قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل ! وأظنه قال : وبكى ! وقال : حيرني الهمداني حيرني ! أراد الشيخ : أن هذا أمر فطر الله عليه عباده من غير أن يتلقوه من المرسلين يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه في

العلو

وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته لأنه أنكره جمهور العقلاء فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية ؟ والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة وهو أن يقال : إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم فإن كان قولنا باطلا في العقل فقولكم أبطل وإن كان قولكم حقا مقبولا في العقل فقولنا أولى أن يكون مقبولا في العقل فإن دعوى الضرورة مشتركة فإنا نقول : نعلم بالضرورة بطلان قولكم وأنتم تقولون كذلك فإذا قلتم : تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل ؟ قابلناكم بنظير قولكم وعامة فطر الناس - ليسوا منكم ولا منا - موافقون لنا على هذا فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولا ترجحنا عليكم وإن كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية وبطلت عقلياتنا أيضا وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم

فإن قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا ؟ قيل : ليس الأمر كذلك فإن الذين يصرحون [بأن] صانع العالم شيء موجود ليس فوق العالم وأنه لا مباين للعالم ولا حال في العالم - : طائفة من النظار وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام جهم ابن صفوان وأتباعه

واعترض على الدليل الفطري : أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء كما أن الكعبة قبلة للصلاة ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض ؟ وأجيب على هذا الإعتراض من وجوه :

أحدها : أن قولكم : إن السماء قبلة للدعاء - لم يقله أحد من سلف الأمة ولا أنزل الله به من سلطان وهذا من الأمور الشرعية الدينية فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها

الثاني : أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة فإنه يستحث للداعي أن يستقبل القبلة وكان النبي صلى الله عليه و سلم يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة أو أن له قبلتين : إحداهما الكعبة والأخرى السماء - : فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين

الثالث : أن القبلة : هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح وكما يوجه المحتضر والمدفون ولذلك سميت وجهة والإستقبال خلاف الإستدبار فالإستقبال بالوجه والإستدبار بالدبر فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازا فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها وهذا لم يشرع والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجازا ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقل السماء بوجهه بل نهوا [عن] ذلك ومعلوم أن التوجه بالقلب واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة وأمر التوجه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعي فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له لا أن يميل إليه إذ هو تحته ! هذا لا يخطر في قلب ساجد لكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول [في سجوده] : سبحان ربي الأسفل ! ! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال حري أن يتزندق إن لم يتداركه الله برحمته وبعيد من مثله الصلاح قال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ فمن لم يطلب الإهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان نسأل الله العفو والعافية

وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خلقه – أي لا يحيطون به علما ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة بل هو سبحانه محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء ." (١)

"ظهور البدع

قد تقول: إنه حدث في التابعين بدع! نقول: صحيح، ولكن أولئك المبتدعة الذين انتحلوا بدعا من التابعين لم يكونوا من تلامذة الصحابة غالبا، وإنما أخذوا بدعهم هذه عن أفكار سيئة وتأويلات بعيدة .

ومعلوم أن الخوارج الذين خرجوا في سنة ست وثلاثين من التابعين ؛ لأنهم من جيش علي رضي الله عنه، وأغلبهم من أهل العراق وكان فيها مجموعة كبيرة من الصحابة، ومع ذلك فإنهم خوارج، ولكن ليس فيهم مشهور بالعلم، وليس فيهم من تتلمذ تتلمذا صحيحا على الصحابة، وإنما قرؤوا القرآن، ولما قرؤوه ولم يقرؤوا تفسيره ولا معانيه أخذوا الآيات التي فيها عذاب فطبقوها على أهل زمانهم، فكان من عقيدتهم –كما سيأتي– أنهم يجعلون الذنب كفرا والعفو ذنبا، ولن نشتغل بهم، بل نقول: ولو كانوا من التابعين فإنهم ما قرؤوا العلم، ولا قرؤوا العقيدة الصحيحة حتى يكتبوا من حملة العلم، وإنما أخذوها من نظرياتهم ومن أفكارهم.

وكذلك أيضا القدرية الذين حدثوا في آخر عهد الصحابة وأدركهم ابن عمر رضي الله عنه لم يكونوا مشهورين بالتتلمذ على الصحابة، ولكن اعتقادهم إنما هو عن أفكار سيئة، وأغلبها بسبب سوء معرفتهم وسوء نظرهم في الآيات وحملها على

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص/٢٨٠

محامل بعيدة، فإن من عقيدتهم إنكار علم الله السابق، وأن الله لا يعلم الأشياء حتى تحدث، مثل غيلان القدري ، و معبد الجهني ، و عمرو بن عبيد ، فما عرف أنهم تتلمذوا على صحابي وأخذوا عنه العلم الصحيح، فعرف بذلك أن تلامذة الصحابة الذين تلقوا عنهم العلم الصحيح أصبحوا ورثة لهم، والعلماء ورثة الأنبياء، فأصبحوا مثالا لهم، وأن الذين أخذوا العلوم من أفكارهم حصل في قلوبهم زيغ ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥]، نعوذ بالله من زيغ القلوب، فهذا بغير شك دليل على أن العلم الصحيح الذي يؤخذ من معدنه يثبت في القلب، ويكون له آثار حسنة.

ولكن معلوم أنه في القرن الثاني بعد انقراض عهد الصحابة دخل في الإسلام بعض من لم يكونوا راغبين فيه، فكان من آثار دخولهم في الإسلام من غير صدق ويقين أن أثاروا كثيرا من الشبه، وأوقعوا كثيرا من الناس في الحيرة وشككوهم في عقائدهم ومبدأ أمرهم ومنتهاه، ونشروا بينهم شبهات الفلاسفة والمنجمين والزنادقة والملاحدة ونحوهم، فكلما أثاروا تلك الشبهات فيما بينهم انخدع بها الكثير، فلما رأى السلف رحمهم الله من تلامذة الصحابة وتلامذة التابعين هذه الآثار في هؤلاء المنحرفين لم يجدوا بدا من أن يصدعوا بالسنة ويظهروا أمر العقيدة ويصرحوا للناس بما هم عليه حتى يعرف جماهير الناس العقيدة السليمة فيتمسكوا بها، ويعلموا أن ما خالفها بدعة ونحلة سيئة.." (١)

"قال الله –تعالى–: ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (١)

ص١٧٩

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به في غير موضع من كتابه أنه على كل شيء قدير، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر"(٢).

"فعند أهل السنة أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئا باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه، وأمثال ذلك"(٣).

ص١٨٠

قال: " باب مقلب القلوب" وقول الله تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ (٤).

قال الراغب: " تقليب الشيء: تغييره من حال إلى حال، والتقليب: التصرف، وتقليب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي "(٥).

قال ابن عباس: " لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، وردت عن كل أمر "(٦).

وقال مجاهد: "ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة"(٧).

قال الحافظ: " المراد بتقليب القلوب: تقليب أعراضها، وأحوالها، لا تقليب ذات القلب"(٨).

أخبر –تعالى– أنه يعاقب من لا يقبل الحق، أو يرده أول ما يبلغه بتقليب القلب، وتركه يعمه في ضلاله وغيه، كما في هذه الآية المذكورة في الباب، وكما في قوله –تعالى–: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (٩)، وفي هذا بيان أن الله –تعالى– إذا منع

---

(١) شرح كتاب اعتقاد أهل السنة لابن جبرين، ٨/١

فضله الإنسان، بالهداية، أنه يكون منحرفا ضالا.

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الأنعام.

(٢) "منهاج السنة" (١١٨/٢-١٢٢) ملخصا ببعض التصرف .

(٣) المصدر السابق (٢١٣/١).

(٤) الآية ١١٠ من سورة الأنعام.

(٥) "المفردات" (ص٤١١).

(٦) رواه الطبري ، انظر :" التفسير" (٤١/١٢،٤٣).

(٧) المصدر نفسه (٤٤/١٢).

(٨) "الفتح" (٥٢٧/١١).

(٩) الآية ٥ من سورة الصف .." [1]

"أو سوء اتجاه يكون فتنة له، وهذا الذي يشير إليه قوله جل وعلا: منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله [آل عمران:٧] فهم يبحثون عن الشيء الذي يتفق مع أهوائهم، ومع مناهجهم ومقاصدهم، بغض النظر عن مراد المتكلم، ولو كانوا يريدون مراد المتكلم لكان الأمر واضحا جليا؛ لأن هناك آيات واضحات تبين هذا، إذا أرجعت إليها زال الإشكال نهائيا، وأصبح لا يوجد إشكال. والواجب على العبد أن يتخلى من هوى النفس، ومن الأغراض التي تكون على خلاف مراد الرب جل وعلا أو مراد رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن هذا يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى توفيق من الله جل وعلا، والإنسان قد لا يملك نفسه ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا [المائدة:٤١] إلا أنه إذا فعل الإنسان الأسباب التي أمر بها فغالبا أن الله يوفقه، بخلاف الذي يعرض عن أمر الله من أول وهلة اتباعا لشيء يريده، إما يريد علوا على الخلق، يريد أن يكون هو أفضل منهم، وأعلى منهم أو كان له أغراض دنيوية، أو عنده حسد وحقد على الآخرين؛ فهذا غالبا لا يوفق ويزداد ضلالا إلى ضلاله إلا أن يشاء الله، ولهذا يقول الله جل **وعلا: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف:٥]، ويقول تعالى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام:١١٠] والمعنى: أنه لما جاءهم أمرنا فردوه أول الأمر قلبت أفئدتهم وأبصارهم جزاء لردهم الحق أول ما جاءهم. ومن المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضح الأمور وبينها، وأما فهوم الناس واتجاهاتهم فهذه يجب أن تعرض على الكتاب والسنة، ويجب أن يتجرد في ذلك، ليس لأن ينتصر على فلان، أو ينصر المذهب." [2]

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري- الغنيمان، ١٧٧/١

(٢) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان، ٣٧٧/٣

"استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى]......

رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب

قال الشارح: [قوله: (لعله إذا رد بعض قوله) أي: قول الرسول صلى الله عليه وسلم (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى **: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين [الصف:٥]]. معنى زاغوا: عدلوا عن الدليل.. وعدلوا عن القول الذي قيل لهم ومالوا، فالزيغ: هو الميل والعدول، زاغ عنه: إذا مال عنه وعدل عنه وتركه قصدا، أزاغ الله قلوبهم [الصف:٥]، يعني: جعلها كارهة للحق قابلة للباطل جزاء وفاقا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، قال جل وعلا: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة [الأنعام:١١٠]، أي: جزاء أنهم لم يقبلوه أول مرة، وهذا واضح في أن من ترك الحق من أول وهلة يكون عقابه إزاغة القلب وعدم القبول، ويكون الإنسان ضالا بذلك نسأل الله العافية وهذا أمر خطير جدا. وعلامة المسلم أن يكون مستسلما لقول الله جل وعلا ومنقادا له ومتبرئا من الشرك وأهله؛ لأن هذا هو الإسلام، فالإسلام: هو الاستسلام والطاعة والانقياد والخلوص من الشرك وتوابعه وأهله، ولا يكون الإنسان ناجيا، حتى يقبل الحق ممن قاله وإن كان عدوا له، فإذا جاء الحق وجب قبوله......

لي أعناق النصوص لتوافق المذهب مذمومة." (١)

"السؤال: قال الله تعالى: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون [المطففين:١٤] ما معنى هذه الآية؟ وهل هي للكفار أم لعصاة المؤمنين؟ الجواب: الران يختلف باختلاف قدره وسببه، والران معناه: تغطية القلب، أن يغطى ويعمى فيصبح لا يرى الحق حقا ولا يحبه ولا يريده، يعني: تتراكم عليه أسباب الذنوب حتى يعمى، فهذا قد يكون للعصاة ويكون للكفار، على حسب الران، وقد يكون قليلا وقد يكون كثيرا، ولكل ذنب نصيبه من ذلك. والمعروف أن من أسبابه كثرة الذنوب، فالذنب يجر الذنب، فكل ذنب يجر ذنبا آخر، والعمل الصالح يجر عملا صالحا؛ ولهذا يقول الله جل **وعلا: فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [الصف:٥] يعني: كان الزيغ سببا عندهم أولا، ثم جاءت إزاغة القلوب بعد ذلك بسبب كونهم ردوا الحق من أول الأمر، ويقول جل وعلا في الآية الأخرى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون [الأنعام:١١٠] هذا هو الران. فهو يختلف اختلافا كبيرا جدا في الناس، ولكل نصيب، فالعصاة لهم نصيب منه، والكفرة لهم النصيب الأوفر منه. ......

معنى قوله تعالى: (فأمه هاوية)

السؤال: ما معنى قول الله تعالى في سورة القارعة: فأمه هاوية [القارعة:٩]؟ وهل الأم لها ذنب في ذلك إذا كانت أمه التي ولدته؟ الجواب: (أمه) يعني: مصيره ونهايته، وليست أمه التي ولدته. والهاوية: النار. يعني: يهوي فيها على رأسه إلى

---

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان، ٤/٥٠٠

مستقرها، فالأم هي النار، وليست الأم التي ولدته. ......

خوف المؤمن." (١)

"" والله تعالى يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ . [النور : ٦٣] أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك" : إذا رد بعض قول النبي عليه الصلاة والسلام لقول أحد يخشى عليه أن يعاقب فيقع في قلبه زيغ ، قال الله – جل وعلا – عن اليهود : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ . فهم زاغوا بمحض إرادتهم واختيارهم مع بيان الحجج وظهور الدلائل والبراهين ، لكن لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم عقوبة منه لهم على ذلك ، وهذا معنى قوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ . أي : نوع شرك ، وقد يصل ذلك إلى الشرك الأكبر بالله – جل وعلا – إذا كان في تحليل الحرام مع العلم بأنه حرام ، وتحريم الحلال مع العلم بأنه حلال .." (٢)

"التفسيرات اللغوية لقوله تعالى: (قل أفأنبئكم بشر من ذلكم)

[وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، وشيوخهم مسخوا خنازير.

(وعبد الطاغوت) أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سول له، وقرأ ابن مسعود : (وعبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة : (وعبد الطاغوت) بضم الباء و جر التاء أراد العبد].

يعني: الجمعي، عبد يعني جمع عابد، جعل منهم من عبد، والمعنى واحد.

[وهما لغتان : عبد بسكون الباء، وعبد بضمها].

هذا إذا أريد الإفراد.

[مثل سبع وسبع وقرأ الحسن (وعبد الطاغوت) على الواحد.

وفي تفسير الطبرسي : قرأ حمزة وحده (وعبد الطاغوت) بضم الباء وجر التاء، والباقون (وعبد الطاغوت) بنصب الباء وفتح التاء، وقرأ ابن عباس و ابن مسعود و إبراهيم النخعي و الأعمش و أبان بن تغلب (وعبد الطاغوت) بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء.

قال: وحجة حمزة في قراءته (وعبد الطاغوت) أنه يحمله على ما عمل فيه قوله (جعل)].

يعني: يعطفه على الأفعال السابقة، وكلها أفعال ماضية، لعن: فعل ماضي، (من لعنه الله) وقوله: (وغضب) كذلك، وحمله على هذه الأفعال الماضية يكون الباب واحدا، كل هذه أفعال ماضية.

[كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت ومعنى: (جعل) أي: خلق كقوله: ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام:١] وليس عبد لفظ جمع؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للغنيمان، ٣٠٣/٦

(٢) شرح عدة متون في العقيدة، ٩١/٢٢

المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه الإفراد ومعناه الجمع؟ كما في قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ [إبراهيم:٣٤] ولأن بناء فعل: يراد به المبالغة والكثرة نحو يقظ ودنس، وكأن تقديره : أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب] كلمة (جعل) هذه تأتي على استعمالين: استعمال بمعنى: خلق، كهذه الآية وكقوله جل وعلا: ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام:١] وهذا كثير، وعلامة ذلك أنها إذا جاءت بمعنى (خلق) أنها لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد فقط.

وتأتي بمعنى: صير، وليس معنى (صير) أنه خلق، لا، معناها: أنه عالج الأشياء أو اعتقدها، أي: اعتقد أنها كذا، أو قال: إنها كذا، وهذا أيضا استعماله كثير في اللغة العربية، ووروده في القرآن أيضا كثير، وعلامة ذلك أنه يتعدى إلى مفعولين كما في قوله جل وعلا: ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ [النحل:٩١] ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ﴾ [الزخرف:١٩] وهذا بمعنى اعتقدوا أو قالوا ذلك.

وهذا قد يغلط فيه بعض الناس لا سيما الذين لهم أهواء، وربما قالوا: إن (جعل) تدل على الخلق، ثم يدخلون ما يريدون كإدخالهم للقرآن بأنه مخلوق، فيقولون: ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ [الزخرف:٣] يعني: خلقناه! وكقوله: ﴿ جعلوا القرآن عضين ﴾ [الحجر:٩١] وما أشبه ذلك.

وهذا يدل على الجهل في الواقع؛ لأنه لا يمكن أن يقال: خلقوا الملائكة، وكذا قوله: ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾ [النحل:٩١] وما أشبه ذلك، وهذا من أنفع ما يكون لطالب العلم أن يفرق بين الألفاظ واستعمالاتها، ويعرف مواقعها.

[وأما من فتح فقال: (وعبد الطاغوت) فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة وهو قوله: (لعنه الله) وأفرد الضمير في عبد، وإن كان المعنى فيه الكثرة؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه.

وفاعله ضمير (من)، كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير (من)، فأفرد لحمل ذلك جميعا على اللفظ، وأما قوله: (عبد الطاغوت) فهو جمع عبد.

وقال أحمد بن يحيى : عبد جمع عابد كبازل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد جمع عابد ومثله عباد وعباد. انتهى].

قال الشارح رحمه الله: [وقال شيخ الإسلام في قوله (وعبد الطاغوت): الصواب: أنه معطوف على ما قبله من الأفعال أي: من لعنه وغضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت، قال : والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله تعالى مظهرا أو مضمرا، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت، وهو الضمير في عبد، ولم يعد سبحانه من؛ لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود.

قوله: (أولئك شر مكانا) مما تظنون بنا.

(وأضل عن سواء السبيل) وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك، كقوله تعالى: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ [الفرقان:٢٤] قاله الـ عماد ابن كثير في تفسيره وهو ظاهر].

هذا لأنه يأتي أفعل التفضيل فيما لا مشارك له في الجانب الآخر، وبهذا يرد على القدرية الذين قالوا: إن قوله تعالى: ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون:١٤] وما أشبه ذلك يدل على إثبات الخلق للعباد، وأنهم يخلقون أفعالهم بدليل هذه الآية ونحوها.

الجواب: هو ما ذكره هنا، أن قوله: (تبارك الله أحسن الخالقين) هذا استعمل فيما لا مشارك له في الخلق؛ لأن قوله: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ [الفرقان:٢٤] أصحاب النار ما يشاركون أهل الجنة بشيء مما فيها، وقوله: ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ [الفرقان:٢٤] لا يمكن أن يقال: إن هذا استعمل على بابه، وإنما استعمل بالشيء الذي لا مشاركة فيه، يقول الله جل وعلا: ﴿ آلله خير أما يشركون ﴾ [النمل:٥٩] لا يوجد أحد يقول: إن الأصنام تشارك الله في الخيرية أو في شيء من ذلك مطلقا، وهذا كثير في القرآن، ومن المعلوم أن أصحاب البدع والأهواء يتعلقون بالشبهات، ويفرحون إذا وجدوا شيئا يتعلقون به من القرآن أو من الأحاديث، ومن الأمور التي ينبغي أن تعلم أن القرآن فيه شيء مما قد يشتبه في اللفظ للدلالة، وإذا صار الإنسان عنده سوء فهم أو سوء اتجاه يكون فتنة له، وهذا الذي يشير إليه قوله جل وعلا: ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ [آل عمران:٧] فهم يبحثون عن الشيء الذي يتفق مع أهوائهم، ومع مناهجهم ومقاصدهم، بغض النظر عن مراد المتكلم، ولو كانوا يريدون مراد المتكلم لكان الأمر واضحا جليا؛ لأن هناك آيات واضحات تبين هذا، إذا أرجعت إليها زال الإشكال نهائيا، وأصبح لا يوجد إشكال.

والواجب على العبد أن يتخلى من هوى النفس، ومن الأغراض التي تكون على خلاف مراد الرب جل وعلا أو مراد رسوله صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن هذا يحتاج إلى مجاهدة، ويحتاج إلى توفيق من الله جل وعلا، والإنسان قد لا يملك نفسه ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ﴾ [المائدة:٤١] إلا أنه إذا فعل الإنسان الأسباب التي أمر بها فغالبا أن الله يوفقه، بخلاف الذي يعرض عن أمر الله من أول وهلة اتباعا لشيء يريده، إما يريد علوا على الخلق، يريد أن يكون هو أفضل منهم، وأعلى منهم أو كان له أغراض دنيوية، أو عنده حسد وحقد على الآخرين؛ فهذا غالبا لا يوفق ويزداد ضلالا إلى ضلاله إلا أن يشاء الله، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥]، ويقول تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام:١١٠] والمعنى: أنه لما جاءهم أمرنا فردوه أول الأمر قلبت أفئدتهم وأبصارهم جزاء لردهم الحق أول ما جاءهم.

ومن المعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وضح الأمور وبينها، وأما فهوم الناس واتجاهاتهم فهذه يجب أن تعرض على الكتاب والسنة، ويجب أن يتجرد في ذلك، ليس لأن ينتصر على فلان، أو ينصر المذهب الفلاني، ويرد على المذهب الفلاني، إذا كان هذا قصده فالقصد سيء، والعمل ليس لله جل وعلا، وإنما الواجب على الإنسان أن يطلب الحق، وعلامة ذلك أنه يقبل الحق ممن جاء به سواء كان صديقا له أو غير صديق، إذا تبين له الحق قبله، أما إذا كان لا يقبل الحق إلا ممن يتفق معه في رأيه ومنهجه فهذا علامة أنه لا يريد الحق، والله جل وعلا يتولى جزاء عباده، وسوف يحاسبهم على نياتهم ومقاصدهم، وإنما على الإنسان أن يجتهد لنفسه لئلا يقع في الباطل، ولن يضيع شيء أبدا، وكل خلاف وقع، وكل حكومة

وقعت، وكل مسألة وقعت سوف تعرض بين يدي الله، ويحكم فيها بحكمه العدل، فهو جل وعلا يعلم لسان كل متكلم، ويعلم قلب كل متكلم ماذا يريد، على الإنسان أن يستحضر هذه الأمور، ويسعى لنفسه إما أن يكتسب الحسنات أو يكتسب السيئات.." (١)

"رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب

قال الشارح: [قوله: (لعله إذا رد بعض قوله) أي: قول الرسول صلى الله عليه وسلم (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [الصف:٥]].

معنى زاغوا: عدلوا عن الدليل وعدلوا عن القول الذي قيل لهم ومالوا، فالزيغ: هو الميل والعدول، زاغ عنه: إذا مال عنه وعدل عنه وتركه قصدا، ﴿ أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥]، يعني: جعلها كارهة للحق قابلة للباطل جزاء وفاقا؛ لأن الجزاء من جنس العمل، قال جل وعلا: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام:١١٠]، أي: جزاء أنهم لم يقبلوه أول مرة، وهذا واضح في أن من ترك الحق من أول وهلة يكون عقابه إزاغة القلب وعدم القبول، ويكون الإنسان ضالا بذلك نسأل الله العافية وهذا أمر خطير جدا.

وعلامة المسلم أن يكون مستسلما لقول الله جل وعلا ومنقادا له ومتبرئا من الشرك وأهله؛ لأن هذا هو الإسلام، فالإسلام: هو الاستسلام والطاعة والانقياد والخلوص من الشرك وتوابعه وأهله، ولا يكون الإنسان ناجيا، حتى يقبل الحق ممن قاله وإن كان عدوا له، فإذا جاء الحق وجب قبوله .." (٢)

"معنى الران

السؤال: قال الله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين:١٤] ما معنى هذه الآية؟ وهل هي للكفار أم لعصاة المؤمنين؟ الجواب: الران يختلف باختلاف قدره وسببه، والران معناه: تغطية القلب، أن يغطى ويعمى فيصبح لا يرى الحق حقا ولا يحبه ولا يريده، يعني: تتراكم عليه أسباب الذنوب حتى يعمى، فهذا قد يكون للعصاة ويكون للكفار، على حسب الران، وقد يكون قليلا وقد يكون كثيرا، ولكل ذنب نصيبه من ذلك.

والمعروف أن من أسبابه كثرة الذنوب، فالذنب يجر الذنب، فكل ذنب يجر ذنبا آخر، والعمل الصالح يجر عملا صالحا؛ ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥] يعني: كان الزيغ سببا عندهم أولا، ثم جاءت إزاغة القلوب بعد ذلك بسبب كونهم ردوا الحق من أول الأمر، ويقول جل وعلا في الآية الأخرى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام:١١٠] هذا هو الران.

فهو يختلف اختلافا كبيرا جدا في الناس، ولكل نصيب، فالعصاة لهم نصيب منه، والكفرة لهم النصيب الأوفر منه.." (٣)

---

(١) شرح كتاب التوحيد / الغنيمان، ١١/٦٩

(٢) شرح كتاب التوحيد / الغنيمان، ١٣/٩٩

(٣) شرح كتاب التوحيد / الغنيمان، ٩٤/١٤١

"وقال : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان)(١).

وقال : (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير)(٢).

ووجه الدلالة في هذه الآيات والأحاديث واضح وبين في أن الإيمان يزيد، وما جاز عليه الزيادة جاز عليه النقصان.

ومن الأدلة على نقصان الإيمان، قول الله تعالى في المنافقين:

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (٣).

وقوله تعالى :﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٤).

وقوله :﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٥).

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم : (... وذلك أضعف الإيمان) (٦).

وبناءً على زيادته ونقصانه يتكامل المؤمنون في إيمانهم، ويتفاضلون بقدر طاعتهم لله وموافقتهم لشرعه، قال تعالى :

---

(١) رواه مسلم) في (كتاب الإيمان) باب: (بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر واجبان).

(٢) رواه البخاري) في (كتاب الإيمان) باب: (زيادة الإيمان ونقصانه).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٥) سورة الصف، الآية: ٥.

(٦) رواه مسلم) في (كتاب الإيمان) باب: (بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان).." [١]

"فلم يكن لأمثال هؤلاء الذين اعترفوا بعدم عقلهم وسمعهم النافع رغبة في علوم الرسل، والكتب المنزلة من الله، ولا عقول صحيحة يهتدون بها إلى الصواب، وإنما لهم آراء ونظريات خاطئة يظنونها عقليات، وهي جهالات ولهم اقتداء خلف زعماء الضلال منعهم من اتباع الحق؛ حتى وردوا نار جهنم، فبئس مثوى المتكبرين.

٥- رد الإيمان بعد معرفته:

رد الإيمان بعد ما تبين؛ فيعاقب العبد بانقلاب قلبه ورؤيته الحسن قبيحاً والقبيح حسناً، قال تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(١).

لأن الجزاء من جنس العمل، وقد ولاهم الله ما قالوا لأنفسهم: ﴿ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللهِ ﴾(٢).

٦- الانغماس في الترف والإسراف في التنعم:

---

(١) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، ص/٢٢

فإنه يجعل العبد تابعاً لهواه، منقاداً للشهوات الضارة، كما ذكر الله هذا المانع في عدة آيات، مثل قوله:

﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاء وَآبَاءهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾(٣).

وقوله: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾(٤).

فلما جاءتهم الأديان الصحيحة بما يعدل ترفهم، ويوقفهم على الحد النافع، ويمنعهم من الانهماك الضار في اللذات؛ رأوا ذلك صاداً لهم عن مؤاداتهم.

وصاحب الهوى الباطل ينصر هواه بكل وسيلة. لما جاءهم الدين بوجوب عبادة الله، وشكر المنعم على نعمه، وعدم الانهماك في الشهوات، ولو على أدبارهم نفورا.

احتقار الحق وأهله:

احتقار المكذبين للرسل – عليهم السلام – وأتباعهم، واعتقاد نقصهم، والتهكم بهم، والتكبر عليهم؛ من الموانع الصادة عن وصول الإيمان إلى القلب؛ كما قال نوح عليه السلام:

﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الصف، الآية: ٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٤.

(٤) سورة الواقعة، الآية: ٤٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ١١١.." (١)

" الاول أنها في الكافرين الذين قد غيروا الفطرة واستحقوا العقوبة بالخذلان وسلب الالطاف فهي كقوله تعالى صم بكم عمي فهم لا يرجعون ونحوها وكلامنا إنما هو في المكلف في أول أحوال تكليفه وابتلائه وهذا بين

الثاني أنها خبر عن صفتهم التي هم عليها وليس فيها نفي قدرة الله تعالى على تغيير صفتهم بالطافه الخفية وهو اللطيف لما يشاء القائل قل كونوا حجارة أو حديدا الآية المتمدح بأنه لو شاء لجعل منهم ملائكة وجعل الناس أمة واحدة ونحو ذلك والآية تقتضي أن الله ما علم فيهم خبرا لا أنه ما علم أنه يقدر على هدايتهم وكم بين الأمرين وأين أحدهما من الآخر

الثالث أن الآية لهم فيجب حملها على ما يرجع إلى كسبهم الاختياري من الاصرار والعناد الذي يستحقون الذم عليه لا على ما يرجع إلى خلقتهم التي هي فعل الله تعالى يغيرها كيف يشاء ولا ذم عليهم فيها جمعا بينهما وبين جميع ما تقدم من نحو قوله تعالى أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة وقوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وقد مر مستوفى

---

(١) الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة، ص/١٧٥

الرابع سلمنا أن الآية تحتمل ما ظنوا وما ذكرنا يمتنع لكن ما ذكروه بسائر الآيات المبينات لقدرة الله تعالى على كل شيء ولكونه ما يضل إلا الفاسقين ولكونه خلق الخلق على الفطرة حتى غيرهم آباؤهم ولا يجوز العدول عن هذه الأمور الثلاثة البينة بمجرد احتمال لا حجة عليه والله أعلم

وهنا ظن بعض الأشعرية أن الآيات التي في نفوذ المشيئة في قوة أن الله تعالى مريد للموجودات بأسرها سواء كانت حسنة أو قبيحة وأنه غير مريد لما لم يوجد سواء كان حسنا أو قبيحا وليس هو تحقيق مذهبهم كما أن عدم قدرة الرب على اللطف بالعصاة ليس هو تحقيق مذهب المعتزلة وإنما قال بعض الاشعرية المعاصي مرادة مجازا لا حقيقة عندهم يعني أن أسبابها التي هي أفعال الله تعالى مرادة لله تعالى مثل القدرة والدواعي فتنزلت المعاصي ." (١)

" ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون وقوله تعالى وما يضل به الا الفاسقين وقوله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم وقوله تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقوله تعالى ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وقد خلقوا على الفطرة بدليل الكتاب والسنة وفي الرعد نحوها وأيضا فالهدى أعظم النعم وقد قال الله تعالى وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون مع قوله انا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا وقوله إن علينا الهدى وقوله ثم السبيل يسره وقوله وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى وقوله وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر فالهداية أعظم النعم وأول الحجج على العبد ومن ذلك قوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وقوله تعالى في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا وقوله فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله مع حديث كل مولود يولد على الفطرة وهو متفق على صحته من حديث أبي هريرة ومعه حديث عياض بن حماد المجاشعي أن رسول الله قال في خطبته ألا ان ربي عز و جل أمرني عليكم أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني الى قوله حاكيا عن الله تعالى واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ." (٢)

" عليها القول الآية فمن فهم من الاضلال أنه من جنس العقوبات لم يجزه إلا بعد الذنوب ومنع أن يقع من الله تعالى ابتداء قبل أول معصية وسمى ما يقع في ذلك الوقت من أسباب المعاصي ابتلاء وامتحانا إن كان ممن يجيزه وهم الأشعرية وجمهور المعتزلة ومن فهم من الاضلال معنى الابتلاء والامتحان اجازه مطلقا قبل الذنوب وبعدها لكن الآيات المتقدمة ظاهرة في الدلالة على أنه من جنس العقوبات مثل قوله تعالى وما يضل به إلا الفاسقين وقوله **تعالى فلما زاغوا** **أزاغ** الله قلوبهم إلى سائر ما تقدم والله أعلم

وجميع المعارضات لذلك نوعان أحدهما يختص بغير المعاصي عند التأمل كقوله تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فانها في امتناع الايمان إلا بمشيئة الله تعالى وعونه ولطفه وذلك صحيح ودليل ذلك قوله تعالى في آخرها ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله وكذلك قوله تعالى وما تشاؤن إلا أن يشاء الله فانها في مشيئة الطاعة لقوله تعالى في أولها

---

(١) إيثار الحق على الخلق، ص/٢٣٠

(٢) إيثار الحق على الخلق، ص/٢٣٥

لمن شاء منكم أن يستقيم وفي ذلك قال رسول الله فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه بل قال الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء وقال يختص برحمته من يشاء

فان قيل قوله تعالى وما تشاؤن إلا أن يشاء الله عام في لفظه وخصوص أول الآية لا يستلزم خصوص العام الذي في آخرها كما أن خصوص السبب لا يستلزم خصوص العموم في أحد القولين

فالجواب من وجوه أربعة الأول أنا لا نسلم أن آخرها عام منطوق لأن مفعول يشاء الله تعالى محذوف وتقديره المذكور في أول الآية والمذكور في أولها يختص بالطاعات وهذا جيد جدا فتأمله

الثاني أنا لو سلمنا العموم اللفظي لما سلمنا جواز اعتقاد معناه هنا لأن في العام الوارد على سبب خلافا ." (١)

" ويدل على ذلك قول يوسف عليه السلام وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين بل قول الله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء وقوله تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين وأبو علي يحمل ذلك في الابتداء على فضله العام بخلقه

وروى الحاكم في تفسير سورة ص من حديث ابن عباس ان سبب ذنب داود عليه السلام انه قال اللهم انك تعلم انه لا يمضي ساعة من ليل أو نهار الا وهو يصعد اليك عمل صالح من آل داود يعني نفسه فعتب الله تعالى ذلك عليه وقال أما علمت انه لولا اعانتي لك الحديث وروى نحو ذلك في سبب ذنب آدم عليه السلام وروي الحاكم وأحمد من حديث زيد بن أرقم مرفوعا وان تكلني الى نفسي تكلني الى ضيعة وضعف وذنب وخطيئة وقال الحاكم فيها كلها انها صحاح والقرآن يدل على ذلك ويغني عنه كما تقدم وهذه التخلية في الابتداء لا تسمى اضلالا لقوله تعالى وما يضل به إلا الفاسقين ولقوله تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم كما تقدم وانما تسمى ابتلاء كما قال تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا والله تعالى لم يقل انه لا يبتلي به إلا الفاسقين انما قال وما يضل به الا الفاسقين كما انه لا يعذب غيرهم فالاضلال من جنس العقاب وقد دل السمع على ان الله خلق الخلق في الابتداء على الفطرة نعمة ورحمة للأوليائه ونقمة وحجة على اعدائه كما خلقهم كذلك في الخلق الأول في عالم الذر كما جاء في الاحاديث التي لا مانع من صحتها وقد أوضحتها في كتاب العواصم في الوهم الثلاثين منه في تفسير قوله تعالى وله اسلم من في السموات والارض طوعا وكرها ثم دل القرآن على ان الله تعالى يبدأ باللطف ثم يعاقب من يشاء ممن لم يقبل اللطف ." (٢)

"قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: الإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله عز وجل للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله عز وجل، قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم؛ فالعلم السابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم لله سبحانه وتعالى مكتوبا، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة، أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله عز وجل، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

---

(١) إيثار الحق على الخلق، ص/٢٤٥

(٢) إيثار الحق على الخلق، ص/٢٧٣

وهذا القدر قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يطلع الله عليه أحدا، لا ملكا، ولا نبيا مرسلا، إلا ما أوحاه الله عز وجل إلى رسله، أو وقع فعلم به الناس، وإلا فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ [لقمان: ٣٤] الآية، وإذا قلنا إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على لمعصيته؛ لأننا نقول لهذا الذي عصى الله عز وجل وقال: هذا مقدر عليَّ: ما الذي أعلمك أنه

مقدر عليك حتى أقدمت؛ أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا

تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: "خيره وشره" الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه، ومعلوم أن المقدورات خير وشر؛ فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله؛ فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره؛ والشر لا ينسب إلى الله؟." (١)

" فصل والدليل على أن الله تعالى مقلب القلوب على ما يشاء : قوله تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) . وقوله (يحول بين المرء وقلبه) وقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، وقوله (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) .

٢٦٣ – أخبرنا أبو عمرو ، أنا والدي ، أنا خيثمة بن سليمان ، نا العباس بن الوليد بن مزيد ، أخبرني أبي ، نا عبد الرحمن ، بن يزيد بن جابر ، حدثني بسر بن عبيد الله ، عن أبي إدريس الخولاني قال : سمعت النواس ابن سمعان الكلابي يقول : سمعت رسول الله [ ] يقول : ' ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه ، وأن شاء أزاغه ' . وكان رسول الله [ ] يقول : ' يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، والميزان بيد الرحمن يرفع أقواما ، ويضع آخرين إلى يوم القيامة ' .

." (٢)

"الأولى : سبيل المؤمنين أنه يستحيل عقلاً أن يكون المتكلم بالقرآن أو من النبي عليه الصلاة و السلام فيما يخبر به ربه جهل أو غلط أو كذب أو تلبيس ، ففرض أن يقوم دليل قاطع على خلاف النص الثابت قطعاً ، أو الظاهر قطعاً ز لا قرينة معه قطعاً ، فرض للمستحيل .

الثانية : سبيل ابن سينا و من وافقه من تجويز الجهل و الغلط ، أو الكذب و التلبيس [وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ] الكهف: ٢٩ .

---

(١) الشرح الميسر لكتاب التوحيد، ص/٣٠٦

(٢) الحجة في بيان المحجة، ٢/٣٠٩

المتكلم : و هل كلامنا إلا في القطع ؟ فهب أن احتمال الامتناع العقلي لا يصلح أن يكون قرينة فمن أين يأتي القطع ؟ و من المحتمل أن يخطئ الناظر فيعتقد أن الحديث ثابت ، و ليس بثابت ، أو يعتقد صراحة الآية أو الحديث الثابت فيما فهمه ، و ليس كذلك ، أو يعتقد ظهور ما ليس بظاهر ، أو يعتقد انتفاء القرينة و هناك قرينة غفل عنها .

السلفي : سيأتي إثبات حصول القطع في الكلام مع الرازي و العضد ، فأما الخطأ، فالخطأ في الباب إنما يكون في الظن ، و ليس كالنظر العقلي المتعمق الذي يكثر فيه الغموض و الاشتباه و القطع بالباطل كما مر في الباب الأول ، و النظر في النصوص على وجه الإيمان بها و التسليم لها اهتداء يحبه الله تبارك و تعالى [وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ] محمد : ١٧ .

و النظر في الشبهات التعميقية على وجه الوثوق بها و تقديمها على النصوص زيغ عن سبيل الله [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ] الصف : ٥ (١) "..

"(ف): قوله: لعله إذا رد بعض قوله أي قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يقع في قلبه شيئ من الزيغ فيهلك نبه رحمه الله أن رد قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ' ٦١: ٥ ' ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : في معنى قول الله تعالى: ' ٢٤: ٦٣ ' ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ فإن كان المخالف عن أمره قد حذر من الكفر والشرك، أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر، كما فعل إبليس لعنه الله تعالى أ.هـ.

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك: ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ قال: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه.

قال أبو جعفر بن جرير: أدخلت عن لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين.

قوله: أو يصيبهم في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

وعن عدي بن حاتم: انه سمع النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ هذه الآية: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (التوبة: ٣١)، فقلت: إنا لسنا نعبدهم. قال: (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟) فقلت بلي، قال: (فتلك عبادتهم). رواه أحمد والترمذي وحسنه(١)

---

(١) القائد إلى العقائد، ص/١٢١

(١) حسن: الترمذي: كتاب تفسير القرآن / باب ومن سورة التوبة، حديث (٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني.." [١]

"والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله – – عز وجل – – للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله – – عز وجل – –قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم أنه ليس كل معلوم الله – – سبحانه وتعالى – – مكتوبا، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله – – عز وجل – –، لكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله ، وهو كذلك لم يطلع عليه أحدا، ولا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، إلا ما أوحاه الله – – عز وجل – – إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا، فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غدا ﴾ الآية (لقمان: ٣٤)، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته، لأننا نقول لهذا الذي عصى الله – – عز وجل – – وقال هذا مقدر علي: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت، أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك؟

قال تعالى: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ (الصف: ٥) فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: (خيره وشره). الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر، فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

وإذا كان القدر من الله ، فكيف يقال: الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله ؟." [٢]

"" والله تعالى يقول : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ . [النور : ٦٣] أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك" : إذا رد بعض قول النبي عليه الصلاة والسلام لقول أحد يخشى عليه أن يعاقب فيقع في قلبه زيغ ، قال الله – جل وعلا – عن اليهود : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ . فهم زاغوا بمحض إرادتهم واختيارهم مع بيان الحجج وظهور الدلائل والبراهين ، لكن لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم عقوبة منه لهم على ذلك ، وهذا معنى قوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ . أي

(١) الترتيب الفريد من شروحات كتاب التوحيد، ١٤/٤٢

(٢) الترتيب الفريد من شروحات كتاب التوحيد، ١٦/٦٤

: نوع شرك ، وقد يصل ذلك إلى الشرك الأكبر بالله – جل وعلا – إذا كان في تحليل الحرام مع العلم بأنه حرام ، وتحريم الحلال مع العلم بأنه حلال .." (١)

"خاطبنا به ووقفنا عليه ووفقنا له ومن علينا به وكتب في قلوبنا واختصنا ما عرفنا توحيده ولا كيف نطيعه

ولولا ما ظهرت من الايات والمعجزات التي أظهرها على ايدي الرسل بحقائق معانيها التي يعجز الخلق عن الاتيان بمثلها لم نعرف رسله

ولولا زوائد الاعمال وتصحيح الاحوال والعلوم والفهوم والمعارف وأسرار مقامات القوم وحلاوة اذواقهم والروائح الواردة الينا منهم وعنهم ما عرفنا ذوي المزيد

وكل ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون فلو شكر الكافر ما اضطره اليه من معرفة باريه بربوبيته واعترف له بنعمه واخراجه من العدم إلى الوجود ورأى الافضال والنعم التي قد عم بها وكمال صورته وادرار رزقه عليه لأوصله شكره بمعرفة توحيده فصدق رسوله وحقق ما سلف من عهده ورجع إلى ضرورته واعترف بوحدانيته فأبطل ما سواه ولم ير الها إلا اياه ولكن لما جهل النعمة وزاغ عن العهد ونكث في إقراره وكذب السفراء حرمه اكبر المنن وافضل النعم ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ سورة الصف ٥ فتركه مع هواه فكان هلاكه في مناه واذا شكر المؤمن معرفة التوحيد التي من بها عليه وشكرها قبول ما جاء به الرسول قول وعمل واخلاص نية واصابة سنة ولزوم

". (٢)

" تتمة كلام البصري وتعليق ابن تيمية

قال : (فأصحاب المقالات وضعت كل معرفة غير موضعها وأجملت وجهلت الحكم فالتبس عليها الحكم واختلفوا بما يصاب ؟ : بالعقول أو الاستدلال أو بالإمام ؟ فقال بعضهم : أصل المعرفة معرفة الإمام ومنهم من يقول : أهل البيت يعني معرفتهم والأئمة والعلماء والفقهاء أكثرهم يذهب إلى أن المعرفة معرفة العلم والفقه من حلال وحرام وفرائض ومندوبات و أحكام وسنن

وقال بعضهم : هي أن تعرف الله على يقين حتى تستقر معرفته في قلبك

واختلفوا : أي وقت تقع ؟ فمنهم من يزعم : قبل البحث والنظر ومنهم من قال : بعد البحث والنظر وقوم يقولون : بعد البلوغ ومنهم من يجعل حدها معرفة الأجسام والأعراض والجواهر وكلام يكثر ذكره ويتبين لك في نفس الكلام – إذا لزمت ما قررنا وشرحنا – أن أهل الكلام اعتقدوا ما يليق بالطبع فأثبتوا من طريق العبودية فجعلوا معرفته بأسباب وأهل الحق اعتقدوا ما يليق بالربوبية فأثبتوه من حيث الربوبية والربوبية لا تدنسها العلل ولا يقع عليها غوامض الفطر فقرر الله الخلق ودعاهم إلى معرفته كفاحا لئلا يشركوا في العلم بمعرفته ولا تكون لهم حجة

---

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ٢/٩١

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ٨/٥٢٩

قال سبحانه : ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ وذلك لموضع ما ألزمهم من الضرورة ولو قررهم بمعرفته في حال العبودية - كما زعم الجاهلون - لخرجوا عن كونهم مكلفين لموضع النظر إليه لكن تعرف إليهم من بعد ما ألزمهم من الضرورة بالوسائط والآيات فمن نصح معبوده وقام على مراعاة ما شرعه له وتعرف به إليه واتكل في المعرفة عليه وأسند جميع أموره إليه ذكره ما سلف من الحال وكشف له عن العواقب والمآل فزهد فيما يفنى وزادت رغبته فيما يبقى وصار للإله موحدا خائفا ومصدقا راجيا ومن قصر في رعايته وخلط في سعايته وسلك محجة التفريط ولم ينصح فيما أعطى من ضرورته وعقله جمت عيوبه وكثرت ذنوبه فملكه هواه فأعماه وأراده ولم يبلغ مناه فأنساه ذلك ما كان في وقت التعريف فحصل في جملة من خان وعاند ولم يكن بخارج من كون ماكان يجهله إذ قد ثبت العلم بذلك فلم يكن بخارج من النار ولم يكن بخارج من ضرورته)

قال : (وقد ثبت أهل الكلام معارف ضرورية كمعرفة الإنسان بوجود نفسه فالربوبية أولى بذلك وكذلك الأعراض والأجسام والجواهر لأهل الكلام والجمع والتفرقة وما يعرف بالفكر ويشترط بالعلم ومعرفة الشرع للفقهاء والمعرفة التي هي الحجة والبرهان والنور والبيان للعلماء البلغاء الحكماء ومعرفة الصفات - وهي العلم به - فهي للأولياء الذين يشاهدونه بالقلوب ويكاشفهم بالغيوب إذ يظهر لهم ما لا يظهر لغيرهم وهم المكاشفون بنور اليقين وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين المخصوصون بالحقائق والمبتدأون بالمكنون من ذخائر كراماته لأهل صفوته وولايته فلكل قوم مقام ولكل مقام علم ولكل علم حكم وكذلك المعارف على أحكام ومقامات فلا يتعدى بمعرفة مقامها)

قال : (وقد قيل لأبي الحسين النوري : كيف لا تدركه العقول ؟ فقال : كيف يدرك ذو مدى من لا مدى له ؟ أم كيف يدرك ذو غاية من لا غاية له ؟ أم كيف يدرك مكيف من كيف الكيف

وقال الواسطي : كما قامت الأشياء وبه فنيت كذلك به عرفوه وقال الشبلي : الحق لا يعرف بسواه وقال النباجي : طوبى لأهل المعرفة عرفهم نفسه قبل أن عرفوه)

قال : (صدق أئمة الدين وشيوخ المسلمين فالله سبحانه هو المعروف الأزلي وهو الهادي إلى معرفته والمتعرف بنفسه إلى بريته إذ ضلت العقول والفهوم والعلوم والأوهام في تيه التيه أن تتوهمه والأفكار والأضمار ان تدركه لأنه العظيم الذي فاتت عظمته لكل حيث وتقدير وعجز عن توهمه كل فكر وضمير وردعت العقول فلم تجد مساغا فرجعت كليلة ورجع الوهم خاسئا وهو حسير)

إلى أن قال : (بل هو المعروف بما تعرف والموصوف كما وصف فتعرف إلينا بربوبيته ووصف لنا توحيده ووحدانيته وأقسم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا * إن إلهكم لواحد ﴾ وهو الصادق في خبره وشهادته إذ هو الواحد في الحقيقة الذي لا شريك له في الألوهية والابتداع وتعرف إلينا بهذه المعرفة على ألسنة السفراء فأوقفتنا السفراء على توحيده الذي تعرف إلينا به في كلامه وخطاه فالأصل منه ثم السفراء ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ وأسعدنا بالعقل الذي هو الحجة والعلم الذي هو الحجة وجعل لنا السمع والأبصار والأفئدة وطالبنا بالاعتبار والافتكار والقبول ليكون أقوى في البرهان وأبلغ في البيان

قال سبحانه : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ فنزه نفسه عما زعموا وابتدعوا وصدق الله في خبره وصدقت الرسل)

وتكلم على هذه الآية وعلى قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ بما يناسب ذلك إلى أن قال : (قال سبحانه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾

وقال سبحانه : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ﴾

وقال : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ﴾ مثلا لمن عبد غيره إذ ضرب العبد مثلا لمن عبد من دونه لأنه ذليل عاجز مفتقر مدبر مملوك لا يقدر على شيء : لا نفعا ولا ضرا ولا خلقا ولا أمرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ومن رزقناه : جعله مثلا يستدل به على توحيده وكمال ربوبيته لأنه الواسع الجواد القادر الرازق للعباد سرا وجهرا فضرب الله سبحانه لهم الأمثال ليوبخهم ويريهم عجزهم فيما أضافوا إليه من الشركاء مع إقرارهم بمعرفة ربوبيته تعالى الله عما يشركون فعز من لمن يشارك في قدرته وجل من لم يرام في وحدانيته وتعظم من تفرد بالربوبية فجل أن يكون له شريك في خلقه)

إلى أن قال : (فخلقهم على الفطرة وبعث إليهم السفراء وعلمهم العلم وركب فيهم العقل بالفكر فبالفطرة عرفوه وبالواسائل عبدوه فلولا الله سبحانه ما عرفناه من طريق ربوبيته ولولا إرسال الرسول مع ما خاطبنا به ووقفنا عليه ووفقنا له ومن علينا به وكتب في قلوبنا واختصنا – ما عرفنا توحيده ولا كيف نطيعه

ولو لا ما ظهرت من الآيات والمعجزات التي أظهرها على أيدي الرسل بحقائق معانيها التي يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها لم نعرف رسله

ولولا زوائد الأعمال وتصحيح الأحوال والعلوم والفهوم والمعارف وأسرار مقامات القوم وحلاوة أذواقهم والروائح الواردة إلينا منهم وعنهم – ما عرفنا ذوي المزيد

وكل ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون فلو شكر الكافر ما اضطره إليه من معرفة باريه بربوبيته واعترف له بنعمه وإخراجه من العدم إلى الوجود ورأى الأفضال والنعم التي قد عم بها وكمال صورته وإدرار رزقه عليه – لأوصله شكره بمعرفة توحيده فصدق رسوله وحقق ما سلف من عهده ورجع إلى ضرورته واعترف بوحدانيته فأبطل ما سواه ولم ير إلها إلا إياه ولكن لما جهل النعمة وزاغ عن العهد ونكث في إقراره وكذب السفراء – حرمه أكبر المنن وأفضل النعم : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ فتركه مع هواه فكان هلاكه في مناه وإذا شكر المؤمن معرفة التوحيد التي من بها عليه وشكرها قبول ماجاء به الرسول : قول وعمل وإخلاص نية وإصابة سنة ولزوم قدوة وحبس عن المخالفة أو صلة بمعرفة مزيدة فكلما نصح في مزيد رفع إلى مزيد

قال سبحانه : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾

قلت : ويستدل على ما ذكره أبومحمد بن عبد وغيره من أن المعرفة الأولية الفطرية تحصل بلا دليل أن ما يعلم بالدليل إنما يعلم إذا علم أن الدليل مسلتزم له ليكون دليلا عليه وهذه هي الآية والعلامة وكذلك الاسم إنما يدل على المسمى إذا عرف أنه اسم له وذلك مشروط بتصور المدلول عليه اللازم وبأن هذا ملزوم له

ولهذا قيل : إن المقصود بالكلام ليس هو تعريف المعاني المفردة لأن المعنى المفرد لا يفهم من اللفظ حتى يعرف أن اللفظ دال عليه فلا بد أن يعرف أن هذا اللفظ موضوع لهذا المعنى حتى تعرف دلالته عليه فتكون المعرفة بالمعنى سابقة للمعرفة بدلالة اللفظ عليه بخلاف المعنى المركب فإنه إنما يحتاج إلى العلم بجنس المركب لا بالتركيب المعين فنعرف أنه إذا قيل : قام فلان أنه فعل القيام القائم به فإذا قيل : زيد عرف أنه فعل القيام القائم به بخلاف مسمى زيد وأنه لا يعرف أن زيدا يدل على مسماه حتى يعرف أولا مسمى زيد فلو استفيد مسمى زيد من زيد لزم الدور

وهذا موجود في كل ما دل على معنى مفرد فما دل على الباري إنما تعرف دلالته عليه إذ عرف أنه مستلزم له وذلك مشروط بمعرفة اللازم المدلول عليه فلا يعرف أن هذا دليل على هذا المعين حتى يعرف المعنى والدليل وأن الدليل مستلزم للمعين المدلول عليه فلو استفيد معرفة المعين من الدليل لزم الدور بل يكون ذلك المعين متصور قبل هذا وتلك الأمور مستلزمة له وآيات عليه فكلما تصورت تصور المدلول عليه فيكون كما قال : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ تبصرة : إذا قدر أنه مس طيف من الشيطان فشككه فيما عرفه أولا فإذا رآى آياته المستلزمة لوجوده كان ذلك تبصرة من ذلك اللطيف

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وتكون تذكرة إذا حصل نسيان وغفلة تذكرة بالله فهي تبصرة لما قد يعرض من الجهل وتذكرة لما قد يحصل من غفلة وإن كان أصل المعرفة فطريا حصل في النفس بلا واسطة البتة

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الأدلة نوعان : أقيسة وآيات فأما الأقيسة فلا تدل إلا على معنى كلي لا تدل على معنى معين

فإذا قيل : هذا محدث وكل محدث فله محدث قديم أو : كل ممكن فلا بد له من واجب فإنما يدل على قديم واجب الوجود بنفسه لا يدل على عينه بل نفس تصور هذا لا يمنع من وقوع الشركة فيه فإذا قدر أنه عرف أنه واحد لا يقبل الشركة فإنه لم تعرف عينه فلا بد أن تعرف علينه بغير هذه الطريق والايات تدل على عينه لكن كون الآية دليلا على عينه مشروطة بمعرفة عينه قبل إذ لو لم تعرف عينه لم يعرف أن هذه الآية مستلزمة لها

فعلم أنه في الفطرة معرفة بالخالق نفسه بحيث يميز بينه وبين ما سواه كما ذكره أبو محمد بن عبد وغيره ولهذا كل من تطلب معرفته بالدليل فلا بد أن يكون مشعورا به قبل هذا حتى يطلب الدليل عليه أو على بعض أحواله

وأما ما لا تشعر به النفس بوجه فلا يكون مطلوبا لها وإذا كان مطلوبا لها فلا يمكن أن يستدل عليه بشيء حتى يعلم أنه يلزم من تحقق الدليل تحققه وقد بسط هذا في موضع آخر وبين فيه أن التصور البسيط المفرد لا يجوز أن يكون مطلوبا بالحد وإنما يطلب بالحد ما يكون مشعورا به من بعض الوجوه فيطلب الشعور به من وجه آخر

ولهذا لم يكن مجرد الحد معرفا بالمحدود إن لم يعرف أن الحد مطابق له وهو لا يعرف ذلك إن لم يعرف المحدود وإلا فمجرد الدعوى لا تفيد

وكذلك الدليل القياسي إذا قيل : كل مسكر خمر وكل خمر حرام فإن لم يعرف المقدمتين لم يعرف النتيجة وإذا كان آية على شيء معين مثل كون الكوكب الفلاني كالجدي مثلا علامة على جهة الكعبة فلا بد أن يكون قد عرف الجدي وعرف أنه من جهة الشمال وعرف أن الجهة المعينة جهة الكعبة في الجنوب فإذا رآى الجدي علم أن جهة الكعبة تقابله ولولا تقدم معرفته بالدليل وهو الجدي والمدلول عليه وهو جهة الكعبة لم يمكنه الاستدلال لكنه عرف أولا الدليل والمدلول عليه ثم خفى عليه المدلول وهوجهة الكعبة في بعض الأوقات والمواضع فلما رآى الدليل عرف المدلول الذي كان قد جهله بعد علمه به كمن سمع مناديا ينادي باسم من يطلبه كابنه وأخيه وقد أضل مكانه فإذا سمع الاسم استدل به عل المسمى الذي كان يعرفه قبل هذا ولكنه قد حصل له به نوع من الجهل بعد ذلك

فالآيات الدالة على الرب تعالى : آياته القولية التي تكلم بها كالقرآن وآياته الفعلية التي خلقها في الأنفس والآفاق تدل عليه وتحصل بها التبصرة والذكرى وإن كان الرب تعالى قد عرفته الفطرة قبل هذا ثم حصل له نوع من الجهل أو الشك أو النسيان ونحو ذلك

ومما ينبغي أن يعرف أن علم الإنسان بالشيء وتصوره له شيء وعلمه بأنه عالم به شيء وعلمه بأن علمه حصل بالطريق المعين شيء ثالث وكذلك إرادته وحبه شيء وعلمه بأنه مريد محب له شيء وكون الإرادة والمحبة حصلت بالطريق المعين شيء ثالث

فالمتوضيء والمصلي والصائم يحصل في قلبه نية ضرورية للفعل الاختياري ولا يمكنه دفع ذلك عن نفسه وإن لم يتكلم بالنية ثم قد يظن أن النية إنما حصلت بتكلمه بها وهو غالط في ذلك

وكذلك قد يحصل له علم ضروري بمخبر الأخبار المتواترة ثم ينظر في دلالة الخبر فيظن أن العلم الحاصل له لم يحصل إلا بالنظر وهو قد كان قبل النظر عالما وقد يقال : إن النظر وكد ذلك العلم أو أحضره في النفس بعد ذهول النفس عنه وهذا مما يبين لك أن كثيرا من النظار يظنون أنهم لم يعرفوا الله بالطريق المعين من النظر الذي سلكوه وقد يكون صحيحا وقد يكون فاسدا فإن كان فاسدا فهو لا يوجب العلم وهم يظنون أن العلم إنما حصل به وهم غالطون

بل العلم قد حصل بدونه وإن كان صحيحا فقد يكون مؤكدا للعلم ومحضرا له ومبينا له وإن كان العلم حاصلا بدونه

هذه الأمور من تصورها حق التصور تبين له حقيقة الأمر في أصول العلم وعلم أن من ظن أن الأمر الذي يعرفه عامة الخلق وهو أجل المعارف عندهم من حصره في طريق معين لا يعرفه إلا بعضهم كان جاهلا لو كان ذلك الطريق صحيحا فكيف إذا كان فاسدا ! ؟

ومما يوضح الكلام في هذا الذكر المشروع لله هو كلام تام كما قال النبي صلى الله عليه و سلم : [أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر]

فأما مجرد ذكر الاسم المفرد وهو قول القائل : (الله الله) فلم تأت به الشريعة وليس هو كلاما مفيدا إذا الكلام المفيد أن يخبر عنه بإثبات شيء أو نفيه وأما التصور المفرد فلا فائدة فيه وإن كان ثابتا بأصل الفطرة وإن كان المعلوم بالفطرة ما تدخل فيه أمور ثبوتية وسلبية ." (١)

"((فلما لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك و المعاصي قال تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا إلى قوله : إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ (١) ، و قال تعالى : إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ (٢) الآية و قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان كما قال تعالى : كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ، فكان إلهامه لفجوره عقوبة له و عدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال إن الله خلقه ، ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر و المعاصي يجعله جزاء لذلك العمل كقوله تعالى : فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا (٣) و قال تعالى **: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ** اللَّهُ قُلُوبَهُمْ (٤) و قال وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) (٥) و هذا و أمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور و ترك مأمور و لا بد لهم من حركة و إرادة فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا))

.

ويقول (٦)

(١)) الإسراء : ٦٣-٦٥

(٢)) النحل ٩٩-١٠٠

(٣)) الأنعام ١٢٥

(٤)) الصف :٥

(٥)) الليل

(٦) الحسنة والسيئة ١/٩٣." (٢)

"خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ مَنْ فَعَلَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ يَهْدِيهِ اللَّهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿

(١) درء التعارض، ٣٦٢/٤

(٢) حقيقة الإخلاص عند شيخ الإسلام ابن تيمية وانحراف كثير من الفقهاء، ص/١٣

هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَأَخْبَرَ أَنَّ اتِّبَاعَ مَا يَكْرَهُهُ يَصْرِفُ عَنْ الْعِلْمِ وَالْهُدَى كَقَوْلِهِ : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ** اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ أَيْ : وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ أَيْ يَتْرُكُونَ الْإِيمَانَ وَنَحْنُ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ لِكَوْنِهِمْ لَمْ يُؤْمِنُوا أَوَّلَ مَرَّةٍ أَيْ مَا يُدْرِيكُمْ أَنَّهُ لَا يَكُونُ هَذَا وَهَذَا حِينَئِذٍ . وَمَنْ فَهِمَ مَعْنَى الْآيَةِ عَرَفَ خَطَأَ مَنْ قَالَ (أَنَّ بِمَعْنَى لَعَلَّ وَاسْتَشْكَلَ قِرَاءَةَ الْفَتْحِ ؛ بَلْ يَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّهَا أَحْسَنُ مِنْ قِرَاءَةِ الْكَسْرِ وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ . وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ . فَقَوْمٌ يَزْعُمُونَ أَنَّ مُجَرَّدَ الزُّهْدِ وَتَصْفِيَةِ الْقَلْبِ وَرِيَاضَةِ النَّفْسِ تُوجِبُ حُصُولَ الْعِلْمِ بِلَا سَبَبٍ آخَرَ . وَقَوْمٌ يَقُولُونَ : لَا أَثَرَ لِذَلِكَ بَلْ الْمُوجِبُ لِلْعِلْمِ الْعِلْمُ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ أَوْ الْعَقْلِيَّةِ . وَأَمَّا الْوَسَطُ : فَهُوَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ مُعَاوَنَةً عَلَى نَيْلِ الْعِلْمِ ؛ بَلْ هُوَ شَرْطٌ فِي حُصُولِ كَثِيرٍ مِنْ الْعِلْمِ وَلَيْسَ هُوَ وَحْدَهُ كَافِيًا ؛ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ آخَرَ إمَّا الْعِلْمِ بِالدَّلِيلِ فِيمَا لَا يُعْلَمُ إلَّا بِهِ وَإِمَّا التَّصَوُّرِ الصَّحِيحِ لِطَرَفَيْ الْقَضِيَّةِ فِي الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ . وَأَمَّا الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ النَّجَاةُ مِنْ النَّارِ وَيَسْعَدُ بِهِ الْعِبَادُ فَلَا يَحْصُلُ إلَّا بِاتِّبَاعِ الْكُتُبِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرُّسُلُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ ﴾ إلَخْ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهُدَى وَالْإِيمَانَ يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ طَرِيقِ الْعِلْمِ مَعَ عَدَمِ الْعَمَلِ بِهِ أَوْ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ وَالزُّهْدِ بِدُونِ الْعِلْمِ فَقَدْ ضَلَّ . وَأَضَلُّ مِنْهُمَا مَنْ سَلَكَ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ طَرِيقَ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ وَالْكَلَامِ بِدُونِ اعْتِبَارِ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا الْعَمَلِ بِمُوجِبِ الْعِلْمِ أَوْ سَلَكَ فِي الْعَمَلِ وَالزُّهْدِ طَرِيقَ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ وَالتَّصَوُّفِ بِدُونِ اعْتِبَارِ ذَلِكَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلَا اعْتِبَارِ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ ؛ فَأَعْرَضَ هَؤُلَاءِ عَنْ الْعِلْمِ وَالشَّرْعِ وَأَعْرَضَ أُولَئِكَ عَنْ الْعَمَلِ وَالشَّرْعِ فَضَلَّ كُلٌّ مِنْهُمَا مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ وَتَبَايَنُوا تَبَايُنًا عَظِيمًا حَتَّى أَشْبَهَ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَشْبَهَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى الضَّالِّينَ ؛ بَلْ صَارَ مِنْهُمَا مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَالْقَرَامِطَةِ والاتحادية وَأَمْثَالِهِمْ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْفَلَاسِفَةِ .." (١)

" عليه اليهود قال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين سورة الأعراف ١٤٦ وقال تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث الآية سورة الأعراف ١٧٥ ١٧٦

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه و سلم إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم فإن الإنسان كما قال تعالى وحملها الإنسان إنه كان ظلوما

---

(١) رسالة في علم الباطن والظاهر، ص/٨

جهولا سورة الأحزاب ٧٢ فبظلمه يكون غاويا وبجهله يكون ضالا وكثيرا ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالا في شيء غاويا في شيء آخر إذ هو ظلوم جهول ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر كما قال في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا سورة البقرة ١٠ وكما **قال فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم سورة الصف ٥

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى فإذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم وإذ عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى قال تعالى والذين ." (١)

" فصل : فلما ذكر في أول الحديث ما أوجبه من العدل وحرمه من الظلم على نفسه وعلى عباده ذكر بعد ذلك إحسانه إلى عباده مع غناه عنهم وفقرهم إليه وإنهم لا يقدرون على جلب منفعة لأنفسهم ولا دفع مضرة إلا أن يكون هو الميسر لذلك وأمر العباد أن يسألوه ذلك وأخبر أنهم لايقدرون على نفعه ولا ضره مع عظم ما يوصل إليهم من النعماء ويدفع عنهم البلاء وجلب المنفعة ودفع المضرة

أما أن يكون في الدين أو في الدنيا فصارت أربعة أقسام : الهداية والمغفرة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدين والطعام والكسوة وهما جلب المنفعة ودفع المضرة في الدنيا وإن شئت قلت : الهداية والمغفرة يتعلقان بالقلب الذي هو ملك البدن وهو الأصل في الأعمال الإرادية والطعام والكسوة يتعلقان بالبدن الطعام لجلب منفعته واللباس لدفع مضرته وفتح الأمر بالهداية فإنها وإن كانت الهداية النافعة هي المتعلقة بالدين فكل أعمال الناس تابعة لهدي الله إياهم كما قال سبحانه : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ﴾ وقال موسى : ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ : وقال : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾

ولهذا قيل : الهدى أربعة أقسام :

أحدها : الهداية إلى مصالح الدنيا فهذا مشترك بين الحيوان الناطق والأعجم وبين المؤمن والكافر

والثاني : الهدى بمعنى دعاء الخلق إلى ماينفعهم وأمرهم بذلك وهم نصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب فهذا أيضا يشترك فيه جميع المكلفين سواء آمنوا أو كفروا كما قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ فهذا مع قوله : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ يبين أن الهدي الذي أثبته هو البيان والدعاء والأمر والنهي والتعليم وما يتبع ذلك ليس هو الهدى الذي نفاه وهو القسم الثالث الذي لايقدر عليه إلا الله

والقسم الثالث : الهدى الذي هو جعل الهدى في القلوب وهو الذي يسميه بعضهم بالإلهام والإرشاد وبعضهم يقول : هو خلق القدرة على الإيمان كالتوفيق عندهم ونحو ذلك وهو بناء على أن الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل فمن قال ذلك من أهل الإثبات جعل التوفيق والهدى ونحو ذلك خلق القدرة على الطاعة

أما من قال أنهما استطاعتان :

---

(١) رسالة في التوبة، ص/٢٢٩

إحداهما : قبل الفعل وهي الاستطاعة المشروطة في التعكيف كما قال تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ وقال النبي صلى الله عليه و سلم لعمران بن حصين : [صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب] وهذه الإستطاعة يقترن بها الفعل تارة والترك أخرى وهي الإستطاعة التي لم تعرف القدرية غيرها كما أن أولئك المخالفين لهم من أهل الإثبات لم يعرفوا إلا المقارنة وأما الذي عليه المحققون من أئمة الفقه والحديث والكلام وغيرهم فإثبات النوعين جميعا كما قد بسطناه في غير هذا الموضع فإن الأدلة الشرعية والعقلية تثبت النوعين جميعا

والثانية : المقارنة للفعل وهي الموجبة له وهي المنفية عمن لم يفعل في مثل قوله : ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ وفي قوله : ﴿ لا يستطيعون سمعا ﴾

وهذا الهدى الذي يكثر ذكره في القرآن في مثل قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وقوله : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ وفي قوله : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ وأمثال ذلك وهذا هو الذي تنكر القدرية أن الله هو الفاعل له ويزعمون أن العبد هو الذي يهدي نفسه

وهذا الحديث وأمثاله حجة عليهم حيث قال : يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم فأمر العباد بأن يسألوه الهداية كما أمرهم بذلك في أم الكتاب في قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

وعن القدرية أن الله لايقدر من الهدى إلى على مافعله من إرسال الرسل ونصب الأدلة وإراحة العلة ولامزية عندهم للمؤمن على الكافر في هداية الله تعالى ولانعمة له على المؤمن أعظم من نعمته على الكافر في باب الهدى

وقد بين الأختصاص في هذه بعد عموم الدعوة في قوله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ فقد جمع الحديث تنزيهه عن الظلم الذي يجوزه عليه بعض المثبتة وبيان أنه هو الذي يهدي عباده ردا على القدرية فأخبر هناك بعدله الذي يذكره بعض المثبتة وأخبر هنا بإحسانه وقدرته الذي تنكره القدرية وإن كان كل منهما قصده تعظيما لا يعرف ما اشتمل عليه قوله

والقسم الرابع : الهدى في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ فقوله : ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ كقوله : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ على أحد القولين في الآية

وهذا الهدى ثواب الاهتداء في الدنيا كما أن ضلال الآخرة جزاء ضلال الدنيا وكما أن قصد الشر في الدنيا جزاؤه الهدى إلى طريق النار كما قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ وقال : ﴿ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ وقال : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال

رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ﴾

فأخبر أن الضالين في الدنيا يحشرون يوم القيامة عميا وبكما وصما فإن الجزاء أبدا من جنس العمل كما قال صلى الله عليه و سلم : [الراحمون يرحمهم الرحمن إرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء] وقال : [من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل له الله به طريقا إلى الجنة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ماكان العبد في عون أخيه] وقال : [من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] وقد قال تعالى : ﴿ وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ وقال : ﴿ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴾ وأمثال هذا كثير في الكتاب والسنة

ولهذا أيضا يجزى الرجل في الدنيا على ما فعله من خير الهدى بما يفتح عليه من هدى آخر ولهذا قيل : من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم وقد قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ﴾ إلى قوله : ﴿ مستقيما ﴾ وقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ﴾ وقال : ﴿ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ فسروه بالنصر والنجاة كقوله : ﴿ يوم الفرقان ﴾ وقد قيل نور يفرق به بين الحق والباطل ومثله قوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وعد المتقين بالمخارج من الضيق وبرزق المنافع

ومن هذا الباب قوله : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ ومنه قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ وقال : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ وقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ يعمهون ﴾ وهذا باب واسع

ولهذا قال من قال من السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد شاع في لسان العامة أن قوله : ﴿ اتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ من الباب الأول حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يرابط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل : واتقوا الله ويعلمكم ولا قال : فيعلمكم وإنما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني

وقد يقال : العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال زرني وأزورك وسلم علينا ونسلم عليك ونحو ذلك مما يقتضى إقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين كما لو قال : لسيده أعتقني ولك علي ألف أو قالت المرأة لزوجها : طلقني ولك ألف أو : اخلعني ولك ألف فإن ذلك بمنزلة قولها : بألف أو على ألف

وكذلك أيضا لو قال : أنت حر وعليك ألف أو : أنت طالق وعليك ألف فإنه كقوله : علي ألف أو : بألف عند جمهور الفقهاء والفرق بينهما قول شاذ ويقول أحد المتعاوضين للآخر : أعطيك هذا وآخذ هذا ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر : نعم وإن لم يكن أحدهما هو السبب للآخر دون العكس

فقوله : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ قد يكون من هذا الباب فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا ." [1]

"وقوله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً] (الأنفال: ٢٩).

وقوله: [وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ] (التغابن: ١١) ونحوها.

وقوله في الضلال: [فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ] (الصف: ٥).

وقوله: [فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً] (البقرة: ١٠).

وقوله: [وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ] (الأنعام: ١١٠).

[وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] (الزخرف: ٣٦).

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر _ في هداية من يهديه، وضلال من يضله _ ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

وكذلك أخبر في عدة آيات أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وفي آيات أخر أخبر عن الأسباب التي تُنال بها مغفرة الله، مثل قوله: [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى] (طه: ٨٢).

والأسباب التي يُستحق بها العذاب مثل قوله: [إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى] (طه: ٤٨).

وكذلك أخبر في آيات كثيرة أنه يرزق من يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء.

وفي آيات أخر ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه، مثل قوله: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] (الطلاق: ٢_٣).

وقوله: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً] (الطلاق: ٤).

كما ثبت في الصحيح عن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ أنه قال: =من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه+(١).

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٢٥٥٧).." [2]

" واليهود وكفار مكة وغير هؤلاء من المعاندين الجاحدين

ثم هؤلاء إذا لم يتبعوا التصديق بموجبه من عمل القلب واللسان وغير ذلك فإنه قد يطبع على قلوبهم حتى يزول عنها التصديق كما قال تعالى وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فما زاغوا أزاغ الله قلوبهم

---

(١) الفتاوى الكبرى، ١/١٠٠

(٢) القصيدة التائية في القدر لابن تيمية دراسة وتحقيق وشرح، ص/١٥٤

فهؤلاء كانوا عالمين فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال موسى لفرعون لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وقال تعالى وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب إلى قوله سبحانه كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وقال تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية لؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم انها جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون

فبين سبحانه أن مجيء الآيات لا يوجب الإيمان بقوله تعالى وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم أي فتكون هذه الأمور الثلاثة أن لا يؤمنوا وأن نقلب أفئدتهم وأبصارهم وأن نذرهم في طغيانهم يعمهون أي وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة وبهذا المعنى تبين أن قراءة الفتح أحسن

وإن من قال أن المفتوحة بمعنى لعل فظن أن قوله ونقلب أفئدتهم كلام مبتدأ لم يفهم معنى الآية وإذا جعل ونقلب أفئدتهم داخلا في خبر أن تبين معنى الآية فإن كثيرا من الناس يؤمنون ولا تقلب قلوبهم لكن قد يحصل تقليب أفئدتهم وأبصارهم وقد لا يحصل أي فما يدريكم إنهم لا يؤمنون والمراد وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون بل نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة والمعنى وما يدريكم أن الأمر بخلاف ما تظنونه من إيمانهم عند مجي الآيات ونذرهم في طغيانهم يعمهون فيعاقبون على ترك ." (١)

" وطوائف من متأخري الأشعرية والفلاسفة النفاة والقرامطة الباطنية أو أنه في كل مكان بذاته كما يقول ذلك طوائف من عبادهم ومتكلميهم وصوفيتهم وعامتهم ومنهم من يقول ليس هو داخلا فيه ولا خارجا عنه ولا حالا فيه وليس في مكان من الأمكنة فهؤلاء ينفون عنه الوصفين المتقابلين جميعا وهذا قول طوائف من متكلميهم ونظارهم والأول هو الغالب على عامتهم وعبادهم وأهل المعرفة والتحقيق منهم والثاني هو الغالب على نظارهم ومتكلميهم وأهل البحث منهم والقياس فيهم وكثير منهم يجمع بين القولين ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما فيقول لا هو داخل العالم ولا خارجه وفي حال تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان ولا يخلو منه شيء

وهذه المقالات فسادها معلوم بالضرورة العقلية وإن كان قد تواطأ عليها جماعة كثيرة فإن الجماعة الذين يقلدون مذهبا تلقاه بعضهم عن بعض يجوز اتفاقهم على جحد الضروريات كما يجوز الاتفاق على الكذب مع المواطئة والاتفاق ولهذا يوجد في أهل المذاهب الباطلة كالنصارى والرافضة والفلاسفة من يصر على القول الذي يعلم فساده بالضرورة وإنما الممتنع ما يمتنع على أهل التواتر وهو اتفاق الجماعة العظيمة على الكذب من غير مواطأة ولا اتفاق فيمتنع عليهم جحد ما يعلم ثبوته بالاضطرار وإثبات ما يعلم نفيه بالاضطرار لأن هذا اتفاق على الكذب وأهل التواتر لا يتصور منهم الكذب فأما إذا لقنوا قولا بشبهة وحجج واعتقدوا صحته جاز أن يصروا على اعتقاده وإن كان مخالفا لضرورة العقل وإن كانوا جماعة عظيمة ولهذا يطبع الله على قلوب الكفار فلا يعرفون الحق قال الله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وقال تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال تعالى كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار وإنما تؤخذ ." (٢)

---

(١) العقيدة الأصفهانية، ص/١٧٩

(٢) بيان تلبيس الجهمية، ١/٧

"وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [٢٦، ٥٥/٢٧]، ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [٢٣/٨٨]، ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [٣٦/٨٣]، قوله:
﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ

هَدَيْتَنَا ﴾ [٣/٨]، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [٦١/٥] يفسر هذا عدة أحاديث.
﴿ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ [٣٩/٥٦] ربما أدخل في هذا وهو غلط، إلا على وجه آخر. ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ [٥١/٤٧] هو الأيد؛ ليس الأيدي كقوله: ﴿ دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ [٣٨/١٧] بخلاف قوله: ﴿ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [٣٨/٤٥]، ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [٣٩/٦٧] وقد حققه حديث ابن مسعود وابن عمر وغيرهما وآثار كثيرة. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [٤٨/١٠]، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٥٧/٢٩]، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ [٦٨/٤٢] كما فسره حديث أبي سعيد وأبي هريرة وابن مسعود وغيرهم. ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [٧٦/٢١]، ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [٢/١٠٥](١).

[الأشعري وأئمة أصحابه يثبتون الصفات الخبرية لا يقتصرون على السبع]

---

(١) قلت: انتهت الآيات الدالة على الصفات التي ينكرها متأخرو الجهمية كما سبق وذكر بعض الآيات التي أدخلت في الصفات وليست منها وهي من مجموع ٦٩ ورقة ٢٧٢، ٢٧٣ وللفهارس العامة جـ١/١١٩.." (١)

"فقوله: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره» يتناول ذلك فمن قصر في واحد منها فقد ظلم نفسه بحسب تقصيره والعبد إذا عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ [٤/٦٦] وقال: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

وإذا ترك العبد العمل بعلمه عاقبه الله بأن يضله عن الهدى وأن لا يعرفه الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [٦١/٥] وقال: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [٦/١١٠].

وقال: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [٢/١٠] وفي الحديث: «إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإذا زاد زيد فيها حتى تغلو كل قلبه فذلك الران

الذي قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ » [٨٣/١٤] رواه الترمذي وصححه.

فهذه الأمور يبين الله بها أجناس ظلم العبد نفسه، لكن لكل إنسان بحسبه وبحسب درجته فلنفسه عليه أن يعفها وحدود عليها أن يحفظها ومحارم عليه أن يجتنبها.

---

(١) المستدرك على فتاوى ابن تيمية. جمع: ابن قاسم، ص/٧١

فإن أجناس الأعمال ثلاثة: مأمور به. فالواجب هو الفرائض ومنهي عنه وهو المحرم، ومباح له حد فتعديه تعد لحدود الله بل قد تكون الزيادة على بعض الواجبات والمستحبات تعديا لحدود الله. وذلك هو الإسراف كما قال: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ [٣/١٤٧].." (١)

"ص -٧- وطوائف من متأخري الأشعرية والفلاسفة النفاة والقرامطة الباطنية أو أنه في كل مكان بذاته كما يقول ذلك طوائف من عبادهم ومتكلميهم وصوفيتهم وعامتهم ومنهم من يقول: ليس هو داخلا فيه ولا خارجا عنه ولا حالا فيه وليس في مكان من الأمكنة فهؤلاء ينفون عنه الوصفين المتقابلين جميعا وهذا قول طوائف من متكلميهم ونظارهم و(الأول) هو الغالب على عامتهم وعبادهم وأهل المعرفة والتحقيق منهم و (الثاني) هو الغالب على نظارهم ومتكلميهم وأهل البحث منهم والقياس فيهم وكثير منهم يجمع بين القولين ففي حال نظره وبحثه يقول بسلب الوصفين المتقابلين كليهما فيقول لا هو داخل العالم ولا خارجه وفي حال تعبده وتألهه يقول بأنه في كل مكان ولا يخلو منه شيء.

وهذه المقالات فسادها معلوم بالضرورة العقلية وإن كان قد تواطأ عليها جماعة كثيرة فإن الجماعة الذين يقلدون مذهبا تلقاه بعضهم عن بعض يجوز اتفاقهم على جحد الضروريات كما يجوز الاتفاق على الكذب مع المواطئة والاتفاق ولهذا يوجد في أهل المذاهب الباطلة كالنصارى والرافضة والفلاسفة من يصر على القول الذي يعلم فساده بالضرورة وإنما الممتنع ما يمتنع على "أهل التواتر" وهو اتفاق الجماعة العظيمة على الكذب من غير مواطأة ولا اتفاق فيمتنع عليهم جحد ما يعلم ثبوته بالاضطرار وإثبات ما يعلم نفيه بالاضطرار لأن هذا اتفاق على الكذب وأهل التواتر لا يتصور منهم الكذب فأما إذا لقنوا قولا بشبهة وحجج واعتقدوا صحته جاز أن يصروا على اعتقاده وإن كان مخالفا لضرورة العقل وإن كانوا جماعة عظيمة ولهذا يطبع الله على قلوب الكفار فلا يعرفون الحق قال الله تعالى﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ وإنما تؤخذ." (٢)

"التوحيد ؛ والنبوة ؛ والمعاد بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر ؛ خلاف المتكلمين من المسلمين والفلاسفة وأتباعهم ، واحتج فيه بالأمثال الصمدية ؛ التي هي المقاييس العقلية المفيدة لليقين وقد بسطنا الكلام في غير هذا الموضع . وأما الآيات المشهودة فإن ما يشهد وما يعلم بالتواتر : من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم ، ومن نصر الرسل وأتباعهم على الوجه الذي وقع وما علم من إكرام الله تعالى لأهل طاعته وجعل العاقبة له وانتقامه من أهل معصيته وجعل الدائرة عليهم : فيه عبرة تبين أمره ونهيه ؛ ووعده ووعيده ؛ وغير ذلك مما يوافق القرآن . ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ إلى قوله : ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ . فهذا بين الاعتبار في أصول الدين وإن كان قد تناول الاعتبار في فروعه وكذلك قوله : ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ إلى قوله : ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ . وأما العمل ، فإن العمل

---

(١) المستدرك على فتاوى ابن تيمية. جمع: ابن قاسم، ص/١٨١

(٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، ٦/٢

بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه ؛ بل قد تذهبه قال الله تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم." [1]

"ونفي هذين جميعا هو من أقوال القرامطة الباطنية الذين هم أئمة الجهمية ؛ فإن جهما مع القرامطة وغلاة المتفلسفة يقولون : لا نقول : هو شيء ولا ليس بشيء كما يقولون : لا نقول : هو موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل ولا قديم ولا محدث . وأمثال ذلك . وهذه المقالات فساداها معلوم بالضرورة العقلية وإن كان قد تواطأ عليها جماعة كثيرة ؛ فإن الجماعة الذين يقلدون مذهبا تلقاه بعضهم عن بعض - يجوز اتفاقهم على جحد الضروريات كما يجوز الاتفاق على الكذب مع المواطئة والاتفاق ؛ ولهذا يوجد في أهل المذاهب الباطلة كالنصارى والرافضة والفلاسفة من يصر على القول الذي يعلم فساده بالضرورة . وإنما الممتنع ما يمتنع على " أهل التواتر " وهو اتفاق الجماعة العظيمة على الكذب من غير مواطأة ولا اتفاق فيمتنع عليهم جحد ما يعلم ثبوته بالاضطرار وإثبات ما يعلم نفيه بالاضطرار ؛ لأن هذا اتفاق على الكذب . وأهل التواتر لا يتصور منهم الكذب ؛ فأما إذا لقنوا قولا بشبهة وحجج واعتقدوا صحته جاز أن يصروا على اعتقاده وإن كان مخالفا لضرورة العقل وإن كانوا جماعة عظيمة ؛ ولهذا يطبع الله على قلوب الكفار فلا يعرفون الحق قال الله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾." [2]

"يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا كالممرور الذي يجد العسل مرا : فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته وكذلك من فسد باطنه قال تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ . وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ . وقال في الآية الأخرى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ . و " الغلف " : جمع أغلف وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقلف كأنهم جعلوا المانع خلقة أي خلقت القلوب وعليها أغطية فقال الله تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ و ﴿ طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ . وكذلك قالوا : ﴿ يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ﴾ قال : ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ أي لأفهمهم ما سمعوه . ثم قال : ولو أفهمهم مع هذه الحال التي هم عليها ﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾ فقد فسدت فطرتهم فلم يفهموا ولو فهموا لم يعملوا . فنفى عنهم صحة القوة العلمية وصحة القوة العملية وقال : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل." [3]

---

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء - تحقيق أنور الباز)، ٣٣٢/٣

(٢) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء - تحقيق أنور الباز)، ٢٧٤/٥

(٣) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء - تحقيق أنور الباز)، ٢٦/٧

"يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية . وهذا معنى كونها سيئات وقبائح أي أنها تسوء صاحبها وتضره وقد تسوء أيضا غيره وتضره كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره . يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق في العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء كما في قوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقوله ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقوله ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ . ثم إنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه وإن افترقا من وجه آخر وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا وهذا فعلا للعبد دون هذا ؛ ولكن يقولون إن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد." (١)

"(*) الفرق السادس : أن ما يبتلى به من الذنوب وإن كان خلقا لله فهو عقوبة له على عدم فعل ما خلقه الله له وفطره عليه ، فإنه خلقه لعبادته وحده ، ودل عليه الفطرة ، فلما لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه عوقب على ذلك ، بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي . قال تعالى ﴿ اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ – إلى قوله – ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ ﴿ وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ . فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال : إن الله خلقه ، ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل ، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقال : ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور ، ولا بد لهم من حركة وإرادة ؛ فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا." (٢)

"البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ﴾ ﴿ وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله ولي

---

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ٨/١٢٤

(٢) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ٨/٢٢٢

الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال تعالى . ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ . وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة . وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وهذا استفهام نفي وإنكار : أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون." (١)

"وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد ، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . و " حسن القصد " من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه . و " العلم الشرعي " من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق ، والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به . قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ . هذا جاهل وهذا ظالم . قال تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ . مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد فقالوا : كل من عصى الله." (٢)

"رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئا لم يعهده إلى الناس ؟ فقال : لا وفي لفظ : إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه ﴾ . وأما " العلم اللدني " فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه واتباعهم ما يحبه ما لا يفتح به على غيرهم . وهذا كما قال علي : إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه وفي الأثر : " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم " وقد دل القرآن على ذلك في غير موضع كقوله : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا ﴾ ﴿ وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ﴾ ﴿ ولهديناهم صراطا مستقيما ﴾ فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطا مستقيما وقال تعالى : ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ وقال : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ وقال تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ وقال تعالى : ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ وقال تعالى : ﴿

---

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٠/١٠

(٢) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ٥٤٤/١٠

هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى كقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم." (١)

"السمحة ؛ فإن الإنسان قد يفعل شيئا ناسيا أو مخطئا ويكون لتقصيره في طاعة الله علما وعملا لا يعلم أن ذلك مرفوع عنه ؛ إما لجهله وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة في الحنيفية السمحة . والعلماء قد تنازعوا في كثير من مسائل الخطأ والنسيان واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به كمن يبطل الصوم بالنسيان وآخرون بالخطأ وكذلك الإحرام وكذلك الكلام في الصلاة وكذلك إذا فعل المخلوق عليه ناسيا أو مخطئا فإذا كان الله سبحانه قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان وخفي ذلك في مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين كان هذا عقوبة لمن لم يجد في نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضي مؤاخذته بالخطأ والنسيان فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلا في حقه لعدم العلم لا لنسخ الشريعة . والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع كقوله : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ وقال : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ وقال : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾." (٢)

"قلت : وقد قال في آخر السورة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ . وقال تعالى ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ – إلى قوله – ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ وقال تعالى أيضا ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ . وقال تعالى ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا ﴾ وقال تعالى في النوعين ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق." (٣)

"ومن تدبر القرآن : تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل . كقوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك

---

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٣/٢٤٥

(٢) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٤/١٥٢

(٣) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٤/٢٤٢

يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقال تعالى ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ . وهذا وأمثاله : بذلوا فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور . وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له . ولا بد لهم من حركة وإرادة . فلما لم يتحركوا بالحسنات : حركوا بالسيئات عدلا من الله . حيث وضع ذلك موضعه في محله القابل له – وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملا – فإذا لم يعمل الحسنة استعمل في عمل السيئة . كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك . وهذا الوجه – إذا حقق – يقطع مادة كلام القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله . ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلما . والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .." (١)

"تقواهم ﴾ وقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ . ومنه قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾ ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾ ﴿ وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ . وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة كما قال الله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ وقال : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ . وقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ يعمهون ﴾ . وهذا باب واسع . ولهذا قال من قال من السلف : أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وأن من عقوبة السيئة السيئة بعدها . وقد شاع في لسان العامة أن قوله : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ من الباب الأول ؛ حيث يستدلون بذلك على أن التقوى سبب تعليم الله وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل ؛ واتقوا الله ويعلمكم ولا قال فيعلمكم . وإنما أتى بواو العطف وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني وقد يقال العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم كما يقال : زرني وأزورك ؛ وسلم علينا ونسلم." (٢)

"من إحسان ربه والاستغفار لما تقدم من إساءة العبد إلى نفسه والاستعانة لما يستقبله العبد من أموره فلا بد لكل عبد من الثلاثة

فقوله الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره يتناول ذلك فمن قصر في واحدة منها فقد ظلم نفسه بحسب تقصيره والعبد إذا عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى ٤ ٦٦ ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم ﴾ الآية وقال ٤٧ ١٧ ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾

وإذا ترك العبد العمل بعلمه عافية الله بأن يضله عن الهدى وأن لا يعرفه الصراط المستقيم كما قال تعالى ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ وقال ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ ودل ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾

---

(١) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٤/٣٣٥

(٢) مجموع الفتاوى (ط: دار الوفاء – تحقيق أنور الباز)، ١٨/١٧٧

وفي الحديث إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت في قلبه نكتة سوداء فإذا تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى تعلو كل قلبه فذلك الران الذي قال تعالى ٨٣ ١٤ ﴿كلا بل ران على قلوبهم ﴾ رواه الترمذي وصححه

فهذه الأمور يبين الله بها أجناس ظلم العبد نفسه لكن لكل إنسان بحسبه وبحسب درجته فما من صباح يصبح إلا ولله على عبادة حقوق ولنفسه ولخلقه عليه حقوق فلنفسه عليه أن يعفها وحدود عليه أن يحفظها ومحارم عليه أن يتجنبها

فإن أجناس الأعمال ثلاثة مأمور به قالوا هو الفرائض ومنهى عنه وهو المحرم ومباح له حد فتعديه حدود الله بل قد تكون الزيادة بعض الواجبات والمستحبات لحدود الله وذلك هو الاسراف كما قال ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا ﴾

." (١)

"ص -٣٣٢- التوحيد، والنبوة، والمعاد بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر، خلاف المتكلمين من المسلمين والفلاسفة وأتباعهم، واحتج فيه بالأمثال الصمدية، التي هي المقاييس العقلية المفيدة لليقين، وقد بسطنا الكلام في غير هذا الموضع .

وأما الآيات المشهودة، فإن ما يشهد، وما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم، ومن نصر الرسل وأتباعهم على الوجه الذي وقع، وما علم من إكرام الله تعالى لأهل طاعته وجعل العاقبة له، وانتقامه من أهل معصيته وجعل الدائرة عليهم فيه عبرة تبين أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وغير ذلك، مما يوافق القرآن .

ولهذا قال تعالى : ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ إلى قوله : ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : ٢] .

فهذا بين الاعتبار في أصول الدين، وإن كان قد تناول الاعتبار في فروعه، وكذلك قوله : ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ إلى قوله : ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [آل عمران: ١٣] .

وأما العمل، فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه، قال الله تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] ،." (٢)

"ص -٢٧٤- ونفي هذين جميعا هو من أقوال القرامطة الباطنية الذين هم أئمة الجهمية؛ فإن جهما مع القرامطة وغلاة المتفلسفة يقولون : لا نقول : هو شيء، ولا ليس بشيء، كما يقولون : لا نقول : هو موجود ولا معدوم، ولا حي ولا ميت، ولا عالم ولا جاهل، ولا قديم، ولا محدث، وأمثال ذلك .

وهذه المقالات فسادها معلوم بالضرورة العقلية، وإن كان قد تواطأ عليها جماعة كثيرة؛ فإن الجماعة الذين يقلدون مذهبا

(١) مختصر الفتاوى المصرية، ص/١١١

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٧/٤١

تلقاه بعضهم عن بعض . يجوز اتفاقهم على جحد الضروريات، كما يجوز الاتفاق على الكذب مع المواطأة والاتفاق؛ ولهذا يوجد في أهل المذاهب الباطلة كالنصارى والرافضة والفلاسفة من يصر على القول الذي يعلم فساده بالضرورة .

وإنما الممتنع ما يمتنع على [أهل التواتر] وهو اتفاق الجماعة العظيمة على الكذب من غير مواطأة ولا اتفاق، فيمتنع عليهم جحد ما يعلم ثبوته بالاضطرار، وإثبات ما يعلم نفيه بالاضطرار؛ لأن هذا اتفاق على الكذب، وأهل التواتر لا يتصور منهم الكذب، فأما إذا لقنوا قولا بشبهة وحجج واعتقدوا صحته جاز أن يصروا على اعتقاده، وإن كان مخالفا لضرورة العقل، وإن كانوا جماعة عظيمة؛ ولهذا يطبع الله على قلوب الكفار فلا يعرفون الحق، قال الله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ [غافر : ٣٥] ،." (١)

"ص -٢٦- يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا، كالممرور الذي يجد العسل مرا، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقال في الآية الأخرى : ﴿وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم﴾ [البقرة : ٨٨] . و [الغلف] جمع أغلف، وهو ذو الغلاف الذي في غلاف مثل الأقلف، كأنهم جعلوا المانع خلقة، أي خلقت القلوب وعليها أغطية، فقال الله تعالى : ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ و ﴿طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا﴾ ، وقال تعالى : ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ [محمد : ١٦] .." (٢)

"ص -١٢٤- يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمي ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا و نحو ذلك، كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم . فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذي والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك . فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك، هي أمور ضارة مكروهة مؤذية . وهذا معني كونها سيئات وقبائح، أي أنها تسوء صاحبها وتضره، وقد تسوء أيضا غيره وتضره، كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره .

يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق في العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء، كما في قوله تعالى : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقوله : ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٩/٧٩

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٢٦/١١١

] ، وقوله : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥٠]
ثم إنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزي عليها ويستحق الذم عليها والعقاب، وهي مخلوقة لله تعالى فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه من أعمال العباد ابتداء كالقول فيما يخلقه جزاء من هذا الوجه، وإن افترقا من وجه آخر، وهم لا يمكنهم أن يفرقوا بينهما بفرق يعود إلى كون هذا فعلا لله دون هذا، وهذا فعلا للعبد دون هذا، ولكن يقولون : إن هذا يحسن من الله تعالى لكونه جزاء للعبد، وذلك لا يحسن منه لكونه ابتداء للعبد." (١)

"وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] . وهذا استفهام نفي وإنكار، أي : وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ [إنها] بالكسر تكون." (٢)

"ص -٥٤٤- وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم، وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم .
فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم . وحسن القصد : من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه . والعلم الشرعي : من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح، فإن العلم قائد والعمل سائق والنفس حرون، فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها، وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها، فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك، فغايته أن يستطرح للقدر، وإذا ترك العمل حار السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه، فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائر عن الطريق زائغ عنه مع علمه به .
قال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] . هذا جاهل وهذا ظالم، قال تعالى : ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم والظالم جهل الحقيقة المانعة له من العلم . قال تعالى : ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ [النساء : ١٧] .
قال أبو العالية : سألت أصحاب محمد فقالوا : كل من عصى الله." (٣)

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٥٢/١٢٤
(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٩/١٥٥
(٣) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٩٣/١٦٥

"وأخبر أن اتباع ما يكرهه يصرف عن العلم والهدى، كقوله : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقوله : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠]." (١)

"ص –١٥٢– السمحة؛فإن الإنسان قد يفعل شيئا ناسيا أو مخطئا ويكون لتقصيره فى طاعة الله علما وعملا، ولا يعلم أن ذلك مرفوع عنه؛إما لجهله، وإما لكونه ليس هناك من يفتيه بالرخصة فى الحنيفية السمحة .

والعلماء قد تنازعوا فى كثير من مسائل الخطأ والنسيان، واعتقد كثير منهم بطلان العبادات أو بعضها به، كمن يبطل الصوم بالنسيان، وآخرون بالخطأ، وكذلك الإحرام، وكذلك الكلام فى الصلاة، وكذلك إذا فعل المحلوف عليه ناسيا أو مخطئا، فإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد نفى المؤاخذة بالخطأ والنسيان، وخفى ذلك فى مواضع كثيرة على كثير من علماء المسلمين، كان هذا عقوبة لمن لم يجد فى نفسه ثقة إلا هؤلاء فيفتونه بما يقتضى مؤاخذته بالخطأ والنسيان، فلا يكون مقتضى هذا الدعاء حاصلا فى حقه لعدم العلم، لالنسخ الشريعة .

والله ـ سبحانه ـ جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقال : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] وقال : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال : **﴿ فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .." (٢)

"ص –٢٤٢– قلت : وقد قال فى آخر السورة : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور : ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : ١٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إلى قوله : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ : [الصف : ٥ ـ ٧] ، وقال تعالى : ﴿ قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال تعالى ـ أيضا ـ : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة :

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٨/٢٢٢

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١١٥/٢٣٣

٢٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب." (١)

"ص -٣٣٥- ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكره الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨-١٠] .

وهذا وأمثاله بذلوا فيه أعمالا، عاقبهم بها على فعل محظور، وترك مأمور .

وتلك الأمور إنما كانت منهم وخلقت فيهم؛ لكونهم لم يفعلوا ما خلقوا له، ولابد لهم من حركة وإرادة، فلما لم يتحركوا بالحسنات حركوا بالسيئات، عدلا من الله، حيث وضع ذلك موضعه فى محله القابل له . وهو القلب الذي لا يكون إلا عاملا . فإذا لم يعمل الحسنة استعمل فى عمل السيئة، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها شغلتك .

وهذا الوجه . إذا حقق . يقطع مادة كلام القدرية المكذبة، والمجبرة الذين يقولون : إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، ويجعلون خلقها والتعذيب عليها ظلما، والذين يقولون : إنه خلق كفر الكافرين ومعصيتهم، وعاقبهم على ذلك لا لسبب ولا لحكمة .." (٢)

"ص -١٧٧- وقوله : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدي ﴾ [الكهف : ١٣] . ومنه قوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ [الفتح : ١ : ٣] .

وبإزاء ذلك أن الضلال والمعاصي تكون بسبب الذنوب المتقدمة، كما قال الله : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾ [البقرة : ٨٨] ، ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ [النساء : ١٥٥] ، وقال : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ [المائدة : ١٣] . وقال : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ لا يؤمنون ﴾ إلى قوله : ﴿ يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] . وهذا باب واسع .

ولهذا قال من قال من السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها . وقد شاع في لسان العامة أن قوله : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، من الباب الأول؛ حيث يستدلون بذلك على أن التقوي سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل؛ واتقوا الله ويعلمكم، ولا قال : فيعلمكم . وإنما أتي بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني، وقد يقال : العطف قد يتضمن معني الاقتران والتلازم، كما يقال : زرني وأزورك، وسلم علينا ونسلم." (٣)

---

(١) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٧٨/٢٣٤

(٢) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ١٧٤/٢٣٤

(٣) مجموع الفتاوى (مجمع الملك فهد)، ٤٤/٢٥٥

"وَلِهَذَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴾ سَيَتَّعِظُ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخْشَى اللَّهَ . وَفِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ إنَّمَا يَتَّعِظُ مَنْ يَرْجِعُ إلَى الطَّاعَةِ . وَهَذَا لِأَنَّ التَّذَكُّرَ التَّامَّ يَسْتَلْزِمُ التَّأَثُّرَ بِمَا تَذَكَّرَهُ ؛ فَإِنْ تَذَكَّرَ مَحْبُوبًا طَلَبَهُ وَإِنْ تَذَكَّرَ مَرْهُوبًا هَرَبَ مِنْهُ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَقَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ . فَنَفَى الْإِنْذَارَ عَنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فَأَثْبَتَ لَهُمْ الْإِنْذَارَ مِنْ وَجْهٍ وَنَفَاهُ عَنْهُمْ مِنْ وَجْهٍ ؛ فَإِنَّ الْإِنْذَارَ هُوَ الْإِعْلَامُ بِالْمَخُوفِ . فَالْإِنْذَارُ مِثْلُ التَّعْلِيمِ وَالتَّخْوِيفِ فَمَنْ عَلَّمْته فَتَعَلَّمَ فَقَدْ تَمَّ تَعْلِيمُهُ وَآخَرُ يَقُولُ : عَلَّمْته فَلَمْ يَتَعَلَّمْ . وَكَذَلِكَ مَنْ خَوَّفْته فَخَافَ فَهَذَا هُوَ الَّذِي تَمَّ تَخْوِيفُهُ . وَأَمَّا مَنْ خُوِّفَ فَمَا خَافَ ؛ فَلَمْ يَتِمَّ تَخْوِيفُهُ . وَكَذَلِكَ مَنْ هَدَيْته فَاهْتَدَى ؛ تَمَّ هُدَاهُ وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . وَمَنْ هَدَيْته فَلَمْ يَهْتَدِ – كَمَا قَالَ : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ – فَلَمْ يَتِمَّ هُدَاهُ كَمَا تَقُولُ : قَطَّعْته فَانْقَطَعَ وَقَطَّعْته فَمَا انْقَطَعَ . فَالْمُؤَثِّرُ التَّامُّ يَسْتَلْزِمُ أَثَرَهُ : فَمَتَى لَمْ يَحْصُلْ أَثَرُهُ لَمْ يَكُنْ تَامًّا وَالْفِعْلُ إذَا صَادَفَ مَحَلًّا قَابِلًا تَمَّ وَإِلَّا لَمْ يَتِمَّ . وَالْعِلْمُ بِالْمَحْبُوبِ يُورِثُ طَلَبَهُ وَالْعِلْمُ بِالْمَكْرُوهِ يُورِثُ تَرْكَهُ ؛ وَلِهَذَا يُسَمَّى هَذَا الْعِلْمُ : الدَّاعِيَ وَيُقَالُ : الدَّاعِي مَعَ الْقُدْرَةِ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمَقْدُورِ ، وَهُوَ الْعِلْمُ بِالْمَطْلُوبِ الْمُسْتَلْزِمِ لِإِرَادَةِ الْمَعْلُومِ الْمُرَادِ ، وَهَذَا كُلُّهُ إنَّمَا يَحْصُلُ مَعَ صِحَّةِ الْفِطْرَةِ وَسَلَامَتِهَا وَأَمَّا مَعَ فَسَادِهَا فَقَدْ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِاللَّذِيذِ فَلَا يَجِدُ لَهُ لَذَّةً بَلْ يُؤْلِمُهُ ، وَكَذَلِكَ يَلْتَذُّ بِالْمُؤْلِمِ لِفَسَادِ الْفِطْرَةِ ، وَالْفَسَادُ يَتَنَاوَلُ الْقُوَّةَ الْعِلْمِيَّةَ وَالْقُوَّةَ الْعَمَلِيَّةَ جَمِيعًا كَالْمَمْرُورِ الَّذِي يَجِدُ الْعَسَلَ مُرًّا : فَإِنَّهُ فَسَدَ نَفْسُ إحْسَاسِهِ حَتَّى كَانَ يُحِسُّ بِهِ عَلَى خِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ لِلْمِرَّةِ الَّتِي مَازَجَتْهُ وَكَذَلِكَ مَنْ فَسَدَ بَاطِنُهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ . وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ . وَ " الْغُلْفُ " : جَمْعُ أَغْلَفَ وَهُوَ ذُو الْغِلَافِ الَّذِي فِي غِلَافٍ مِثْلِ الْأَقْلَفِ كَأَنَّهُمْ جَعَلُوا الْمَانِعَ خِلْقَةً أَيْ خُلِقَتْ الْقُلُوبُ وَعَلَيْهَا أَغْطِيَةٌ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ و ﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ حَتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ . وَكَذَلِكَ قَالُوا : ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ قَالَ : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ أَيْ لَأَفْهَمَهُمْ مَا سَمِعُوهُ . ثُمَّ قَالَ : وَلَوْ أَفْهَمَهُمْ مَعَ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا ﴿ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فَقَدْ فَسَدَتْ فِطْرَتُهُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا وَلَوْ فَهِمُوا لَمْ يَعْمَلُوا . فَنَفَى عَنْهُمْ صِحَّةَ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ وَصِحَّةَ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ." (١)

"فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال : إن الله خلقه، ومن تدبر القرآن، تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ الآية [الأنعام :

(١) كتاب الإيمان الكبير، ص/١١

١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨-١٠] ، وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور، ولابد لهم من حركة وإرادة، فلما لم يتحركوا بالحسنات، حركوا/ بالسيئات عدلا من الله، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتي القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : خلقها لذلك، والتعذيب لهم ظلم، يقال لهم : إنما أوقعهم فيها وطبع على قلوبهم عقوبة لهم، فما ظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم، يقال : ظلمته، إذا نقصته حقه، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ﴾ [الكهف : ٣٣] .." (١)

"فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال : إن الله خلقه، ومن تدبر القرآن، تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ الآية [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨-١٠] ، وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور، ولابد لهم من حركة وإرادة، فلما لم يتحركوا بالحسنات، حركوا/ بالسيئات عدلا من الله، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتي القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : خلقها لذلك، والتعذيب لهم ظلم، يقال لهم : إنما أوقعهم فيها وطبع على قلوبهم عقوبة لهم، فما ظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم، يقال : ظلمته، إذا نقصته حقه، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ﴾ [الكهف : ٣٣] .." (٢)

"وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] . وهذا استفهام نفي وإنكار، أي : وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ [إنها] بالكسر تكون / جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد ابن جبير : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

---

(١) مفهوم الفناء عند ابن تيمية رحمه الله، ١٧٨/١

(٢) مفهوم الصبر عند ابن تيمية رحمه الله، ٤٠٩/١

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور .." (١)

"فتبين أن الإخلاص يمنع من تسلط الشيطان، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فكان إلهامه لفجوره عقوبة له وعدم فعل الحسنات ليس أمرا موجودا حتى يقال : إن الله خلقه، ومن تدبر القرآن، تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ﴾ الآية [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿ وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾ [الليل : ٨-١٠] ، وهذا وأمثاله يذكر فيه أعمالا عاقبهم بها على فعل محظور وترك مأمور، ولابد لهم من حركة وإرادة، فلما لم يتحركوا بالحسنات، حركوا/ بالسيئات عدلا من الله، كما قيل : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل .

وهذا الوجه إذا حقق يقطع مادة كلام طائفتي القدرية المكذبة والمجبرة الذين يقولون : خلقها لذلك، والتعذيب لهم ظلم، يقال لهم : إنما أوقعهم فيها وطبع على قلوبهم عقوبة لهم، فما ظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم، يقال : ظلمته، إذا نقصته حقه، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا ﴾ [الكهف : ٣٣] .." (٢)

"وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه، فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، كما قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] . وهذا استفهام نفي وإنكار، أي : وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ [إنها] بالكسر تكون / جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد ابن جبير : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها .

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا .

---

(١) مفهوم الصبر عند ابن تيمية رحمه الله، ٤٨٤/١

(٢) مفهوم الشكر عند ابن تيمية رحمه الله، ٢٨٧/١

وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الصدق أصل يستلزم البر، وأن الكذب يستلزم الفجور".. (١)

"وأما الآيات المشهودة، فإن ما يشهد، وما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم، ومن نصر الرسل وأتباعهم على الوجه الذي وقع، وما علم من إكرام الله تعالى لأهل طاعته وجعل العاقبة له، وانتقامه من أهل معصيته وجعل الدائرة عليهم فيه عبرة تبين أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وغير ذلك، مما يوافق القرآن .

ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] .

فهذا بين الاعتبار في أصول الدين، وإن كان قد تناول الاعتبار في فروعه، وكذلك قوله : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣] .

وأما العمل، فإن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه، قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ الآيات [النساء : ٦٦] ، وقال : ﴿ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ ﴾ الآية [المائدة : ١٥، ١٦] وقال تعالى : ﴿ ياأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ الآية [الحديد : ٢٨] ".. (٢)

"والله - سبحانه - جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعلم النافع، كقوله : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٥] ،وقال : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّه بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال : ﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] وقال : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً ﴾ [البقرة : ١٠] ، وقال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] .

وهذا كما أنه حرم على بنى إسرائيل طيبات أحلت لهم لأجل ظلمهم وبغيهم، فشريعة محمد لا تنسخ ولا تعاقب أمته كلها بهذا، ولكن قد تعاقب ظلمتهم بهذا، بأن يحرموا الطيبات، أو بتحريم الطيبات؛ إما تحريماً كونياً بألا يوجد غيثهم، وتهلك ثمارهم، وتقطع المِيرَة عنهم، أو أنهم لا يجدون لذة مأكل ولا مشرب ولا منكح ولا ملبس ونحوه كما كانوا يجدونها قبل ذلك، وتسلط عليهم الغُصَص [جمع غُصَّة،وهى ما اعترض فى الحلق - من طعام وشراب وغيرهما - فأشرق . انظر : القاموس، مادة : غصص] وما ينغص ذلك ويعوقه . ويجرعون غصص المال والولد والأهل، كما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ

(١) مفهوم الشكر عند ابن تيمية رحمه الله، ٣١٦/١

(٢) مفهوم الابتلاء عند ابن تيمية رحمه الله، ص/٢٨

أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٥٥] وقال : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥،٥٦] ، وقال : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، فيكون هذا كابتلاء أهل السبت بالحيتان .." [١]

"وليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق، دون أن لا يحبه ويريده ويتبعه، كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالمًا بالله، مقرًا بما يستحقه، دون أن يكون محبًا لله، عابدًا لله، مطيعًا لله، بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه؛ فإذا علم الإنسان الحق وابغضه وعاداه، كان مستحقًا من غضب الله وعقابه مالا يستحقه من ليس كذلك؛ كما أن من كان قاصدًا للحق طالبًا له – وهو جاهل بالمطلوب وطريقه- كان فيه من الضلال، وكان مستحقًا من اللعنة –التي هي البعد عن رحمة الله- مالا يستحقه من ليس مثله؛ ولهذا أمرنا الله أن نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ – صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، و﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ علموا الحق فلم يحبوه ولم يتبعوه، و(الضالون) قصدوا الحق لكن بجهل وضلال به وبطريقه، فهذا بمنزلة العالم الفاجر، وهذا بمنزلة العابد الجاهل، وهذا حال اليهود فإنه مغضوب عليهم، وهذا حال النصارى فإنهم ضالون). "الفتاوى" (٥٨٦/٧).

بعض أسباب مخالفة الحق وعدم اتباعه

السبب الأول: اتباع الهوى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (والهوى غالبًا يجعل صاحبه كأنه لا يعلم من الحق شيئًا فإن حبك للشيء يعمي ويصم). "الفتاوى" (٩١/٢٧).

و(من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعًا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف:٥]). "الفتاوى" (١٠/١٠).." [٢]

" الدين وطاعة الشياطين وسخط رب العالمين حتى نقل أن كثيرا من المماليك يتمدح بأنه لا يعرف إلا سيده كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها وكذلك كثير من المردان الأحداث يتمدح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه ومؤاخيه كما تتمدح المرأة بأنها لا تعرف إلا زوجها وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان قد يتمدح بأنه عفيف عما سوي خدنه الذي هو قرينه كالزوجة أو عما سوي مملوكه الذي هو قرينه كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف إلا عن زوجته أو ما ملكت يمينه

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون وقد قال تعالي إنما النسيء زيادة في الكفر وقال تعالي فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلي رجسهم وقال تعالي فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم كما قال تعالي يثبت الله الذين آمنوا

---

(١) مفهوم الابتلاء عند ابن تيمية رحمه الله، ص/١٠٤

(٢) مفهوم أهل السنة والجماعة بين شيخ الإسلام ابن تيمية وأهل الإفراط والتفريط، ص/٤٤

بالقول الثابت وقال وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا كما قال تعالي والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل

فالمتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح لأن الفساد في ذلك أقل والمستخفي بما يأتيه أقل إثما من المجاهر المستعلن كما في الحديث عن ." (١)

" وكلا الفريقين غالط بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظر وتدبر وفهم لما بعث الله به الرسول ولو تعبد الإنسان ما عسى أن يتعبد لم يعرف ما خص الله به محمدا صلى الله عليه و سلم إن لم يعرف ذلك من جهته

وكذلك لو نظر واستدل ماذا عسى أن ينظر لم يحصل له المطلوب إلا بالتعلم من جهته ولا يحصل التعلم المطابق النافع إلا مع العمل به وإلا فقد قال الله **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم سورة الصف ٥

وقال وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة سورة الآنعام ١٠٩ ١١٠

وقال تعالى وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم سورة النساء ١٥٥ وقال تعالى كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون سورة المطففين ١٤

وقال أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون سورة الأعراف ١٠٠

وقال ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لأتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما سورة النساء ٦٦ ٦٨ ." (٢)

"هناك أيضا زيادة، فيما ذكره في كلامه السابق، أنه قال: ثم أقول من صميم القلب من داخل الروح، أني مقر بأن كلما هو الأكمل الأفضل الأعظم الأجل فهو لك، وكلما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه، يقول شيخ الإسلام -رحمه الله- تعليقا على كلامه هذا: وهو صادق فيما أخبر به، أنه لم يستفد من بحوثه في الطرق الكلامية والفلسفة، سوى أن جمع قيل وقالوا، وأنه لم يجد فيها ما يشفي عليلا، ولا يروي غليلا، فإن من تدبر كتبه كلها، والشيخ من أكثر الناس دراية وعلما، بما كتبه الرازي، يقول: فإن من تدبر كتبه كلها لم يجد فيها مسألة واحدة من مسائل أصول الدين، موافقة للحق الذي يدل عليه المنقول والمعقول، بل لاحظوا الافتراض، بل يذكر في المسألة عدة أقوال، والقول الحق لا يعرفه، فلا يذكره، يعني يأتي بهذه المسألة ويذكر أقوال الناس فيها أحيانا يذكر كما ذكر الشيخ إلى عشرة أقوال، والقول الحق لا يذكره؛ لأنه لا يعلمه، والسبب -يا إخوان- هؤلاء لا ينقصهم ذكاء، ولكن كما قال الشيخ في آخر الرسالة: أوتوا ذكاء ولم يؤتوا ذكاء، التمسوا الحق من غير معينه، فضلوا وانحرفوا ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ** اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١) هؤلاء الآن كبار الأئمة، نعم إن صدقت أقوالهم

---

(١) قاعدة في المحبة، ص/١١٥

(٢) منهاج السنة النبوية، ٥/٤٣٠

هذه، فنرجو لهم إن شاء الله توبة عند الله

---

(١) - سورة الصف آية : ٥.." (١)

"التمسوا الحق من غير معينه، لاحظوا هؤلاء الأئمة الكبار الذين قضوا حياتهم في قيل وقال، أتعبوا نهارهم، قطعوا أوقاتهم وأعمارهم، انتهوا إلى لا شيء، وكما قال الشيخ: إن صحت توبتهم فهم يموتون كما يموت عوام المسلمين، كيف لو صرفوا هذه الأعمار في قال الله، وقال الرسول، لو صرفوا هذه العقول في تفهم كلام الله، وكلام رسوله، ولكن هكذا ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١) وكلام هؤلاء ينبغي أن يكون أيش؟ مثار عناية للمسلم المؤمن، ألا يدخل في مثل هذه المزالق، كما دخل هؤلاء، هؤلاء نجاهم الله - عز وجل - في آخر حياتهم -إن صدقت توبتهم-، لكن مئات ممن دخلوا في هذا العلم تاهوا وضلوا، فعلى المسلم أن ينظر كيف طلب السلف هذا العلم؟ كيف بحثوا عن
الحق؟ وليسلك سبيلهم فإن الخير كل الخير فيما انتهجوا، وإن الشر كل الشر فيما خالف منهجهم، وبالله التوفيق، وصل الله وسلم على نبينا محمد.

س: أحسن الله إليك، شيخ أستأذنك في قراءة بعض الأسئلة، يقول هذا السائل: هل هؤلاء تابوا مثل الرازي والغزالي، وهل كلامهم حجة داحضة على أصحابهم؟

---

(١) - سورة الصف آية : ٥.." (٢)

"فإن قلتم: أنتم لم تفهموا الكلام؛ كلام الله ولا كلام رسوله، قيل لهم: هذا كلام أئمتكم الذين إليهم تنتسبون، ولهم تعظّمون، وتزعمون أن مذهبكم امتداد لأقوالهم، هذه أقولهم صريحة لا تحتمل النقاش، فإن قالوا: قالوا هذا أول الأمر ورجعوا عنه.

قلنا لهم: هذه دعوى، ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ (١) هذه كتبهم متداولة بين أيدينا وكلامهم صريح، فإذا لم تقبلوا لا كلام الله ولا كلام رسوله ولا كلام السلف ولا كلام أيضا من تعظّمونه ومن تنتسبون إليه إذاً ستقبلون كلام مَنْ؟ ولكن هو الهوى كما سيذكره الشيخ، إذا ابتلي الإنسان بالهوى أصيب بالعمى والصمم، عمي قلبه عن الحق، وكما قال الله - عز وجل - عن حال هؤلاء: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (٢) نعم.

قبول الحق ونبذ التعصب

وملاك الأمر أن يهب الله للعبد حكمة وإيمانا بحيث يكون له عقل ودين، حتى يفهم ويدين، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء؛ ولكن كثيرا من الناس قد صار منتسبا إلى بعض طوائف المتكلمين، ومحسنا للظن بهم دون غيرهم، ومتوهما أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم، فلو أُتي بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم.

---

(١) شرح الفتوى الحموية/التويجري، ص/٤٨

(٢) شرح الفتوى الحموية/التويجري، ص/٥١

(١) – سورة البقرة آية : ١١١.

(٢) – سورة الصف آية : ٥.." (١)

"ككفر إبليس وفرعون وقومه واليهود وكفار مكة وغير هؤلاء من المعاندين الجاحدين.

ثم هؤلاء إذا لم يتبعوا التصديق بموجبه من عمل القلب واللسان وغير ذلك فإنه قد يطبع على قلوبهم حتى يزول عنها التصديق كما قال تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم﴾ فهؤلاء كانوا

ص -١٤١- عالمين ﴿فلما زاغوا أزاغ الله﴾ وقال موسى لفرعون ﴿قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ وقال تعالى: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب﴾ ﴿كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ فبين سبحانه أن مجيء الآيات لا يوجب الإيمان بقوله تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

فبين سبحانه أن مجيء الآيات لا يوجب الإيمان بقوله تعالى: ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ أي فتكون هذه الأمور الثلاثة ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ أي وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة وبهذا المعنى تبين أن قراءة الفتح أحسن.

وأن من قال أن المفتوحة بمعنى لعل فظن أن قوله: ﴿ونقلب." (٢)

"وقوله: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً] (الأنفال: ٢٩).

وقوله: [وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ] (التغابن: ١١) ونحوها.

وقوله في الضلال: [فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ] (الصف: ٥).

وقوله: [فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً] (البقرة: ١٠).

وقوله: [وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ] (الأنعام: ١١٠).

[وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ] (الزخرف: ٣٦).

وهذه الآيات فيها من أسرار القدر ــ في هداية من يهديه، وضلال من يضله ــ ما شهد لله بكمال الحكمة والحمد.

وكذلك أخبر في عدة آيات أنه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، وفي آيات أخر أخبر عن الأسباب التي تُنال بها مغفرة الله، مثل قوله: [وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى] (طه: ٨٢).

والأسباب التي يُستحق بها العذاب مثل قوله: [إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى] (طه: ٤٨).

(١) شرح الفتوى الحموية/التويجري، ص/٥٢٧

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية، ٢/٢٠٠

وكذلك أخبر في آيات كثيرة أنه يرزق من يشاء، ويوسع الرزق على من يشاء، ويقبضه عمن يشاء.
وفي آيات أخر ذكر فيها الأسباب التي ينال بها رزقه، مثل قوله: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ] (الطلاق: ٢_٣).
وقوله: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً] (الطلاق: ٤).
كما ثبت في الصحيح عن النبي " أنه قال: =من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أجله فليصل رحمه+(١).

(١) رواه البخاري (٥٩٥٨) ومسلم (٢٥٥٧).." [١]
"مراتب الهداية

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أن الهداية لها مراتب: المرتبة الأولى: التكليم، وهو أن يكلم الله عبده يقظة بلا واسطة، وهي أعلى المراتب، كما حصل لموسى عليه الصلاة والسلام لما واعده ربه، وكما حصل لمحمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج.

المرتبة الثانية: مرتبة الوحي، وهذه تختص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ [النساء:١٦٣].

المرتبة الثالثة: مرتبة إرسال الملك إليه، وهو إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري، فيوحي الله إليه بما أمر الله أن يوصله إليه، كما كان جبريل يأتي إلى محمد صلى الله عليه وسلم بل جبريل يأتي الأنبياء جميعا، وهذه المراتب الثلاث يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: إنها خاصة بالأنبياء لا تكون لغيرهم أبدا، وكل هذه المراتب الثلاث قد حصلت لمحمد صلى الله عليه وسلم.

المرتبة الرابعة: مرتبة التحديث، كما حصلت لـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن كان في الأمم قبلكم محدثون، فإنه في أمتي عمر بن الخطاب) رضي الله عنه وأرضاه، قالوا: والمحدث هو الذي يحدث في سره وقلبه في شيء، فيكون كما يحدث به، أي: يقذف الله في قلبه شيئا فيقول للناس: سيحصل كذا ويحدث كذا، وقد حدثت لـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسائل عديدة.

لطيفة من اللطائف: يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "إن هذه الأمة ليس فيها محدثون كثير" وذكر النبي صلى الله عليه وسلم أنها كانت في الأمم السابقة، ويذكر العلة من ذلك والسبب، قال: استغناء بكمال شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته فلم تحتج إلى محدثين كثير في هذا الأمر؛ لأن الشريعة قد كملت ولله الحمد، فلم يحوج الله الأمة بعد محمد صلى الله عليه وسلم إلى محدث أو ملهم، أو إلى صاحب كشف كما تقوله الصوفية .

(١) شرح التائية في القدر ٥ - ٥ - ١٤٢٩، ص/١٩٨

المرتبة الخامسة: مرتبة الإفهام، ولهذا ذكر الله في قصة داود وسليمان: ﴿ إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ [الأنبياء:٧٨] ثم قال الله: ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ [الأنبياء:٧٩] فالفهم نعمة من الله سبحانه وتعالى على عبده، وهو نور يقذفه الله في قلب من شاء فيعرف به ويدرك ما لا يدركه غيره.

ومثله قصة ابن عباس رضي الله عنهما عندما كان يجلس في مجالس عمر رضي الله عنه وأرضاه، وكان عمر يصدره في المجالس، فقال الصحابة الكبار: إن لدينا أبناء مثله في سنه فلماذا لا يجلسون؟ فسأل عمر عن قول الله تعالى: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر:١] ما تفهمون منها؟ قال الصحابة: إنه إذا فتح على النبي صلى الله عليه وسلم مكة فإنه أمر بالاستغفار، قال: ما تقول يا بن عباس ؟ [قال: إن هذا دليل قرب أجل النبي صلى الله عليه وسلم] ففهم ابن عباس فهما دقيقا، بمعنى: أنها انتهت الرسالة، وقد كملت مهمة محمد صلى الله عليه وسلم، والآن أمر بقضية كثرة الاستغفار لله سبحانه وتعالى والإنابة إليه.

المرتبة السادسة: مرتبة البيان العام، وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه، ولذلك يقول الله: ﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ [التوبة:١١٥] فأصبح الإضلال الذي يحدث للناس عقوبة من الله تعالى بعد البيان، أما كون الناس يضلون وليس عندهم وضوح ولا أدلة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهذا أمر معلوم، لكن بعد أن يبين لهم يحدث الضلال، ولا شك أن هذا عقوبة؛ لأنهم أعرضوا عما ذكروا به: ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف:٥] لأنهم هم المنحرفون.

وذكروا أن البيان يحدث بأمرين: بالآيات المسموعة وهي القرآن وغيره، وبالآيات المشاهدة، ولعل كثيرا من الناس يصلون إلى الآيات المسموعة ويعرفونها، لكن الآيات المشاهدة لا تحدث لهم، والله يقول: ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ [آل عمران:١٩٠] ويعتبر من الآيات المشاهدة موت العلماء، ولا شك أنها آيات عظيمة، وثلمة تحدث في الأمة، ونقص لا يشعر به ولا يعرف خطره إلا من كان متميزا وفاهما.

منها: الآيات التي تحدث في الأمم من الزلازل والبراكين وغيرها آيات، من الناس من يتعظ ومن الناس كما قال الله تعالى: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس:١٠١] فلا يستفيدون شيئا.

المرتبة السابعة: البيان الخاص: وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهي هداية التوفيق والإلهام.

المرتبة الثامنة: مرتبة الإسماع، وسنتكلم على مرتبة الإسماع في البيت الثاني والله قد قال في القرآن: ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال:٢٣].

ويقصد بالإسماع هنا ليس إسماع الآذان وإنما إسماع القلوب، ولهذا تجدهم يسمعون الآيات ويسمعون رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو القرآن، لكنهم لا يستفيدون، ولهذا قال الله: ﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال:٢٣].

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام، والله يقول: ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس:٧-٨] والمقصود بالإلهام هنا: أن يجعل في قلب الإنسان تمييزه بين الحق والباطل، ولعل من الإلهام أن الإنسان إذا أذنب ذنبا سرعان

ما يتوب، ويعرف بجرمه وبمعصيته، وبأنه خالف الحق، أو أنه إذا مر في طريق ميز بين أهل الحق والباطل، وميز بين أهل المعصية والطاعة، وميز بين الطريق الذي يأخذه والطريق الذي لا يأخذه، وهذا لا شك أنه نعمة ينعم الله بها على من يشاء، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو: (اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي) ولهذا يقال: كل مؤمن فإنه قد ألهمه الله رشده، إذ أنه اتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وأعرض، وأهل العقيدة الصحيحة ألهموا رشدهم إذ لزموا ما كان عليه سلف الأمة، وأعرضوا عن أقوال أهل البدع وما كانوا عليه.

المرتبة العاشرة: الرؤيا الصادقة، ولا شك أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة، وهي أن يراها المسلم أو ترى له، وسبحان الله! تكثر الرؤى في آخر الزمان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في أول بعثته أول ما بدأ به الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، مصداقا لرؤيته صلى الله عليه وسلم، وهذا مما يتميز به النبي صلى الله عليه وسلم، ولعل هذه كانت من أوائل ما تأتي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وتصبح الرؤى الصادقة للأنبياء إرهاصا لهم ومقدمات لنبوتهم؛ حتى لا تفجؤهم قضية النبوة، فإنهم يبدءون يرون الرؤى ثم تقع، ثم تتكرر عليهم، ثم تأتي المرتبة التي بعدها حتى ينزل عليهم الوحي، ويؤمروا بقضية التبليغ.

أما بالنسبة للمسلمين أو لأفراد الناس فلا يمكن أن نقول: مقدمات للنبوة، بل هي جزء من أجزاء النبوة، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم إما أن يراها الإنسان أو ترى له، وتصبح إذا كانت الرؤيا صادقة.

ولعلنا نذكر من اللطائف هنا ونختم بها: الرؤى إما أن تكون أضغاث أحلام، وإما أن تكون رؤى صادقة، فأضغاث الأحلام لا يلتفت إليها أصلا، والرؤى التي قد تكون صادقة تنقسم إلى قسمين: رؤى تسر الإنسان ويفرح بها، ورؤى تسوءه، أما الرؤى التي تسر الإنسان فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا رأى أحدكم ما يحب، فليحدث من يحب مخافة أن يحسده أحد) مثل الإنسان رأى أنه سلم على الرسول صلى الله عليه وسلم، أو رأى أنه دخل الجنة، أو رأى أنه تزوج، أو أنه كسب مالا، هذه رؤى طيبة، فهذه نقول: يحدث من أحب بها.

أما إذا رأى الإنسان ما يكره، مثل أن يرى أنه مقتول، أو أن على رأسه طائر، أو رأى أنه سقط في بئر، من الرؤى المفزعة، أو شخصا يلحقه بسلاح، فلا شك أن هذه الرؤى تحزن القلب، وقد تؤثر عليه تأثيرا مباشرا.

بعض الناس يقوم من النوم وهو يبكي من شدة ما رأى، أو يصيح بأعلى صوته مما رأى، فماذا يعمل المسلم هنا؟ بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم أدبا عظيما، وكان عمر يقول: [إني لأرى الرؤيا فتهمني، أو فتمرضني شهرا من فزعها] ثم دله النبي صلى الله عليه وسلم: أولا: أن يتحول الإنسان عن موقعه الذي هو عليه، فإذا كان على جنب انتقل على الجنب الآخر، وإذا كان على ظهره انتقل على جهة أخرى.

ثانيا: أن يتعوذ بالله من شر ما رأى، وأن ينفث ثلاثا، ثم أمره النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا يخبر بها أحدا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنها لا تضره بعد ذلك) وفي بعضها أنه يتوضأ ويصلي، ولكن إذا عمل بهذا لا يضره شيء أبدا، وهذا هو هدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد تكون الرؤى لا شك مفزعة.

وينبغي للإنسان ألا يفسرها، ولقد فسر يوسف عليه الصلاة والسلام للذين رأيا رؤيا وهما في السجن، أحدهم رأى أنه يعصر خمرا ويسقي ربه، والآخر رأى أنه يحمل على رأسه خبزا تأكل الطير منه، فأخبر يوسف عليه الصلاة والسلام بعد

أن دعاهم إلى العقيدة الصحيحة: ﴿ أأرباب متفرقون خير ﴾ [يوسف:٣٩] ثم بين لهم أن أحدهم يصلب فتأكل الطير من رأسه، لو أخبر الإنسان بهذا الخبر بأن رأى رؤيا مفزعة وقيل له: إنك ستموت وتقطع إربا." (١)

"٢ ـ إذا كان قادراً على الاتباع (أي السؤال عن دليل مسألته وفهمه) فاكتفى بالتقليد المحض. كما قال الشنقيطي رحمه الله (أما القادر على التعلم المفرّط فيه، والمقدّم آراء الرجال على ماعلم من الوحي، فهذا الذي ليس بمعذور) (أضواء البيان) ٧ / ٥٥٤ ـ ٥٥٥. وإنما أَثِمَ هذا لأنه ترك الاتباع الواجب عليه، وفعله هذا نوع من أنواع الإعراض عما أنزل الله تعالى، وقد ذكر ابن القيم من أنواع التقليد المحرّم (الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء) (اعلام الموقعين) ٢ / ١٦٨. وقال ابن تيمية رحمه الله (فكل من عَدَل عن اتباع الكتاب والسنة وطاعة الله والرسول إلى عادته وعادة أبيه وقومه فهو من أهل الجاهلية المستحقين للوعيد) (مجموع الفتاوي) ٢٠/٢٢٥.

٣ ـ إذا ظهر للمقلد بالحجة والدليل أن الحق بخلاف قول من قلّده، فلم يرجع عنه، أَثِمَ إثماً عظيماً، قال تعالى (وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله، فقد ضل ضلالا مبيناً) الأحزاب ٣٦، ويُخشى على هذا المعانِد أن يزيغ الله قلبه ويطبع عليه، قال تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) الصف ٥. وهذا والعياذ بالله شأن كثير من المقلدين. قال ابن حزم (وأما إن قامت عليه الحجة فعاند تقليداً ففاسق) (الإحكام) ٦ / ١٥٤.

وقال ابن تيمية (وكذلك من تبين له في مسألة من المسائل الحق الذي بعث الله به رسوله ثم عدل عنه إلى عادته، فهو من أهل الذم والعقاب) (مجموع الفتاوي) ٢٠ / ٢٢٥. وقال ابن تيمية أيضا (فمن صار إلى قولٍ مقلداً لقائله لم يكن له أن ينكر علي من صار إلى القول الآخر مقلداً لقائله، لكن إن كان مع أحدهما حجة شرعية وجب الانقياد للحجج الشرعية إذا ظهرت) (مجموع الفتاوي) ٣٥ / ٢٣٣.

وذكر ابن القيم من أنواع التقليد الحرام (التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد) (اعلام الموقعين) ٢ / ١٦٨.." (٢)

"ص -٢٥٩- ... وعلا، فمن تبين له الحق ولم يقبله فإنه يعاقب بالحرمان -والعياذ بالله-، يعاقب بالزيغ والضلال، ولا يقبل الحق بعد ذلك، فهذا فيه الحث على أن من بلغه الحق وجب عليه أن يقبله مباشرة، ولا يتلكأ ولا يتأخر، لأنه إن تأخر فحري أن يحرم منه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

وهذا الحديث مع الآية يدلان على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه مشروعية الدعوة إلى الله عز وجل، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى عمه وهو في سياق الموت، من أجل ماذا؟، من أجل الدعوة إلى الله عز وجل، ففيه: الدعوة إلى الله، وأن الداعية لا ييأس، ولا يقنط من القبول، أو يكسل عن مواصلة الدعوة، ويقول: الناس ما هم بقابلين، الناس ما فيهم خير، الإنسان يدعو إلى الله، من قبل فالحمد لله، ومن لم

---

(١) شرح لامية شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٣/٥

(٢) فوائد من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية حول تقليد المجتهد، ص/٦٣

يقبل قامت عليه الحجة، وحصل الأجر للداعية.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض المشرك من أجل دعوته إلى الله عز وجل، فإن الرسول عاد عمه وهو مشرك من أجل دعوته إلى الله.

المسألة الثالثة: - وهي مهمة جدا-: أن من قال: لا إله إلا الله فإنه يقبل منه، ويحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حكم بردته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يحكم بإسلامه، فإن كان صادقا فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقا، وإن كان كاذبا فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عز وجل، أما نحن فليس لنا إلا الظاهر.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فأبو طالب عاش على الكفر والشرك، لكنه لو قال: لا إله إلا الله عند الوفاة، واستجاب للرسول صلى الله عليه وسلم لختم له بالإسلام، فدل على أن الأعمال بالخواتيم، وهذا يصدقه قول." (١)

"ص -١١٥- ... أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء بلا من الزيغ فيهلك".

﴿أن تصيبهم فتنة﴾ فسرها الإمام أحمد بالزيغ والشرك، قال: "أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله" أي: بعض قول الرسول صلى الله عليه وسلم، "أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك".

فمن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم متعمدا تبعا لهواه، أو تعصبا لشيخه الذي يقلده، فإنه مهدد بعقوبتين:

العقوبة الأولى: الزيغ في قلبه، لأنه إذا ترك الحق ابتلي بالباطل، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾، لما انصرفوا عن تلقي القرآن عند نزوله وتعلمه صرف الله قلوبهم عن الحق عقوبة لهم، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، لما رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك. وهذا خطر شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علما وبصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون(١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون(١٢٥)﴾، فالمؤمن يتبع الدليل ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالة المؤمن أنى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيغ أو نفاق فهذا إنما يتبع هواه ولا يتبع الدليل، وهذا يصاب بالزيغ." (٢)

"﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] .

---

(١) كتب العقيدة، ٤٧٢/١

(٢) كتب العقيدة، ١٩٦/٣

﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف : ٥] .
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٦] .
﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل : ١٣، ١٤] .

ووجه الدلالة في ذلك المَفْتح :

* أننا – نحن المسلمين – لا نعبد مجهولًا ، بل نعبد إلهًا نعرفه بأسمائه وصفاته .

* ووجه الدلالة فيه – كذلك – أن للعلم بالله تعالى – وهو أعظم العلوم وأشرفها وأنفعها – منهجًا توقيفيًا .." [١]

"المبحث الرابع

أساليب الشيطان في إضلال الإنسان (الجزء الأول)

لا يأتي الشيطان إلى الإنسان ويقول له : اترك هذه الأمور الخيرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ؛ كي تشقى في دنياك وأخراك ؛ لأنه لو فعل ذلك فلن يطيعه أحد ، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة ، يغرر بها بعباد الله .

١- تزيين الباطل :

هذا هو السبيل الذي كان الشيطان ، ولا يزال ، يسلكه لإضلال العباد ، فهو يظهر الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل ، ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل ، ويكرهه بالحق ، حتى يندفع إلى فعل المنكرات ، ويعرض عن الحق ، كما قال اللعين لربّ العزة : (قال رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ولأغوينَّهم أجمعين – إلاَّ عبادك منهم المخلصين) [الحجر : ٣٩-٤٠] .

يقول ابن القيم في هذا الصدد : " ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذي يضره ، حتى يخيل إليه أنّه أنفع الأشياء ، وينفره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له ، حتى يخيل له أنّه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روج من الزغل على العارفين !

فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات ، مع الكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه ووضعهم ذلك في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله : (عليكم أنفسكم) [المائدة

---

(١) مجمل اعتقاد أئمة السلف، ص/٢٢

: ١٠٥] ، والإعراض عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بني الناس " (١) .

وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين آدم عليه السلام ؛ إذ زين له الأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه ، فما زال به يزعم له أن هذه هي شجرة الخلد ، وأن الأكل منها يجعله خالداً في الجنة ، أو ملكاً من الملائكة ، حتى أطاعه ، فخرج من الجنة .

وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل في إضلال العباد .

فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .... ، يزعمون أنها هي المذاهب التي تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع ، ... وهذه الدعوات التي تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذي تداس فيه الأعراض والأخلاق ، وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن .

وتلك الأفكار المسمومة التي تدعو إلى إيداع المال في البنوك بالربا ؛ لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير .

وتلك الدعوات التي تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر ، والتي تسم دعاة الإسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب ... إلخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذي كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكريه الناس به : (تالله لقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم) [النحل : ٦٣] .

وهو – والله – سبيل خطر ؛ لأن الإنسان إذا زين له الباطل فرآه اندفع بكل قواه ؛ لتحقيق ما يراه حقاً ، وإن كان فيه هلاكه : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً – الَّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً) [الكهف :١٠٣-١٠٤] .

وهؤلاء يندفعون لصدّ الناس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم يظنون أنفسهم على الحقّ والهدى ، (وإنَّهم ليصدُّونهم عن السَّبيل ويحسبون أنَّهم مهتدون) [الزخرف : ٣٧] .

وهذا هو السبب الذي من أجله آثر الكفار الدنيا ، وأعرضوا عن الآخرة ، كما قال تعالى : (وقيَّضنا لهم قرناء فزيَّنوا لهم مَّا بين أيديهم وما خلفهم) [فصلت : ٢٥] . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنّة والنار .

تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمّي الأمور المحرمة ، التي هي معصية لله ، بأسماء محببة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمّى الشجرة المحرمة بشجرة الخلد ، كي يزين لآدم الأكل منها : (قال يا آدم هل أدلُّك على شجرةِ الخلد ومُلكٍ لا يَبْلَى) [طه : ١٢٠] .

يقول ابن القيم : " ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح ، وسموا أخاها بلقمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية ... " .

واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل وصناعة التماثيل فناً .

٢- الإفراط والتفريط :

يقول ابن القيم في هذه المسألة : " وما أمر الله - عزّ وجلّ - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلوّ ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنّه يأتي إلى قلب العبد فيشامّه ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة ، فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتواني والفتور ، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى ربما ترك العبد المأمورَ جملة

وإن وجد عنده حذراً وجِدّاً ، وتمشيراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسوّل له أن هذا لا يكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغي لك أن تزيد على العاملين ، وأن لا ترقد إذا رقدوا ، وأن لا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ،فاغسل أنت سبعاً ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي ، فيحمله على الغلو والمجاوزة ، وتعدي الصراط المستقيم ، كما يَحْمِلُ الأول على التقصير دونه وألا يقربه .

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا يُنْجي من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ، ولزوم الوسط . والله المستعان " (٢) .

٣- تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل :

وله في ذلك أساليب وطرق ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم (القافية : مؤخر الرأس) ، إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله ، انحلت عقدة ، فإن توضأ ، انحلت عقدة ، فإن صلى ، انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) (٣) .

وفي البخاري ومسلم : (إذا استقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستثر ثلاثاً ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه) (٤) .

وفي صحيح البخاري : أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : (ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه) (٥) .

وهذا الذي ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله ، وقد يثبط الإنسان بالوسوسة ، وسبيله في ذلك أن يحبب للإنسان الكسل ، ويسوّف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزي في هذا : (كم قد خطر على قلب يهودي ونصراني حبّ الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لا تعجل وتمهل النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصي بالتوبة ، فيعجل له غرضه من الشهوات ، ويمنيه الإنابة ، كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهي ××× وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدّ سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثَبّطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه ، فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد في الليل يصلي ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يحبب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل .

فينبغي للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسويف ، والإعراض عن الأمل ، فإنّ المخوف لا يؤمن

، والفوات لا يبعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شرّ طول الأمل ، فإن الإنسان لا يزال يحدّث نفسه بالنزوع عن الشر ، والإقبال على الخير ، إلا أنه يَعِدُ نفسه بذلك ، ولا ريب أنه من أمّل أن يمشي بالنهار سار سيراً فاتراً . ومن أمل أن يصبح عمل في الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صوّر الموت عاجلاً جدّ ...

وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) ، فإنها أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثل قوم في سفر ، فدخلوا قرية ، فمضى الحازم ، فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهباً للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل في الحال ، فاغتبط المحترز (المتوقي الحازم) ، وتحير الأَسِفُ المفرط .

فهذا مثل الناس في الدنيا ، منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوّف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة . فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى ما في الطبع ، صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوّه لا يفتر عنه ، فإن فتر في الظاهر ، بطّن له مكيدة ، وأقام له كميناً " (٦) .

٤- الوعد والتمنية :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ، ويعللهم بالأماني المعسولة ؛ كي يوقعهم في وهدة الضلال :(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشَّيطان إلاَّ غروراً)[النساء : ١٢٠]

يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثم يتخلى عنهم ، ويولي هاربا : (وإذ زيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من النَّاس وَإِنِّي جارٌ لكم فلمَّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إِنِّي بريءٌ منكم) [الأنفال : ٤٨] .

ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : (ولئِن رُّددتُّ إلى رَبِّي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً) [الكهف : ٣٦] ، فيدمر الله جنته في الدنيا ، فيعلم أنّه كان مغروراً مخدوعاً .

ويشغل الإنسان بالأماني المعسولة ، التي لا وجود لها في واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمني ، وهو لا يفعل شيئاً .

٥- إظهار النصح للإنسان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية ، يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له :(وقاسمهما إِنِّي لكما لمن النَّاصحين)[الأعراف : ٢١]

وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب (٧) ، نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في إضلاله العباد ، وكي نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه .

يقول وهب : " إن عابداً كان في بني إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة ، لهم أخت ، وكانت بكراً ، ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنونه عليها ، ولا عند من يضعونها .

قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ، فأتوه فسألوه عن أن يخلفوها عنده ،

فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها في بيت حذاء صومعتي . فأنزلوها في ذلك البيت ، ثم انطلقوا وتركوها .

فمكثت في جوار ذلك العابد زمناً ينزل إليها بالطعام من صومعته ، فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها ، فتأخذ ما وضع لها من الطعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه في الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً . قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعه على باب بيتها ، ولم يكلمها .

قال : فلبث على هذه الحال زماناً ، ثم جاءَه إبليس فرغّبه في الخير والأجر وحضه عليه ، وقال : لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك ، فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ، ثم وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زماناً .

ثم جاءه إبليس فرغّبه في الخير وحضّه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطّلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فقال : لو كنت تتنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هي على باب بيتها ، فتحدثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها ، فلبثا زماناً يتحدثان .

ثم جاءَه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ، ثم جلست قريباً من بيتها ، فحدثتها كان آنس لها ، فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زمناً على ذلك .

ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ، ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها ، نهارها كله ، فإذا مضى النهار صعد صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها ، فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ، ويسول له حتى وقع عليها ، فأحبلها فولدت له غلاماً ، فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء إخوة الجارية ، وقد ولدت منك فكيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه ، فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ، ففعل .

فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها ، وادفنها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها ، وألقاها في الحفرة مع ابنها ، وأطبق عليهما صخرة عظيمة ، وسوّى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاؤوا فسألوه عنها ، فنعاها لهم ، وترحم عليها وبكاها . وقال : كانت خير امرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم ، وترحموا عليها ، فأقاموا على قبرها أياماً ، ثمّ انصرفوا إلى أهاليهم .

فلما جنّ عليهم الليل ، وأخذوا مضاجعهم ، جاءَهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم ، فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم

أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً ، فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاهما في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله ، فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً . وأتى الأوسط في منامه ، فقال له مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك .

فلما استيقظ القوم ، أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم ، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً ، فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى .

فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشيء ، فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم ، قال أصغرهم : والله لا أمضي حتى آتي هذا المكان ، فأنظر فيه . قال : فانطلقوا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب ، وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة ، كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد فصدّق قول إبليس فيما صنع بهما ، فاستَعْدَوْا عليه ملكهم ، فأنزل من صومعته ، وقدّم ليصلب .

فلما أوثقوه على الخشبة ، أتاه الشيطان ، فقال له : قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة ، حتى أحبلتها ، وذبحتها وابنها ، فإن أنت أطعتني اليوم ، وكفرت بالله الذي خلقك وصوّرك ، خلصتك مما أنت فيه ، فكفر العابد ، فلما كفر بالله تعالى ، خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه " (٨) .

وهذه القصة يذكرها المفسرون عند قوله تعالى : (كمثل الشَّيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمَّا كفر قال إنِّي بريءٌ منك) [الحشر : ١٦] ، ويذكرون أن المعنيّ بالإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

٦- التدرج في الإضلال :

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في الإضلال ، وهو أن يسير بالإنسان خطوة خطوة ، لا يكل ولا يملّ ، كلما روّضه على معصية ما ، قاده إلى معصية أكبر منها ، حتى يوصله إلى المعصية الكبرى ، فيوبقه ويهلكه ، وتلك سنة الله في عباده ، أنهم إذا زاغوا سلط عليم الشيطان ، وأزاغ قلوبهم : (**فلمَّا زاغوا أزاغ** الله قلوبهم) [الصف : ٥] .

٧- إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم ، فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربّه : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فَنَسِيَ ولم نجد له عزماً) [طه : ١١٥] ، وقال صاحب موسى لموسى : (فإني نسيت الحوت وما أَنسَانِيهُ إلاَّ الشَّيطان أن أذكره) [الكهف : ٦٣] .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه في المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله ، ولكن الشيطان قد ينسي الإنسان أمر ربه ، فيجالس هؤلاء المستهزئين : (وإذا رأيت الَّذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتَّى يخوضوا في حديثٍ غيره وإمَّا ينسينَّك الشَّيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظَّالمين) [الأنعام : ٦٨] .

وطلب نبي الله يوسف إلى السجين الذي ظنّ بأنه سينجو من القتل ، ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه ، فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبي الله يوسف ، فمكث يوسف في السجن بضع سنين : (وقال للَّذي ظنَّ أنَّه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشَّيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين) [يوسف : ٤٢] .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكناً كلياً ، فإنه ينسيه الله بالكلية : (استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشَّيطان ألا إنَّ حزب الشَّيطان هم الخاسرون) [المجادلة : ١٩] . وهؤلاء هم المنافقون ، كما دلت عليه الآية السابقة لهذه الآية . وسبيل التذكر هو ذكر الله ؛ لأنه يطرد الشيطان : (واذكر ربَّك إذا نسيت) [الكهف : ٢٤] .

٨- تخويف المؤمنين أولياءَه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ، ولا يأمرونهم بالمعروف ، ولا ينهونهم عن المنكر ، وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا سبحانه عن هذا فقال : (إنَّما ذلكم الشَّيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مُّؤمنين) [آل عمران : ١٧٥] .

والمعنى : يخوفكم بأوليائه ، قال قتادة : " يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مُّؤمنين) ، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم " .

٩- دخوله إلى النفس من الباب الذي تحبه وتهواه :

يقول ابن القيم في هذا الموضوع : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، حتى يصادف نفسه ويخالطها ، ويسألها عمّا تحبه وتؤثره ، فإذا عرفه استعان بها على العبد ، ودخل عليه من هذا الباب ، وكذلك عَلّم إخوانه وأولياءَه من الإنس ، إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنّه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ، ومن رام الدخول من غيره ، فالباب عليه مسدود ، وهو عن طريق مقصده مصدود " (٩) .

ومن هاهنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : (وقال ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشَّجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) [الأعراف : ٢٠] . يقول ابن القيم : " فشام عدو الله الأبوين ، فأحس منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم ، فعلم أنّه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب ، فقاسمهما بالله إنّه لهما لمن الناصحين ، وقال : (ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشَّجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) [الأعراف : ٢٠] ".

١٠- لقاء الشبهات :

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات ، وقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من بعض هذه الشبهات التي يلقيها ، ففي حديث البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولِيْنتهِ) (١٠) .

ولم يسلم الصحابة – رضوان الله عليهم – من شبهاته وشكوكه ، وجاء بعضهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكون ما يعانونه من شكوكه ووساوسه ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه : إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : (أو قد وجدتموه ؟) قالوا : نعم . قال : (ذلك صريح الإيمان) (١١) .

وصريح الإيمان دفعهم وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها ، وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة فقال : (تلك محض الإيمان) (١٢) .

وانظر إلى شدّة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه ، روى أبو داود في سننه عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن أحدنا يجد في نفسه – يعرض بالشيء – لأن يكون حممة أحبّ إليه من أن يتكلم به ، فقال : (الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة) (١٣) .

ومن جملة ما يلقيه في النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه في قوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نَبِيٍّ إلاَّ تمنَّى ألقى الشَّيطان في أمنيَّته فينسخ الله ما يلقي الشَّيطان ثمَّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم – ليجعل ما يلقي الشَّيطان فتنةً للَّذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم وإنَّ الظَّالمين لفي شقاق بعيدٍ – وليعلم الَّذين أوتوا العلم أنَّه الحقُّ من ربك فيؤمنوا به فَتُخْبِتَ له قلوبهم وإنَّ الله لهاد الَّذين آمنوا إلى صراطٍ مستقيمٍ) [الحج :٥٢-٥٤] .." (١)

"فالمشاقة لا تكون إلا بعد التبين للحجة، وإضلال الله للعبد بتوليه ما تولى من الإعراض عن الحق ومشاقة الرسول إنما تكون أيضاً بعد ما تولى من الإعراض عن الحق وشاقة الرسول إنما تكون أيضاً بعد تبين الحجة .

والأصل في اشتراط قيام الحجة قبل إضلال الله للعبد مبنى على أصل آخر، وهو: أن من بلغه الحق فلا بد أن يقبله فيكون من المهتدين

صـ١٨٨

به، أو يرده ولا يكون ذلك لمجرد الترك وإنما يكون إتباعاً للهوى .

وإذا كان الأمر كذلك فإن العبد يكون هو الذي اختار طريق الضلالة والغي بنفسه، وآثرها على طريق الهداية، ولهذا نجد أن الإخبار عن أهل الكتاب وما حصل منهم من التفرق يأتي مقروناً في كتاب الله ببيان أن تفرقهم وبغي بعضهم على بعض كان من بعد ما جاءهم العلم، كما قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران / ١٩] .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى / ١٤] .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة / ٤] .

وعلى هذا فالسبب في الضلال الذي هو جزاء وعقوبة من الله هو ضلال العبد أولاً برده للحق، وكذلك السبب في الغي هو ترك الالتزام بأمر الله تعالى أولاً .

يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف / ٥] ويقول تعالى ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً﴾ [البقرة / ١٠] .

فزيغ القلب وضلاله وتحقق الغي فيه إنما هو بسبب زيغ وضلال وغي من العبد ابتداءً. ولا يكون ذلك ابتداءً من الله بالعبد .." (٢)

---

(١) عالم الجن والشياطين، ص/١٩

(٢) ضوابط التكفيرعند أهل السنة والجماعة، ص/١٤٣

"قوله: "لعله إذا رد بعض قوله" أي قول الرسول صلى الله عليه وسلم "أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك" نبه -رحمه الله- أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾٣.

---

١ منكر. أبو داود: كتاب الأقضية (٣٥٩٢)، (٣٥٩٣): باب اجتهاد الرأي في القضاء، والترمذي : الأحكام (١٣٢٧)، وأحمد (٢٣٦/٥، ٢٤٢/٥) ، والدارمي : المقدمة (١٦٨). وضعفه البخاري والترمذي والعقيلي والدارقطني وابن حزم وابن طاهر وابن الجوزي والذهبي والسبكي وابن حجر وغيرهم. راجع الضعيفة للألباني (٨٨١).

٢ في قرة العيون: فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به متبعا للدليل مع من كان معه. وبالله التوفيق.

٣ سورة الصف آية : ٥.." (١)

" قول الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد ويذهبون إلى رأي سفيان إلخ

قوله : وقال الإمام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان والله تعالى يقول : ' ٢٤ : ٦٣ ' ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أتدرون ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شئ من الزيغ فيهلك

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب قال الفضل عن أحمد : نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه و سلم في ثلاث وثلاثين موضعا ثم جعل يتلو : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ الآية فذكر من قوله : الفتنة الشرك . إلى قوله . فيهلك ثم جعل يتلو هذه الآية : ' ٤ : ٦٥ ' ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له : إن قوما يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره فقال : أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره قال الله تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الكفر قال الله تعالى : ' ٢ : ٢١٧ ' ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ فيدعون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

قوله : عرفوا الإسناد أي إسناد الحديث وصحته فإن صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء

---

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ٢٢٦/٢

وسفيان : هو الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه وكان له أصحاب يأخذون عنه ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة كالتمهيد لابن عبد البر والاستذكار له وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر والمحلى لابن حزم والمغنى لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي وغير هؤلاء

فقول الإمام أحمد رحمه الله : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته إلخ إنكار منه لذلك وأنه يؤول إلى زيع القلوب الذي يكون به المرء كافرا وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصا ممن ينتسب إلى العلم نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة وصدوا عن متابعة الرسول صلى الله عليه و سلم وتعظيم أمره ونهيه فمن ذلك قولهم : لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد والاجتهاد قد انقطع ويقول : هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول صلى الله عليه و سلم الذي لا ينطق عن الهوى والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك : أن ينتهي إليه ويعمل به وإن خالفه من خالفه كما قال تعالى : ' ٧ : ٣ ' ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى ' ٢٩ : ٥١ ' ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم وقد حكى أيضا أبو عمر ابن عبد البر وغيره الإجماع على ذلك

قلت : ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة لجهلهم بالكتاب والسنة ورغبتهم عنها وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم واتبعوا غير سبيلهم كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد ولكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخروا والإستغناء بها عن الوحيين وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذي قال الله فيهم : ' ٩ : ٣ ' ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله والحق في المسألة واحد والأئمة مثابون على اجتهادهم فالمصنف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنا وتمييزا للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر وفي السنة كذلك كما أخرج أبو داود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ : [أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما أراد أن يبعث معاذا إلى اليمن قال : كيف تقضي إذا عرض لك قضاء ؟ قال : أقضي بكتاب الله تعالى قال : فإن لم تجد في كتاب الله ؟ قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه و سلم قال فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا في كتاب الله ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو قال : فضرب رسول الله صلى الله عليه و سلم صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله] وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما بعثه إلى اليمن . بمعناه

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة لعلمهم أن من العلم شيئا لم يعلموه وقد يبلغ غيرهم وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء

قال أبو حنيفة رحمه الله : إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه و سلم فعلى الرأس والعين وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال

وقال : إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولي لكتاب الله قيل : إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه و سلم يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لخبر الرسول صلى الله عليه و سلم وقيل إذا كان قول الصحابة يخالفه ؟ قال : اتركوا قولي لصحابة

وقال الربيع : سمعت الشافعي رحمه الله يقول : إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم فخذوا سنة رسول الله صلى الله عليه و سلم ودعوا ما قلت

وقال : إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط

وقال مالك : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه و سلم

وتقدم له مثل ذلك فلا عذر لمقلد بعد هذا ولو استقضينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى

قوله : لعله إذا رد بعض قوله أي قول الرسول صلى الله عليه و سلم أي يقع في قلبه شئ من الزيغ فيهلك نبه رحمه الله أن رد قول الرسول صلى الله عليه و سلم سبب لزيغ القلب وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ' ٦١ : ٥ ' ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى : ' ٢٤ : ٦٣ ' ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ فإن كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك أو من العذاب الأليم دل على أنه قد يكون مفضيا إلى الكفر والعذاب الأليم ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر كما فعل إبليس لعنه الله تعالى ا هـ

وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ قال : يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه

قال أبو جعفر بن جرير : أدخلت عن لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين

قوله : أو يصيبهم في الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم ." (١)

"ص -٢٤- فخاف، فهذا هو الذي تم تخويفه . وأما من خوف فما خاف، فلم يتم تخويفه . وكذلك من هديته فاهتدى، ثم هداه، ومنه قوله تعالى : ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة : ٢] ، ومن هديته فلم يهتد كما قال : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [فصلت : ١٧] فلم يتم هداه، كما تقول : قطعته فانقطع، وقطعته فما انقطع .

---

(١) فتح المجيد، ص/٣٧٤

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاما، والفعل إذا صادف محلا قابلا تم، وإلا لم يتم . والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه؛ ولهذا يسمى هذا العلم : الداعي، ويقال : الداعي مع القدرة يستلزم وجود المقدور، وهو العلم بالمطلوب المستلزم لإرادة المعلوم المراد، وهذا كله إنما يحصل مع صحة الفطرة وسلامتها، وأما مع فسادها، فقد يحس الإنسان باللذيذ فلا يجد له لذة بل يؤلمه، وكذلك يلتذ بالمؤلم لفساد الفطرة، و الفساد يتناول القوة العلمية والقوة العملية جميعا، كالممرور الذي يجد العسل مرا، فإنه فسد نفس إحساسه حتى كان يحس به على خلاف ما هو عليه للمرة التي مازجته، وكذلك من فسد باطنه، قال تعالى ﴿وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف : ٥] ، وقال : ﴿وقولهم قلوبنا غلف بل طبع." [١]

" فهذا يشبه قوله ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة سورة الانعام ١١٠ **وقوله فلما زاغوا ازاغ** الله قلوبهم سورة الصف ٥ فإن الله عاقب المعرض عن اتباع ما بعث به رسله بالحجاب الذي في قلوبهم فسمى السري هذا حجاب الغيرة لأنه تعالى يكره ويبغض ان يكون هؤلاء الذين كفروا وفسقوا عن امره يعطون ما يعطاه المؤمن من الفهم لسبب هذه الغيرة التي وصف الرسول بها ربه فان غيرته ان يأتي العبد ما حرم عليه ذكرها النبي صلى الله عليه و سلم وهي غيرة على ما هو من افعال العبد التي نهى عنها واما هذه الغيرة فهي غيرة على ما هو من فعل الرب

والنبي صلى الله عليه و سلم لم يصف الله بانه يغار على ما يقدر عليه من الافعال ولكن لما رأى السري ان الشيء المحبوب النفس تغار عليه ان يكون في غير محله سمى ذلك حجاب الغيرة والله يحب لعباده ان يفعلوه من جهة كونهم ." [٢]

"ما دام يراه حسنا لأن أول التوبة العلم بأن فعله سيء ليتوب منه أو أنه ترك حسنا مأمورا به أمر إيجاب أو أمر استحباب ليتوب ويفعله فما دام يرى فعله حسنا وهو سيء في نفس الأمر فإنه لا يتوب ولكن التوبة ممكنة وواقعه بأن يهديه الله ويرشده حتى يتبين له الحق كما هدى سبحانه وتعالى من هدى من الكفار والمافقين وطوائف أهل البدع والضلال وهذا يكون بأن يتبع من الحق ما علمه فمن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم كما قال تعالى محمد والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم وقال النساء ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما وقال تعالى الحديد يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به وقال تعالى البقرة الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وقال تعالى المائدة قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام الآية وشواهد هذا كثيرة في الكتاب والسنة وكذلك من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى **الصف فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم الآية وقال تعالى البقرة في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا وقال تعالى الأنعام وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم

---

(١) الإيمان، ٢/٢٦

(٢) الاستقامة، ٢/٤٦

الآية وهذا استفهام نفي وإنكار أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون وإنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ إنها بالكسر تكون جزما بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها وقد ثبت في الصحيحين." (١)

"ص -٢٧- قلت : وقد قال في آخر السورة :﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور : ٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ [الأنعام : ١٠٩، ١١٠] ، وقال تعالى :﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ﴾ [آل عمران : ١٥٥] ، وقال تعالى :﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إلى قوله :﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ : [الصف : ٥ ٧] ، وقال تعالى :﴿ قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ﴾ [البقرة : ٨٨] ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ [النساء : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وقال تعالى :﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل." (٢)

"لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ ﴿ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى . ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وَشَوَاهِدُ هَذَا كَثِيرَةٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَكَذَلِكَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْلَمُهُ تَبَعًا لِهَوَاهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يُورِثُهُ الْجَهْلَ وَالضَّلَالَ حَتَّى يَعْمَى قَلْبُهُ عَنْ الْحَقِّ الْوَاضِحِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ وَهَذَا اسْتِفْهَامُ نَفْيٍ وَإِنْكَارٍ : أَيْ وَمَا يُدْرِيكُمْ أَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنَّا نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (إنَّهَا بِالْكَسْرِ تَكُونُ جَزْمًا بِأَنَّهَا إذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ كَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : إنَّ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ

---

(١) أمراض القلب وشفاؤها، ص/٤٨

(٢) الحسنة والسيئة، ٢/١٥

بَعْدَهَا وَإِنَّ مِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إلَى الْجَنَّةِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا . وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إلَى النَّارِ وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا ﴾ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الصِّدْقَ أَصْلٌ يَسْتَلْزِمُ الْبِرَّ . وَأَنَّ الْكَذِبَ يَسْتَلْزِمُ الْفُجُورَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وَلِهَذَا كَانَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ إذَا أَمَرَ بَعْضَ مُتَّبِعِيهِ بِالتَّوْبَةِ وَأَحَبَّ أَنْ لَا يُنَفِّرَهُ وَلَا يُشَعِّبَ قَلْبَهُ أَمَرَهُ بِالصِّدْقِ . وَلِهَذَا كَانَ يَكْثُرُ فِي كَلَامِ مَشَايِخِ الدِّينِ وَأَئِمَّتِهِ ذِكْرُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ حَتَّى يَقُولُوا : قُلْ لِمَنْ لَا يَصْدُقُ : لَا يَتَّبِعْنِي . وَيَقُولُونَ : الصِّدْقُ سَيْفُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ وَمَا وُضِعَ عَلَى شَيْءٍ إلَّا قَطَعَهُ وَيَقُولُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ وَغَيْرُهُ : مَا صَدَقَ اللَّهَ عَبْدٌ إلَّا صَنَعَ لَهُ وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرٌ .." (١)

"ص –٣٨٨– ... الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله " ١. وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن – بمعناه". والأئمة –رحمهم الله– لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة –رحمه الله–: " إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة –رضي الله عنهم– فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال".

وقال: " إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه فاتركوا قولي لكتاب الله". قيل: إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه؟ قال: " اتركوا قولي لخبر الرسول صلى الله عليه وسلم". وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: " اتركوا قولي لقول الصحابة".

وقال الربيع: " سمعت الشافعي –رحمه الله– يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعوا ما قلت".

وقال: " إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط".

عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم

وقال مالك: "كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى٢ .

قوله: "لعله إذا رد بعض قوله" أي قول الرسول صلى الله عليه وسلم "أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك" نبه –رحمه

---

(١) التحفة العراقية في الأعمال القلبية، ص/٣

الله– أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله." (١)

"ص –٢٨٠– ... لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك)) (١) .

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه (٢) " أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية ": ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم﴾ ١ الآية. " فقلت: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم ".

....

(١) أي لعل الإنسان الذي تصح عنده سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رد بعض قول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقع في قلبه شيء من الزيغ في ذلك، تنبيه منه –رحمه الله– أن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ٢. وفي رواية الفضل عنه: وجعل يتلو: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ ٣ الآية. وإذا كان رفع الصوت فوق صوته سببا لحبوط العمل، فما ظنك برد أحكامه وسننه لقول أحد من الناس كائنا من كان، وإذ علمت أن مخالفة أمره سبب للشرك، علمت أن من رد قوله وخالف أمره لقول أحمد أو غيره له النصيب الكامل، والحظ الوافر من هذه الآية.

(٢) هو الطائي المشهور بالسخاء والكرم، ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي، بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طي بن أدد ابن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان، قدم عدي رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم في شعبان سنة ٩هـ، فأسلم وثبت في الردة، وحضر فتوح العراق، وحروب علي، وعاش مائة وعشرين سنة، ومات سنة ٦٨هـ.

---

١ سورة التوبة آية : ٣١.

٢ سورة الصف آية : ٥.

٣ سورة النساء آية : ٦٥.." (٢)

"قال تعالى : ﴿ **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] ، فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس ، وينشرح له الصدر ، وتنقطع به حجة البطالين .

وقوله : " خير وشره " . الخير : ما يلائم العبد ، والشر : ما لا يلائمه .

ومعلوم أن المقدورات خير و شر ، فالطاعات خير ، والمعاصي شر ، والغني خير ، والفقر شر ، والصحة خير ، والمرض شر ، وهكذا .

---

(١) موسوعة توحيد رب العبيد، ٢٢٩/٧

(٢) موسوعة توحيد رب العبيد، ٤٤٢/٨

وإذا كان القدر من الله ، فكيف يقال : الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله ؟
فالجواب : أن الشر لا ينسب إلى الله ، قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " والشر ليس إليك " (١)، فلا ينسب إليه الشر لا فعلا ولا تقديرا ولا حكما ، بل الشر في مفعولات الله لا في فعله ، ففعله كله خير وحكمة ، فتقدير الله لهذه الشرور له حكمة عظيمة ، وتأمل قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ [الروم : ٤١] ، تجد أن هذا الفساد الذي ظهر في البر والبحر كان لما يرجى به من العاقبة الحميدة ، وهي الرجوع إلى الله عز وجل ، ويظهر الفرق بين الفعل والمفعول في المثال التالي :
ولدك حينما يشتكي ويحتاج إلى كي تكويه بالنار ، فالكي شر ، لكن الفعل خير ، لأنك تريد مصلحته ، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرا محضا ، بل في محله وزمانه فقط ، فإذا أخذ الله الظالم أخذ عزيز مقتدر ، صار ذلك شرا بالنسبة له ، وقد يكون خيرا له من وجه آخر ، أما لغيره ممن يتعظ بما صنع الله به ، فيكون خيرا ، قال تعالى في القرية التي اعتدت في السبت : ﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ [البقرة : ٦٥] .

---

(١) مسلم : كتاب صلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل .." [1]

"ص –٢٥٩– ... وعلا، فمن تبين له الحق ولم يقبله فإنه يعاقب بالحرمان –والعياذ بالله–، يعاقب بالزيغ والضلال، ولا يقبل الحق بعد ذلك، فهذا فيه الحث على أن من بلغه الحق وجب عليه أن يقبله مباشرة، ولا يتلكأ ولا يتأخر، لأنه إن تأخر فحري أن يحرم منه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.
وهذا الحديث مع الآية يدلان على مسائل عظيمة:
المسألة الأولى: فيه مشروعية الدعوة إلى الله عز وجل، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى عمه وهو في سياق الموت، من أجل ماذا؟، من أجل الدعوة إلى الله عز وجل، ففيه: الدعوة إلى الله، وأن الداعية لا ييأس، ولا يقنط من القبول، أو يكسل عن مواصلة الدعوة، ويقول: الناس ما هم بقابلين، الناس ما فيهم خير، الإنسان يدعو إلى الله، من قبل فالحمد لله، ومن لم يقبل قامت عليه الحجة، وحصل الأجر للداعية.
المسألة الثانية: في الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض المشرك من أجل دعوته إلى الله عز وجل، فإن الرسول عاد عمه وهو مشرك من أجل دعوته إلى الله.
المسألة الثالثة: – وهي مهمة جدا–: أن من قال: لا إله إلا الله فإنه يقبل منه، ويحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حكم بردته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يحكم بإسلامه، فإن كان صادقا فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقا، وإن كان كاذبا فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عز وجل، أما نحن فليس لنا إلا الظاهر.
المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فأبو طالب عاش على الكفر والشرك، لكنه لو قال: لا إله إلا

---

(١) موسوعة توحيد رب العبيد، ٣٠٥/١١

الله عند الوفاة، واستجاب للرسول صلى الله عليه وسلم لختم له بالإسلام، فدل على أن الأعمال بالخواتيم، وهذا يصدقه قول." (١)

"ص -١١٥- ... أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء بلا من الزيغ فيهلك".

﴿أن تصيبهم فتنة﴾ فسرها الإمام أحمد بالزيغ والشرك، قال: "أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله" أي: بعض قول الرسول صلى الله عليه وسلم، "أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك".

فمن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم متعمدا تبعا لهواه، أو تعصبا لشيخه الذي يقلده، فإنه مهدد بعقوبتين:

العقوبة الأولى: الزيغ في قلبه، لأنه إذا ترك الحق ابتلي بالباطل، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾، لما انصرفوا عن تلقي القرآن عند نزوله وتعلمه صرف الله قلوبهم عن الحق عقوبة لهم، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾، لما رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك. وهذا خطر شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علما وبصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون(١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون(١٢٥)﴾، فالمؤمن يتبع الدليل ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالة المؤمن أنى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيغ أو نفاق فهذا إنما يتبع هواه ولا يتبع الدليل، وهذا يصاب بالزيغ." (٢)

"ص -٤١٩- ... ولكن قد تخفاه السنة فيكون قد حكم برأيه أو بتقعيد عنده، لكن السنة جاءت بخلاف ذلك، فلا يسوغ أن يجعل رأي سفيان في مقابل الحديث النبوي.

"والله تعالى يقول: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك" إذا رد بعض قول النبي —الصلاة والسلام لقول أحد يخشى عليه أن يعاقب فيقع في قلبه زيغ، قال الله جل وعلا: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ فهم زاغوا بمحض إرادتهم واختيارهم، مع بيان الحجج وظهور الدلائل والبراهين لكن لما زاغوا أزاغ الله قلوبهم عقوبة منه لهم على ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة﴾ أي نوع شرك، وقد يصل ذلك إلى الشرك الأكبر بالله — جل وعلا- إذا كان في تحليل الحرام مع العلم بأنه حرام، وتحريم الحلال مع العلم بأنه حلال.

وعن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي —صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله

---

(١) موسوعة توحيد رب العبيد، ٤٧٢/١٣

(٢) موسوعة توحيد رب العبيد، ٣٧٨/١٤

والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ فقلت له: لسنا نعبدهم" فيه أنه فهم من قوله: "أربابا" أنهم المعبودون.." (١)

"و(من أعرض عن اتباع الحق الذي يعلمه تبعًا لهواه فإن ذلك يورثه الجهل والضلال حتى يعمي قلبه عن الحق الواضح كما قال تعالى: ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ؟ [الصف:٥]). "الفتاوى" (١٠/١٠).

ومن الهوى الاستدلال على بطلان الحق بكثرة المخالفين له، قال شيخ الإسلام رحمه الله: (ومن المعلوم أن مجرد نفور النافرين، أو محبة الموافقين: لا يدل على صحة قول ولا فساده إلا إذا كان ذلك بهدى من الله، بل الاستدلال بذلك هو استدلال باتباع الهوى بغير هدى من الله، فإن اتباع الإنسان لما يهواه هو أخذ القول والفعل الذي يحبه، ورد القول والفعل الذي يبغضه بلا هدى من الله، قال تعالى: ؟وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؟ [الأنعام:١١٩]، وقال: ؟فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ؟ [القصص:٥٠]، وقال تعالى لداود: ؟وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ؟ [ص:٢٦]، وقال تعالى: ؟فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ؟ [الأنعام:١٥٠]، وقال تعالى: ؟قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ؟ [المائدة:٧٧]، وقال تعالى: ؟وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ؟." (٢)

"فالقلب الذي لا يقتنع بدين الله تعالى قلب مريض أفسده صاحبه بالمعاصي، كما تفسد الحواس بتعريضها لما يؤذيها:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

فالعيب ليس في دين الله ولا عن نقص حجة فيه ((قل فلله الحجة البالغة))، والله تعالى قد فطر الناس جميعا على الانجذاب لدينه: ((وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون)). إنما العيب في القلب الذي يستقبح دين الله ولا يقتنع به.

مرض القلب ناتج عن المعاصي:

فمرض القلب إذا مكتسب بالمعاصي. والأدلة على ذلك في القرآن والسنة كثيرة جدا منها قول الله تعالى:

((فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا)) (النساء) أي ردهم وأوقعهم في الخطأ والكفر بسبب معاصيهم. وقوله تعالى:

---

(١) موسوعة توحيد رب العبيد، ٣٤٩/١٦

(٢) مفهوم أهل السنة والجماعة، ص/٣٢

ومنها قوله تعالى: ((ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)) (المنافقون) فالكفر أكبر المعاصي.
ومنها قوله تعالى: ((كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين (٨٦))) (آل عمران).
يوضح الله الحق للإنسان ويدركه الإنسان ولو لفترة قصيرة. لكن الإنسان إذا تعامى وآثر الدنيا وحظوظ النفس أو استكبر مَرِض قلبه فنسي هذا اليقين الذي تبدى له. يدل على ذلك قول الله تعالى: ((ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون (١١٠)))
فليحذر امرؤ أن يتعامى عن حق ذاق طعمه لحظة وإلا فقد ينساه بقية حياته.
ومنها قول الله تعالى:
((فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)) وقوله تعالى:
((أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله))
وقوله تعالى:
((." [1]

"(بغير علم) (١) ، وقال: (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) (٢) .
والعبد إذا عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم، كما قال سبحانه: (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما (٦٨)) (٣) ، وقال: (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧)) (٤) ، وقال: (اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به) (٥) ، وقال: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) (٦) .
فإذا ترك العمل بعلمه عاقبه الله بأن أضله عن الهدى الذي يعرفه، كما قال: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٧) ، وقال: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) (٨) ، وقال: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) (٩) .
وفي الحديث الذي رواه الترمذي (١٠) وصححه عن أبي هريرة

---

(١) سورة الأنعام: ١١٩.
(٢) سورة القصص:٥٠.
(٣) سورة النساء: ٦٦-٦٨.
(٤) سورة محمد:١٧.
(٥) سورة الحديد: ٢٨.
(٦) سورة المائدة: ١٦.

---

(١) هذا النفاق فاحذروه، ص/١٥

(٧) سورة الصف: ٥.

(٨) سورة الأنعام: ١١٠.

(٩) سورة البقرة: ١٠.

(١٠) برقم (٣٣٣٤) . وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضا أحمد (٢/٢٩٧) =." [1]

"والمستقيم ضد المعوج المنحرف، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – (١) : "ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه". (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) (٢) ، وقال: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٣) .

ومنه تقويم السهم والصف، وهو تعديله، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول: "أقيموا صفوفكم، فإن تسوية الصف من تمام الصلاة" (٤) .

وكان يقوم الصف كما يقوم القدح (٥) .

ومنه الصراط المستقيم والاستقامة، وهذا من هذا، كما قال تعالى: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) (٦) من طريقة أهل التوراة.

وما يهدي إليه القرآن أقوم مما يهدي إليه الكتاب الذي [قبله] ، وإن كان ذلك يهدي إلى الصراط المستقيم، لكن القرآن يهدي للتي هي أقوم. ولهذا ذكر هذا بعد قوله: (وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل) (٧) ، ثم قال: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٨٢) وابن ماجه (١٩٩) عن النواس بن سمعان.، وله شاهد من حديث أم سلمة أخرجه الترمذي (٣٥٢٢) وقال: حديث حسن.

(٢) سورة آل عمران: ٨.

(٣) سورة الصف: ٥.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٣) ومسلم (٤٣٣) عن أنس بن مالك.

(٥) كما في حديث النعمان بن بشير الذي أخرجه مسلم (٤٣٦) .

(٦) سورة الإسراء: ٩.

(٧) سورة الإسراء: ٢.." [2]

"عليه اليهود قال تعالى سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين [سورة

---

[1] جامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس ابن تيمية ٤/٥١

[2] جامع المسائل لابن تيمية – عزير شمس ابن تيمية ٥/١٦٢

الأعراف ١٤٦] وقال تعالى واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث الآية [سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٦]

الغي والضلال يجمعان جميع السيئات

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن فإن الغي والضلال يجمع جميع سيئات بني آدم فإن الإنسان كما قال تعالى وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا [سورة الأحزاب ٧٢] فبظلمه يكون غاويا وبجهله يكون ضالا وكثيرا ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالا في شيء غاويا في شيء آخر إذ هو ظلوم جهول ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر كما قال في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا [سورة البقرة ١٠] وكما **قال فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم [سورة الصف ٥]

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى فإذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم وإذ عمل بحسنة دعته إلى حسنة أخرى قال تعالى والذين." (١)

"هذا لعمري إذا كان عند العالم ما هو أمر الشارع ونهيه حقيقة وعند العابد حسن القصد الخالي عن الهوى حقيقة فأما من خلط الشرع المنزل بالمبدل والمؤول، وخلط القصد الحسن باتباع الهوى فهؤلاء وهؤلاء مخلطون في علمهم وعملهم. وتخليط هؤلاء في العلم سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في القصد، وتخليط هؤلاء في القصد سوى تخليطهم وتخليط غيرهم في العلم فإنه من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم. و " حسن القصد " من أعون الأشياء على نيل العلم ودركه. و " العلم الشرعي " من أعون الأشياء على حسن القصد والعمل الصالح فإن العلم قائد والعمل سائق، والنفس حرون فإن ونى قائدها لم تستقم لسائقها وإن ونى سائقها لم تستقم لقائدها فإذا ضعف العلم حار السالك ولم يدر أين يسلك فغايته أن يستطرح للقدر وإذا ترك العمل حاد السالك عن الطريق فسلك غيره مع علمه أنه تركه فهذا حائر لا يدري أين يسلك مع كثرة سيره وهذا حائد عن الطريق زائغ عنه مع علمه به.

قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ . هذا جاهل وهذا ظالم. قال تعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ . مع أن الجهل والظلم متقاربان لكن الجاهل لا يدري أنه ظالم،." (٢)

"الدين وطاعة الشياطين وسخط رب العالمين حتى نقل أن كثيرا من المماليك يتمدح بأنه لا يعرف إلا سيده كما تتمدح الأمة بأنها لا تعرف إلا سيدها وزوجها وكذلك كثير من المردان الأحداث يتمدح بأنه لا يعرف إلا خدينه وصديقه ومؤاخيه كما تتمدح المرأة بأنها لا تعرف إلا زوجها وكذلك كثير من الزناة بالمماليك والأحداث من الصبيان قد يتمدح بأنه عفيف عما سوي خدنه الذي هو قرينه كالزوجة أو عما سوي مملوكه الذي هو قرينه كما يتمدح المؤمن بأنه عفيف إلا عن زوجته أو ما ملكت يمينه

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية - رشاد سالم ابن تيمية ٢٢٩/١

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية - رشاد سالم ابن تيمية ١٨٠/٢

ولا ريب أن الكفر والفسوق والعصيان درجات كما أن الإيمان والعمل الصالح درجات هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون وقد قال تعالى إنما النسيء زيادة في الكفر وقال تعالى فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وقال **تعالى فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم كما قال تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت وقال وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا كما قال تعالى والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل فالمتخذ خدنا من الرجل والنساء أقل شرا من المسافح لأن الفساد في ذلك أقل والمستخفي بما يأتيه أقل إثما من المجاهر المستعلن كما في الحديث عن." (١)

"لا يتصف بما خلقه في غيره من الطعوم والألوان والروائح والأشكال والمقادير والحركات وغير ذلك، فإذا كان قد خلق لون الإنسان لم يكن هو المتلون به، وإذا خلق رائحة منتنة أو طعما مرا أو صورة قبيحة ونحو ذلك مما هو مكروه مذموم مستقبح لم يكن هو متصفا بهذه المخلوقات القبيحة المذمومة المكروهة والأفعال القبيحة. ومعنى قبحها كونها ضارة لفاعلها، وسببا لذمه وعقابه، وجالبة لألمه وعذابه. وهذا أمر يعود على الفاعل الذي قامت به لا على الخالق الذي خلقها فعلا لغيره.

ثم على قول الجمهور الذين يقولون له حكمة فيما خلقه في العالم مما هو مستقبح وضار ومؤذ يقولون: له فيما خلقه من هذه الأفعال القبيحة الضارة لفاعلها حكمة عظيمة كما له حكمة عظيمة فيما خلقه من الأمراض والغموم. ومن يقول لا تعلل أفعاله لا يعلل لا هذا ولا هذا. يوضح ذلك أن الله تعالى إذا خلق في الإنسان عمى ومرضا وجوعا وعطشا ووصبا ونصبا ونحو ذلك كان العبد هو المريض الجائع العطشان المتألم، فضرر هذه المخلوقات وما فيها من الأذى والكراهة عاد إليه ولا يعود إلى الله تعالى شيء من ذلك، فكذلك ما خلق فيه من كذب وظلم وكفر ونحو ذلك هي أمور ضارة مكروهة مؤذية. وهذا معنى كونها سيئات وقبائح، أي أنها تسوء صاحبها وتضره، وقد تسود أيضا غيره وتضره كما أن مرضه ونتن ريحه ونحو ذلك قد يسوء غيره ويضره.

يبين ذلك أن القدرية سلموا أن الله قد يخلق في العبد كفرا وفسوقا على سبيل الجزاء كما في قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) وقوله (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقوله (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .

ثم إنه من المعلوم أن هذه المخلوقات تكون فعلا للعبد وكسبا له يجزى عليها ويستحق الذم عليها والعقاب وهي مخلوقة لله تعالى، فالقول عند أهل الإثبات فيما يخلقه." (٢)

"من الزيغ: أي العدول عن الحق وفساد القلب.

المعنى الإجمالي: ينكر الإمام أحمد على من يعرف الحديث الصحيح عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ثم بعد ذلك يقلد سفيان أو غيره فيما يخالف الحديث، ويعتذر بالأعذار الباطلة؛ ليبرر فعله. مع أن الفرض والحتم على المؤمن إذا بلغه كتاب الله –تعالى– وسنة رسوله –صلى الله عليه وسلم– وعلم معنى ذلك في أي شيء كان أن يعمل به ولو خالفه من

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية – رشاد سالم ابن تيمية ٢/٣٠١

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية – رشيد رضا ابن تيمية ٥/١٤٦

خالفه، فبذلك أمرنا ربنا –تبارك وتعالى- وأمرنا نبينا –صلى الله عليه وسلم- ثم يتخوف الإمام أحمد على من صحت عنده سنة رسول الله –صلى الله عليه وسلم-، ثم خالف شيئا منها أن يزيغ قلبه فيهلك في الدنيا والآخرة، ويستشهد بالآية المذكورة، ومثلها في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] .

مناسبة ذكر ذلك في الباب: التحذير من تقليد العلماء من غير دليل، وترك العمل بالكتاب والسنة أن ذلك شرك في الطاعة.

ما يستفاد من الأثر:

١- تحريم التقليد على من يعرف الدليل وكيفية الاستدلال.

٢- جواز التقليد لمن لا يعرف الدليل؛ بأن يقلد من يثق بعلمه ودينه من أهل العلم.

* * *." (١)

"وعلا، فمن تبين له الحق ولم يقبله فإنه يعاقب بالحرمان -والعياذ بالله-، يعاقب بالزيغ والضلال، ولا يقبل الحق بعد ذلك، فهذا فيه الحث على أن من بلغه الحق وجب عليه أن يقبله مباشرة، ولا يتلكأ ولا يتأخر، لأنه إن تأخر فحري أن يحرم منه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ .

وهذا الحديث مع الآية يدلان على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه مشروعية الدعوة إلى الله عز وجل، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أتى عمه وهو في سياق الموت، من أجل ماذا؟، من أجل الدعوة إلى الله عز وجل، ففيه: الدعوة إلى الله، وأن الداعية لا ييأس، ولا يقنط من القبول، أو يكسل عن مواصلة الدعوة، ويقول: الناس ما هم بقابلين، الناس ما فيهم خير، الإنسان يدعو إلى الله، من قبل فالحمد لله، ومن لم يقبل قامت عليه الحجة، وحصل الأجر للداعية.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض المشرك من أجل دعوته إلى الله عز وجل، فإن الرسول عاد عمه وهو مشرك من أجل دعوته إلى الله.

المسألة الثالثة: - وهي مهمة جدا-: أن من قال: لا إله إلا الله فإنه يقبل منه، ويحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حكم بردته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يحكم بإسلامه، فإن كان صادقا فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقا، وإن كان كاذبا فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عز وجل، أما نحن فليس لنا إلا الظاهر.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فأبو طالب عاش على الكفر والشرك، لكنه لو قال: لا إله إلا الله عند الوفاة، واستجاب للرسول صلى الله عليه وسلم لختم له بالإسلام، فدل على أن الأعمال بالخواتيم، وهذا يصدقه قول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث عبد الله بن مسعود: "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه

---

(١) الملخص في شرح كتاب التوحيد صالح الفوزان ص/٢٩٨

وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها" فالأعمال بالخواتيم.." (١)

"أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء بلا من الزيغ فيهلك".

﴿أن تصيبهم فتنة﴾ فسرها الإمام أحمد بالزيغ والشرك، قال: "أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله" أي: بعض قول الرسول صلى الله عليه وسلم، "أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك".

فمن رد قول الرسول صلى الله عليه وسلم متعمدا تبعا لهواه، أو تعصبا لشيخه الذي يقلده، فإنه مهدد بعقوبتين:

العقوبة الأولى: الزيغ في قلبه، لأنه إذا ترك الحق ابتلي بالباطل، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ، وقال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾ ، لما انصرفوا عن تلقي القرآن عند نزوله وتعلمه صرف الله قلوبهم عن الحق عقوبة لهم، وقال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ ، لما رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبة لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك. وهذا خطر شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علما وبصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون (١٢٥) ﴾ ، فالمؤمن يتبع الدليل ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالة المؤمن أنى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيغ أو نفاق فهذا إنما يتبع هواه ولا يتبع الدليل، وهذا يصاب بالزيغ والانحراف في العقيدة والانحراف في الدين والانحراف في الأخلاق وفي كل شيء، عقوبة له من الله سبحانه وتعالى.

والعقوبة الثانية: ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ في أبدانهم، بالقتل في الدنيا، بأن يسلط الله عليهم من يستأصل شأفتهم ويقتلهم، إما من المؤمنين، وإما من غير المؤمنين، عقوبة لهم ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ ، إن ماتوا ولم يقتلوا بأن يعذبوا في النار. فهذا وعيد شديد على مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

فترك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، والأخذ بأقوال العلماء والأمراء المخالفة لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم في التحليل والتحريم يسبب الفتنة، أو العذاب الأليم.." (٢)

---

(١) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد صالح الفوزان ٢٥٩/١

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد صالح الفوزان ١١٥/٢

"مَحَلّ النِّيَّة

بالتأمل في تعريفات العلماء للنية يظهر لنا أنَّ محل النية عندهم القلب، فقد عرَّفها بعضهم بأنَّها "عزيمة القلب"، أو "وجهة القلب"، أو "قصده"، أو "انبعاثه" (١).

وقد نقل ابن تيمية اتفاق علماء الشريعة على أنَّ القلب محل النية (٢)، وحكى السيوطي أنَّ الشافعية قد أطبقوا على أن النيّة محلها القلب وهو قول مالك رحمه الله (٣).

والذي جعلهم يذهبون هذا المذهب أنهم وجدوا كتاب الله ينسب العقل والفقه والإيمان والزيغ ونحو ذلك إلى القلب. كما قال تعالى: ﴿أَفلمْ يسيرُوا في الأَرْض، فتكُون لهُمْ قُلُوب يعْقلونَ بِهَا﴾ (٤)، وقال: ﴿وطُبع علَى قُلُوبِهِمْ فهُمْ لا يَفقَهُون﴾ (٥)، وقال: (أولئك كتب في قُلُوبِهِمُ الإيمَان﴾ (٦)، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أزاغَ الله قُلُوبَهُمْ﴾ (٧).

والقلب الذي عناه الله تعالى في هذه الآيات محله الصدر، وقد نصّ الله -تعالى- على ذلك: ﴿وَلكِن تَعْمى الْقُلُوبُ الَّتي فِي الصدُورِ﴾ (٨).

(١) سبق ذكر هذه التعريفات في المقدمة ص (٢٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٦٢).

(٣) منتهى الآمال (١٧/ أ) الحدود في الأصول (ص ٣٤).

(٤) سورة الحج / ٤٦.

(٥) سورة التوبة / ٨٧.

(٦) سورة المجادلة / ٢٢.

(٧) سورة الصف / ٥.

(٨) سورة الحج / ٤٦.." (١)

"مستنيرة بنور الإيمان يعلم ما حل بالقلوب والعقول والأفراد والأسر والمجتمعات نتيجة لاتباع الهوى في السياسة والتشريع والاقتصاد وغير ذلك، يقول ابن القيم:

"وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلب إلا استحكم هلاكه، وفي أمَّة إلا وفسد أمرها أتم الفساد" (١)، والسبب في ذلك أن أهواء العباد غير محكومة بميزان، ولا تعتمد الحجة والبرهان، وإنما هي محبوبات ومكروهات يراد من ورائها اللذة العاجلة، والمتعة الزائلة.

ومن نتائج اتباع الهوى أن متبعه يعرض عن الحق، وهذا يورثه الجهل والضلال، حتى يعمى قلبه عن الحق الواضح، قال تعالى: ﴿فَلَما زاغوا أَزَاغَ الله قُلوبَهَمْ﴾ (٢)، وقال: ﴿وَلَا تَتبع الْهَوَى فَيضِلكَ عَنْ سَبيلِ الله﴾ (٣). وإذا ضل العبد

(١) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين، سليمان الأشقر، عمر ص/١١٥

باتباعه الهوى فإن الشياطين تتلقفه، وقد لا يستطيع العودة إلى الحق: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ (٤).

ومن نتائجه أنه يبطل الأعمال الصالحة ويفسدها، فالذي يفعل ويترك اتباعا للهوى، لا عبودية لله، إذا عمل من الأعمال الصالحة ما وافق هواه، فإن عمله غير مقبول، لأنه لم يقصد به وجه الله تعالى، يقول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في أمثال هؤلاء: "لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، ويخالفه إذا خالف هواه، فإذًا أنت لا تثاب على ما اتبعته من الحق، وتعاقب على ما خالفته، لأنه إنما قصد اتباع هواه" (٥).

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٧٢).

(٢) سورة الصف: ٥.

(٣) سورة ص: ٢٦.

(٤) سورة الأنعام: ٧١.

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧٩).." [١]

"ضرر القصص الباطلة على الناس

ونلحظ في قوله عز وجل: ((نحن نقص عليك نبأهم بالحق))، أن الله سبحانه وتعالى قص علينا الحق من ذلك، والحق هو ما ينتفع الناس به وما وافق الصواب والواقع، فلم يذكر الله سبحانه وتعالى كما سمعنا من الإمام ابن كثير رحمه الله كثيرا من التفاصيل التي لا تفيد العباد في شأن قلوبهم وأعمالهم وسلوكهم أو تدبرهم، وهذا كما نعلم شأن القرآن في أكثر قصصه، لا يذكر تفاصيل الأمكنة والأزمنة وأسماء الأشخاص والبلاد في معظم هذه القصص إلا ما كان له به حاجة، وهو بالحق لأنه موافق لما وقع وجرى دون زيادة ولا نقصان، والله سبحانه وتعالى جعل القصص الحق مما ينبغي أن ينشغل الناس به، وأما القصص الباطل فقد ذمه في سياق هذه الآية قال تعالى: ((نحن نقص عليك نبأهم بالحق))، أي: فلا تشغل نفسك بغير الحق، واهتم بهذا الحق، ففي مفهوم هذه الآية الكريمة أمر بالاهتمام بقصص الحق، ونهي عن الاشتغال بقصص الباطل، وهذا أمر عظيم الأهمية في حال قلب العبد المؤمن، فإن انشغال الإنسان بالقصص الباطل يدمر الإيمان في القلب تدميرا، ويشغله عما ينبغي أن يعده لمستقبله الحقيقي، ولذلك كان من أعظم الأمور مفسدة ما يظنه كثير من الناس صالحا من شغل الناس بالقصص الباطلة، وتأليف هذه الأقاصيص الكاذبة، وبعضهم قد يظن أنها ربما تصبغ صبغة دينية إسلامية، وتجعل فيها بعض المفاهيم، والحق أن هذا في الجملة من أعظم ما يؤدي إلى فساد العقول والقلوب؛ لأن القلوب تتعلق بهذا الباطل فيسهل تعلقها بكل باطل بعد ذلك، وأما إذا تعلقت بالقصص الحق فهنا يحدث لها تعلق بالحق كله، وذلك لأن الباطل يجر إلى مزيد من الباطل؛ لذلك نقول: أمراض النظر والقراءة والسماع لقصص الباطل أمراض عديدة تظهر في سلوك

---

(١) مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين، سليمان الأشقر، عمر ص/٤٢١

الإنسان ومعتقداته، ويبدأ ذلك معه منذ صغره، ويمتد معه حتى يكبر، ولذلك نجد الكثيرين يهتمون بالباطل والمظاهر أمام الناس كما قد تعودوا ونشئوا على هذا، فكل الأمر عندهم تمثيل في تمثيل، وما ينبغي أن يسمى تمثيلا هذا الذي يفعلونه، فالتمثيل ضرب المثال، أما هذا الذي يفعلونه فهو الكذب بعينه، ولا حقيقة له ولا أصل، وهو يضر أعظم الضرر، ولذا فالنصيحة الأكيدة لشباب المسلمين ورجالهم ونسائهم أن يتجنبوا القصص الباطلة، ويكتفوا بقصص الحق قصص القرآن العظيم، فإن قصص الباطل تؤدي إلى تعلق القلب على الدوام به والعياذ بالله، فيظل دائما على تلك الحال يعيش حياته بالباطل، وهو يستحضر ما قد رآه وسمعه، وعاش فيه قبل ذلك في صغره وكبره، فلا شك أن إغلاق هذا الباب واجب، سواء كانت قراءة كالألغاز والروايات المختلفة، أو سماعا من وسائل المذياع والمسلسلات وغيرها، أو نظرا ورؤية كالأفلام والمسرحيات والتمثيليات، فإنها كلها تؤدي إلى أعظم الأضرار على القلب، وأما سماع القصص الحق واستحضارها في القلب وتدبرها فهو يزيد الإيمان أيما زيادة، قال تعالى: ((إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى))، وكما سمعنا، فقد استدل العلماء بهذه الآية الكريمة على زيادة الإيمان، فالله عز وجل يتفضل أولا على عباده لتوفيقهم للإيمان، ثم يمن عليهم ثانيا إذا آمنوا بزيادتهم هدى وإيمانا، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق في قلوب عباده الهدى والإيمان.

وهذه الآية تدل على خلق أفعال العباد، فالله عز وجل هو الذي يخلق في قلوب من شاء الهدى، ويخلق في قلوب من شاء الضلال، وهو سبحانه يزيد إيمان من شاء بعدله ورحمته وحكمته سبحانه وتعالى، وهو عز وجل الذي ينزع الإيمان ويزيغ القلوب عدلا منه وحكمة، كما قال عز وجل: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥].." (١)

"وفي الحديث ((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)) (١).

قال المناوي: (المراد نفي الإيمان الكامل وذلك لأنه يدل على قسوة قلبه وكثرة شحه وسقوط مروءته وعظيم لؤمه وخبث طويته) (٢).

٩ - الكسل والفتور:

وقد استعاذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الكسل كما في حديث زيد بن أرقم قال كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل)) (٣).

قال المناوي: (الكسل .. والفتور عن القيام بالطاعات الفرضية والنفلية الذي من ثمراته قسوة القلب) (٤).

١٠ - التعصب للرأي وكثرة الجدال:

قال تعالى: أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون [الجاثية: ٢٣].

قال الشافعي: (المراء في العلم يقسي القلوب ويورث الضغائن) (٥).

قال أبو سعيد الخادمي: (أسبابها أي الفظاظة .. كثرة المجادلة والتعصب، ولزوم الظواهر، والعمل بالعرف دون الشرع) (٦).

---

(١) القصص القرآني - ياسر برهامي، ياسر برهامي ١٢/٩

١١ – الابتداع في الدين:

قال تعالى: وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين [الصف: ٥].

وقال تعالى: فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير [هود: ١١٢].

قال السعدي: (أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم، ومن معه، من المؤمنين، أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمنة ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة) (٧).

١٢ – ظلم الضعفاء وأكل المال الحرام وعدم التورع عن الشبهات.

١٣ – كبر النفس واحتقار الآخرين:

عن حارثة بن وهب أنه سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: ((وأهل النار: كل جواظ عتل مستكبر) (٨).

(١) رواه البزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٨/ ١٧٠)، والطبراني (١/ ٢٥٩) (٧٥١). من حديث أنس رضي الله عنه. قال الهيثمي: رواه الطبراني والبزار، وإسناد البزار حسن، وقال السيوطي في ((الجامع الصغير)) (٧٧٧١): حسن، وصححه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٥٥٠٥).

(٢) ((فيض القدير)) للمناوي (٥/ ٥٢٠).

(٣) رواه مسلم (٢٧٢٢)، والبخاري (٢٨٢٣) من طريق أنس بن مالك.

(٤) ((فيض القدير)) للمناوي (١/ ٢٧٨).

(٥) ((الاعتقاد)) للبيهقي (١/ ٢٣٩).

(٦) ((بريقة محمودية في شرح طريقة محمدية وشريعة نبوية)) لأبي سعيد الخادمي الحنفي (٤/ ١٥٢).

(٧) ((تيسير الكريم الرحمن)) للسعدي (١/ ٣٩٠).

(٨) رواه البخاري (٦٦٥٧)، ومسلم (٢٨٥٣).." [١]

"بالمهتدين (٥٦)﴾ [القصص: ٥٦].

الثانية: هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهي التي أكرم الله بها الرسل وأتباعهم كما قال سبحانه لرسوله – صلى الله عليه وسلم –: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم (٥٢) صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور (٥٣)﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

(١) موسوعة الأخلاق الإسلامية – الدرر السنية، مجموعة من المؤلفين ٢/٤٦٠

فمن هداه الله عز وجل للإيمان فبفضله وله الحمد كما قال سبحانه عن أهل الجنة: ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون (٤٣)﴾ [الأعراف: ٤٣].

ومن أضله الله فبعدا له، فقد أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، ومكنه من أسباب الهداية بما أكرمه به من السمع والبصر والعقل، ولكنه لا يصلح للهداية، فلم يقبل الهدى، فكذب وتولى كما قال سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار (٣)﴾ [الزمر: ٣].

وزاغ وانصرف كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].

واختار الضلال كما قال سبحانه: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧)﴾ [فصلت: ١٧].

والله حكيم عليم يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو بعباده خبير بمن يصلح للكرامة، ومن يصلح للإهانة، وهو على كل شيء قدير: ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون (٩٣)﴾ [النحل: ٩٣].

وهو سبحانه الهادي الذي جعل كتبه المنزلة هداية للناس كما قال سبحانه عن القرآن الكريم: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء: ٩].

وهو سبحانه الذي أرسل رسله لهداية الناس إلى الحق كما قال سبحانه: ﴿هو." (١)

"السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون (١٢٣)﴾ ... [هود: ١٢٣].

والمستعان هو الله عز وجل.

فأهل الطاعة يستعينون به على فعل الطاعات، وترك المعاصي، كما قال سبحانه: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين (٥)﴾ [الفاتحة: ٥].

والاستعانة: طلب العون من الله على الطاعة.

أما أهل المعاصي، فحين ترك العاصي سؤال العون من الله على طاعته، أعانه على معصيته، فتوجه إليها بعونه عليها، وحرمه سبحانه العون على الطاعة، فلم يتوجه إليها كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].

فالعباد كلهم مصرفون في طاعاتهم ومعاصيهم بقدرة الله وعونه .. إما بجنود الملائكة الهادية .. أو بجنود الشياطين المضلة .. فلا طاعة ولا معصية إلا بعون الله، وهو فعله على الإطلاق في الخير والشر، فلا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله وعونه.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٩٣/١

لا إله، إلا هو وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شئ قدير.

اللهم أعنا على ذكرك، وعلى شكرك، وعلى حسن عبادتك.." (١)

"الله أعرض الله عنه.

فيختار العبد لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى، والغي على الرشاد كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].

فهؤلاء لما انصرفوا عن الحق باختيارهم عاقبهم الله فلم يوفقهم للهدى، لأنهم لا يليق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، لأنهم أغلقوا على أنفسهم أبواب الهدى.

وأما المكر الذي وصف الله به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة.

وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فهي منهم أقبح شيء، ومن الله أحسن شيء، لأنها عدل ومجازاة.

أما كون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فإن هذا الرجل عمل بعمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه، فإن فيه آفة كامنة خذل بها في آخر عمره، فلو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس، فإن الله قال لملائكته: ﴿إني أعلم ما لا تعلمون (٣٠)﴾ [البقرة: ٣٠].

فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا تعلمه الملائكة.

فلما أمرهم الله بالسجود، ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد لأمر الله فبادروا إلى الامتثال والطاعة.

وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والكفر والحسد، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.." (٢)

"وسبقته تجارب في حياة الرسل والأمم السابقة، تمهد كلها لهذه الصورة الكاملة الأخيرة من الدين الواحد، الذي أراد الله أن يكون خاتمة الرسالات، وأن يظهره على الدين كله في الأرض.

فقوم موسى الذين أرسله الله إليهم آذوه، وانحرفوا عن رسالته، فضلوا، ولم يعودوا أمناء على دين الله في الأرض: ﴿وإذ قال موسى لقومه ياقوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله **إليكم فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].

وإذن فقد انتهت قوامة قوم موسى على دين الله، فلم يعودوا أمناء عليه، فقد زاغوا بعدما بذلت لهم كل أسباب الاستقامة، فزادهم الله زيغا، وأزاغ قلوبهم، فلم تعد صالحة للهدى .. وكيف يهدون وهم غير مهتدين؟.

وضلوا فكتب الله عليهم الضلال أبدا، والله لا يهدي القوم الفاسقين.

وبهذا انتهت قوامتهم على دين الله، فلم يعودوا يصلحون لحمل أمانة الدين والدعوة إليه، وهم على هذا الزيغ والضلال.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١/٣٠٥

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢/١١٣٣

ثم تتابعت الرسل من بني إسرائيل، ثم أرسل الله عيسى بن مريم – صلى الله عليه وسلم – ليقول لبني إسرائيل إنه جاء امتدادا لرسالة موسى – صلى الله عليه وسلم – مصدقا لما بين يديه من التوراة، وممهدا للرسالة الأخيرة، ومبشرا برسولها كما قال سبحانه: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين (٦)﴾ [الصف: ٦].

فلم يقل لهم نبي الله عيسى أنه الله، ولا أنه ابن الله، ولا أنه ثالث ثلاثة، بل قال إنه رسول الله، إنه عبد الله، جاء بدين الله الذي هو منهج واحد في أصله، متعدد في صوره وفق استعداد البشرية وحاجاتها وطاقاتها.

فلما اختلف بنو إسرائيل في عيسى – صلى الله عليه وسلم – وآذوه، وانحرفوا عن عقيدة التوحيد، وضلوا عن شريعتهم، وأضلوا غيرهم، لم يعودوا صالحين لحمل الرسالة الإلهية للناس.." (١)

"الجهل والظلم عن القرآن، فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول.

كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].

فهؤلاء ليس عندهم قابلية للإيمان، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه الإيمان إلى قلوبهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم، وهو الكبر والتولي والإعراض كما قال سبحانه: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (٢٣)﴾ [الأنفال: ٢٣].

فالأول مانع عن الفهم، والثاني مانع عن الانقياد والإذعان.

وإبليس لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره، وأصر على ذلك، عاقبه الله بإن جعله داعيا إلى كل معصية، فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق.

فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

فإن قيل: فالله هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم، فمكنهم، وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ودعاهم على ألسنة رسله، وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر، والنافع والضار، وأسباب الشقاء، وأسباب السعادة، وجعل لهم أسماعا وأبصارا.

فآثروا الهوى على التقوى .. واستحبوا العمى على الهدى .. واشتغلوا بالشهوات عن الأوامر.

وقالوا: الشرك أحب إلينا من توحيدك .. ومعصيتك آثر عندنا من طاعتك .. وعبادة سواك أنفع لنا من عبادتك .. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته عليهم.." (٢)

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ١٢٥٢/٢

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٣٧٧/٣

"الصديقين.
وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكف النفس عن المعاصي والاسترسال في الشهوات.
ووصلوا في الإيمان إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى اليقين؛ لأنهم تعلموا علما صحيحا، وأخذوا المسائل من أدلتها المفيدة لليقين.
والهدى فضل من الله على عبده، فمن اهتدى بهدي الله بأن علم الحق وتفهمه وآثره على غيره فلنفسه، والله تعالى غني عن عباده، ومن ضل عن الهدى فإن أعرض عن العلم بالحق أو عن العمل به، فإنما يضل على نفسه، ولا يضر الله شيئا كما قال سبحانه: ﴿قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل (١٠٨)﴾ [يونس: ١٠٨].
والله عز وجل هو الهادي، وهداه في كتابه المنزل، الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه؛ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه، والتوفيق منه للإقبال على كتابه، فإذا لم يحصل هذا فلا سبيل إلى الهدى كما قال سبحانه: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد (٢٣)﴾ [الزمر: ٢٣].
والله سبحانه كما يمد الظالمين في ضلالهم، ويزيدهم حبا للضلالة عقوبة لهم على اختيارهم على الهدى كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].
كذلك يزيد الله المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح، فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه، ويسره له، ووهب له أمورا أخر لا تدخل." [١]
"وللضلالة أسباب وعلامات منها:
عدم الإيمان كما قال سبحانه: ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم (١٠٤)﴾ [النحل: ١٠٤].
الشرك كما قال سبحانه: ﴿ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (١١٦)﴾ [النساء: ١١٦].
الكفر كما قال سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٦٧)﴾ [المائدة: ٦٧].
الظلم كما قال سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين (١٤٤)﴾ [الأنعام: ١٤٤].
الفسق .. كما قال سبحانه: ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين (٨٠)﴾ [التوبة: ٨٠].
عدم إرادة الله هدايته كما قال سبحانه: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين (٣٧)﴾ [النحل: ٣٧].
الكذب .. كما قال سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار (٣)﴾ [الزمر: ٣].
الإسراف كما قال سبحانه: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب (٢٨)﴾ [غافر: ٢٨].

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٣/٢٣٩٤

الزيغ: كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].
كثرة المعاصي كما قال سبحانه: ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (٣٦)﴾ [الأحزاب: ٣٦].
عدم الرغبة في الهدى كما قال سبحانه: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧)﴾ [فصلت: ١٧].
وحياة القلب ونوره مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه، فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدر، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر كما قال سبحانه: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (١٢٥)﴾ [الأنعام: ١٢٥].." (١)
"ومتحمل أمانة أهله، ومتحمل أمانة الأمة بالدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
وقد انقسم الناس في تحمل الأمانة إلى ثلاثة أصناف:
الأول: الذين تحملوا الأمانة ظاهرا وباطنا، وهم المؤمنون والمؤمنات، وهم درجات.
الثاني: الذين تحملوا الأمانة ظاهرا، وضيعوها باطنا، وهم المنافقون والمنافقات.
الثالث: الذين فرطوا في الأمانة، فلم يتحملوها لا ظاهرا ولا باطنا، وهم المشركون والمشركات.
فهؤلاء والمنافقون والمنافقات ضيعوا الأمانة؛ لأنهم كفروا بالله وأشركوا به.
وقد وعد الله الصنف الأول الذين تحملوا الأمانة بالتوبة والمغفرة، وتوعد الصنفين بعدهم، الذين ضيعوا الأمانة بالعذاب الأليم فقال سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا (٧٢) ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما (٧٣)﴾ [الأحزاب: ٧٢،٧٣].
ومن رحمة الله بالخلق وعنايته بهم أن بعث إليهم الرسل تبين الحق وتميزه من الباطل، بحيث يصير مشهودا للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه، والتي لا يعذب أحدا ولا يضله إلا بعد وصوله إليها كما قال سبحانه: ﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم (١١٥)﴾ [التوبة: ١١٥].
فهذا الإضلال عقوبة من الله لهم حين بين لهم الحق فلم يقبلوه، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله أحدا قط إلا بعد هذا البيان، كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].." (٢)
"فيظهر أثر عدله وفضله لعباده، فيحمد على ذلك ويشكر.
ومنها: أن يعلم خلقه أنه لا إله لغيره، ولا رب سواه.
ومنها: ظهور آثار أسمائه وصفاته على تنوعها وكثرتها جلية في مخلوقاته.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٣٩٦/٣

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٦٩٥/٣

ومنها: أنه سبحانه يحب أن يجود وينعم، ويعفو ويغفر، ويسامح ويصفح، ولا بد من لوازم ذلك عقلا وشرعا.
ومنها: أنه يحب أن يثنى عليه، ويمدح ويمجد، ويسبح ويعظم، وغير ذلك من الحكم التي تضمنها الخلق.
وما جاء به الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو أكمل ما جاءت به شريعة، وأمر أن يقبل من الناس ظواهرهم، ولم يؤمر أن ينقب عن قلوبهم.
بل تجري عليهم أحكام الله في الدنيا إذا دخلوا في دينه، وتجري عليهم أحكامه في الآخرة على قلوبهم ونياتهم.
فأحكام الدنيا تجري على الإسلام .. وأحكام الآخرة على الإيمان.
ولهذا قبل الله عز وجل إسلام الأعراب، ونفى عنهم أن يكونوا مؤمنين كما قال سبحانه: ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم (١٤) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون (١٥)﴾ [الحجرات: ١٤،١٥].
وقبل إسلام المنافقين ظاهرا، وأخبرهم أنه لا ينفعهم يوم القيامة شيئا، وأنهم في الدرك الأسفل من النار كما قال سبحانه: ﴿إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا (١٤٥)﴾ [النساء: ١٤٥].
فأحكام الرب عز وجل في الدنيا جارية على ما يظهر للعباد، ويوم القيامة يجري الحساب على ما في البواطن والقلوب.
وكل من عرض عليه الحق فرده ولم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه كما قال سبحانه: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين (٥)﴾ [الصف: ٥].." (١)
"وأما درجات الانحدار والارتداد عنها:
فأولاها: الكسل عن تحري الخيرات، ويورثه ذلك الزيغ المعني بقوله تعالى: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) .
وثانيها: الغباوة: وهي ترك النظر، وبغض العمل، فيورثه ذلك رينا على قلبه، وهو المعني بقوله تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون (١٤) .
وثالثها: الوقاحة وهي أن يرتكب الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه،
فيورثه ذلك قساوة القلب، كما قال تعالى: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) .
ورابعها: الانهماك في الباطل وهو أن يستحسنه فيحبه، ويحسنه ويحببه إلى غيره فيورثه ذلك ختما على قلبه، وإقفالا عليه.
كما قال تعالى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)
وقال: (أم على قلوب أقفالها (٢٤) .
فالكسل سبب الغباوة، والغباوة سبب الوقاحة، والوقاحة سبب الانهماك في الباطل، كما أن الزيغ يوجب الرين، والرين يوجب القساوة، والقساوة توجب الختم والإقفال.
فحق الإنسان أن يراعي نفسه في الابتداء، ولا يترخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه ذلك إلى ارتكاب الكبائر.

---

(١) موسوعة فقه القلوب، التويجري، محمد بن إبراهيم ٢٧٠١/٣

كما قيل:

إن الأمور دقيقها ... مما يهيج به العظيم

وقد قال الله تعالى: (فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين (٨٣)

فدل أن قعودهم أول مرة أدى بهم إلى أن صار محكوما عليهم أنه لا يتأتى منهم الخروج معه - صلى الله عليه وسلم - بوجه.." (١)

"إنكاره الحق بإنكارك الباطل، ودفاعه الصدق بدفاعك الكذب معتبرا في ذلك قول الله تعالى: (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون (٥٠) فانظر كيف كان عاقبة مكرهم)

وقوله تعالى: (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين (٥٤)

وقوله حكاية عن المنافقين: (قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزئ بهم)

وقوله: (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)

وتتبلغ معه بذلك، وإياك وأن تعرج معه إلى بث الحكمة وأن تذكر له شيئا من الحقائق ما لم تتحقق أن له قلبا طاهرا لا تعافه الحكمة فقد قال - صلى الله عليه وسلم -: " لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب "

وإن لكل تربة غرسا ولكل بناء أسا وما كل رأس تستحق التيجان، ولا كل طبيعة تستحق إفادة البيان.

وإن كان لا بد فاقتصر معه على إقناع يبلغه فهمه، فقد قيل: كما أن لب الثمار معد للأنام فالتبن مباح للأنعام، كذلك لب الحكمة معد لذوي الألباب وقشورها مبذولة للأنعام، وكما أنه من المحال أن يشم الأخشم ريحانا فمحال أن يفيد الحمار بيانا، واعلم أن سبيل إنكار الحجة والسعي في إفسادها أسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها، ولهذا يتحرى الجدل الخصيم أبدا بالدفاع لا المعارضة بمثلها، وذلك أن الإفساد هدم وهو سهل والإتيان بمثله بناء وهو صعب، فإن الإنسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات وإحراق النبات، ولا يقدر على إيجاد شيء منها يمكنه إفساد حجة قوية بضرب من الشبه المزخرفة ولا يمكنه الإتيان بمثلها، ولأجل ما قلنا دعا الله - عز وجل - الناس في الحجج إلى الإتيان بمثلها لا إلى السعي في إفسادها، فقال تعالى: (فأتوا بسورة من مثله)

وقال: (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات)

فرضي أن يأتوا بما فيه مشابهة له وإن كان ذلك مفترى، وقال إبراهيم - صلى الله عليه وسلم -: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) . والله الموفق.

الوجوه التي من أجلها تقع الشبه ويتولد الخلاف

السبب الموقع للشبه والمولد للخلاف على القول المجمل سببان: المعنى واللفظ.

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة الراغب الأصفهاني ص/١٢٦

فأما ما كان من جهة المعنى: فإما أن يكون من جهة الناظر أو من جهة المنظور فيه وهو الحجة، أو من جهة الآلة التي تستعمل في النظر فإن الناظر في الشيء المعتبر له جار." (١)

"ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سب عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا تبقى له حسنة فتقول الملائكة يا ربنا هذا قد فنيت حسناته وبقي طالبون كثير فيقول الله تعالى ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وصكوا له صكا إلى النار وكما يهلك هو بسيئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكي عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لا أفعل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره ذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه هين فإن ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تثوب إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها يعبر عن ذلك السبب الخفي المفضي إلى النجاة بالعفو والرضا عما يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام ووراء ذلك سر المشيئة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فلذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن المعاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والغضب على المطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضي العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلا ولو لم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى وما ربك بظلام للعبيد ولا قوله تعالى إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت **رهينه فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم ولما غيروا ما بانفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا اوضح من المشاهدة بالبصر إذ للبصر يمكن الغلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها وإنما الشأن في انفتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى ما كذب الفؤاد ما رأى

الرتبة الثالثة رتبة الناجين وأعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والمعتوهين والذين لم تبلغهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فما هم من أهل

---

(١) الذريعة الى مكارم الشريعة الراغب الأصفهاني ص/١٨٨

الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرع عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار ومن

---

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف أخرجه البزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعتهم المعصيبة أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية." (١)

"وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢] . وقال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾ [الحديد: ١٦] . ومن أسباب حياة القلوب الاستماع إلى المواعظ والتذكير والمحافظة على صلاة الجمعة والجماعة.

ومن أسباب حياة القلوب النظر والتفكر في مخلوقات الله وما فيها من الحكم. قال تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ [آل عمران: ١٩٠] .

ومن أسباب حياة القلوب النظر في عواقب الظلمة والمفسدين وما أحل الله بهم من العقوبات قال تعالى: ﴿فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج: ٤٦] .

أما أسباب موت القلوب فمنها إعراضها عن قبول الحق بعد معرفتها له قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [الصف: ٥] . وقال تعالى: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾ [التوبة: ١٢٧] . وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ [الأنفال: ٢٤] . والقلب الميت يكون صاحبه أحط من البهائم ويكون مآله إلى جهنم قال تعالى: ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩] .." (٢)

"(٤٧) ومن ذلك أن الله جل وعلا أخبر في آيات كثيرة أنه لا يهدي القوم الكافرين والفاسقين والظالمين وفي آيات أخرى أنه يهديهم ويوفقهم فتعين حمل المنفيات على من حقت عليه كلمة الله. قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] . وحمل المثبتات على من لم تحق عليهم الكلمة وإنما حقت عليهم كلمة الله بالعذاب والطرد والإبعاد على من ارتكسوا في حمأة التقليد وغرقوا في بحر الغفلة وأبوا أن يستجيبوا لداعي آيات الله الكونية والعلمية. قال الله جل وعلا: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف: ٥] .

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٣٠/٤

(٢) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٣٠٠/٢

﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: ١٧] . وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه.

(٤٨) ومن ذلك الإخبار في بعض الآيات أنه العلي الأعلى. قال تعالى: ﴿وهو العلي العظيم﴾ [البقرة: ٢٥٥] . وقال تعالى: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه: ٥] . وقال: ﴿رفيع الدرجات﴾ [غافر: ١٥] . وقال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ [الأنعام:: ١٨] .

وفي آيات أخرى أخبر أنه مع العبد.

قال تعالى: ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾ [الحديد: ٤] وقال تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨] . وقال: ﴿والله مع الصابرين﴾ [البقرة: ٢٤٩] . فعلوه سبحانه أمر ثابت له وهو من لوازم ذاته ودنوه ومعيته لعباده لأنه أقرب إلى كل أحد من حبل الوريد فهو سبحانه على عرشه علي على خلقه ومع ذلك فهو معهم في كل أحوالهم ولا منافاة بين الأمرين لأن الله جل وعلا: ليس كمثله شيء في جميع نعوته وما يتوهم." (١)

"عقال. وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود. ومن ثم يجيء الهتاف قويا للانطلاق والتملص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود! ، الفرار إلى الله وحده منزها عن كل شريك. وتذكير الناس بانقطاع الحجة وسقوط العذر: " إنى لكم منه نذير مبين " .. وتكرار هذا التنبيه فى آيتين متجاورتين ، زيادة فى التنبيه والتحذير! ".

إخوتاه ، ففروا إلى الله .. اقتربوا من طريق الله .. تعالوا خطوة واحدة إلى الله .. ضعوا أرجلكم على أول الطريق .. أعينونا على أنفسكم بالوقوف على رأس الطريق والله يأخذ بأيديكم.

أروا الله من أنفسكم خيرا ، فلقد كتب الله – جل جلاله – سنة من سننه فى خلقه: أن من تقرب إليه تقرب – سبحانه – إليه ومن ابتعد عنه ابتعد – سبحانه – عنه .. " نسوا الله فنسيهم " (التوبة: ٦٧)

" **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم " (الصف: ٥) .. فمن تاب تاب الله عليه وأحبه ، ومن بذل جهده واستفرغ وسعه فى طاعة الله ، أعانه الله وسدده .. هذه قاعدة .. سنة مسلمة .. فلا تنم عن الطاعات ثم تقول: لو كان الله يحبنى لهدانى .. لا .. بل تعال وهو يهديك.

وقد سمى ابن القيم – رحمه الله – هذا الأصل لقاحا .. مثل حبوب اللقاح .. فقال – عليه رحمة الله – " فى الفوائد ":." (٢)

"يزينون لهم ما بين ايديهم وما خلفهم ويغمسونهم بأوحال الضلال غمسا حتى يستحيلوا قطعة من الضلال كريهة الرائحة قبيحة المنظر غير منتظمة الشكل حتى يحق عليهم القول بالخسارة؟ حتى هداني الله الى آية اخرى تفسرها تفسرا مفصلا ...

انهم الصادون عن ذكر الله اللاوون رؤوسهم عن الحق بقاع الضلال لا يريدون مشاركة احد بهذا العناق وتاركين وراءهم يوما

---

(١) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار عبد العزيز السلمان ٣٧٨/٢

(٢) أصول الوصول إلى الله تعالى محمد حسين يعقوب ص/٢٣٩

ثقيلا – هم الذين قال الله تعالى فيهم.

" ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون" هذه هي سنة الله في خلقه العدل المطلق" وما ربك بظلام للعبيد"

فالحق واضح وضوح الشمس والعقل قادر على التمييز بين الطريقين ويجزيه الله بما اختار بمحض ارادته فان اختار الحق زاده هدى الى هداه" والذين اهتدوا زادهم هدى وأتاهم تقواهم" ولئن اختار الباطل أضله الله بأن يقيض عليه ذلك الشيطان" **فلما زاغوا أزاغ** الله قلوبهم"

هذا القرين يقوم بصد ذلك الانسان وابعاده عن طريق الحق حتى يوهمه بانه مهتدي وانه على حق كما اوهم فرعون من قبل وابو جهل وكما يوهمون فراعنة هذا العصر بانهم مهتدون وان اصحاب الحق هم الذين يعرقلون مسيرة التقدم الحضاري.." (١)

"ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء فيهتدي بهدايته فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته فإن من ثواب الهدى: الهدى بعده كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها قال الله تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولا فاهتدوا فزادهم هدى ثانيا وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ [الصف:٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه (الأول والآخر) فهو المعد وهو الممد ومنه السبب والمسبب وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه كما قال أعرف الخلق به: "وأعوذ بك منك" والعبد تواب والله تواب فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق وقبول وإمداد.

(مبدأ التوبة ومنتهاها:

[*] (قال ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين:

و (التوبة) لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها: الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم الذي نصبه لعباده موصلا إلى رضوانه وأمرهم بسلوكه بقوله: تعالى ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل﴾ [الأنعام: ١٥٣]

وبقوله: وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ [الشورى /٥٢،٥٣]

وبقوله: ﴿وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد وسلوك صراطه الذي نصبه موصلا إلى جنته فمن رجع إلى الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا﴾ [الفرقان: ٧١]

قال البغوي وغيره: "يتوب إلى الله متابا: يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل على غيره" فالتوبة الأولى وهي قوله: "ومن

---

(١) البيان في مداخل الشيطان عبد الحميد البلالي ص/١٣٠

تاب" رجوع عن الشرك والثانية: رجوع إلى الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنى الأوامر والمعنى: ومن عزم على التوبة وأرادها فليجعل توبته إلى الله وحده ولوجهه خالصا لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنى وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ورجع إليه والمعنى: فليعلم توبته إلى من؟ ورجوعه إلى من؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره.." (١)

---

(١) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب محمد نصر الدين محمد عويضة ٢٣٥/٤